كتاب

مجموعة التوحيد

وتشتمل على ست وعشرين رسالة

تأليف
أئمة الهدى شيخا الإسلام
أحمد بن تيمية الحراني و محمد بن عبد الوهاب النجدي
ومن حذا حذوهما من علماء السلف رحمهم الله

دار اليقين للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب

مجموعة التوحيد

وتشتمل على ست وعشرين رسالة

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

دار اليقين للنشر والتوزيع

المنصورة : ش عبد السلام عارف

ت : ٣٥٥٢٤١

وَمَا مِن إله إلا إلهَ واحـــد

الحمد لله الحميد الموفّق لطبع هذا الكتاب المفيد

معرفة حق الله على العبيـد

المسمـى

بمجمُوعَـة التوحيـد

التى

ألّفها أئمة الهدى وخيارهم فى التقى شيخ الإسلام ابن تيمية الحرانى والشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى ومن تبعهما بالإحسان والإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

أما بعد: اعلم أرشدك الله تعالى أن الله خلق الخلق ليعبدوه ولا يشركوا به شيئا . قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ والعبادة هى التوحيد لأن الخصومة بين الأنبياء والأمم فيه كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . وأما التوحيد فهو ثلاثة أنواع : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات. أما توحيد الربوبية: فهو الذى أقر به الكفار على زمن رسول الله ﷺ ولم يُدْخلهم فى الإسلام وقاتلهم رسول الله ﷺ واستباح دماءهم وأموالهم وهو توحيده بفعله تعالى والدليل قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحىّ من الميت ويخرج الميت من الحىّ ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنَّى تُسْحَرون ﴾. والآيات على هذا كثيرة جدا أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر .

النوع الثانى وهو توحيد الألوهية: فهو الذى وقع فيه النزاع فى قديم الدهر وحديثه وهو توحيد الله بأفعال العبادة كالدعاء والنذر والنحر والرجاء والخوف والتوكل والرغبة والرهبة والإنابة .

ودليل الدعاء قوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعونى استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ . وكل نوع من هذه الأنواع عليه دليل من القرآن .

وأصل العبادة تجريد الإخلاص لله تعالى وحده وتجريد المتابعة للرسول ﷺ . قال تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا منَ قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ له دعوة الحق - إلى قوله - وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ . وقال تعالى :﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ والآيات معلومات ، وقال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

وأما النوع الثالث : فهو توحيد الذات والأسماء والصفات . قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيُجْزَون ما كانوا يعملون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ .

ثم اعلم أن ضد التوحيد الشرك وهو ثلاثة أنواع ، شرك أكبر وشرك أصغر وشرك خفى ، والدليل على الشرك الأكبر قوله تعالى : ﴿ إن الله لا

يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالا بعيدا ﴾ . ﴿ وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ وهو أربعة أنواع :

النوع الأول : شرك الدعوة ، والدليل قوله تعالى : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ .

النوع الثانى : شرك النية والإرادة والقصد ، والدليل قوله تعالى : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ .

النوع الثالث : شرك الطاعة ، والدليل قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ وتفسيرها الذى لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد فى المعصية لادعائهم إياهم كما فسرها النبى ﷺ لعدى بن حاتم لما سأله فقال : لسنا نعبدهم فذكر له أن عبادتهم طاعتهم فى المعصية .

النوع الرابع : شرك المحبة ، والدليل قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ .

والنوع الثانى : شرك أصغر وهو الرياء ، والدليل قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ .

والنوع الثالث : شرك خفى ، والدليل عليه قوله ﷺ : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء على صفاة سوداء فى ظلمة الليل » . وكفارته قوله ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئا وأنا أعلم وأستغفرك من الذنب الذى لا أعلم » .

فالكفر كفران ، كفر يخرج من الملة وهو خمسة أنواع :

النوع الأول : كفر التكذيب ، والدليل قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ .

النوع الثانى : كفر الإباء والاستكبار مع التصديق . والدليل قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ .

النوع الثالث : كفر الشك وهو كفر الظن . والدليل قوله تعالى : ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رُدِدتُ إلى ربّى لأجدن خيراً منها منقلبا . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من ترابٍ ثم من نطفة ثم سواك رجلا . لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربّى أحداً ﴾ .

النوع الرابع : كفر الإعراض . والدليل قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا عما أُنذروا معرضون ﴾ .

النوع الخامس : كفر النفاق . والدليل قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ .

وكفر أصغر لا يخرج من الملة وهو كفر النعمة . والدليل قوله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ .

وأما النفاق فنوعان : اعتقادى وعملى ، فأما الاعتقادى فهو ستة أنواع : تكذيب الرسول أو تكذيب بعض ما جاء به الرسول أو بُغْض الرسول أو بغض بعض ما جاء به الرسول أو المسرة بانخفاض دين الرسول أو الكراهية بانتصار دين الرسول ، فهذه الأنواع الستة صاحبها من أهل الدرك الأسفل من النار .

أما العملى فهو خمسة أنواع . والدليل قوله ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حَدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر »(١) . نعوذ بالله من النفاق والشقاق وسوء الأدب والله أعلم .

تمت

ويليها ثلاث مسائل للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى .

---

(١) لعله وقع تغيير فى العبارة من بعض نُقَّال الكتاب ولو قلنا بعد إتمام حديث: « آية المنافق ثلاث – وفى رواية – وإذا خاصم فجر وإذا عاهد غدر » لتطابقت العبارة مع عدد النفاق العملى الذى ذكره الشيخ رحمه الله فليتأمل .

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم رحمك الله تعالى أنه واجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلم ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : أن الله خلقنا ولم يخلقنا عبثا ولم يتركنا هَمَلاً بل أرسل إلينا رسولاً ومعه كتاب من أطاعه فهو فى الجنة ومن عصاه فهو فى النار ، والدليل قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾ .

المسألة الثانية : أن أعظم ما جاء به هذا الرسول أن لا يشرك مع الله فى عبادته أحداً. والدليل قوله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ .

المسألة الثالثة : أن من وَحَّد الله وعبد الله لا يجوز له موالاة من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، والدليل قوله تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألاَ إن حزب الله هم المفلحون ﴾ .

تمـــت

ويليها رسالة فى معنى الطاغوت للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم رحمك الله تعالى أن أول ما فرض الله على ابن آدم الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، والدليل قوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾. فأما صفة الكفر بالطاغوت: أن تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها وتبغضها وتكفّر أهلها وتعاديهم .

وأما معنى الإيمان بالله: أن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون سواه ، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله ، وتنفيها عن كل معبود سواه . وتحب أهل الإخلاص وتواليهم ، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم ، وهذه ملة إبراهيم التى سفه نفسه من رغب عنها . وهذه هى الأسوة التى أخبر الله بها فى قوله تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ .

والطاغوت عام فى كل ما عُبد من دون الله ورضى بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع فى غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت . والطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة :

الأول : الشيطان الداعى إلى عبادة غير الله . والدليل قوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

الثانى : الحاكم الجائر المغيّر لأحكام الله . والدليل قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزِل إليك وما أُنزِل من قبلك يريدون أن

يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمِروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ .

الثالث : الذى يحكم بغير ما أنزل الله . والدليل قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .

الرابع : الذى يَدَّعى علم الغيب من دون الله . والدليل قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ .

الخامس : الذى يُعبد من دون الله وهو راضٍ بالعبادة . والدليل قوله تعالى : ﴿ ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين ﴾ .

واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمناً بالله إلا بالكفر بالطاغوت . والدليل قوله تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ . الرشد دين محمد ﷺ والغَىُّ دين أبى جهل والعروة الوثقى شهادة أن لا إله إلا الله وهى متضمنة للنفى والاثبات تنفى جميع أنواع العبادة عن غير الله وتثبت جميع أنواع العبادة كلها لله وحده لا شريك له .

تمـــت

ويليها رسالة فى الأصول الثلاثة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الواجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلم ثلاثة أصول وهى : معرفة ربه ودينه ونبيه .

الأصل الأول : إذا قيل لك من ربك ؟ فقل : ربى الله الذى ربّانى بنعمته وخلقنى من عدم إلى وجود . والدليل قوله تعالى : ﴿ إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ .

وإذا قيل لك : بأى شىء عرفت ربك ؟ فقل : عرفته بآياته ومخلوقاته ، فأما الدليل على آياته قوله تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

ودليل مخلوقاته قوله تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

وإذا قيل لك : لأى شىءٍ خلقك الله ؟ فقل : خلقنى لعبادته وطاعته واتباع أمره واجتناب نهيه ، ودليل العبادة قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريدُ منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

ودليل الطاعة قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا

الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردّوه إلى الله والرسول ﴾ يعنى كتاب الله وسنة نبيه . وإذا قيل لك : أى شيء أمرك الله به ونهاك عنه ؟ فقل : أمرنى بالتوحيد ونهانى عن الشرك ، ودليل الأمر قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ .

ودليل النهى عن الشرك قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ . ﴿ ومن يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ .

الأصل الثانى : إذا قيل لك : ما دينك ؟ فقل : دينى الإسلام وهو الاستسلام والإذعان والانقياد إلى الله تعالى ، والدليل قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يُقْبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، وهو مبنى على خمسة أركان : أولها شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحمَّدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . فأما دليل الشهادة ، قوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ ودليل أن محمداً رسول الله ، قوله تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ ، ودليل الصلاة قوله تعالى : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا ﴾ . ودليل الزكاة قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكنٌ لهم ﴾ .

ودليل الصيام قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ . وإذا قيل لك[1] الصيام شهر فقل نعم ، والدليل قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ (الآية) .

وإذا قيل لك الصيام فى الليل أو فى النهار ؟ فقل : فى النهار . والدليل قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ .

ودليل الحج قوله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ . وإذا قيل لك : ما الإيمان ؟ فقل : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى ، والدليل قوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ .

ودليل القدر قوله تعالى : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ .

وإذا قيل لك : ما الإحسان ؟ فقل : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، والدليل قوله تعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ . وإذا قيل لك : منكر البعث كافر ؟ فقل : نعم ، والدليل

---

(١) يستحسن ذكر أداة الاستفهام « هل » قبل (الصيام) .

قوله تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثنَّ ثم لتنبؤنَّ بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ .

الأصل الثالث : إذا قيل لك : من نبيك ؟ فقل : محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم وهاشم من قريش وقريش من كنانة وكنانة من العرب والعرب من ذرية إسماعيل وإسماعيل من إبراهيم وإبراهيم من نوح ونوح من آدم وآدم من تراب ، والدليل قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

وإذا قيل لك : من أول الرسل ؟ فقل : أولهم نوح وآخرهم وأفضلهم محمد ﷺ ، والدليل قوله تعالى : ﴿ إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ . وإذا قيل لك : بينهم رسل ؟ فقل : نعم ، والدليل قوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ، وإذا قيل لك : أمحمد بشر ؟ فقل : نعم ، والدليل قوله تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ . وإذا قيل لك : أمحمد عبد ؟ فقل : نعم ، والدليل قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ﴾ .

وإذا قيل لك : كم عمره ؟ فقل : ثلاث وستون سنة ، أربعون منها قبل النبوة ، وثلاث وعشرون نبى ورسول. نُبّىء « باقرأ » وأُرْسِل « بالمدثر » وخرج على الناس فقال : « يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » فكذبوه وآذوه وطردوه وقالوا : ساحر كذاب فأنزل الله عليه : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله

إن كنتم صادقين ﴾ . بلده مكة ، وولد فيها وهاجر إلى المدينة ، وبها توفى ودفن جسمه ، وبقى علمه ، نبى لا يُعْبَد ، ورسول لا يُكذَّب ، بل يطاع ويتبع ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

تمـــت

ويليها القواعــد الأربعــة

تأليف شيخ الإسلام ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد فهذه أربع قواعد من قواعد الدين يميز بهن المسلم دينه من دين المشركين .

القاعدة الأولى : أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا مقرين لله بتوحيد الربوبية ، يشهدون أن الله هو الخالق الرازق المحيى المميت المدبر لجميع الأمور ولم يدخلهم ذلك فى الإسلام ، والدليل قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ .

القاعدة الثانية : أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ ما أرادوا ممن قصدوا إلا قربة وشفاعة ، ودليل القربة ، قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفّار ﴾ .

ودليل الشفاعة . قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

القاعدة الثالثة : إن الله بعث النبى ﷺ إلى أهل الأرض وهم على أديان مختلفة وعبادات متفرقة منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد النبيين والصالحين ومنهم من يعبد الأحجار والأشجار ، وقاتلهم رسول الله ﷺ

ولم يفرق بينهم ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ﴾ . ودليل الملائكة قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ، ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك ، أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ .

ودليل النبيين قوله تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته ، فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم ، إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم ، فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . ودليل الصالحين قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ . ودليل الأحجار والأشجار قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ .

القاعدة الرابعة : أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا يخلصون فى الشدة ويشركون فى الرخاء ، والدليل قوله تعالى : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجّاهم إلى البرّ إذا هم يشركون ﴾ . وأهل زماننا هذا ، يشركون فى الشدة وفى الرخاء كذلك والله أعلم .

فإن قيل : فما الجامع لعبادة الله ؟ قلت : طاعته بامتثال أوامره

واجتناب نواهيه ، فإن قيل : فما أنواع العبادة التى لا تصلح إلا لله ؟ قلت : من أنواعها الدعاء والاستعانة والاستغاثة وذبح القربان والنذر والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والمحبة والخشية والرغبة والرهبة والتأله والركوع والسجود والخشوع والتذلل والتعظيم الذى هو من الخصائص الإلهية . ودليل الدعاء قوله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه ، لا يستجيبون لهم بشيء ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالِغِه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ . ودليل الاستعانة ، قوله تعالى : ﴿ إيّاك نعبد وإيّاك نستعين ﴾ .

ودليل الاستغاثة ، قوله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ﴾ . ودليل الذبح ، قوله تعالى : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أُمرتُ ، وأنا أول المسلمين ﴾ . ودليل النذر ، قوله تعالى : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ . ودليل الخوف ، قوله تعالى : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يُخَوِّف أولياءه فلا تخافوهم ، وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾. ودليل الرجاء ، قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ . ودليل التوكل ، قوله تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ . ودليل الإنابة ، قوله تعالى : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾ . ودليل المحبة ، قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً ، يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ . ودليل الخشية قوله تعالى : ﴿ فلا تخشَوا الناس واخشون ﴾ . ودليل الرغبة والرهبة ، قوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين ﴾ . ودليل التألّه ، قوله تعالى : ﴿ وإلٰهكم إله واحد لا إله

إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ . ودليل الركوع والسجود ، قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ . ودليل الخشوع ، قوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أُنزِل إليكم وما أُنزِل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ . فمن صرف شيئا من هذه الأنواع لغير الله فقد أشرك بالله غيره .

فإن قيل : فما أَجَلّ أمرٍ أَمَر الله به ؟ فقل : أَجَلُّ ما أمر الله به ، توحيده بالعبادة ، وقد تقدم بيانه ، وأعظم نَهْى نَهَى الله عنه الشرك به ، وهو أن يدعو مع الله غيره ، أو يقصده بغير ذلك من أنواع العبادة ، فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله ، فقد اتخذه ربّاً وإلهاً ، وأشرك مع الله غيره ، أو يقصده بغير ذلك من أنواع العبادة . وقد تقدم من الآيات ، ما يدل على أن هذا هو الشرك الذى نهى الله عنه ، وأنكر على المشركين . وقد قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله ، فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله ، فقد حَرَّم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ﴾ .

تمـــت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . قال الشيخ رحمه الله تعالى : تضمنت ثلاث آيات ثلاث مسائل :

الآية الأولى : فيها المحبة أن الله منعم والمنعم يُحَبُّ على قدر إنعامه والمحبة تنقسم إلى أربعة أنواع : محبة شركية ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ إلى قوله : ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ . المحبة الثانية : حب الباطل وأهله ، وبُغض الحق وأهله وهذه صفة المنافقين . المحبة الثالثة ، طبيعية ، وهى محبة المال والولد إذا لم تشغل عن طاعة الله ، ولا تعين على محارم الله ، فهى مباحة . والمحبة الرابعة : حب أهل التوحيد ، وبغض أهل الشرك ، وهى أوثق عُرَى الإيمان ، وأعظم ما يَعْبد به العبد ربه .

الآية الثانية : فيها الرجاء . **والآية الثالثة** فيها الخوف ﴿ إياك نعبد ﴾ أى اعبدك يارب بما مضى بهذه الثلاث بمحبتك ورجائك وخوفك . فهذه الثلاث أركان للعبادة ، وصرفها لغير الله شرك ، وفى هذه الثلاث ، الرد على من تعلّق بواحدة منهن كمن تعلّق بالمحبة وحدها أو تعلّق بالرجاء وحده أو تعلَّق بالخوف وحده فمن صرف واحدة منهن لغير الله فقد أشرك وفيها من الفوائد الرد على الثلاث الطوائف التى كل طائفة تتعلق بواحدة منها كمن عبد الله تعالى بالمحبة وحدها وكذلك من عبد الله بالرجاء وحده كالمرجية وكذلك من عبد الله بالخوف وحده كالخوارج ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فيها توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ﴿ اهدنا الصراط

المستقيم ﴾ فيها الرد على المبتدعين . وأما الآيتان الأخيرتان ، ففيهما من الفوائد ذكر أحوال الناس ، قسمهم الله إلى ثلاثة أصناف ، منعم عليهم ، ومغضوب عليهم ، وضالون . فالمغضوب عليهم ، أهل علم ليس معهم عمل ، والضالون ، أهل عبادة ليس معها علم ، وإن كان سبب النزول فى اليهود والنصارى ، فهى لكل من اتصف بذلك ، الثالث : من اتصف بالعلم والعمل ، وهم المنعم عليهم ، وفيها من الفوائد ، التبرّى من الحول والقوة لأنه منعم عليه ، وكذلك فيها معرفة الله على التمام ونفى النقائص عنه تبارك وتعالى ، وفيها معرفة الإنسان ربه ، ومعرفة نفسه ، فإنه إذا كان هنا رب ، فلابد من مربوب. وإذا كان هنا راحم، فلابد من مرحوم. وإذا كان هنا مالك ، فلابد من مملوك ، وإذا كان هنا عبد ، فلابد من معبود . وإذا كان هنا هاد ، فلابد من مهدى ، وإذا كان هنا منعم ، فلابد من منعم عليه . وإذا كان هنا مغضوب عليه ، فلابد من غاضب ، فهذه السورة ، تضمنت الألوهية والربوبية ، ونفى النقائص عن الله عز وجل وتضمنت معرفة العبادة وأركانها والله أعلم .

تمـــت

ويليها شرح ستة مواضع من السيرة

تأليف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمة الله تعالى عليه .

بسم الله الرحمن الرحيـم

قال شيخ الإسلام : الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وعفى عنه بمنِّه وكرمه آمين : تأمّل رحمك الله ستة مواضع من السيرة وافهمها فهماً حسنا لعل الله أن يفهمك دين الأنبياء لتتبعه ودين المشركين لتجتنبه فإن أكثر مَنْ يَدَّعى الدين ويدعى أنه من الموحدين لا يفهم الستة كما ينبغى .

الموضع الأول : قصة نزول الوحى وفيها أن أول ما أرسله الله به ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾ فإذا فهمت أنهم يفعلون أشياء كثيرة ويعرفون أنها من الظلم والعدوان مثل الزنا وعرفت أيضا أنهم يفعلون شيئا من العبادة ويتقربون بها إلى الله مثل الحج والعمرة والصدقة على المساكين وغير ذلك وأجلّها عندهم الشرك فهو أجلّ ما يتقربون به إلى الله عندهم كما ذكر الله عنهم أنهم قالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى ﴾ وقال تعالى : ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

فأول ما أمر به الإنذار عنه قبل الإنذار عن الزنا وغيره وعرفت أن منهم من تعلق على الأصنام ومنهم من تعلق على الملائكة وعلى الأولياء من بنى آدم ويقولون ما نريد منهم إلا شفاعتهم ومع هذا بدأ بالإنذار عنه فى أول آية أرسل بها رسوله فإن أحكمت هذه المسألة فيا بُشْراك خصوصاً إذا عرفت أن ما بعدها أعظم من صلاة الخمس ولم تفرض إلا فى ليلة الإسراء سنة عشر بعد حصار الشِعب وموت أبى طالب وبعد هجرة الحبشة بسنتين فإذا عرفت أن تلك الأمور الكثيرة والعداوة البالغة لكل ذلك عند هذه المسألة قبل فرض الصلاة رجوتَ أن تعرف المسألة .

الموضع الثانى : أنه ﷺ لما قام ينذرهم عن الشرك ويأمرهم بضده وهو التوحيد لم يكرهوا واستحسنوا وحدثوا أنفسهم بالدخول فيه إلى أن صرح بسب دينهم وتجهيل علمائهم فحينئذٍ شَمَّروا له ولأصحابه عن ساق العداوة وقالوا سَفَّه أحلامنا وعاب ديننا وشتم آلهتنا ومعلوم أنه ﷺ لم يشتم عيسى وأمه ولا الملائكة ولا الصالحين . لكن لما ذكر أنهم لا يُدَعَوْن ولا ينفعُون ولا يضرُون جعلوا ذلك شتما فإذا عرفت هذه عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وَحَّد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض كما قال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ (الآية) . فإذا فهمت هذا فهماً جيداً عرفت أن كثيراً من الذين يدَّعُون الدين لا يعرفونها وإلا فما الذى حمل المسلمين على الصبر على ذلك العذاب والأسر والضرب والهجرة إلى الحبشة مع أنه ﷺ أرحم الناس لو يجد لهم رخصة لأرخص لهم كيف وقد أنزل الله : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذِى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ فإذا كانت هذه الآية فيمن وافقهم بلسانه فكيف بغير ذلك .

الموضع الثالث : قصة قراءته ﷺ سورة النجم بحضرتهم فلما بلغ : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ ألقى الشيطان فى تلاوته تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى فظنوا أن رسول الله ﷺ قرأها ففرحوا بذلك وقالوا كلاما معناه هذا الذى نريد ونحن نعرف أن الله هو النافع الضار وحده لا شريك له ولكن هؤلاء يشفعون لنا عنده فلما بلغ السجدة سجد وسجدوا معه فشاع الخبر أنهم صافوه وسمع بذلك مَنْ بالحبشة فرجعوا فلما أنكر ذلك رسول الله ﷺ عادوا إلى أشر ما كانوا عليه ولما قالوا له إنك قلت ذلك خاف من الله خوفا عظيما حتى أنزل الله عليه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول وَلا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ﴾ (الآية) . فمن فهم هذه القصة

ثم شك بعدها فى دين النبى ﷺ ولم يفرق بينه وبين دين المشركين فابعده خصوصاً إن عرف أن قولهم تلك الغرانيق الملائكة .

الموضع الرابع : قصة أبى طالب فمن فهمها فهماً حسناً وتأمّل إقراره بالتوحيد وحث الناس عليه وتسفيه عقول المشركين ومحبته لمن أسلم وخلع الشرك ثم بذل عمره وماله وأولاده وعشيرته فى نصرة رسول الله ﷺ إلى أن مات ثم صبره على المشقة العظيمة لكن لم يدخل فيه ولم يتبرأ من دينه الأول لم يَصِرْ مسلماً مع أنه يعتذر من ذلك بأن فيه مسبة لأبيه عبد المطلب ولهاشم وغيرهما من مشايخهم ثم قرابته ونصرته استغفر له الرسول ﷺ فأنزل الله عليه : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ﴾ (الآية) .

والذى يبين هذا أنه إذا عرف رجل من أهل البصرة أو الأحساء بحب الدين وبحب المسلمين مع أنه لم ينصر الدين بيد ولا مال ولا له من الأعذار مثل ما لأبى طالب وفهم الواقع من أكثر من يدعى الدين تبين له الهدى من الضلال وعرف سوء الأفهام والله المستعان .

الموضع الخامس : قصة الهجرة وفيها من الفوائد والعبر ما لا يعرفه أكثر من قرأها ولكن مرادنا الآن مسألة من مسائلها وهى أن من أصحاب رسول الله ﷺ من لم يهاجر من غير شك فى الدين وفى تزيين دين المشركين ولكن محبة الأهل والمال والوطن فلما خرجوا إلى بدر خرجوا مع المشركين كارهين قتل بعضهم بالرمى ، والرامى لا يعرفه فلما سمع الصحابة أن أصبح من القتلى فلان أو فلان شق عليهم وقالوا إخواننا فأنزل الله : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ إلى قوله : ﴿ وكان الله عفواً غفورا ﴾ . فمن تأمل قصتهم وتأمل قول الصحابة قتلنا إخواننا أنه لو يبلغ عنه كلاما فى

الدين أو كلاماً فى تزيين دين المشركين لم يقولوا قتلنا إخواننا فإن الله قد بين لهم وهم قبل الهجرة أن ذلك كفر بعد الإيمان بقوله تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكْرِه وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ وأبلغ من هذا ما تقدم من كلام الله فيهم فإن الملائكة تقول : فيم كنتم ؟ ولم يقولوا : كيف تصديقكم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض . لم يقولوا : كذبتم مثل ما يقول الله للمجاهد الذى يقول جاهدت فى سبيلك حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة : كذبت بل قاتلت ليقال جرىء ، وكذلك يقولون للعالم والمتصدق كذبت بل تعلمت ليقال عالم وتصدقت ليقال جواد ، وأما هؤلاء فلم يكذبوهم بل أجابوهم بقولهم : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ ويزيد ذلك إيضاحاً للعارف والجاهل الآية التى بعدها وهى قوله تعالى : ﴿ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ﴾ فهذا أوضح جدا أن هؤلاء خرجوا من الوعيد فلم يبق شبهة لكن لمن طلب العلم بخلاف من لم يطلبه بل قال الله فيهم : ﴿ صم بكم عمى فهم لا يرجعون ﴾ ومن فهم هذا الموضع والذى قبله فهم كلام الحسن البصرى قال : ليس الإيمان بالتّحلى ولا بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقته الأعمال وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ .

الموضع السادس : قصة الرِّدة بعد موت النبى ﷺ فمن سمعها ثم بقى فى قلبه مثقال ذرة من شبهة الشياطين الذين يسمون العلماء وهى قولهم هذا هو الشرك لكن يقولون لا إله إلا الله ومن قالها لا يكفر بشىء وأعظم من ذلك وأكبر تصريحهم بأن البوادى ليسوا معهم من الإسلام شعرت ولكن يقولون لا إله إلا الله وهم بهذه اللفظة إسلام وحرم الإسلام مالهم ودمهم مع إقرارهم أنهم تركوا الإسلام كله ومع علمهم بإنكار البعث

واستهزائهم بمن أقر به وتفضيلهم دين آبائهم مخالفا لدين النبى ﷺ ومع هذا كله يصرح هؤلاء الشياطين المردة الجهلة أن البدو أسلموا ولو جرى منهم ذلك كله لأنهم يقولون لا إله إلا الله ولزم قولهم أن اليهود أسلموا لأنهم يقولونها وأيضاً كفر هؤلاء أغلظ من كفر اليهود بأضعاف مضاعفة– أعنى البوادى المتصفين بما ذكرنا– والذى يبين ذلك من قصة الردة أن المرتدين افترقوا فى ردتهم فمنهم من كذَّب النبى ﷺ ورجعوا إلى عبادة الأوثان وقالوا : لو كان نبيا ما مات . ومنهم من ثبت على الشهادتين ولكن أقر بنبوة مسيلمة ظناً أن النبى ﷺ أشركه فى النبوة لأن مسيلمة أقام شهود زور شهدوا له بذلك فصدقهم كثير من الناس ومع هذا أجمع العلماء أنهم مرتدون ولو جهلوا ذلك ، ومن شك فى ردتهم فهو كافر فإذا عرفت أن العلماء أجمعوا أن الذين كذبوهم ورجعوا إلى عبادة الأوثان وشتموا رسول الله ﷺ ومنهم من أقر بنبوة مسيلمة فى حالة واحدة ولو ثبت على الإسلام كله ومنهم من أقر بالشهادتين وصدق طليحة فى دعواه النبوة ومنهم من صدق العنسى صاحب صنعاء وكل هؤلاء أجمع العلماء أنهم سواء ومنهم من كذَّب النبى ﷺ ورجع إلى عبادة الأوثان على حالة واحدة ومنهم أنواع آخرهم الفجاة السلمى لما وفد على أبى بكر وذكر له أنه يريد قتال المرتدين ويطلب من أبى بكر أن يمده فأعطاه سلاحا ورواحل فاستعرض السلمى المسلم والكافر يأخذ أموالهم فجهز أبو بكر جيشا لقتاله فلما أحس بالجيش قال لأميرهم : أنت أمير أبى بكر وأنا أميره ولم أكفر فقال : إن كنت صادقاً فألق السلاح فألقاه فبعث به إلى أبى بكر فأمر بتحريقه بالنار وهو حىٌّ فإذا كان هذا حكم الصحابة فى هذا الرجل مع إقراره بأركان الإسلام الخمسة فما ظنك بمن لم يقر من الإسلام بكلمة واحدة إلا أن يقول لا إله إلا الله بلسانه مع تصريحه بتكذيب معناها وتصريحه بالبراءة من دين محمد ﷺ ومن

كتاب الله ويقولون هذا دين الخضر وديننا دين آبائنا ثم يفتون هؤلاء المردة الجهال أن هؤلاء مسلمون ولو صرحوا بذلك كله إذا قالوا لا إله إلا الله ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

وما أحسن ما قال واحد من البوادى لما قدم علينا وسمع شيئا من الإسلام ، قال : أشهد أننا كفار يعنى هو وجميع البوادى وأشهد أن المطوع الذى يسمينا أهل إسلام أنه كافر انتهى والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

اعلم أن نواقض الإسلام عشرة نواقض :

الأول : الشرك فى عبادة الله . قال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ . ﴿ ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ . ومنه الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو للقبر .

الثانى : من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم فقد كفر إجماعاً .

الثالث : من لم يكفّر المشركين أو يشك فى كفرهم أو صحح مذهبهم كَفَر .

الرابع : من اعتقد أن غير هدى النبى ﷺ أكمل من هديه أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر .

الخامس : من أبغض شيئا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به فقد كفر .

السادس : من استهزأ بشيء من دين الرسول أو ثوابه أو عقابه كَفَر والدليل قوله تعالى : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ .

السابع : السحر ومنه الصرف والعطف فمن فعله أو رضى به كَفَر . والدليل قوله تعالى : ﴿ وما يُعلِّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ .

الثامن : مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين . والدليل قوله تعالى : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

التاسع : من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهو كافر .

العاشر : الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به والدليل قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾ . ولا فرق فى جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره وكلها من أعظم ما يكون خطرا وأكثر ما يكون وقوعاً فينبغى للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه . نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه وصلى الله على خير خلقه مُحمّد وآله وصحبه وسلم .

وبعد فهذه عشر درجات قالها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فى قوله : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ فهذا كلام وجيز يبّين غربة الدين لمن تدبّره وهو عشر درجات : **الأولى** : تصديق القلب أن دعوة غير الله باطلة وقد خالف فيها من خالف . **الثانية** : أنها منكر يجب فيها البغض وقد خالف فيها من خالف . **الثالثة** : أنها من الكبائر والعظائم المستحقة للمقت والمفارقة وقد خالف فيها من خالف . **الرابعة** : أن هذا هو الشرك بالله الذى لا يغفره وقد خالف فيها من خالف . **الخامسة** : أن المسلم إذا اعتقده أو دان به كَفَر وقد خالف فيها من خالف . **السادسة** : أن المسلم الصادق إذا تكلم به هازلا أو خائفاً أو طامعاً كَفَر بذلك لعلمه وأين ينزل

القلب هذه الدرجة ويصدقه بها وقد خالف فيها من خالف . **السابعة** : أنك تعمل معه عملك مع الكفار من عداوة الأب والابن وغير ذلك وقد خالف فيها من خالف . **الثامنة** : أن هذا معنى لا إله إلا الله والإله هو المألوه والإله عمل من الأعمال وكونه منفيا عن غير الله ترك من المتروك . **التاسعة** : القتال على ذلك حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . **العاشرة** : أن الداعى لغير الله لا يقبل منه الجزية كما يقبل من اليهود ولا تنكح نساؤهم كما تنكح نساء اليهود لأنه أغلظ كفرا وكل درجة من هذه الدرجات إذا علمت بها تخلف عنك بعض من كان معك والله أعلم .

قوله عند كل درجة وقد خالف فيها من خالف ناس يعتقدون أن دعوة غير الله جائزة والرسول ومن آمن به مخالفون لهم، وناس ما يكفرون بالطاغوت ولا يبغضونه والرسول وأتباعه مخالفون لهم بل ملة إبراهيم هى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله وهكذا سائر الدرجات والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين ﴾ .

فيه ثمانى حالات وقوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

الحالة الأولى : ترك عبادة غير الله مطلقا ولو حاوله أبوه وأمه بالطمع الجليل كما جرى لسعد مع أمه .

الحالة الثانية : أن كثيرا من الناس إذا عَرَف الشرك وأبغضه وتركه

لا يفطن بما يريد الله من إجلاله ورهبته فذكر هذه الحالة بقوله : ﴿ ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ﴾ .

الحالة الثالثة : إن قَدَّرنا أنه ظن وجود الترك والفعل فلابد من تصريحه بأنّه من هذه الطائفة ولو لم يفض هذا الغرض إلا بالهرب عن بلد كثيرة فيها من الطواغيت الذين لا يبلغون الغاية فى العداوة حتى يصرح أنه من هذه الطائفة المحاربة لهم .

الحالة الرابعة : إن قَدَّرنا أنه ظن وجود هذه الثلاث فقد لا يبلغ الجد فى العمل بالدين ، والجد والصدق هو إقامة الوجه للدين .

الحالة الخامسة : إن قَدَّرنا أنه ظن وجود الحالات الأربع فلابد من مذهب ينتسب إليه فَأُمر أن يكون مذهبه الحنيفية وترك كل مذهب سواها ولو كان صحيحاً ففى الحنيفية عنه غنية .

الحالة السادسة : إن قَدَّرنا أنه ظنَّ وجود الحالات السِّت فقد يدعو من غير قلبه نبيا أو غير شيء من مقاصده ولو كان دينا يظن أنه إن نطق بذلك من غير قلبه لأجل كذا وكذا خصوصاً عند الخوف أنه لا يدخل فى هذا .

الحالة الثامنة : أنه ظن سلامته من ذلك لكن غيره من إخوانه فَعَلَه خوفاً أو لغرض من الأغراض هل يصدق الله أن هذا ولو كان أصلح الناس قد صار من الظالمين أو يقول كيف يكفر فهو يحب الدين ويبغض الشرك وما أعز من يتخلص من هذا بل ما أعز من يفهمه وإن لم يعمل به بل ما أعز من لا يظنه جنوناً والله أعلم .

تمـــت

ويليها شـــروط الصـــلاة .

باب – شروط الصلاة تسعة : الإسلام والعقل والتمييز والطهارة وستر العورة واجتناب النجاسة والعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة والنية بالقصد .

باب – أركان الصلاة أربعة عشر ركناً : القيام مع القدرة وتكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة والركوع والرفع منه والاعتدال والسجود والرفع منه والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فى الجميع والتشهد الأخير والجلوس له والتسليمة الأولى .

باب – مبطلات الصلاة ثمانية : الكلام العمد والضحك والأكل والشرب وكشف العورة والانحراف عن جهة القبلة والعبث الكثير وحدوث النجاسة .

باب – موجبات الصلاة ثمانية : التكبيرات غير تكبيرة الإحرام . الثانى : قول سمع الله لمن حمده للإمام والمنفرد . الثالث : قول ربنا ولك الحمد . الرابع : تسبيح الركوع . الخامس : تسبيح السجود . السادس : قول ربّ اغفر لى بين السجدتين والواجب مرة . السابع : التشهد الأول لأنه عليه الصلاة والسلام فعله وداوم على فعله وأمر به وسجد للسهو حين نسيه . الثامن : الجلوس له .

باب – فرائض الوضوء ستة أشياء : غسل الوجه وغسل اليدين إلى المرافقين ومسح جميع الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين والترتيب والموالاة .

باب – شروط الوضوء خمسة : ماء طهور وكون الرجل أن يكون مُسلماً مميزا وعدم المانع ووصول الماء إلى البشرة ودخول الوقت فى دائم الحدث .

باب – نواقض الضوء ثمانية : الخارج من السبيلين ، والخارج الفاحش من البدن وزوال العقل بنوم أو غيره ولمس المرأة بشهوة ومس الفرجين وغسل الميت وأكل لحم الجزور والردة عن الإسلام أعاذنا الله منها والله أعلم .

تمـــت

ويليها رسالة فى أصل دين الإسلام وقاعدته .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله رحمه الله تعالى : أصل دين الإسلام وقاعدته أمران ، **الأول** : الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والتحريض على ذلك والموالاة فيه وتكفير من تركه . قلت : وأدلة هذا فى القرآن أكثر من أن تحصر كقوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ﴾ (الآية) .

أمر الله تعالى نبيه أن يدعو أهل الكتاب إلى معنى لا إله إلا الله الذى دعا إليه العرب وغيرهم والكلمة هى لا إله إلا الله ففسرها بقوله : أن لا نعبد إلا الله . فقوله : ﴿ أن لا نعبد ﴾ فيه معنى لا إله وهو نفى العبادة عما سوى الله ، قوله : ﴿ إلا الله ﴾ هو المستثنى فى كلمة الإخلاص فأمره تعالى أن يدعوهم إلى قصر العبادة عليه وحده ونفيها عمن سواه ومثل هذه الآية كثير يبين أن الإلهية هى العبادة وأنها لا يصلح منها شيء لغير الله ، كما قال تعالى : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ معنى قضى : أمر ووصَّى قولان ومعناهما واحد ، وقوله : ﴿ أن لا تعبدوا ﴾ فيه معنى (لا إله) وقوله : ﴿ إلا إياه ﴾ فيه معنى (إلا الله) وهذا هو توحيد العبادة وهو دعوة الرسل إذ قالوا لقومهم: «أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » . فلابد من نفى الشرك فى العبادة رأسا والبراءة منه وممن فعله كما قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى ﴾ فلابد من البراءة من عبادة ما كان يعبد من

دون الله . وقال عنه عليه السلام : « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله » فيجب اعتزال الشرك وأهله بالبراءة منهما كما صرح به فى قوله تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ والذين معه هم الرسل كما ذكره ابن جرير وهذه الآية تتضمن جميع ما ذكره شيخنا رحمه الله من التحريض على التوحيد ونفى الشرك والموالاة لأهل التوحيد وتكفير من تركه بفعل الشرك المنافى له فإن من فعل الشرك فقد ترك التوحيد فإنهما ضدّان لا يجتمعان فمتى وُجِد الشرك انتفى التوحيد ، وقد قال تعالى فى حق من أشرك : ﴿ وجعل لله أنداداً ليُضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾ فكفّره تعالى باتخاذ الأنداد وهم الشركاء فى العبادة وأمثال هذه الآيات كثيرة فلا يكون المرء موحِّداً إلا بنفى الشرك والبراءة منه وتكفير من فعله .

ثم قال رحمه الله تعالى : **الثانى** : الإنذار عن الشرك فى عبادة الله والتغليظ فى ذلك والمعاداة فيه وتكفير من فعله فلا يتم مقام التوحيد إلا بهذا وهو دين الرسل ، أنذروا قومهم عن الشرك كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النُذُر من بين يديه ومن خلفه أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ .

(قوله) : فى عبادة الله العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة (قوله) والتغليظ فى ذلك وهذا

موجود فى الكتاب والسنة كقوله تعالى : ﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين ﴾ ولولا التغليظ لما جرى على النبى ﷺ وأصحابه من قريش ما جرى من الأذى العظيم كما هو مذكور فى السيرة مفصلاً فإنه بادأهم بسب دينهم وعيب آلهتهم (قوله) رحمه الله تعالى : والمعاداة فيه كما قال تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ والآيات فى هذا كثيرة جدا كقوله : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ والفتنة الشرك ووسم تعالى أهل الشرك بالكفر فيما لا يحصى من الآيات فلابد من تكفيرهم أيضاً ، هذا هو مقتضى لا إله إلا الله كلمة الاخلاص فلا يتم معناها إلا بتكفير من جعل لله شريكا فى عبادته كما فى الحديث الصحيح من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حَرُم ماله ودمه ، وحسابه على الله ، فقوله وكفر بما يعبد من دون الله تأكيد للنفى فلا يكون معصوم الدم والمال إلا بذلك فلو شك أو تردد لم يعصم دمه وماله . فهذه الأمور هى تمام التوحيد لأنَّ لا إله إلا الله قيدت فى الأحاديث بقيود ثقال بالعلم والإخلاص والصدق واليقين وعدم الشك فلا يكون المرء موحِّدا إلا باجتماع هذا كله واعتقاده وقبوله ومحبته والمعاداة فيه والموالاة فبمجموع ما ذكره شيخنا رحمه الله يحصل ذلك . ثم قال رحمه الله تعالى : والمخالف فى ذلك أنواع فأشدهم مخالفة من خالف فى الجميع فقبل الشرك واعتقده دينا وأنكر التوحيد واعتقده باطلا ، كما هو حال الأكثر . وسببه الجهل بما دل عليه الكتاب والسنة من معرفة التوحيد وما ينافيه من الشرك والتنديد واتباع الأهواء ، وما عليه الآباء كحال من قبلهم من أمثالهم من أعداء الرسل فرموا أهل التوحيد بالكذب والزور والبهتان والفجور وحجتهم ﴿ إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ . وهذا النوع من الناس والذين بعده

قد ناقضوا ما دلت عليه كلمة الإخلاص وما وضعت له وما تضمنته من الدين الذى لا يقبل الله ديناً سواه وهو دين الإسلام الذى بعث الله به جميع أنبيائه ورسله واتفقت دعوتهم عليه كما لا يخفى فيما قص الله تعالى عنهم فى كتابه ، ثم قال رحمه الله تعالى : ومن الناس من عبد الله وحده ولم ينكر الشرك ولم يعاد أهله . قلت : ومن المعلوم أنَّ من لم ينكر الشرك لم يعرف التوحيد ولم يأت به وقد عرفت أن التوحيد لا يحصل إلا بنفى الشرك والكفر بالطاغوت المذكورة فى الآية ، ثم قال رحمه الله تعالى : ومنهم من عاداهم ولم يكفرهم فهذا النوع أيضاً لم يأتِ بما دلت عليه لا إله إلا الله من نفى الشرك وما تقتضيه من تكفير من فعله بعد البيان إجماعاً وهو مضمون سورة «الإخلاص» و«قل يا أيها الكافرون» وقوله فى آية الممتحنة : ﴿ كفرنا بكم ﴾ ومن لم يُكفِّر من كَفَّره القرآن فقد خالف ما جاءت به الرسل من التوحيد وما يوجبه ، ثم قال رحمه الله : ومنهم من لم يحب التوحيد ولم يبغضه . فالجواب : أن من لم يحب التوحيد لم يكن موحِّدا لأنه هو الدين الذى رضيه الله لعباده كما قال تعالى : ﴿ ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ فلو رضى بما رضى به الله وعمل به لأحبه ولابد من المحبة لعدم حصول الإسلام بدونها فلا إسلام إلا بمحبّة التوحيد . قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله : الإخلاص محبة الله وإرادة وجهه فمن أحب الله أحب دينه وما لا فلا . وبالمحبة يترتب عليها كلمة الإخلاص وهو من شروط التوحيد ، ثم قال رحمه الله تعالى : ومنهم من لم يبغض الشرك ولم يحبه ، قلت : ومن كان كذلك ، فلم ينفِ ما نَفَتْه لا إله إلا الله من الشرك والكفر بما يعبد من دون الله والبراءة منه فهذا ليس من الإسلام فى شىء أصلا ولم يعصم دمه ولا ماله كما دل عليه الحديث المتقدم ، وقوله رحمه الله : ومنهم من لم يعرف الشرك ولم ينكره لم ينفه ولا يكون موحدا إلا من نفى الشرك وتبرأ منه وممن فعله وكَفَّرَهم ،

وبالجهل بالشرك لا يحصل شيء مما دلت عليه لا إله إلا الله ومن لم يقم بمعنى هذه الكلمة ومضمونها فليس من الإسلام فى شيء لأنه لم يأت بهذه الكلمة ومضمونها عن علم ويقين وصدق وإخلاص ومحبة وحول وانقياد وهذا النوع ليس معه من ذلك شيء وإن قال لا إله إلا الله فهو لا يعرف ما دلت عليه وما تضمنته . ثم قال رحمه الله تعالى : ومنهم من لم يعرف التوحيد ولم ينكره فأقول : هذا كالذى قبله لم يرفعوا رأسا بما خلقوا له من الدين الذى بعث الله به رسله وهذه الحال حال من قال الله فيهم : ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ . وقوله رحمه الله : ومنهم وهو أشد الأنواع خطرا ، من عَمِل بالتوحيد ولم يعرف قدره ولم يبغض من تركه ولم يكفِّرهم فقوله رحمه الله : وهو أشد الأنواع خطرا لأنه لم يعرف قدر ما عمل به ولم يجيء بما يصحح توحيده من القيود الثقال التى لابد منها لما علمت أن التوحيد يقتضى نفى الشرك والبراءة منه ومعاداة أهله وتكفيرهم مع قيام الحجة عليهم فهذا قد يغتر بحاله وهو لم يجيء بما عليه من الأمور التى دلت عليها كلمة الإخلاص نفيا وإثباتا وكذلك قوله رحمه الله : ومنهم من ترك الشرك وكرهه ولم يعرف قدره وهذا أقرب من الذى قبله لكن لم يعرف قدر الشرك لأنه لو عرف قَدْره لفعل ما دلت عليه الآيات المحكمات كقول الخليل : ﴿ إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴾ . وقوله : ﴿ إنا برآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ﴾ فلابد لمن عرف الشرك وتركه من أن يكون كذلك من الولاء والبرآء من العابد والمعبود وبغض الشرك وأهله وعداوتهم وهذان النوعان هما الغالب على أحوال كثير ممن يدَّعى الإسلام فيقع منهم من الجهل بحقيقته ما يمنع بكلمة الإخلاص وما اقتضته على الكمال الواجب الذى يكون به موحِّداً فما أكثر المغرورين الجاهلين بحقيقة الدين فإذا عرفت أن الله كفّر أهل الشرك

ووصفهم به فى الآيات المحكمات كقوله : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ ، وكذلك السنة . قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : فأهل التوحيد والسنة يصدقون الرسل فيما أخبروا ويطيعونهم فيما أمروا ويحفظون ما قالوا ويفهمونه ويعملون به وينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ويجاهدون من خالفهم تقربا إلى الله وطلبا للجزاء من الله لا منهم .

وأهل الجهل والغلو لا يميزون بين ما أمَروا به ونَهوا عنه ، ولا بين ما صح عنهم ، ولا ما كذب عليهم ، ولا يفهمون حقيقة مرادهم ، ولا يتحرون طاعتهم ، بل هم جُهَّال بما أتوا به معظمون لأغراضهم .

قلت : ما ذكره شيخ الإسلام ، يشبه حال هذين النوعين الآخرين . بقيت مسألة حديث تكلم فيها شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهو عدم تكفير المعين ابتداءً ، لسبب ذكره رحمه الله ، أوجب له التوقف فى تكفيره قبل إقامة الحجة عليه . قال رحمه الله تعالى : ونحن نعلم بالضرورة أن النبى ﷺ ، لم يشرع لأحد أن يدعو أحداً من الأموات لا الأنبياء ، ولا الصالحين ، ولا غيرهم بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا إلى ميت ونحو ذلك بل نعلم أنه نهى عن هذه الأمور كلها وأن ذلك من الشرك الذى حرّمه الله ورسوله ﷺ ولكن لغلبة الجهل وقلّة العلم بآثار الرسالة فى كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يبين ما جاء به الرسول مما يخالفه . انتهى . قلت : فذكر رحمه الله ما أوجب له عدم إطلاق الكفر عليهم على التعيين خاصة إلا بعد البيان والإصرار فإنه قد صار أمة واحدة ولأن من العلماء من كفّره بنهيه لهم عن الشرك فى العبادة فلا يمكنه أن يعاملهم إلا بمثل ما قال كما جرى لشيخنا محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فى ابتداء دعوته فإنه إذا سمعهم يدعون زيد بن الخطاب أنه قال :

(الله خير من زيد) تمرينا لهم على نفى الشرك بلين الكلام نظراً إلى المصلحة وعدم النفرة والله سبحانه وتعالى أعلم .

تمـــت

ويليها ما قاله الشيخ عبد الرحمن بن حسن رفع الله درجاته بمضاعفة حسناته مجيباً عن إيرادٍ أورده جَهْميٌّ ضال على بعض الإخوان .

بســم الله الرحمــن الرحيــم

الحمد لله رَبِّ العالمين ، وصلى الله على محمد النبى الصادق الأمين ؛ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

أما بعد ، فقد وردت علينا أسئلة من عمان صدرت من جهمى ضال يستعجز بها بعض المسلمين فينبغى أن نجيب عنها بما يفيد طالب العلم ؛ وما لا فائدة فيه لا يحتاج إلى الاشتغال بالجواب عنه .

فَمِمَّا ينبغى أن نجيب عنه ، قوله إن الاسم مشتق من السمو أو من السمة واشتقاق الاسم من هذين ذكره العلماء فى كتبهم لكن يتعين أن نسأله عن كيفية هذا الاشتقاق وما معنى الاشتقاق الذى يذكره العلماء فنطلب منه الجواب عن هذين الأمرين وَإن كانا مذكورين فى كتب النحاة وغيرهم وقد ذكرته فى فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد .

وأما سؤاله عن الفرق بين القضاء والقدر ، فالقَدَر أصل من أصول الإيمان كما فى سؤال جبريل ، وما أجابه رسول الله ﷺ حين سأله ، قال : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»؛ وفى الحديث الصحيح: «أن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة» أى جرى بما يكون مما يعلمه الله تعالى ، فإنه تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا فى كتاب مبين ﴾ . وأما القضاء ، فيطلق فى القرآن

ويراد به إيجاد المقدر كقوله : ﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾ . وقوله : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ، ما دلهم على موته إلا دابة الأرض ﴾ ويطلق ويراد بها الإخبار بما سيقع مما قُدِّر كقوله : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب ﴾ أخبرهم فى كتابهم أنهم يفسدون فى الأرض مرتين ، ويطلق ويراد به الأمر والوصية ، كما قال : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ أى أمر ووصى ، ويراد به الحكم كقوله : ﴿ وقُضِى بينهم بالحق ﴾ ويطلق ويراد به القدر ونحو ذلك . وأما ما زعمه من أن الأدلة الدالة على استوائه على عرشه لا تمنع أن يكون مستويا على غيره .

فالجواب أن نقول قد أجمع أهل السنة والجماعة قديماً وحديثاً على أنه لا يجوز أن يوصف الله بما لا يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله ﷺ ، ومن وصفه بغير ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ ، فهو جهمى ضال مضل يقول على الله بلا علم .

وقد ذكر سبحانه استواءه على عرشه فى سبعة مواضع من كتابه فى سورة الأعراف وفى سورة يونس وفى سورة الرعد وفى سورة طه وفى سورة الفرقان وفى سورة السجدة وفى سورة الحديد ولم يذكر تعالى أنه استوى على غير العرش ولا ذكره رسوله ﷺ فعلم أنه ليس من صفاته التى يجوز أن يوصف بها فمن أدخل فى صفات الله ما لم يذكر فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله فهو جهمى يقول على الله ما لا يعلم . وقد قال الله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح فيها ﴾. وقال تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلىَّ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ . وقال : ﴿ وهو العلى العظيم ﴾ . وقال : ﴿ وهو العلى الكبير ﴾ علو القدر وعلو القهر وعلو الذات لا يجوز أن يوصف إلا بذلك كله لكماله

تعالى فى أوصافه فله الكمال المطلق فى كل صفة وَصَفَ بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ . وقال تعالى : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾ ، فذكر العرش عند هذه الصفة من أدلة فوقيته تعالى ، كما هو صريح فيما تقدم من الآيات . وكقوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ (الآية) .

وذكر النبى ﷺ فى معنى قول الله تعالى : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ (الآية) . « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء». فقوله: «فليس فوقك شيء» نص فى أنه تعالى فوق جميع المخلوقات وهو الذى ورد عن الصحابة والتابعين من المفسرين وغيرهم فى معنى قوله : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ أن معنى «استوى» استقر وارتفع وعلا وكلها بمعنى واحد لا ينكر هذا إلا جهمى زنديق يحكم على الله وعلى أسمائه وصفاته بالتعطيل قاتلهم الله أنَّى يؤفكون .

والنصوص الدالة على إثبات الصفات كثيرة جداً . وقد صنَّف أهل السنة من المحدثين والعلماء مصنفات كبار ، ومن ذلك كتاب السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد ذكر فيه أقوال الصحابة والتابعين والأئمة . وكتاب التوحيد لإمام الأئمة محمد بن خزيمة ، وكتاب السنة للأثرم صاحب الإمام أحمد . وكتاب عثمان بن سعيد الدارمى فى رده على المريسى ، وكتاب السنة للخلال . وكتاب العلو للذهبى ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرةً ولله الحمد والمنة .

ونذكر بعض الأحاديث الصريحة فى المعنى فمن ذلك ما فى الصحيح عن النواس بن سمعان ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله تعالى أن

يوحى بالأمر تكلم بالوحى ، أخذت السماوات منه رجفة ، (أو قال) رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السماوات وخَرُّوا لله سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر جبرائيل على الملائكة ، كلما مر على سماء سأله ملائكتها ، ماذا قال ربنا يا جبرائيل ؟ فيقول جبرائيل : قال الحق ، وهو العلى الكبير ، فيقولون كلهم مثل ما قاله جبرائيل ، فينتهى جبرائيل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل ، ففى هذا الحديث ، التصريح بأن جبرائيل ينزل بالوحى من فوق السماوات السبع ، فيمر بها كلها ، نازلا إلى حيث أمره الله ، وهذا صريح بأن الله تعالى فوق السماوات على عرشه ، بائن من خلقه ، كما قال عبد الله بن المبارك ، لما قيل له : بم نعرف ربنا ؟ قال : بأنه على عرشه ، بائن من خلقه ، وهذا قول أئمة الإسلام قاطبة ، خلافاً للجهمية الحلولية والفلاسفة وأهل الوحدة وغيرهم من أهل البدع ، فرحم الله أهل السنة والجماعة المتمسكين بالوحيين .

وصح عن النبى ﷺ ، فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أنه قال : « إن الله كتب كتابا ، قبل أن يخلق الخلق ، أن رحمتى سبقت غضبى ، فهو عنده فوق العرش » . وفى حديث العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، الذى رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، أن النبى ﷺ ذكر سبع سماوات وما بينها ، ثم قال : « وفوق ذلك بحر ، بين أعلاه وأسفله ، كما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال ، ما بين أظلافهن ورُكَبِهن ، كما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ظهورهن العرش ، ما بين أعلاه وأسفله ، كما بين سماء إلى سماء ، والله تعالى فوق ذلك » .

وفى حديث ابن مسعود ، الذى رواه عبد الرحمن بن مهدى شيخ الإمام أحمد عن حماد بن سلمة عن عاصم عن عبد الله بن مسعود قال :

« بين السماء الدنيا والتى تليها خمسمائة عام وبين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام والعرش فوق الماء والله تعالى فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم » . والجهمية جحدوا هذه النصوص ، وعاندوا فى التكذيب فصاروا بذلك كفاراً عند أكثر أهل السنة والجماعة ، وهذا القدر الذى ذكرناه كاف فى بيان ما عليه أهل السنة والجماعة من علو الله تعالى على جميع المخلوقات واستوائه على عرشه ، وقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة على ذلك ، ولو ذهبنا نذكر ما ورد فى ذلك لاحتمل مجلداً ، فالحمد لله الذى حفظ على الأمة دينها فى كتابه وسنة رسوله وبنقل العلماء الذين هم فى هذه الأمة كأنبياء بنى إسرائيل وهدانا إلى ذلك فأبطل الله بالعلماء كل بدعة وضلالة حدثت فى هذه الأمة فيا لها من نعمة ما أجلّها فى حق من تلقى الحق بالقبول وعرفه ورضى به نسأل الله أن يجعلنا شاكرين لنعمه المثنين بها عليه فله الحمد لا نحصى ثناء عليه ، هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه خلقه .

فأهل السنة والجماعة عرفوا ربهم بما تعرف به إليهم من صفات كماله اللائقة بجلال الله فأثبتوا له تعالى ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله إثباتا بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل وعرفوه بأفعاله وعجائب مخلوقاته وما أظهره لهم من عظيم قدرته وبما أسبغه عليهم من عظيم نعمه فعبدوا رباً أحداً صمداً إلهاً واحداً وهو الله الذى الإلهية وصفه ، فالخلق خلقه والملك ملكه لا شريك له فى إلهيته ولا فى ربوبيته ولا فى ملكه تعالى وتقدس ، كما قال تعالى : ﴿ قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس ﴾ وننزهه عما ننزه عنه وعن كل ما فيه عيب ونقص وعن كل ما وصفته الجهمية وأهل البدع مما لا يليق بجلاله وعظمته فعطلوه من صفات الكمال وصاروا إنما يعبدون عَدَماً لأنهم وصفوه بما ينافى الكمال ويوقع فى النقص العظيم فشبهوه بالناقصات تارة

وبالمعدوم تارة فهم أهل التشبيه ، كما عرفت من حالهم وضلالهم ومحالهم .

وأما ما أورده هذا الجهمى الجاهل من آيات العلم ، كقوله : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ . وقوله : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ فلا منافاة بين استوائه على عرشه وإحاطة علمه بخلقه ، والسياق يدل على ذلك .

أما الآية الأولى ، فهى مسبوقة بقوله تعالى : ﴿ هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ ، ذكر استواءه على عرشه ، وذكر إحاطة علمه بما فى الأرض والسموات ، ثم قال : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ أى بعلمه المحيط بما كان وما يكون .

وأما الآية الثانية ، فهى كذلك مسبوقة بالعلم ، وختمها الله تعالى به فقال : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ ، إلى قوله : ﴿ إن الله بكل شىء عليم ﴾ . فعلم أن المراد علمه بخلقه وأنه لا يخفى عليه شىء من أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ، ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ﴾ . وهذا المعنى الذى ذكرنا هو الذى عليه المفسرون من الصحابة والتابعين والأئمة وجميع أهل السنة والجماعة .

وأما الجهمية وأهل البدع فحرموا معرفة الحق لانحرافهم عنه وجهلهم به وبالقرآن والسنة ، كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

ثقل الكتاب عليهم لما ... رأوا تقييده بشرائع الإيمان

ومن المعلوم أنه لا يقبل الحق إلا من طلبه ، وأما أهل البدع فأُشْرِبوا فى قلوبهم ما وقعوا فيه من البدع والضلال ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

فإذا عُرِف ذلك ، فيتعين أن نسأل هذا الجهمى وغيره من المبتدعة عن أمور لا يسع مسلم أن يتجهلّها ، لأن الإسلام يتوقف على معرفتها فمن ذلك ما معنى كلمة الإخلاص لا إله إلا الله ؟ وما الإلهية المنفية بلا النافية للجنس ؟ وما خبرها ؟ وما معنى الإلهية التى ثبتت لله وحده دون ما سواه ؟ وما أنواع التوحيد وألقابه وأركانه ؟ وما معنى الإخلاص الذى أمر الله به عباده وأخبرهم أنه له وحده ؟ وما تعريف العبادة التى خلقوا لها ؟ وما أقسام العلم النافع الذى لا يسع أحداً جهله ؟ وما معنى اسم الله تعالى الذى لا يسمى بهذا الاسم غيره ؟ وما صفة اشتقاقه من المصدر الذى هو معناه ؟

فالجواب عن هذا مطلوب ، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً كثيرا .

تمــــت

ويليها المسائل الست التى أجاب عليهـا

الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

بســم الله الرحمـن الرحيـم

هذه ست مسائل سئل عنها الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى وعفا عنا وعنهم أجمعين وعن سائر المسلمين آمين .

المسألة الأولى : هل يجوز للمسلم أن يسافر إلى بلد الكفار الحربية لأجل التجارة أم لا ؟

الجواب : الحمد لله إن كان يقدر على إظهار دينه ولا يوالى المشركين جاز له ذلك ، فقد سافر بعض الصحابة رضى الله عنهم كأبى بكر رضى الله عنه وغيره من الصحابة إلى بلدان المشركين لأجل التجارة ولم ينكر ذلك النبى ﷺ ، كما رواه أحمد فى مسنده وغيره .

وإن كان لا يقدر على إظهار دينه ولا على عدم موالاتهم ، لم يجز له السفر إلى ديارهم ، كما نص على ذلك العلماء ، وعليه تحمل الأحاديث التى تدل على النهى عن ذلك ، ولأن الله تعالى أوجب على الإنسان العمل بالتوحيد وفرض عليه عداوة المشركين ، فما كان ذريعة وسبباً إلى إسقاط ذلك ، لم يجز أيضاً ، فقد يجره ذلك إلى موافقتهم أو إرضائهم ، كما هو الواقع لكثير ممن يسافر إلى بلدان المشركين من فساق المسلمين ، نعوذ بالله من ذلك .

المسألة الثانية : هل يجوز للإنسان أن يجلس فى بلد الكفار وشعائر الكفر ظاهرة لأجل التجارة ؟

الجواب : عن هذه المسألة هو الجواب عن التى قبلها سواء ولا فرق فى ذلك بين دار الحرب أو دار الصلح فكل بلد لا يقدر المسلم على إظهار دينه فيها لا يجوز له السفر إليها .

المسألة الثالثة : هل يفرق بين المدة القريبة مثل شهر أو شهرين أو المدة البعيدة ؟

الجواب : أنه لا فرق بين المدة القريبة والبعيدة فكل بلد لا يقدر على إظهار دينه فيها ولا على عدم موالاة المشركين لا يجوز له المقام فيها ولا يوماً واحداً إذا كان يقدر على الخروج منها .

المسألة الرابعة : فى معنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ إنكم إذاً مثلهم ﴾ وقوله ﷺ فى الحديث : « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله » .

الجواب : أن معنى الآية على ظاهرها وهو أن الرجل إذا سمع آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فجلس عند الكافرين المستهزئين من غير إكراه ولا إنكار ولا قيام عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره فهو كافر مثلهم وإن لم يفعل فعلهم لأن ذلك يتضمن الرضا بالكفر والرضا بالكفر كفر وبهذه الآية ونحوها ، استدل العلماء على أن الراضى بالذنب كفاعله فإن ادعى أنه يكره ذلك بقلبه لم يقبل منه لأن الحكم على الظاهر ، وهو قد أظهر الكفر فيكون كافراً . ولهذا لما وقعت الردة بعد موت النبى ﷺ ، وادَّعى أناس أنهم كرهوا ذلك لم يقبل منهم الصحابة ذلك بل جعلوهم كلهم مرتدين إلا من أنكر بلسانه وقلبه ، وكذلك قوله فى الحديث : « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله » ، على ظاهره وهو أن الذى يدَّعى الإسلام ويكون مع المشركين فى الاجتماع والنصرة والمنزل معهم بحيث يعده المشركون منهم فهو كافر مثلهم وإن ادَّعى الإسلام ، إلا أن كان يظهِر دينه

ولا يوالى المشركين ولهذا لما ادَّعى بعض الناس الذين أقاموا فى مكة بعدما هاجر النبى ﷺ فادَّعَوْا الإسلام إلا أنهم أقاموا فى مكة يعدهم المشركون منهم وخرجوا معهم يوم بدر كارهين للخروج فقتلوا فظن بعض الصحابة أنهم مسلمون وقالوا : قتلنا إخواننا فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ (الآية) . قال السدى وغيره من المفسرين إنهم كانوا كفارا ولم يعذر الله منهم إلا المستضعفين .

المسألة الخامسة : هل يقال لمن أظهر علامات النفاق ممن يدَّعى الإسلام إنه منافق أم لا ؟

الجواب : أنه من ظهرت منه علامات النفاق الدالة عليه كارتداده عند التحريب على المؤمنين وخذلانهم عند اجتماع العدو كالذين قالوا : «لو نعلم قتالاً لاتبعناكم» وكونه إذا غلب المشركون التجأ معهم وإن غلب المسلمون التجأ إليهم ومدحه للمشركين بعض الأحيان وموالاتهم من دون المؤمنين وأشباه هذه العلامات التى ذكر الله أنها علامات للنفاق وصفات للمنافقين فإنه يجوز إطلاق النفاق عليه وتسميته منافقاً .

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يفعلون ذلك كثيراً ، كما قال حذيفة رضى الله عنه : إن الرجل ليتكلم بالكلمة فى عهد رسول الله ﷺ ، فيكون بها منافقا ، وكما قال عوف بن مالك لذلك المتكلم بذلك الكلام القبيح : كذبتَ ، ولكنك منافق . وكذلك قال عمر فى قصة حاطب : يا رسول الله ، دَعْنِى أضرب عنق هذا المنافق . وفى رواية : دَعْنى أضرب عنقه فإنه منافق ، وأشباه ذلك كثير .

وكذلك قال أسيد بن حضير لسعد بن عبادة لما قال ذلك الكلام : كذبت ولكنك منافق ، تجادل عن المنافقين ولكن ينبغى أن يعرف أنه لا

تلازم بين إطلاق النفاق عليه ظاهر أو بين كونه منافقاً باطناً ، فإذا فعل علامات النفاق جاز تسميته منافقاً لمن أراد أن يسميه بذلك ، وإن لم يكن منافقاً فى نفس الأمر لأن بعض هذه الأمور قد يفعلها الإنسان مخطئاً لا علم عنده أو لمقصد يخرج به عن كونه منافقا . فمن أطلق عليه النفاق لم ينكر عليه كما لم ينكر النبى ﷺ على أسيد بن حضير تسميته سعداً منافقا مع أنه ليس بمنافق ، ومن سكت لم ينكر عليه بخلاف المذبذب الذى ليس مع المسلمين ولا مع المشركين ، فإنه لا يكون إلا منافقاً .

واعلم أنه لا يجوز إطلاق النفاق على المسلم بالهوى والعصبية أو لكونه يشاحن رجلا فى أمر دنيا أو يبغضه لذلك أو لكونه يخالف فى بعض الأمور التى لا يزال الناس فيها مختلفين فليحذر الإنسان أشد الحذر فإنه قد صح فى ذلك الحديث عن النبى ﷺ فى من رمى مؤمنا بكفر فهو كقتله ، وإنما يجوز من ذلك ما كانت العلامات مطردة فى النفاق كالعلامات التى ذكرنا وأشباهها بخلاف مثل الكذبة والفجرة ونحو ذلك وكان قصد الإنسان ونيته إعلاء كلمة الله ونصر دينه .

المسألة السادسة : فى الموالاة والمعاداة وهل هى من معنى لا إله إلا الله أو من لوازمها ؟

الجواب : أن يقال الله أعلم لكن أحب للمسلم أن يعلم أن الله افترض عليه عداوة المشركين وعدم موالاتهم وأوجب عليه محبة المؤمنين وموالاتهم وأخبر أن ذلك من شروط الإيمان ونفى الإيمان عمن يواد من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، وأما كون ذلك من معنى لا إله إلا الله أو لوازمها فلم يكلفنا الله بالبحث عن ذلك وإنما كلفنا بمعرفة أن الله فرض ذلك وأوجبه وأوجب العمل به ، فهذا هو الفرض

والحتم الذى لا شك فيه ومن عرف أن ذلك من معناها أو من لازمها فهو حسن وزيادة خير ، ومن لم يعرفه فلم يكلف بمعرفته ، لا سيما إذا كان الجدال والمنازعة فيه مما يفضى إلى شر واختلاف ووقوع فرقة بين المؤمنين الذين قاموا بواجبات الإيمان وجاهدوا فى الله وعادوا المشركين ووالوا المسلمين فالسكون عن ذلك متعين ، وهذا ما ظهر لى على أن الاختلاف قريب من جهة المعنى والله تعالى أعلم . ولله الحمد والمنة وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا .

تمـــت

ويليهـا القواعـد الأربعة

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

وبه نستعين أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك فى الدنيا والآخرة وأن يجعلك مباركاً أينما كنت وأن يجعلك ممن إذا أُعْطِيَ شَكَر وإذا ابْتُلِيَ صَبَر وإذا أذنب استغفر ، فإن هذه الثلاث عنوان السعادة . اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم وهو أن تعبد الله مخلصاً له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد ، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة ، فإذا دخل الشرك فسدت كالحدث إذا دخل فى الطهارة كما قال تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون ﴾ فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين فى النار عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة وهى الشرك بالله ، وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله فى كتابه :

الأولى : أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون أن الله هو الخالق الرازق المحيى المميت النافع الضار الذى يدبر جميع الأمور ، وما أدخلهم ذلك فى الإسلام ، والدليل قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبّر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل : أفلا تتقون ﴾ .

القاعدة الثانية : أنهم يقولون ما توجهنا إليهم ودعوناهم إلا لطلب القربة والشفاعة نريد من الله لا منهم لكن بشفاعتهم والتقرب إليهم ، ودليل القربة قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفّار ﴾ . ودليل الشفاعة ، قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

القاعدة الثالثة : أن النبى ﷺ ، ظهر على أناس متفرقين فى عباداتهم منهم من يعبد الشمس والقمر ومنهم من يعبد الصالحين ومنهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الأنبياء ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار وقاتلهم ﷺ ولا فرق بينهم ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ . ودليل الشمس والقمر قوله تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ ودليل الصالحين قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ . ودليل الملائكة قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ .

ودليل الأنبياء قوله تعالى : ﴿ وإذْ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته ، فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . ودليل الأشجار والأحجار حديث أبى واقد الليثى ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة ، فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : « الله أكبر ، إنها السنن قلتم والذى نفسى بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال : أغير الله أبغيكم إلهاً ، وهو فضّلكم على العالمين ﴾ » .

القاعدة الرابعة : أن مشركى زماننا أعظم شركاً من الأولين لأن الأولين يخلصون لله فى الشدة ويشركون فى الرخاء ، ومشركى زماننا شركهم دائم فى الرخاء والشدة . والدليل قوله تعالى : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر ، إذا هم يشركون ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴾ . تمت والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تمـــت

ويليها رسالة أخرى له أيضاً رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا قيل لك : من ربك ؟ فقل : ربى الله . فإذا قيل لك : أى شيء معنى الرب ؟ فقل : المعبود المالك المتصرف . فإذا قيل لك : أى شيء أكبر ما ترى من مخلوقاته ؟ فقل : السموات والأرض . فإذا قيل لك : أى شيء تعرفه به ؟ فقل : أعرفه بآياته ومخلوقاته . وإذا قيل لك : أى شيء أعظم ما ترى من آياته ؟ فقل : الليل والنهار ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم ، مسخّراتٍ بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ﴾ . فإذا قيل لك : أى شيء معنى الله ؟ فقل : معناه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين . فإذا قيل لك : لأى شيء خلقك الله ؟ فقل : لعبادته . فإذا قيل لك : أى شيء عبادته ؟ فقل : توحيده وطاعته . فإذا قيل لك : ما الدليل على ذلك ؟ فقل : قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ . وإذا قيل لك : أى شيء أول ما فرض الله عليك ؟ فقل : كُفْر بالطاغوت ، وإيمان بالله ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ . فإذا قيل لك أى شيء العروة الوثقى ؟ فقل : لا إله إلا الله ومعنى لا إله إلا الله لا إله نفى ، إلا الله إثبات . فإذا قيل لك : أى شيء أنت نافٍ ، وأى شيء أنت مثبت ؟ فقل : نافٍ جميع ما كان يعبد من دون الله ومثبت العبادة لله وحده لا شريك له . فإذا قيل لك : ما الدليل على ذلك ؟ فقل : قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه

وقومه إننى براءٌ مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴾ . فإذا قيل لك : أى شيء النفى ، وأى شيء الإثبات ؟ فقل : دليل النفى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون ﴾ هذا النفى ، ودليل الإثبات ﴿ إلا الذى فطرنى ﴾ . فإذا قيل لك : أى شيء الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ؟ فقل : توحيد الربوبية فعل الرب ، مثل الخلق والرزق والإحياء والإماتة وإنزال المطر وإنبات النبات وتدبير الأمور .

وتوحيد الإلهية ، فعلك أيها العبد ، مثل الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والرغبة والرهبة والنذر والاستعانة وغير ذلك من أنواع العبادة . فإذا قيل لك : أى شيء دينك ؟ فقل : دينى الإسلام ، وأصله وقاعدته أمران : الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والتحريض على ذلك والموالاة فيه ، وتكفير من تركه ، والإنذار عن الشرك فى عبادة الله تعالى والتغليظ فى ذلك ، والمعاداة فيه ، وتكفير من فعله ، وهو مبنى على خمسة أركان : أولها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت مع الاستطاعة . ودليل الشهادة قوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ . ودليل أن محمداً رسول الله ، قوله تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ . والدليل على إخلاص العبادة والصلاة والزكاة ، قوله تعالى : ﴿ وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة ﴾ . ودليل الصوم ، قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، كُتِب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ . ودليل الحج قوله تعالى : ﴿ ولله على الناس

حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر ، فإن الله غنى عن العالمين ﴾ .

وأصول الإيمان ستة : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

والإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . فإذا قيل لك : من نبيك ؟ فقل : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وهاشم من قريش ، وقريش من العرب ، والعرب من ذرية إسماعيل ابن إبراهيم الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، بلده مكة ، وهاجر إلى المدينة وعمره ثلاث وستون سنة ، منها أربعون قبل النبوة ، وثلاث وعشرون نبى رسول . نُبِّيء « باقرأ » ، وأرسل « بالمدثر » .

فإذا قيل : هو ميت أو حى ؟ فقل : مات ودينه باق إلى يوم القيامة والدليل قوله تعالى : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ . والناس إذا ماتوا يبعثون ، والدليل قوله تعالى : ﴿ منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ والذى ينكر البعث كافر ، والدليل قوله تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

تمــت

ويليها مسائل الجاهليــة

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

هذه مسائل الجاهلية

تأليف الشيخ الإمام العالم
محمد بن عبد الوهاب
رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رحمه الله : هذه أمور خالف فيها رسول الله ﷺ ما عليه أهل الجاهلية الكتابيين والأميين مما لا غنى للمسلم عن معرفتها فالضد يظهر حسنه الضد ، وبضدها تتبين الأشياء ، فأهم ما فيها وأشدها خطراً عدم إيمان القلب بما جاء به الرسول ﷺ ، فإن انضاف إلى ذلك استحسان ما عليه أهل الجاهلية تمت الخسارة ، كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ .

المسألة الأولى : أنهم يتعبدون بإشراك الصالحين فى دعاء الله وعبادته يريدون شفاعتهم عند الله ، كما قال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله ﷺ ، فأتى بالإخلاص وأخبر أنه دين الله الذى أرسل به جميع الرسل ، وأنه لا يقبل من الأعمال إلا الخالص وأخبر أن من فعل ما يستحسنونه ، فقد حرّم الله عليه الجنة ، ومأواه النار .

وهذه المسألة ، التى تفرق الناس لأجلها ، بين مسلم وكافر ، وعندها وقعت العداوة ولأجلها شرع الجهاد ، كما قال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ﴾ .

الثانية : أنهم متفرقون فى دينهم ، كما قال تعالى : ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ كذلك فى دنياهم ، ويرون ذلك هو الصواب ، فأتى بالاجتماع فى الدين بقوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا

إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء ﴾ ونهانا عن مشابهتهم بقوله : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ ونهانا عن التفرق فى الدين بقوله : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ .

الثالثة : أن مخالفة ولى الأمر وعدم الانقياد له فضيلة والسمع والطاعة ذل ومهانة فخالفهم رسول الله ﷺ ، وأمر بالصبر على جور الولاة ، وأمر بالسمع والطاعة والنصيحة لهم ، وغلظ فى ذلك وأبدأ فيه وأعاد . وهذه الثلاث التى جمع بينها فيما ذكر عنه فى الصحيحين أنه قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثا ، أن لا تعبدوا إلا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم» ولم يقع خلل فى دين الناس ودنياهم إلا بسبب الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها .

الرابعة : أن دينهم مبنى على أصول أعظمها التقليد فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار ، أولهم وآخرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ فأتاهم بقوله : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ (الآية) . وقوله تعالى : ﴿ اتبعوا ما أُنزِل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون ﴾ .

الخامسة : أن من أكبر قواعدهم الاغترار بالأكثر ويحتجون به على صحة الشيء ويستدلون على بطلان الشيء بغربته وقلة أهله فأتهم الآيات بضد ذلك وأوضحه فى غير موضع من القرآن .

السادسة : الاحتجاج بالمتقدمين ، كقوله : ﴿ ما بال القرون الأولى ﴾ ، وقوله : ﴿ ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ﴾ .

السابعة : الاستدلال بقوم أُعطُوا قوى فى الأفهام والأعمال وفى الملك والمال والجاه ، فرد الله ذلك بقوله : ﴿ ولقد مكنّاهم فيما إن مكنّاكم فيه ﴾ (الآية) . وقوله : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ ، وقوله : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ (الآية) .

الثامنة : الاستدلال على بطلان الشيء بأنه لم يتبعه إلا الضعفاء كقوله : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ . وقوله : ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ فرده الله بقوله : ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ .

التاسعة : الاقتداء بفسقة العلماء ، فأتى بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ وبقوله : ﴿ لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل ﴾ .

العاشرة: الاستدلال على بطلان الدين بقلة أفهام أهله وعدم حفظهم كقوله : ﴿ بادى الرأى ﴾ .

الحادية عشرة : الاستدلال بالقياس الفاسد ، كقوله : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ .

الثانية عشرة : إنكار القياس الصحيح والجامع لهذا وما قبله عدم فهم الجامع والفارق .

الثالثة عشرة : الغلو فى العلماء والصالحين ، كقوله : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ .

الرابعة عشرة : أن كل ما تقدم مبنى على قاعدة وهى النفى والإثبات فيتبعون الهوى والظن ويعرضون عما آتاهم الله .

الخامسة عشرة : اعتذارهم عن اتباع ما آتاهم الله بعدم الفهم . كقوله : ﴿ قلوبنا غلف ﴾ ، وقوله : ﴿ يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ﴾ . فأكذبهم الله وبيّن أن ذلك بسبب الطبع على قلوبهم ، والطبع بسبب كفرهم .

السادسة عشرة : اعتياضهم عن ما أتاهم من الله بكتب السحر كما ذكر الله ذلك فى قوله : ﴿ نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ﴾ .

السابعة عشرة : نسبة باطلهم إلى الأنبياء ، كقوله : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ وقوله : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ .

الثامنة عشرة : تناقضهم فى الانتساب ينتسبون إلى إبراهيم مع إظهارهم ترك اتِّباعِه .

التاسعة عشرة : قدحهم فى بعض الصالحين بفعل بعض المنتسبين كقدح اليهود فى عيسى وقدح اليهود والنصارى فى محمد ﷺ .

العشرون : اعتقادهم فى مخاريق السحرة وأمثالهم أنها من كرامات الصالحين ونسبته إلى الأنبياء كما نسبوه لسليمان .

الحادية والعشرون : تعبدهم بالمكاء والتصدية .

الثانية والعشرون : أنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً .

الثالثة والعشرون : أن الحياة الدنيا غرتهم فظنوا أن عطاء الله منها يدل على رضاه ، كقوله : ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ .

الرابعة والعشرون : ترك الدخول فى الحق إذا سبقهم إليه الضعفاء تكبراً وأنفةً ، فأنزل الله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ (الآيات) .

الخامسة والعشرون : الاستدلال على بطلانه بسبق الضعفاء ، كقوله : ﴿ لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ .

السادسة والعشرون : تحريف كتاب الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

السابعة والعشرون : تصنيف الكتب الباطلة ونسبتها إلى الله كقوله : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾ (الآية) .

الثامنة والعشرون : أنهم لا يعقلون من الحق إلا الذى مع طائفتهم كقوله : ﴿ نؤمن بما أُنزِل علينا ﴾ .

التاسعة والعشرون : أنهم مع ذلك لا يعلمون بما تقوله الطائفة كما نبه الله عليه بقوله : ﴿ فَلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ .

الثلاثون : وهى من عجائب آيات الله أنهم لما تركوا وصية الله بالاجتماع وارتكبوا ما نهى الله عنه من الآفة ، صار كل حزب بما لديهم فرحون .

الحادية والثلاثون : وهى من عجائب الله أيضا ، معاداتهم الدين الذى انتسبوا إليه غاية العداوة ومحبتهم دين الكفار الذين عادوهم وعادوا نبيهم وفتنتهم غاية المحبة كما فعلوا مع النبى ﷺ لما أتاهم بدين موسى واتبعوا كتب السحر وهى من دين آل فرعون .

الثانية والثلاثون : كفرهم بالحق إذا كان مع من لا يهوونه كما قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيءٍ ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴾ (الآية) .

الثالثة والثلاثون : إنكارهم ما أقروا أنه من دينهم كما فعلوا فى حجِّ البيت ، فقال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلا من سَفِه نَفْسَه ﴾ .

الرابعة والثلاثون : أن كل فرقة تدعى أنها الناجية فأكذبهم الله بقوله : ﴿ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ ، ثم بيّن الصواب بقوله : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسنٌ ﴾ (الآية) .

الخامسة والثلاثون : التعبد بكشف العورات كقوله : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ (الآية) .

السادسة والثلاثون : التعبد بتحريم الحلال كما تُعُبِّد بالشرك .

السابعة والثلاثون : التعبد باتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله .

الثامنة والثلاثون : الإلحاد فى الصفات ، كقوله تعالى : ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ﴾ .

التاسعة والثلاثون : الإلحاد فى الأسماء كقوله : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ .

الأربعون : التعطيل كقول آل فرعون .

الحادية والأربعون : نسبة النقائص إليه .

الثانية والأربعون : الشرك فى الملك كقول المجوس .

الثالثة والأربعون : جحود القدر .

الرابعة والأربعون : الاحتجاج على الله .

الخامسة والأربعون : معارضة شرع الله بقدره .

السادسة والأربعون : مسبة الدهر ، كقولهم : ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ .

السابعة والأربعون : إضافة نعم الله إلى غيره ، كقوله : ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ .

الثامنة والأربعون : الكفر بآيات الله .

التاسعة والأربعون : جحد بعضها .

الخمسون : قولهم : ﴿ ما أَنْزَل الله على بشر من شىء ﴾ .

الحادية والخمسون : قولهم فى القرآن : ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ .

الثانية والخمسون : القدح فى حكمة الله تعالى .

الثالثة والخمسون : أعمال الحيل الظاهرة والباطنة فى دفع ما جاءت به الرسل ، كقوله : ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أُنزِل على الذين آمنوا وجه النهار ﴾ .

الرابعة والخمسون : الإقرار بالحق ليتوصلوا به إلى دفعه كما قال فى الآية .

الخامسة والخمسون : التعصب للمذهب ، كقوله فيها : ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ .

السادسة والخمسون : تسمية اتِّباع الإسلام شركا كما ذكره فى قوله تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتابَ والحُكْمَ والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ﴾ (الآيتين) .

السابعة والخمسون : تحريف الكلم عن مواضعه .

الثامنة والخمسون : تلقيب أهل الهدى بالصُباة والحشوية .

التاسعة والخمسون : افتراء الكذب على الله .

الستون : كونهم إذا غُلبوا بالحجة فزعوا إلى الشكوى للملوك كما قال : ﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ﴾ .

الحادية والستون : رميهم إياهم بالفساد فى الأرض كما فى الآية .

الثانية والستون : رميهم إياهم بانتقاص دين الملك كما قال الله : ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ إنى أخاف أن يُبدِّلَ دينَكم ﴾ (الآية) .

الثالثة والستون : رميهم إياهم بانتقاص آلهة الملك كما قال فى الآية .

الرابعة والستون : رميهم إياهم بتبديل الدين كما قال : ﴿ إنى أخاف أن يبدِّلَ دينكم ، أو أن يُظْهِرَ فى الأرض الفساد ﴾ .

الخامسة والستون : رميهم إياهم بانتقاص الملك ، كقولهم : ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ .

السادسة والستون : دعواهم العمل بما عندهم من الحق ، كقوله : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ مع تركهم إياه .

السابعة والستون : الزيادة فى العبادة كفعلهم يوم عاشوراء .

الثامنة والستون : نقصهم منها كتركهم الوقوف بعرفات .

التاسعة والستون : تركهم الواجب ورعاً .

السبعون : تعبدهم بترك الطيبات من الرزق .

الحادية والسبعون : تعبُّدهم بترك زينة الله .

الثانية والسبعون : دعواهم الناس إلى الضلال بغير علم .

الثالثة والسبعون : دعواهم محبة الله مع تركهم شرعه فطالبهم الله بقوله : ﴿ إن كنتم تحبون الله ﴾ (الآية) .

الرابعة والسبعون : دعواهم إياهم إلى الكفر مع العلم .

الخامسة والسبعون : المكر الكُبَّار كفعل قوم نوح .

السادسة والسبعون : أن أئمتهم إما عالم فاجر وإما عابد جاهل كما فى قوله : ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ﴾ إلى قوله : ﴿ ومنهم أميّون ﴾ (الآية) .

السابعة والسبعون : تمنيهم الأمانى الكاذبة ، كقولهم : ﴿ لن تمسنا

النار إلا أياما معدودةً ﴾ ، وقولهم : ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ .

الثامنة والسبعون : اتخاذ قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد .

التاسعة والسبعون : اتخاذ آثار أنبيائهم مساجد كما ذُكر عن عمر .

الثمانون : اتخاذ السُّرُج على القبور .

الحادية والثمانون : اتخاذها أعياداً .

الثانية والثمانون : الذبح عند القبور .

الثالثة والثمانون : التبرك بآثار المعظمين ، كدار الندوة ، وافتخار من كانت تحت يده بذلك كما قيل لحكيم بن حزام بعث مكة قريش فقال ذهب المكارم إلا التقوى .

الرابعة والثمانون : الفخر بالأحساب .

الخامسة والثمانون : الاستسقاء بالأنواء .

السادسة والثمانون : الطعن فى الأنساب .

السابعة والثمانون : النياحة .

الثامنة والثمانون : أن أجل فضائلهم الفخر بالأنساب ، فذكر الله فيه ما ذكر .

التاسعة والثمانون: أن أجل فضائلهم أيضا الفخر ولو بحق فنهى عنه.

التسعون : أن الذى لابد منه عندهم تعصب الإنسان لطائفته ونصر من هو منها ظالماً أو مظلوماً فأنزل الله فى ذلك ما أنزل .

الحادية والتسعون : أن دينهم أخذ الرجل بجريمة غيره ، فأنزل الله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

الثانية والتسعون : تعيير الرجل بما فى غيره فقال : « أعيّرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية » .

الثالثة والتسعون : الافتخار بولاية البيت فَذَمَّهم الله بقوله : ﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾ .

الرابعة والتسعون : الافتخار بكونهم ذرية الأنبياء فأتى الله بقوله : ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ﴾ (الآية) .

الخامسة والتسعون : الافتخار بالصنائع كفعل أهل الرحلتين على أهل الحرث .

السادسة والتسعون : عظمة الدنيا فى قلوبهم ، كقولهم : ﴿ لولا أُنزِل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ .

السابعة والتسعون : التحكم على الله كما فى الآية .

الثامنة والتسعون : ازدراء الفقراء ، فأتاهم بقوله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾ .

التاسعة والتسعون : رميهم أتْباع الرسول بعدم الإخلاص وطلب الدنيا ، فأجابهم بقوله : ﴿ ما عليك من حسابهم من شىء ﴾ (الآية وأمثالها) .

المائة : الكفر بالملائكة .

الحادية بعد المائة : الكفر بالرسل .

الثانية بعد المائة : الكفر بالكتب .

الثالثة بعد المائة : الإعراض عن ما جاء عن الله .

الرابعة بعد المائة : الكفر باليوم الآخر .

الخامسة بعد المائة : التكذيب بلقاء الله .

السادسة بعد المائة : التكذيب ببعض ما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر ، كما فى قوله : ﴿ أولئك الذين كذَّبوا بآيات ربهم ولقائه ﴾ ومنها التكذيب بقوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ، وقوله : ﴿ لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ وقوله : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ .

السابعة بعد المائة : الإيمان بالجبت والطاغوت .

الثامنة بعد المائة : تفضيل دين المشركين على دين المسلمين .

التاسعة بعد المائة : لبس الحق بالباطل .

العاشرة بعد المائة : كتمان الحق مع العلم به .

الحادية عشرة بعد المائة : قاعدة الضلال وهى القول على الله بلا علم .

الثانية عشرة بعد المائة : التناقض الواضح لما كذبوا الحق كما قال تعالى : ﴿ بل كذَّبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج ﴾ .

الثالثة عشرة بعد المائة : الإيمان ببعض المنزل دون بعض .

الرابعة عشرة بعد المائة : التفريق بين الرسل .

الخامسة عشرة بعد المائة : مخالفتهم فيما ليس لهم به علم .

السادسة عشرة بعد المائة : دعواهم اتباع السلف مع التصريح بمخالفتهم .

السابعة عشرة بعد المائة : صدهم عن سبيل الله من آمن به .

الثامنة عشرة بعد المائة : مودتهم الكفر والكافرين .

التاسعة عشرة بعد المائة والعشرون والحادية والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعشرون والثلاثون بعد المائة : العيافة والطرق والطيرة والكهانة والتحاكم إلى الطاغوت وكراهة التزويج بين العيدين والله أعلم . وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تمـت

ويليها كشف الشبهات

تأليف الشيخ الإمام العلامة والقدوة الفهامة

الشيخ محمد بن عبد الوهـاب

كتـــاب كشـــف الشبهـــات

تأليف الشيخ الإمام العلامة والقدوة الفهامة الشيخ

محمد بن عبد الوهـــاب النجـــدى

رفع الله فى الفردوس مقامـــه آميـــن

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه بالعبادة ، وهو دين الرسل الذى أرسلهم الله به إلى عباده فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غَلَوا فى الصالحين ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر وآخر الرسل محمد ﷺ وهو الذى كسر صُوَر هؤلاء الصالحين ، أرسله الله إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله يقولون نريد منهم التقرب إلى الله ونريد شفاعتهم عنده مثل الملائكة وعيسى ومريم وأناس غيرهم من الصالحين فبعث الله محمدا ﷺ يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله لا يصلح منه شيء لا لملك مقرب ولا نبى مرسل فضلا عن غيرهما وإلا فهؤلاء المشركون مقرون يشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده لا شريك له وأنه لا يرزق إلا هو ولا يحيى ولا يميت إلا الله ولا يدبّر الأمر إلا هو وأن جميع السماوات السبع ومن فيهن والأرضين ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون بهذا فاقرأ قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يُخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ وقوله : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون ﴾ إلى قوله : ﴿ فأنَّى تُسْحَرون ﴾ وغير ذلك من الآيات .

فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا ولم يدخلهم فى التوحيد الذى دعاهم إليه رسول الله ﷺ ، وعرفت أن التوحيد الذى جحدوه هو توحيد العبادة ، الذى يسميه المشركون فى زماننا الاعتقاد ، كما كانوا يدعون الله سبحانه ، ليلاً ونهاراً ، ثم منهم من يدعو الملائكة ، لأجل صلاحهم وقربهم من الله ، ليشفعوا له ، أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللات ، أو نبياً مثل عيسى . وعرفت أن رسول الله ﷺ ، قاتلهم على هذا الشرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ (الآية) . وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله والذبح كله لله والنذر كله لله والاستغاثة كلها بالله وجميع أنواع العبادة كلها لله . وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يُدخلهم فى الإسلام وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذى أحل دماءهم وأموالهم . عرفت حينئذٍ التوحيد الذى دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون .

وهذا التوحيد هو معنى قولك لا إله إلا الله ، فإن الإله عندهم هو الذى يُقْصَد لأجل هذه الأمور ، سواءٌ أكان ملكاً ، أو نبياً ، أو ولياً أو شجرة أو قبراً أو جنياً لم يريدوا أن الإله هو الخالق الرازق المدبر فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قدمت لك وإنما يعنون بالإله ما يعنى المشركون فى زماننا بلفظ السيد فأتاهم النبى ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد ، وهى لا إله إلا الله .

والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبى ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله بالتعلق والكفر بما يعبد من

دونه والبراءة منه فإنه لما قال لهم : قولوا لا إله إلا الله قالوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عُجَاب ﴾ .

فإذا عرفتَ أن جُهَّال الكفار يعرفون ذلك ، فالعجب ممن يدعى الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جُهَّال الكفار بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعانى والحاذق منهم يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق إلا الله ولا يدبر الأمر إلا الله ، فلا خير فى رجل ، جُهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله .

إذا عرفتَ ما قلتُ لك معرفة قلب ، وعرفتَ الشرك بالله الذى قال الله فيه : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ (الآية) . وعرفت دين الله الذى بعث به الرسل من أولهم إلى آخرهم الذى لا يقبل الله من أحد سواه ، وعرفتَ ما أصبح غالب الناس فيه من الجهل بهذا ، أفادك فائدتين :

الأولى : الفرح بفضل الله وبرحمته كما قال تعالى : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ ، وأفادك أيضاً الخوف العظيم فإنك إذا عرفتَ أن الإنسان يكفُر بكلمة يخرجها من لسانه وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذر بالجهل وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله كما ظن المشركون خصوصاً إن ألهمكَ الله ما قَصَّ عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم أنهم أتوه قائلين : ﴿ اجْعَلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ فحينئذٍ يعظم خوفك وحرصك على ما يخلصك من هذا وأمثاله .

واعلم أن الله سبحانه ، من حكمته ، لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ . وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة ، وكتب وحجج ، كما قال تعالى :

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات ، فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ .

إذا عرفتَ ذلك ، وعرفت أن الطريق إلى الله لابد له من أعداء ، قاعدين عليه ، أهل فصاحةٍ وعلمٍ وحججٍ ، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحاً لك تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامُهم ومقدمُهم لربك عز وجل : ﴿ لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أَيْمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ . ولكن إذا أقبلت على الله وأصغيت إلى حجج الله وبيناته ، فلا تخف ولا تحزن إن كيد الشيطان كان ضعيفا .

والعاميُّ من الموحدين ، يغلب الأَلْفَ من علماء هؤلاء المشركين ، كما قال تعالى : ﴿ وإن جندَنا لَهُمُ الغالبون ﴾ . فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان ، وإنما الخوف على الموحِّد الذى يسلك الطريق وليس معه سلاح . وقد منّ الله علينا بكتابه ، الذى جعله تبياناً لكل شىء ، وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين ، فلا يأتى صاحب باطل بحجة ، إلا وفى القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يأتونك بِمَثَلٍ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ . قال بعض المفسرين : هذه الآية عامة فى كل حجة يأتى بها أهل الباطل إلى يوم القيامة .

وأنا أذكر لك أشياء ، مما ذكر الله فى كتابه ، جوابا لكلام احتج به المشركون ، فى زماننا علينا .

فنقول : جواب أهل الباطل من طريقين : مجمل ومفصل . أما المجمل فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها ، وذلك قوله تعالى : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات ، هن أُمُّ الكتاب ، وأُخَرُ متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء

تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ . وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَّى الله فاحذروهم » .

مثال ذلك ، إذا قال لك بعض المشركين : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ أو أن الشفاعة حق ، أو أن الأنبياء لهم جاه عند الله أو ذَكَرَ كلاماً للنبى ﷺ يستدل به على شىء من باطله وأنت لا تفهم معنى الكلام الذى ذكره فجاوبه بقولك : إن الله ذَكَر فى كتابه أن الذين فى قلوبهم زيغ يتركون المحْكَم ويتبعون المتشابه وما ذكرته لك من أن الله ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية وأنه كَفّرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ هذا أمر محكم بين لا يقدر أحد أن يغير معناه ، وما ذكرتَه لى أيها المشرك من القرآن أو من كلام رسول الله ﷺ ، لا أعرف معناه ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأن كلام النبى ﷺ لا يخالف كلام الله عز وجل وهذا جواب جيد سديد ، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله ، فلا تستهن ، فإنه كما قال تعالى : ﴿ وما يُلَقَّاهَا إلا الذين صَبَرُوا وما يُلَقَّاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ .

وأما الجواب المفصل : فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة على دين الرسل ، يصدون بها الناس عنه ، منها قولهم : نحن لا نشرك بالله بل نشهد ، أنه لا يخلُق ، ولا يرزُق ، ولا ينفَع ، ولا يضر إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا ﷺ لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً فضلا عن عبد القادر أو غيره ولكن أنا مذنب والصالحون لهم جاه عند الله وأطلب من الله بهم ، فجاوبه بما تقدم وهو أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بما ذكرت ، ومقرون أن أوثانهم لا تدبر شيئا وإنما أرادوا الجاه والشفاعة ، واقرأ عليه ما ذكر الله

فى كتابه ووضحه ، فإن قال هؤلاء : الآيات نزلت فيمن يعبدون الأصنام ، كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام ، أم كيف تجعلون الأنبياء أصناما ، فجاوبه بما تقدم ، فإنه إذا أقرَّ أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله وأنهم ما أرادوا ممن قصدوا إلا الشفاعة ولكنِ إذا أراد أن يفرق بين فعلهم وفعلِه بما ذَكَر ، فاذكر له أن الكفار منهم من يدعو الأصنام ، ومنهم من يدعو الأولياء ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ (الآية) . ويدعون عيسى ابن مريم وأمه . وقد قال تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأمه صِدِيقَةٌ كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنَّى يُؤْفَكُونِ . قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم ﴾ واذكر له قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنتُ قُلتُه ، فقد علمتَه ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علَّام الغيوب ﴾ . وقل له عرفت أن الله كفَّر من قَصد الأصنام ، وكفّر أيضاً من قَصَد الصالحين وقاتلهم رسول الله ﷺ .

فإن قال : الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار المدبر ، لا أريد إلا منه ، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم .

فالجواب : أن هذا قول الكفار سواء بسواء ، واقرأ عليه قوله تعالى :

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ .

واعلم أن هذه الشُّبَهَ الثلاث ، هى أكبر ما عندهم ، فإذا عرفت أن الله وضّحها فى كتابه ، وفهمتها فهماً جيداً ، فما بعدها أيسر منها . فإن قال : أنا لا أعبد إلا الله ، وهذا الالتجاء إليهم ، ودعاؤهم ليس بعبادة . فقل له : أنت تقرُّ أن الله افترض عليك إخلاص العبادة لله ، فإذا قال : نعم ، فقل له : بيّن لى هذا الذى فرضه الله عليك ، وهو إخلاص العبادة لله ، وهو حقه عليك ، فإن كان لا يعرف العبادة ، ولا أنواعها ، فبيِّنْها له بقولك : قال الله تعالى : ﴿ أُدعوا ربكم تضرعا وخُفْية ، إنه لا يحب المعتدين ﴾ فإذا أعلمتَه بهذا ، فقل له : هل علمتَ هذا عبادة الله ، فلابد أن يقول : نعم ، والدعاء مخ العبادة ، فقل له : إذا قررت أنها عبادة ودعوت الله ليلا ونهارا خوفاً وطمعاً ثم دعوتَ فى تلك الحاجة نبياً أو غيره هل أشركت فى عبادة الله غيره ؟ فلابد أن يقول نعم ، فقل له : إذا علمت بقول الله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لربك وانحر ﴾ وأطعت الله ونحرت له ، هل هذا عبادة؟ فلابد أن يقول نعم ، فقل له : فإن نحرت لمخلوقٍ نبيٍ أو جنيٍ أو غيرهما هل أشركت فى هذه العبادة غير الله؟ فلابد أن يقر ويقول نعم ، وقل له أيضا : المشركون الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك فلابد أن يقول نعم ، فقل له : وهل كانت عبادتهم إياهم إلا فى الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره وأن الله هو الذى يدبر الأمر ولكن دعوهم والتجأوا إليهم للجاه والشفاعة وهذا ظاهر جدا .

فإن قال : أَتُنْكِر شفاعة رسول الله ﷺ وتَبْرَأُ منها ؟ فقل

لا أنكرها ولا أتبرأ منها ، بل هو ﷺ الشافع المشفع ، وأرجو شفاعته ، ولكن الشفاعة كلها لله تعالى كما قال تعالى : ﴿ قل لله الشفاعة جميعا ﴾ ، ولا تكون إلا من بعد إذْن الله كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ولا يشفع فى أحد إلا بعد أن يأذن الله فيه ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ ، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يُقْبل منه ﴾ ، فإذا كانت الشفاعة كلها لله ولا تكون إلا من بعد إذنه ولا يشفع النبى ﷺ ولا غيره فى أحد حتى يأذن الله فيه ، ولا يأذن الله إلا لأهل التوحيد ، تبين لك أن الشفاعة كلها لله واطلبها منه .

فأقول : اللهم لا تحرمنى شفاعته اللهم شفعه فىَّ وأمثال هذا ، فإن قال النبى ﷺ : أُعْطِى الشفاعة ، وأنا أطلبه مما أعطاه الله .

فالجواب : أن الله أعطاه الشفاعة ، ونهاك عن هذا كما قال تعالى : ﴿ فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ ، فإذا كنت تدعو الله أن يشفع نبيه فيك فأَطِعْه فى قوله ، فلا تدعُ مع الله أحدا . وأيضاً فإن الشفاعة أعطيها غير النبى ﷺ فَصَحَّ أن الملائكة يشفعون والأَفْراط يشفعون والأولياء يشفعون ، أتقول إن الله أعطاهم الشفاعة فاطلبها منهم ، فإن قلت : هذا رجعت إلى عبادة الصالحين التى ذكرها الله فى كتابه وإن قلت : لا بطل قولك أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله .

فإن قال : أنا لا أشرك بالله شيئا ، حاشا وكلا ، ولكن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك ، فقل له : إذا كنت تقرُّ أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا ، وتقر أن الله لا يغفره ، فما هذا الأمر الذى حرمه الله وذكر أنه لا يغفره ، فإنه لا يدرى ، فقل له : كيف تبرىء نفسك من الشرك

وأنت لا تعرفه ، كيف يحرِّم الله عليك هذا ، ويذكر أنه لا يغفره ، ولا تسأل عنه ولا تعرفه ، أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا ، فإن قال : الشرك عبادة الأصنام ، ونحن لا نعبد الأصنام ، فقل له : ما معنى عبادة الأصنام ، أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها فهذا يكذبه القرآن . وإن قال : هو من قَصَد خشبة ، أو حجرا ، أو أبنية على قبر ، أو غيره ، يدعون ذلك ويذبحون له ، يقولون إنه يقربنا إلى الله زلفى ، ويدفع الله عنا ببركته ، أو يعطينا ببركته ، فقل : صدقت ، وهذا هو فعلكم عند الأحجار ، والأبنية التى على القبور وغيرها ، فهذا أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام ، فهو المطلوب .

ويقال له أيضاً ، قولك : الشرك عبادة الأصنام ، هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا ، وأن الاعتماد على الصالحين ودعائهم ، لا يدخل فى ذلك فهذا يرد ما ذكره الله فى كتابه ، من كُفْر من تعلق على الملائكة ، أو عيسى ، أو الصالحين ، فلابد أن يقر لك أن من أشرك فى عبادة الله أحدا من الصالحين ، فهذا هو الشرك المذكور فى القرآن ، وهذا هو المطلوب .

وسر المسألة أنه قال : أنا لا أشرك بالله ، فقل له : وما الشرك بالله ، فَسِّرْه لى ، فإن قال : هو عبادة الأصنام ، فقل : وما معنى عبادة الأصنام فَسِّرْها لى . فإن قال : أنا لا أعبد إلا الله فقل : ما معنى عبادة الله فَسِّرْها لى ، فإن فسَّرَها بما بينه القرآن فهو المطلوب ، وإن لم يعرفه فكيف يدَّعى شيئاً وهو لا يعرفه ، وإن فسر ذلك بغير معناه بينت له الآيات الواضحات فى معنى الشرك بالله وعبادة الأوثان ، إنه الذى يفعلونه فى هذا الزمان بعينه ، وأن عبادة الله وحده لا شريك له هى التى ينكرونها علينا ، ويصيحون فيه ، كما صاح إخوانهم ، حيث قالوا: ﴿ أَجَعَل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ ، فإذا عرفت أن هذا الذى يسميه المشركون فى

زماننا الاعتقاد ، هو الشرك الذى نزل فيه القرآن ، وقاتل رسول الله ﷺ الناس عليه .

فاعلم أن شرك الأولين أخَفُّ من شرك أهل زماننا بأمرين :

أحدهما : أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا فى الرخاء ، وأما فى الشدة فيخلصون لله الدين كما قال تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضَلَّ من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كَفُوراً ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أَغَيْرَ الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسَوْن ما تشركون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإذا مسَّ الإنسان ضُرٌّ دعا ربه منيباً إليه ﴾ إلى قوله : ﴿ قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾ وقوله : ﴿ وإذا غشيهم موجٌ كالظُّلل دَعَوُا الله مخلصين له الدين ﴾ . فمن فهم هذه المسألة التى وضحها الله فى كتابه وهى أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ ، يدعون الله ، ويدعون غيره فى الرخاء ، وأما فى الضر والشدة ، فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له وينسون ساداتهم ، تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا ، وشرك الأولين ، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً راسخاً والله المستعان .

والأمر الثانى : أن الأولين يدعون مع الله أناسا مقربين عند الله إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة ، أو يدعون أحجاراً أو أشجاراً مطيعة لله ليست عاصية وأهل زماننا يدعون مع الله أناسا من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك والذى يعتقد فى الصالح أو الذى لا يعصى مثل الخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به .

إذا تحققتَ أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ ، أصح عقولا وأخف شركا من هؤلاء ، فاعلم أن لهؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا وهى أعظم شُبَهِهِمْ فأصغ سمعك لجوابها .

وهى ، أنهم يقولون إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أنْ لا إله إلا الله ، ويكذبون الرسول ﷺ ، وينكرون البعث ويكذبون القرآن ويجعلونه سحرا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ونصدق القرآن ونؤمن بالبعث ونصلى ونصوم فكيف تجعلوننا مثل أولئك ؟

فالجواب : أنه لا خلاف بين العلماء كلهم ، أن الرجل إذا صَدَّق رسول الله ﷺ فى شىء وكَذَّبه فى شىء أنه كافر لم يدخل فى الإسلام وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه ، كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة أو أقر بالتوحيد والصلاة وجحد وجوب الزكاة أو أقر بهذا كله وجحد الصوم أو أقر بهذا كله وجحد الحج ولما لم ينقد أناس فى زمن النبى ﷺ للحج أنزل الله فى حقهم : ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين﴾ ، ومن أقر بهذا كله وجحد البعث ، كفر بالإجماع وحَلَّ دمه وماله ، كما قال تعالى : ﴿إن الذين يكفرون بالله ورُسُلِه ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً﴾ (الآية) .

فإذا كان الله قد صَرَّح فى كتابه ، أنَّ من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقا ، زالت الشبهة ، وهذه هى التى ذكرها بعض أهل الأحساء فى كتابه الذى أرسله إلينا . ويقال أيضاً إذا كنت تُقِرُّ أنَّ من صدَّق الرسول فى كل شىء وجحد وجوب الصلاة فهو كافر ، حلال الدم والمال بالإجماع

وكذلك إذا أقر بكل شيء إلا البعث وكذلك لو جَحد وجوب صوم رمضان وكذب بذلك كله لا يجحد هذا ولا تختلف المذاهب فيه وقد نطق به القرآن كما قدمنا فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبى ﷺ وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج . فكيف إذا جحد الإنسان شيئا من هذه الأمور كَفَر ، ولو عمل بكل ما جاء به الرسول وإذا جحد التوحيد الذى هو دين الرسل كلهم لا يكفر . سبحان الله ! ما أعجب هذا الجهل !

ويقال أيضاً ، هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ ، قاتلوا بنى حنيفة ، وقد أسلموا مع النبى ﷺ ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، ويؤذنون ويصلون ، فإن قال : إنهم يقولون ، إن مسيلمة نبى ، قلنا : هذا هو المطلوب ، إذا كان من رفع رجلا فى رتبة النبى ﷺ كَفَر وحَلَّ ماله ودمه ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة ، فكيف بمن رفع شمسان أو يوسف أو صحابيا أو نبياً فى رتبة جبار السموات والأرض سبحان الله ما أعظم شأنه : ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ . ويقال أيضاً الذين حَرَّقهم على ابن أبى طالب بالنار كلهم يدعون الإسلام وهم من أصحاب على رضى الله عنه وتعلموا العلم من الصحابة ولكن اعتقدوا فى علىّ مثل الاعتقاد فى يوسف وشمسان وأمثالهما ، فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكُفْرهم ؟ أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين؟ أتظنون أن الاعتقاد فى تاج وأمثاله لا يضر ، والاعتقاد فى على بن أبى طالب يكفر .

ويقال أيضاً : بنو عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر فى زمن بنى العباس ، كلهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،

ويدَّعون الإسلام ، ويصلون الجمعة والجماعة ، فلما أظهروا مخالفة الشريعة فى أشياء دون ما نحن فيه ، أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم ، وأن بلادهم بلاد حرب ، وغزاهم المسلمون حتى استنفذ ما بأيديهم من بلدان المسلمين . ويقال أيضاً : إذا كان الأولون لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين الشرك ، وتكذيب الرسول والقرآن ، وإنكار البعث ، وغير ذلك ، فما معنى الباب الذى ذكر العلماء فى كل مذهب .

باب : حكم المرتد وهو المسلم يكفُر بعد إسلامه ثم ذكروا أنواعاً كثيرة كل نوع منها يكفر ويحل دم الرجل وماله حتى إنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه أو كلمة يذكرها على وجه المزاح واللعب . ويقال أيضاً : الذين قال الله فيهم : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ﴾ ، أما سمعتَ الله كَفَّرَهم بكلمة مع كونهم فى زمن رسول الله ﷺ وهم يجاهدون معه ويصلون معه ويزكون ويحجون ويوحدون ، وكذلك الذين قال الله فيهم : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ فهؤلاء الذين صرح الله أنهم كفروا بعد إيمانهم وهم مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزاح فتأمل هذه الشبهة وهى قولهم تُكفِّرون المسلمين أناسا يشهدون أن لا إله إلا الله ويصلون ويصومون ثم تأمل جوابها فإنه من أنفع ما فى هذه الأوراق .

ومن الدليل على ذلك أيضاً ، ما حكى الله عن بنى إسرائيل مع إسلامهم وعلمهم وصلاحهم أنهم قالوا لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ وقول أناس من الصحابة : اجعل لنا ذات أنواط فحلف رسول الله ﷺ أن هذا مثل قول بنى إسرائيل : « اجعل لنا إلهاً » ولكن للمشركين شبهة يُدْلون بها عند هذه القصة ، وهى أنهم يقولون : إن بنى إسرائيل لم يكفروا

بذلك وكذلك الذين قالوا للنبى ﷺ : اجعل لنا ذات أنواطٍ لم يكفروا .

فالجواب : أن تقول إن بنى إسرائيل لم يفعلوا ، وكذلك الذين سألو النبى ﷺ لم يفعلوا ولا خلاف أن بنى إسرائيل لو فعلوا ذلك لكفروا وكذلك لا خلاف أن الذين نهاهم النبى ﷺ لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا وهذا هو المطلوب ولكن هذه القصة تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع فى أنواع من الشرك لا يدرى عنها فتفيد التعلم والتحرز ومعرفة أن قول الجاهل التوحيد فهمناه أن هذا أكبر الجهل ومكائد الشيطان وتفيد أيضاً أن المسلم المجتهد إذا تكلم بكلام كفر وهو لا يدرى فنبه على ذلك وتاب من ساعته أنه لا يكفر كما فعل بنو إسرائيل والذين سألوا رسول الله ﷺ وتفيد أيضاً أنه لو لم يكفر فإنه يغلظ عليه الكلام تغليظاً شديداً كما فعل رسول الله ﷺ . ولهم شبهة أخرى يقولون : إن النبى ﷺ أنكر على أسامة قَتْل من قال لا إله إلا الله وقال : « أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله » وكذلك قوله : « أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » وأحاديث أخرى فى الكفِّ عمن قالها ، ومراد هؤلاء الجهلة ، أن من قالها ، لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل .

فيقال لهؤلاء المشركين الجهال : معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسَبَاهم وهم يقولون لا إله إلا الله وأن أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بنى حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويصلون ، ويدَّعون الإسلام ، وكذلك الذين أحرقهم على ابن أبى طالب ، وهؤلاء الجهلة ، مُقَرُّون أن من أنكر البعث كفر وقتل ، ولو قال لا إله إلا الله وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها ، فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئاً من الفروع ، وتنفعه إذا جحد التوحيد الذى هو

أصل دين الرسل ورأسه ، ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث فأما حديث أسامة ، فإنه قتل رجلا ادَّعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادَّعاه إلا خوفاً على دمه وماله ، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك ، وأنزل الله فى ذلك : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ﴾ أى فتثبتوا ، فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت ، فإنْ تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قُتِل ، لقوله : « فتبينوا »، ولو كان لا يُقْتل إذا قالها لم يكن للتثبيت معنى، وكذلك الحديث الآخر وأمثاله ، معناه ما ذكرناه ، أن من أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكف عنه ، إلا أن تبين منه ما ينقض ذلك . والدليل على هذا ، أن رسول الله ﷺ ، هو الذى قال : « أَقَتَلْتَه بعدما قال لا إله إلا الله ؟ » . وقال : « أُمِرْتُ أن أقاتل الناس ، حتى يقولوا لا إله إلا الله » ، وهو الذى قال فى الخوارج : « أينما لقيتموهم فاقتلوهم لئن أدركتُهم لأقتلنهم قتل عادٍ » ، مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلا ، حتى إن الصحابة يحْقرون أنفسهم عندهم ، وهم تعلموا العلم من الصحابة ، فلم تنفعهم لا إله إلا الله ، ولا كثرة العبادة ، ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة ، وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود ، وقتال الصحابة بنى حنيفة .

وكذلك أراد ﷺ أن يغزو بنى المصطلق لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ ، وكان الرجل كاذبا عليهم ، فكل هذا يدل على أن مراد النبى ﷺ فى الأحاديث ما ذكرناه .

ولهم شبهة أخرى وهى ما ذكر النبى ﷺ أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى فكلهم يعتذرون حتى

ينتهوا إلى رسول الله ﷺ قالوا : فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركا .

فالجواب : أن تقول سبحان من طبع على قلوب أعدائه فإن الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها كما قال تعالى فى قصة موسى : ﴿ فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ﴾ وكما يستغيث الإنسان بأصحابه فى الحرب وغيره فى الأشياء التى يقدر عليها المخلوق ، ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التى يفعلونها عند قبور الأولياء ، أو فى غيبتهم ، فى الأشياء التى لا يقدر عليها إلا الله .

إذا ثبت ذلك ، فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة ، يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس ، حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف ، وهذا جائز فى الدنيا وفى الآخرة ، أن تأتى عند رجل صالح حى يجالسك ويسمع كلامك وتقول له ادع الله لى كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه فى حياته ، وأما بعد موته ، فحاشا وكلا أنهم سألوه عند قبره ، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره ، فكيف دعاؤه نفسه ؟!

ولهم شبهة أخرى : وهى قصة إبراهيم لما أُلْقى فى النار اعترض له جبرائيل فى الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال إبراهيم عليه السلام : أما إليك فلا . قالوا : فلو كانت الاستغاثة بجبرائيل شركاً ، لم يعرضها على إبراهيم .

فالجواب أن هذا من جنس الشبهة الأولى ، فإن جبرائيل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه ، كما قال الله تعالى فيه : ﴿ شديد القُوَى ﴾ . فلو أَذِنَ الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال ، ويلقيها فى المشرق أو المغرب لفعل ، ولو أمره أن يضع إبراهيم عليه السلام عنهم فى

مكان بعيد لفعل ، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل ، وهذا كرجل غنى له مال كثير يرى رجلاً محتاجاً ، فيعرض عليه أن يقرضه ، أو أن يهب له شيئاً يقضى به حاجته ، فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ ، ويصبر حتى يأتيه الله برزق لا مِنَّة فيه لأحد ، فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون ؟

ولنختم الكلام إن شاء الله تعالى بمسألة عظيمة مهمة جداً تُفْهم مما تقدم ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها ، ولكثرة الغلط فيها فنقول :

لا خلاف أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل ، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً ، فإن عرف التوحيد ولم يعمل به ، فهو كافر معاند ، كفرعون وإبليس وأمثالهما ، وهذا يغلط فيه كثير من الناس يقولون : هذا حق ، ونحن نفهم هذا ، ونشهد أنه الحق ، ولكن لا نقدر أن نفعله ، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم ، وغير ذلك من الأعذار ، ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق ، ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار ، كما قال تعالى : ﴿ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ وغير ذلك من الآيات ، كقوله : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه ، ولا يعتقده بقلبه ، فهو منافق ، وهو شر من الكافر الخالص ، لقوله تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ .

وهذه المسألة ، مسألة كبيرة طويلة ، تبين لك إذا تأملتها فى ألْسِنة الناس ، ترى من يعرف الحق ويترك العمل به ، لخوف نقص دنيا ، أو جاه أو مداراة ، وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً ، فإذا سألته عما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه . ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله ، أولاهما ما تقدم

من قوله : ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ .

فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع رسول الله ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزاح واللعب تبين لك أن الذى يتكلم بالكفر ، أو يعمل به خوفاً من نقص مال ، أو جاه ، أو مداراة لأحد ، أعظم ممن تكلم بكلمة يمزح بها .

والآية الثانية قوله تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكْره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ . فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أُكْرِه مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان . وأما غير هذا ، فقد كفر بعد إيمانه ، سواء فعله خوفاً ، أو مداراة ، أو مشحة بوطنه ، أو أهله ، أو عشيرته ، أو ماله ، أو فعله على وجه المزاح ، أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكَره ، والآية تدل على هذا من جهتين :

الأولى : قوله : ﴿ إلا من أُكْرِه ﴾ ، فلم يستثن الله إلا المكْرَه ، ومعلوم أن الإنسان لا يُكْرَه إلا على العمل أو الكلام . وأما عقيدة القلب فلا يُكْرَه أحدٌ عليها .

والثانية : قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين ، أو محبة الكفر ، وإنما سببه أن له فى ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره على الدين ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وسلم تسليما .

تم كتاب كشف الشبهات

ويليه رسالة فى الجواب عن مسألة رجلين تناظرا

القاعـدة الواسطـــة

تأليف الفاضلِ الأجَلِّ والمَحدِّث الأكمـل
شيخ الإسلام أبى العباس أحمد بن عبد الحليم
ابن تيمية الحرانـــى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

أما بعد فهذه رسالة فى مسألة رجلين تناظرا ، فقال أحدهما : لابد لنا من واسطة بيننا وبين الله ، فإنا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك .

الجواب : الحمد لله رب العالمين ، إن أراد بذلك أنه لابد من واسطة تبلغنا أمر الله ، فهذا حق ، فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه ، وما أعده لأوليائه من كرامته ، وما وعد به أعداءه من عذابه ، ولا يعرفون ما يستحقه الله من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التى تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك إلا بالرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى عباده ، فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم ، هم المهتدون الذين يقربهم لديه زُلفى ، ويرفع درجاتهم ويكرمهم فى الدنيا والآخرة .

وأما المخالفون للرسل ، فإنهم ملعونون ، وهم عن ربهم ضالون محجوبون ، قال تعالى : ﴿ يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فإما يأتينكم منى هُدَىً ، فمن اتَّبَع هُداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى ، فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة ، أعمى قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال :

كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ﴾ .

قال ابن عباس(١) : تكفل الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ، أن لا يضل فى الدنيا ، ولا يشقى فى الآخرة . وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ كلما أُلقى فيها فوجٌ ، سألهم خَزَنَتُها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا إلى جهنم زُمَراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا ، يَمَسُّهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زَبُوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً ، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ومثل هذا فى القرآن كثير .

وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى فإنهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده ، وهم الرسل الذين بلّغوا عن الله أمره وخبره ، قال تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾ ومن أنكر هذه الوسائط ، فهو كافرٌ بإجماع أهل الملل ، والسور التى أنزلها

---

(١) قف على قول ابن عباس وتأمل فيه فإنه مدار الدين ، فاجعله نصب العين .

الله تعالى بمكة ، مثل الأنعام ، والأعراف ، وذوات ألر وحم ، وطس ، ونحو ذلك ، هى متضمنة لأصول الدين كالإيمان بالله ، ورسله ، واليوم الآخر وقد قص الله قصص الكفار الذين كذبوا الرسل ، وكيف أهلكهم ونصر رسله والذين آمنوا . قال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ . وقال : ﴿ إنا لننصرُ رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ، فهذه الوسائط تطاع وتتبع ويُقْتَدى بها ، كما قال : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاعَ بإذن الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ، فاتبعونى يحببكم الله ﴾ وقال : ﴿ فالذين آمنوا به ، وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أُنزِل معه ، أولئك هم المفلحون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا ﴾ .

وإن أراد بالواسطة ، أنه لابد من واسطة ، فى جلب المنافع ودفع المضار ، مثل أن يكون واسطة فى رزق العباد ونصرهم وهداهم ، يسألونه ذلك ويرجون إليه فيه فهذا من أعظم الشرك الذى كفّر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء ، يجتلبون بهم المنافع ، ويدفعون بهم المضار ، لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها حق . قال تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تذكرون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ﴾ وقال تعالى : ﴿ وذكِّرْ به أن تُبْسَل نفسٌ بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى

ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ .

قال طائفة من السلف : كان أقوام ، يدعون المسيح والعُزَيْرْ والملائكة ، فبين الله لهم ، أن الملائكة والأنبياء ، لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا ، وأنهم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه . قال تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتِيَهُ الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تُعَلِّمون الكتاب وبما كنتم تَدْرُسُون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ . فبين سبحانه ، أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر ، فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ، ودفع المضار ، مثل أن يسألهم غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وتفريج الكروب ، وسد الفاقات فهو كافرٌ بإجماع المسلمين ، وقد قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عبادٌ مُكْرَمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم ، وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إنى إلهٌ من دونه ، فذلك نجزيه جهنم كذلك نَجْزى الظالمين ﴾ . وفى متن الاقناع فى باب حكم المرتدين ، من جعل بينه وبين الله وسائط ، يدعوهم أنه كافر بإجماع الأمة ، إلى قوله : لا شك فى كفره ، بل لا شك فى كفر من شَكَّ فى كفره . وقال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر ، فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وقالوا

اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئاً إدّاً ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هداً ، أن دَعَوْا للرحمن ولداً ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ، إن كلُّ من فى السموات والأرض ، إلا آتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عَداً ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ وقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وكم من مَلَكٍ فى السموات ، لا تغنى شفاعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يُرِدْك بخير فلا رادَّ لفضله ﴾ وقال تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رَحمةٍ فلا ممسك لها ، وما يمسِكْ فلا مرسل له من بعده ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هُنَّ كاشفات ضره ، أو أرادنى برحمةٍ هل هُنَّ ممسكات رحمته ، قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ .

ومثل هذا كثير فى القرآن ، ومن سوى الأنبياء ، من مشائخ العلم والدين ، من أثبتهم وسائط بين الرسل وأمته ، يبلغونهم ، ويعلمونهم ، ويؤدبونهم ، ويقتدون بهم ، فقد أصاب فى ذلك ، وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة ، لا يجتمعون على الضلالة ، وإن تنازعوا فى شىء ردُّوه إلى الله والرسول ، إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق ، بل كل واحد من الناس يُؤْخَذُ من كلامه ويُتْرك ، إلا رسول الله ﷺ . وقد قال ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء ، فإن الأنبياء لم يُوَرِثُوا ديناراً ولا درهماً وإنما وَرَّثُوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافرٍ » وإن أثبتهم وسائط بين الله وبين

خلقه كالحجاب الذين بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه ، فالله إنما يهدى عباده ويرزقهم بتوسطهم ، فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله كما إن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منه والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك ، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك لكونهم أقرب من الطالب للحوائج فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك ، يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قُتِل ، وهؤلاء مثبتون له شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أنداداً وفى القرآن من الرد على هؤلاء ما لا تتسع له هذه الفتوى فإن الوسائط التى بين الملوك وبين الناس ، يكونون على أحد وجوه ثلاثة :

إما لإخبارهم من أحوال الناس ، بما لا يعرفونه ، ومن قال إن الله لا يعلم أحوال عباده ، حتى يخبره بعض الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم فهو كافر ، بل هو سبحانه يعلم السر وأخفى ، ولا يخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع البصير ، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللّغات ، على تفنن الحاجات ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولا يَبْرَمُ بإلحاح الملحين .

والوجه الثانى : أن يكون المِلكُ عاجزاً عن تدبير رعيته ودفع أعدائه إلا بأعوان يعينونه فلابد من أنصار وأعوان لذُلِهِ وعجزه والله سبحانه ليس له ظهير ولا ولى من الذل . قال تعالى : ﴿ قل ادْعُوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ، ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبّره تكبيرا ﴾ .

وكل ما فى الوجود من الأسباب فهو خالقه وربه ومليكه ، فهو الغنى عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهيرهم وهم فى الحقيقة شركاؤهم فى الملك ، والله تعالى ليس له شريك فى الملك ، بل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

والوجه الثالث : أن يكون المِلكُ ليس مريدا النفع لرعيته والإحسان إليهم ورحمتهم، إلا بمحرك يحركه من خارج ، فإذا خاطب الملك من ينصحه ويعظه ، أو من يدل عليه بحيث يكون يرجوه ويخافه ، تحركت إرادة الملك وهمته فى قضاء حوائج رعيته ، إما يحصل فى قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير ، وإما يحصل له من الرغبة والرهبة من كلام الدالِّ عليه والله تعالى هو رب كل شيء ومليكه ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وكل الأشياء إنما تكون بمشيئته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهو إذا أجرى نفع العباد بعضهم على بعض ، فجعل هذا يحسن إلى هذا ، ويدعو له ويشفع فيه ، ونحو ذلك ، فهو الذى خلق ذلك كله ، وهو الذى خلق فى قلب هذا المحسن الداعى الشافع من إرادة الإحسان والدعاء والشفاعة ، ولا يجوز أن يكون فى الوجود من يُكْرِهُهُ على خلاف مراده أو يعلمه ما لم يكن يعلم ، أو من يرجوه الرب ويخافه . ولهذا قال النبى ﷺ : « لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، ولكن ليجزم المسألة ، فإن الله لا مكرِهَ له » والشفعاء الذين يشفعون عنده ، لا يشفعون إلا بإذنه كما قال : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شركٍ وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن

له ﴾ ، فبين أن كل من دُعِي من دونه ليس له مُلك ولا شرك فى الملك ولا هو ظهير وأنَّ شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له ، بخلاف الملوك فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك وقد يكون شريكاً فى الملك وقد يكون مظاهراً ومعاوناً لهم على ملكهم وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك لهم ولغيرهم والملك يقبل شفاعتهم تارة لحاجته إليهم وتارة لخوفه منهم وتارة لجزاء إحسانهم إليه ومكافآتهم لإيفائهم عليه حتى إنه يقبل شفاعة ولده وزوجته لذلك فإنه محتاج إلى الزوجة وإلى الولد حتى لو أنه أعرض عنه زوجته وولده لتضرر بذلك ، ويقبل شفاعة مملوكه فإنه إذا لم يقبل شفاعته خاف أن لا يطيعه أو أن يسعى فى ضرره ، وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبته أو رهبته والله تعالى لا يرجو أحداً ولا يخافه ولا يحتاج إلى أحد بل هو الغنى . قال تعالى : ﴿ أَلَا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يَخْرُصَون ﴾ (الآية) . وقوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعدونه من الشفاعة . قال الله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضَلُّوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾ وأخبر عن المشركين أنهم قالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم

ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ . فأخبر أن ما يُدْعى من دونه لا يملك كشف الضر ولا تحويلا ، وأنهم يرجون رحمته ، ويخافون عذابه ويتقربون إليه فهو سبحانه قد نفى ما أثبتوا للملائكة والأنبياء ، إلا الشفاعة بإذنه والشفاعة هى الدعاء ، ولا ريب أنَّ دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع والله قد أمر بذلك لكن الداعى الشافع ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذن الله له فى ذلك فلا يشفع شفاعة نُهِى عَنْها كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة . قال تعالى : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن مَوْعِدةٍ وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾[١] .

وقال تعالى فى حق المنافقين : ﴿ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ﴾ . وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين والمنافقين وأخبره أنه لا يغفر لهم كما فى قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ، ولا تَقُمْ على قبره إنهم

(١) قال المصنف فى الاقتضاء والمشيئة الإلهية : اقتضت وجود هذه الخيرات بأسبابها المقلدة لها كما اقتضت وجود دخول الجنة بالعمل الصالح . ووجود الولد بالواطء والعلم بالتعليم . فمبدأ الأمور من العبد وتمامها على الله . لا أن العبد مؤثر فى قضاء الرب . أو فى ملكوت الرب . بل الرب سبحانه هو المؤثر فى ملكوته . وجعل ادعاء عبده سبباً لما يريده سبحانه وتعالى من القضاء . كما قال للنبى ﷺ : يا رسول الله أرأيت أدوية يتداوى بها ، ورقية يُسْترقى بها هل يرد من قضاء الله شيئا . قال : « هى من قَدَرِ الله » . وعنه أنه قال : « إن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيتعالجان بين السماء والأرض » . فهذا فى الدعاء الذى يكون سبباً فى حصول المطلوب ، وأعلى من هذا ما جاء به الكتاب والسنة ، من رضى الله وفرحه وضحكه ، بسبب أعمال عباده الصالحة ، كما جاءت به النصوص وكذلك غضبه ومقته .

كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ﴾[1] .

وقد قال تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، إنه لا يحب المعتدين ﴾ ، فهو سبحانه لا يحب المعتدين فى الدعاء .

ومن الاعتداء فى الدعاء ، أن يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله ، مثل أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم ، أو المغفرة للمشركين ونحو ذلك ، أو يسأله ما فيه معصية الله عز وجل ، كإعانة على الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، فالشفيع الذى أَذِن الله له فى الشفاعة ، شفاعته فى الدعاء الذى ليس فيه عدوان ، ولو سأل أحدهم دعاءً لا يصلح له ، لم يقر عليه فإنهم معصومون ، أنْ يقروا على ذلك ، كما قال نوح عليه السلام : ﴿ إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾ قال تعالى : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ، قال : ربى إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾ .

وكل داعٍ شافع ، دعا الله سبحانه وتعالى وشفع ، فلا يكون دعاؤه إلا بقضاء الله تعالى وقدرته ومشيئته وهو الذى يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة فهو الذى خلق السبب والمسبب ، والدعاء من جملة الأسباب التى قدرهاالله

---

(١) قال المصنف رحمه الله كما فى الاقتضاء وجماع الأمر : إن الشرك نوعان : شرك فى الربوبية ، بأن يجعل لغيره معه تدبيرا ، كما قال سبحانه : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ﴾ (الآية) ، فبين أنهم لا يملكون مثقال ذرة استقلالا ولا يشركونه فى شىء من ذلك ، ولا يعينونه على ملكه ، ومن لم يكن مالكاً ولا شريكاً ولا عوناً ، فقد انقطعت علاقته ، والشرك فى الألوهية بأن يدعو غيره دعاء عبادة ، أو دعاء مسألة ، كما قال تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

سبحانه وتعالى ، وإذا كان كذلك ، فالالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسباباً ، نَقْصٌ فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية ، قَدْحٌ فى الشرع ، بل العبد يجب أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله تعالى ، والله يقدر له من الأسباب ، من دعاء الخلق وغيرهم ما شاء ، والدعاء مشروع ، أن يدعو الأعلى للأدنى ، والأدنى للأعلى ، فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء ، كما كان المسلمون يستشفعون بالنبى فى الاستسقاء ويطلبون منه الدعاء ، بل وكذلك بعده ، استسقى عمر والمسلمون بالعباس عمه ، والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء ، ومحمد ﷺ وهو سيد الشفعاء ، وله الشفاعات يختص بها ومع هذا فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ فإنه من صلى علىّ مرة صلى الله عليه عشراً ثم سلو الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا ينبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون ذلك العبد فمن سأل الله لى الوسيلة حلّت له شفاعتى يوم القيامة » . وقد قال لعمر لما أراد أن يعتمر وودعه : « يا أخى لا تنسنى من دعائك » ، فالنبى ﷺ قد طلب من أمته أن يدعوا له ولكن ليس ذلك من باب سؤاله بل أمره بذلك لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التى يثابون عليها مع أنه ﷺ قال : « من دَعَا إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه مع أنه له مثل أجورهم فى كل ما يعملونه فإنه قد صح عنه أنه ﷺ قال : « من دَعَا إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه الوزر مثل أوزار من تبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » وهو داعى الأمة إلى كل هدى فله مثل أجورهم فى كل ما اتبعوه فيه وكذلك إذا صلوا عليه فإن الله يصلى على أحدهم عشراً فله مثل أجورهم مع ما يستجيبه من دعاهم له فذلك الدعاء ، وقد أعطاهم الله أجرهم عليه وصار ما حصل به

من النفع نعمة من الله عليه .

وقد ثبت عنه ﷺ فى الصحيح أنه قال : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكّل الله به ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به آمين . ولك بمثل ذلك » وفى حديث آخر : « أسرع الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب» فالدعاء للغير ينتفع به الداعى والمدعو له وإن كان الداعى دون المدعو له فدعاء المؤمن لأخيه ينتفع به الداعى والمدعو له ، فمن قال لغيره : ادع لى وقصد انتفاعهما جميعاً بذلك كان هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى فيما بينهما ، فالسائل أشار عليه بما ينفعهما والمسئول فعل ما ينفعهما بمنزلة من يأمر غيره ببر وتقوى فيثاب المأمور على فعله والآمر أيضاً يثاب مثل ثوابه لكونه دعاه إليه لا سيما من الأدعية ما يؤمر بها العبد كما قال تعالى : ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ ، فأمره بالاستغفار ثم قال : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾ . فذكر سبحانه استغفارهم واستغفار الرسول لهم إذ ذلك مما أمر الله به الرسول حيث أمره أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ولم يأمر الله مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً شيئاً لم يأمر الله المخلوق به بل أمر به العبد أمر إيجابٍ أو استحباب ، ففعله هو عبادة الله وطاعته وقربته إلى الله وصلاح لفاعله وحسنة منه ، وإذا فعل ذلك كان من أعظم إحسان الله إليه وإنعامه عليه بل أجلّ نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان ، والإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة والحسنات فكلما ازداد العبد عملاً للخير ازداد إيمانه هذا هو الإنعام الحقيقى المذكور فى قوله : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ وفى قوله : ﴿ من يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم ﴾ بل نِعَمُ الدنيا بدون الدين هل هى نعمةٍ أم لا ؟ فيه قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم .

والتحقيق ، أنها نعمة من وجه ، وإن لم يكن نعمة تامة من وجه ، وأما إنعام بالدين ، فنعمة ينبغى طلبه بما أمر الله به من واجب ومستحب فهو الخير الذى ينبغى طلبه باتفاق المسلمين وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة إذ عندهم أن الله هو الذى أنعم بفعل الخير ، والقدرية عندهم إنما أنعم بالقدرة عليه الصالحة للضدين ، والمقصود هنا أن الله لم يأمر المخلوق أن يسأل مخلوقاً إلا ما كان مصلحة لذلك المخلوق إما واجب أو مستحب فإنه سبحانه لا يطلب من العبد إلا ذلك فكيف يأمر غيره يطلب منه غير ذلك بل قد حرم على العبد أن يسأل العبد ما له إلا عند الضرورة ، وإن كان قصده مصلحة المأمور أو مصلحته ومصلحة المأمور فهذا مثاب على ذلك وإن كان قصده حصول المطلوب من غير قصد منه لانتفاع المأمور فهذا من نفسه أتى ، ومثل هذا السؤال لا يأمر الله تعالى به قط بل فد نهى عنه إذ هذا سؤال محض للمخلوق من غير قصده لنفعه ولا لمصلحة ، والله يأمرنا أن نعبده ويدعونا إليه ويأمرنا أن نحسن إلى عباده وهذا لم يقصد لا هذا ولا هذا فلم يقصد الرغبة إلى الله ودعائه وهو الصلاة ولا قصد الإحسان إلى الخلق الذى هو الزكاة وإن كان العبد قد لا يأثم بمثل هذا السؤال لكن فرق بين ما يؤمر العبد به وما يؤذن له فيه ، ألا ترى أنه ﷺ قال فى سبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم لا يسْترقُون وإن كان الاسترقاء جائزاً وهذا قد بسطناه فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التى تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك بل هذا دين المشركين عُبَّاد الأوثان كانوا يقولون إنها تماثيل الأنبياء والصالحين وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله وهو من الشرك الذى أنكره الله على النصارى حيث قال : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا

إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ أى فليستجيبوا لى إذا دعوتهم بالأمر والنهى وليؤمنوا بى أى إن أجيب دعاؤهم لى بالمسألة والتضرع . وقال تعالى : ﴿ فإذا فرغتَ فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ وقال تعالى : ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾ .

وقد بين الله هذا التوحيد فى كتابه ، وحسم مواد الإشراك حتى لا يخاف أحدٌ غيرَ الله ، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه . وقال تعالى : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ﴾. وقال تعالى : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم ، وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشَوْن الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ وقال تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقْهِ فأولئك هم الفائزون ﴾ ، فبين أن الطاعة لله ورسوله ، وأما الخشية فله وحده وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم رَضُوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ فبين أن إيتاء الله والرسول سواء كما قال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ فإن الرسول هو الذى يبين ما أمر الله به وما نهى عنه وما أباحه لنا ، وأما التحسُّب فهو لله وحده كما قالوا حسبنا الله ولم يقولوا حسبنا الله ورسوله ونظيره قوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوْهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم

الوكيل ﴾ . وقد كان النبى ﷺ يحقق هذا التوحيد لأمته ويحسم عنهم مواد الشرك إذ هذا تحقق قولنا لا إله إلا الله فإن الإله هو الذى تأله القلوب بكمال المحبة والتعظيم والإجلال والإكرام والرجاء والخوف حتى قال لهم : لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء محمد وقال له ﷺ : « رجل ما شاء الله وشئت » فقال : أَجَعَلْتنى لله نداً ؟ قل ما شاء الله وحده وقال : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » ، وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » ، وقال لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما أنت لاق فلو جَهِدَت الخليقة على أن ينفعك ، لم تنفعك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو جَهِدَت على أن تضرك ، لم تضرك إلا بشيء كتبه الله عليك » .

وقال أيضاً : « لا تُطْرونى كما أُطْرَت النصارى عيسى ابن مريم ، وإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » ، وقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » ، وقال : « لا تتخذوا قبرى عيداً وصلّوا على ، فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم » . وقال فى مرضه : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذر ما صنعوا ، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ قبره مسجداً ، وهذا بابٌ واسع ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه ، فإنه لا ينكر ما خلقه الله تعالى من الأسباب ، كما جعل المطر سبباً للنبات . قال الله تعالى : ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ ، وكما جعل الشمس والقمر ، سبباً لما يخلقه بهما ، كما جعل الشفاعة والدعاء سبباً لما يقضيه بذلك ، مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت ، فإن ذلك من الأسباب التى يرحمه الله تعالى بها ، ويثيب عليها المصلين عليه ، لكن ينبغى أن يعرف فى الأسباب ثلاثة أمور :

لعلها : "لا يستقل"

أحدها : أن السبب المعين لا يستقبل بالمطلوب ، بل لابد معه من الأسباب الأخرى ، ومع هذا فلها موانع ، فإن لم يكمل الله الأسباب ، ولم يدفع الموانع لم يحصل المقصود ، وهو سبحانه ما شاء كان ، وإن لم يشاء الناس ، وما شاء الناس ، لا يكون ، إلا أن يشاء الله عز وجل .

الثانى : أنه لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب ، إلا بعلم ، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو يخالف الشرع كان مبطلا مثل من يظن كون النذر سبباً فى دفع البلاء وحصول النعماء . وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتى بخير وإنما يُسْتَخْرَج به من البخيل » .

الثالث : أن الأعمال الدينية ، لا يجوز أن يتخذ منها شيئاً سبباً إلا أن تكون مشروعة فإن العبادات مبناها على التوقيف فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره وإن ظن أن ذلك سببٌ فى حصول بعض أغراضه ولذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة وإن ظن ذلك فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان فلا يحل له ذلك إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصل به ، إذ الرسول ﷺ بعث بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتكميلها فما أمر الله تعالى به فمصلحة راجحة ، وما نهى عنه ، فمفسدة راجحة ، وهذه الجمل لها بسط لا تحتمله هذه الوُرَيْقات والله أعلم . والحمد لله وحده وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تمـــت

ويليها رسالة للشيخ رحمه الله فى الجواب على معنى لا إله إلا الله

هديـــة طيبـــة

بسم الله الرحمـن الرحيـم

الحمد لله والصلاة على نبيه ، سئل الشيخ رحمه الله تعالى عن معنى لا إله إلا الله فأجاب بقوله : اعلم رحمك الله أن هذه الكلمة هى الفارقة بين الكفر والإسلام وهى كلمة التقوى ، وهى العروة الوثقى ، وهى التى جعلها إبراهيم عليه السلام كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون .

وليس المراد قولها باللسان مع الجهل بمعناها ، فإن المنافقين يقولونها وهم تحت الكفّار فى الدرك الأسفل من النار ، مع كونهم يصلون ويتصدقون ، ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب ومحبتها ومحبة أهلها وبغض ما خالفها ومعاداته ، كما قال النبى ﷺ : « من قال لا إله إلا الله مخلصاً » ، وفى رواية : « خالصاً من قلبه » ، وفى رواية : « صادقاً من قلبه » ، وفى حديث آخر : « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعْبَد من دون الله » ، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على جهالة أكثر الناس بهذه الشهادة ، فاعلم أن هذه الكلمة نَفْىٌ وإثبات ، نَفْى الإلهية عما سوى الله تعالى من المخلوقات ، حتى محمد ﷺ ، وجبرائيل فضلاً عن غيرهم من الأولياء والصالحين .

إذا فهمت ذلك فتأمل هذه الألوهية التى أثبتها الله لنفسه ، ونفاها عن محمد وجبرائيل وغيرهما ، أن يكون لهم مثقال حبة من خردل ، فاعلم أن

هذه الألوهية هى التى تسميها العامة فى زمننا السر والولاية ، والإله معناه الولى الذى فيه السر ، وهو الذى يسمونه الفقير والشيخ ، ويسمونه العامة السيد وأشباه هذا ، وذلك أنهم يظنون أن الله جعل لخواص الخلق منزلة يرضى أن الإنسان يلتجىء إليهم ويرجوهم ويستغيث بهم ويجعلهم واسطة بينه وبين الله ، فالذى يزعم أهل الشرك فى زماننا أنهم وسائطهم وهم الذين يسمونهم الأولون (الآلهة) ، والواسطة هو الإله ، فقول الرجل لا إله إلا الله ، إبطال الوسائط .

وإذا أردتَ أن تعرفَ هذا معرفة تامة ، فذلك بأمرين :

الأول : أن تعرف أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ ، وقَتَلهم ونهب أموالهم ، واستحل نساءهم ، كانوا مقرّين لله سبحانه ، بتوحيد الربوبية ، وهو أنه لا يخلق ، ولا يرزق ، ولا يحيى ، ولا يميت ، ولا يدبر الأمر إلا الله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ﴾ .

وهذه مسألة عظيمة مهمة ، وهى أن تعرف أن الكفار شاهدون بهذا كله ومقرّون بها ومع هذا لم يدخلهم ذلك فى الإسلام ولم يحرِّم دماءهم ولا أموالهم وكانوا أيضاً يتصدقون ويحجون ويعتمرون ويتعبدون ويتركون أشياء من المحرمات خوفاً من الله عز وجل ولكن **الأمر الثانى** هو الذى كَفَّرهم وأحل دماءهم وأموالهم ، وهو أنهم لم يشهدوا لله بتوحيد الألوهية وهو أنه لا يُدْعى ولا يُرْجَى إلا الله وحده لا شريك له ولا يُسْتغاث بغيره ولا يذبح لغيره ولا ينذر لغيره لا الملك مقرب ولا نبى مرسل ، فمن استغاث بغيره فقد كفر ومن ذبح لغيره فقد كفر ومن نذر لغيره فقد كفر

وأشباه ذلك .

وتمام هذا ، أن تعرف أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا يدعون الصالحين مثل الملائكة وعيسى وعُزَيْر وغيرهم من الأولياء فكفروا بها مع إقرارهم بأن الله هو الخالق المدبّر ، وإذا عرفت هذا عرفت معنى لا إله إلا الله وعرفت أن من دعا نبيا أو ملكا أو ندبه أو استغاث به فقد خرج من الإسلام وهذا هو الكفر الذى قاتلهم عليه رسول الله ﷺ فإن قال قائل من المشركين : نحن نعرف أن الله هو الخالق الرازق المدبّر ، يُمَكِّن هؤلاء الصالحين ، أن يكونوا مقرَّبين ونحن ندعوهم وننذر لهم وندخل عليهم ونستغيث بهم ونريد بذلك الوجاهة والشفاعة ، وإلا نحن نفهم أن الله هو الخالق المدبر .

فقل : كلامك هذا مذهب أبى جهل وأمثاله فإنهم يدعون عيسى وعُزَيْرا والملائكة والأولياء يريدون ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، وقال : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ . فإذا تأملت هذا تأملاً جيداً ، عرفت أن الكفار يشهدون لله بتوحيد الربوبية ، وهو تفرد بالخلق والرزق والتدبير ، وهم يدعون عيسى والملائكة والأولياء يقصدون أنهم يقربونهم إلى الله ويشفعون عنده .

وعرفت أن من الكفار خصوصاً النصارى منهم ، من يعبد الله الليل والنهار ، ويزهد فى الدنيا ، ويتصدق بما دخل عليه منها ، معتزلاً فى صومعة عن الناس ، ومع هذا ، كافر عدو لله ، مخلد فى النار ، بسبب اعتقاده فى عيسى أو غيره من الأولياء ، يدعوه أو يذبح له أو ينذر له تبين لك كيف صفة الإسلام ، الذى دعا إليه نبيك ﷺ ، وتبين لك أن كثيراً من الناس

عنه بمعزل ، وتبين لك معنى قوله ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ » ، فالله الله ، يا أخواني تمسكوا بأصل دينكم ، وأوله وآخره وأسّه ورأسه ، شهادة أن لا إله إلا الله واعرفوا معناها ، وأحبوها وأحبوا أهلها ، واجعلوهم إخوانكم ، ولو كانوا بعيدين ، واكفروا بالطواغيت وعادوهم وابغضوهم ، وأبغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكَفِّرهم أو قال ما عليَّ منهم أو قال : ما كلفنى الله بهم فقد كذب هذا على الله وافترى ، فقد كلفه الله بهم وافترض عليه الكفر بهم والبراءة منهم ولو كانوا إخوانهم وأولادهم ، فالله الله ، تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئاً ، اللهم توفنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين . ولنختم الكلام بآية ذكرها الله فى كتابه ، تبين لك أنَّ كُفْرَ المشركين من أهل زماننا أعظم كفراً من الذين قاتلهم رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضرُّ فى البحر ضَلَّ مَنْ تدعون إلا إياه فلما نَجَّاكم إلى البر أَعْرضتم وكان الإنسان كفورا ﴾ فقد سمعتم أن الله سبحانه ذكر عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر تركوا السادة والمشائخ ولم يستغيثوا بهم بل أخلصوا لله وحده لا شريك له واستغاثوا به وحده فإذا جاء الرخاء أشركوا ، وأنت ترى المشركين من أهل زماننا ولعل بعضهم يدَّعى أنه من أهل العلم وفيه زهد واجتهاد وعبادة إذا مسه الضر قام يستغيث بغير الله مثل معروف أو عبد القادر الجيلانى، وأجلّ من هؤلاء مثل زيد بن الخطاب، والزبير، وأجلّ من هؤلاء ، مثل رسول الله ﷺ ، والله المستعان . وأعظم من ذلك وزراً ، أنهم يستغيثون بالطواغيت والكفرة والمردة مثل شمسان وإدريس ويونس وأمثالهم والله سبحانه أعلم والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على خير خلقه محمد وآله أجمعين .

تمـــت

ويليه رسالة للشيخ سليمان رحمه الله ، عنوانها : أوثق عرى الإيمان

أوثـق عُـرَى الإيمـان

بسم الله الرحمـن الرحيـم

وبه نستعين . الحمد لله رب العالمين ، اعلم أولاً أيدك الله بتوفيقه أن (أوثق عُرَى الإيمان) الحب فى الله والبغض فى الله ، وهذا وجهه فى أهل بلدٍ مرتدين أو بادية وهم بنو عم ويجىء لهم ذكر عند الأمراء فيتسبب بالدفع عنهم حمية دنيوية إما بطرح نكال أو دفن نقائص المسلمين أو يشير بكف المسلمين عنهم ، هل يكون هذا موالاة نفاق أو يصير كفرا ، فإن كان ما يقدر من نفسه أن يتلفظ بكفرهم وسبهم ما حكمه وكذلك إذا عرفت هذا من إنسان ماذا يجب عليك ؟ أَفْتِنا مأجوراً :

فأقول أولاً : إن الله افترض على المؤمنين عداوة المشركين من الكفار والمنافقين ، وجفاة الأعراب ، الذين يعرفون بالنفاق ، ولا يؤمنون بالله ورسوله ﷺ ، وأمرهم بالجهاد ، والإغلاظ عليهم بالقول والفعل وتوعدهم باللعن والقتل ، لقوله : ﴿ ملعونين أينما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلوا تقتيلا ﴾ وقطع الموالاة بين المؤمنين وبينهم وأخبر أن من تولاهم فهو منهم وكيف يدعى رجل محبة الله ، وهو يحب أعداءه الذين ظاهروا الشياطين على عدوانهم واتخذوهم أولياء من دون الله كما قيل :

تحب عدوى ثم تزعم أننى   صديقك إن الود عنك لعازبُ

وبالجملة ، فالحب فى الله والبغض فى الله ، أصل عظيم من أصول الإيمان، يجب على العبد مراعاته، ولهذا فى الحديث : « أوثق عُرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله » ولذلك أكثر الله من ذكره فى القرآن . قال تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين ، أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك ، فليس من الله فى شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ . قال بعض المفسرين : نهوا أن يوالوا الكافرين ، لقرابة بينهم أو صداقةٍ قبل الإسلام ، أو غير ذلك من الأسباب التى يتصادق بها ويتعاشر .

وقوله : ﴿ من دون المؤمنين ﴾ يعنى أن لكم فى موالاة المؤمنين كفاية عن موالاة الكفار فلا تؤثرونهم عليهم ، ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء ﴾ أى ومن يتولَّ الكفرة فليس من ولاية الله فى شيء يقع عليه اسم الولاية يعنى أنه منسلخ من ولاية الله رأساً وهذا أمر معقول فإن موالاة الولى وموالاة عدوه متنافيان إلا أن تتقوا منهم تقاة فرخَّص فى موالاتهم إذا خافوهم فلم يحسنوا معاشرتهم إلا بذلك وكانوا مقهورين لا يستطيعون إظهار العداوة لهم فحينئذٍ تجوز المعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء ينظر زوال المانع ، كما قال تعالى : ﴿ إلا من أُكْرِه وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ .

قال ابن عباس : ليس التقية بالعمل ، إنما التقية باللسان ، وقال أيضاً : نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجةً من دون المؤمنين إلا أن يكون الكفار ظاهرين فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم فى الدين وذلك قوله : ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ ذكره ابن جرير وابن أبى حاتم . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾ (الآية) .

قال القرطبى : لا تجعلوا خاصتكم وبطانتكم منهم . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعضٍ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ إلى آخر قوله : ﴿ فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ . قال حذيفة : ليتقِّ أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً ، وهو لا يشعر لهذه الآية : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ ، قال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ﴾ قال : المنافقون فى مصانعة اليهود ومداخلتهم واسترضاعهم أولادهم إياهم . وقال على رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ أذِلَّة على المؤمنين ﴾ قال : أهل رِقةٍ على أهل دينهم ، أعزة على الكافرين . وقال : أهل غلظة على من خالفهم فى دينهم . وكذا نقل معناه عن غير واحدٍ من السلف . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أنْ سَخِط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ﴾ والآية بعدها . وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ . فقد أمر الله بجهاد الكفار والمنافقين مع دعواهم الإسلام وأمر بالإغلاظ عليهم قولاً وفعلا . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية : جاهد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان واغلظ عليهم قال : أذهب الرفق عنهم .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : جاهد الكفار والمنافقين ، قال : بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وليلقه بوجهٍ مكفهرٍ أى عابسٍ متغير من الغيظ والبغض ، ذكره ابن أبى حاتم وجاء معناه فى حديث مرفوعاً رواه البيهقى فى الشعب . وقال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً

يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ﴾ (الآية) .

نفى الله سبحانه وتعالى الإيمان ، عمن هذا شأنه ، ولو كانت مودته ومحبته ومناصحته لأبيه وأخيه وابنه ونحوهم ، فضلاً عن غيرهم . وقال تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ . قال ابن عباس : ﴿ ولا تركنوا ﴾ قال : لا تميلوا . وقال عكرمة أن تطيعوهم أو تودوهم أو تصطنعوهم ومعنى تصطنعوهم أى تولوهم الأعمال كمن يولى الفُسَّاق والفجار ، وقال الثورى : ومن لات لهم دواة أو أَبْرَا لهم قلماً أو ناولهم قرطاساً دخل فى هذا .

قال بعض المفسرين فى الآية : النهى متناول للانحطاط فى هواهم ، والانقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ، ومجالستهم ، وزيارتهم ، ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزين بزيهم ، ومد العين إلى زهرتهم ، وذكره بما فيه تعظيم لهم وتأمل قوله : ﴿ ولا تركنوا ﴾ ، والركون هو الميل اليسير . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك هم الظالمون ﴾ .

وصحّ أن صدر هذه السورة نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة لما كتب إلى المشركين يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم وجاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ (الآية) . أنها فى عبيدة ابن الجراح لما قتل أباه يوم بدر ، كما رواه الطبرانى وابن أبى حاتم والحاكم وغيرهم عن بن جريج ، قال : حدثت أن أبا قحافة سب النبى ﷺ فصكه أبو بكر صكة سقط ، فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فقال : أفعلت يا أبا بكر ؟ فقال : والله لو كان السيف قريباً منى لضربته فنزلت : ﴿ لا تجد قوماً

يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ ، رواه ابن المنذر وهذا والله أعلم فى أول الإسلام ، فإن أبا قحافة أسلم عام الفتح ، فلم يكن ليسب النبى ﷺ بعد الإسلام ، وأبو بكر خرج مهاجراً من مكة ، ولم يعد إليها إلا بعد الإسلام فى عمرة مع النبى ﷺ ، وقال ابن عباس رضى الله عنه : من أحب فى الله ، وأبغض فى الله ، وعادى فى الله ، ووالى فى الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك . (رواه بن أبى شيبة وابن أبى حاتم) . وفى حديثٍ رواه أبو نعيم وغيره عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أوحى الله إلى نبى من الأنبياء أن قل لفلان العابد : أما زهدك فى الدنيا فتعجلت راحت نفسك وأما انقطاعك إلىَّ فتعززت به فما عملت فيما لى عليك ، قال : يارب ومالك علىَّ قال : هل واليت لى ولياً أو عاديت لى عدواً » . وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ﴾ ، فعقد الله تعالى الموالاة بين المؤمنين وقطعهم من ولاية الكافرين وأخبر أن الكفار بعضهم أولياء بعض وإن لم يفعلوا ذلك وقع من الفتنة والفساد الكبير شىء عظيم وكذلك يقع فهل يتم الدين أو يقام علم الجهاد وعلم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا بالحب فى الله والبغض فى الله والمعاداة فى الله والموالاة فى الله ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة ومحبة من غير عداوةٍ ولا بغضاء لم يكن فرقانا بين الحق والباطل ولا بين المؤمنين والكفار ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، والآيات فى هذا كثيرة .

وأما الأحاديث فروى أحمد عن البراء بن عازب : « أوثق عُرَى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله » . وفى حديث مرفوع : « اللهم لا تجعل للفاجر عندى يدا ولا نعمة فيوده قلبى فإنى وجدت فيما أوحى إلى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله

ورسوله ﴾ » . (رواه ابن مردويه وغيره عن أبى ذر مرفوعاً ، « أفضل الأعمال الحب فى الله والبغض فى الله » ، (رواه أبو داود ورواه أحمد مطولاً) .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً : « المرء مع من أحب » ، وعن ابن مسعود مرفوعاً : « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تَقِى » (رواه ابن حبان فى صحيحه) .

وعن على مرفوعاً : « لا يحب رجل قوماً إلا حُشِر معهم » (رواه الطبرانى بإسناد جيد ، قاله ابن المنذر) . وقد روى أحمد معناه عن عائشة بإسنادٍ جيدٍ أيضاً عنه مرفوعاً : « الشرك أخفى من دبيب الدر على الصفا فى الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب على شىء من الجور ، وتبغض على شىء من العدل ، وهل الدين إلا الحب فى الله والبغض فى الله » ، قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ (الآية) (رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد) ، فقد جعل النبى ﷺ ، فى هذا الحديث الحب على شىء من الجور وإن قل ، والبغض على شىءٍ من العدل وإن قل ، من الشرك .

فليحذر أشد الحذر من موادة أعداء الله من الكفار والمنافقين ، وعن بريدة مرفوعاً : « لا تقولوا للمنافق سيداً فإنه لم يكن سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل » (رواه أبو داود والنسائى بإسناد صحيح ورواه الحاكم) ولفظه : « إذا قال الرجل للمنافق يا سيدى فقد أغضب ربه عز وجل » (وقال : صحيح الإسناد) . وعن ابن مسعود مرفوعاً : « مثل الذى يعين قومه على غير الحق كمَثَلِ بعير تَرَدَّى فى بئر فهو ينزع بذنبه » (رواه أبو داود وابن حبان) . قال ابن المنذر : ومعنى الحديث أنه وقع فى الإثم ، وهلك البعير إذا وقع فى بئر فصار ينزع بذنبه ، فلا يقدر على الخلاص ، والأحاديث فى ذلك كثيرة .

(**فصل**) : فى ذكر الآثار عن السلف ، وهى كثيرة ، فنذكر منها بعضها . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾ إلى قوله : ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ والآية بعدها . قال ابن عباس فى الآية : رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهلية فأنزل الله فيهم ينهاهم عن بطانتهم لخوف الفتنة عليهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ﴾ قال : هم المنافقون (رواه ابن أبى حاتم) . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قيل له : إن هذا غلاماً من أهل الحيرة حافظاً كاتباً ، فلو اتخذته كاتبا ؟ قال : قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين . (رواه ابن أبى شيبة) . وعن الرّبيع : لا تتخذوا بطانة ، قال : لا تستدخلوا المنافقين تتولونهم من دون المؤمنين . وفى تفسير القرطبى فى الكلام على هذه الآية : نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكافرين واليهود وأهل الأهواء دخلاء وولجا يفاوضونهم فى الآراء ويسندون إليهم أمورهم ويقال كل من كان على خلاف دينك ومذهبك لا ينبغى أن تخادنه ، قال :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » . وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : اعتبروا الناس بأخدانهم ، ثم بين المعنى الذى لأجله ورد النهى عن المواصلة ، قال : لا يألونكم خبالاً ، يعنى فساداً ، يعنى لا يتركون فسادكم . قال : وقد مرّ أبو موسى الأشعرى على عمر رضى الله عنه بحسّاب ، فدفعه إلى عمر فأعجبه ، فقال لأبى موسى : أين كاتبك يقرأ

هذا الكتاب على الناس فقال : إنه لا يدخل المسجد ؟ فقال : لِمَ ؟ أَجُنُبٌ هو ؟ قال : إنه نصرانى . قال : فانتهره وقال : لا تُدْنِهم وقد أقصاهم الله ، ولا تُكْرِمْهم وقد أهانهم الله ، ولا تأمنهم وقد خَوَّنهم الله .

ومن كتاب الإمام محمد بن وضاح ، قال : سئل بن كذا فى الأصل جاء فى الأثر : من جالس صاحب بدعة فقد مشى فى هدم الإسلام ، وقال الأوزاعى : كانت أسلافكم تشهد عليهم أى على أهل البدع ألسنتهم وتشمئز منهم قلوبهم ويحذرون الناس بدعتهم . وقال الحسن : لا تجالس صاحب بدعة فإنه يُمْرِضْ قلبك . وقال إبراهيم : لا تجالسوا أهل البدع ولا تكلموهم فإنى أخاف أن ترتد قلوبكم .

(روى هذه الآثار ابن وضاح)

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : اعلم رحمك الله أن كلام السلف فى معاداة أهل البدع والضلالة انتهى ، فإذا كان هذا كلام السلف وتشديدهم فى معاداة أهل الضلالات ، ونهيهم عن مجالستهم ، فما ظنك بمجالسة الكفار والمنافقين وجفاة الأعراب الذين لا يؤمنون بالله ورسوله والسعى فى مصالحهم والذب عنهم وتحسين حالهم مع كونهم بين اثنتين : إما كافر أو منافق ، ومن يهتم بمعرفة الإسلام منهم قليل . فهذا من رؤوسهم وأصحابهم ، وهو معهم يحشر يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ (الآية) . وقال تعالى : ﴿ وإذا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ وقد تقدم الحديث : « لا يحب الرجل قوماً إلا حُشِر معهم » .

(**فصل**) : فى التنبيه على حاصل ما تقدم قد نهى الله سبحانه عن موالاة الكفار وشدد فى ذلك وأخبر أن من تولاهم فهو منهم ، وكذلك

جاءت الأحاديث عن النبى ﷺ وأخبر النبى أن من أحب قوماً حُشِر معهم ويفهم مما ذكرنا من الكتاب والسنة والآثار عن السلف أمور من فعلها دخل فى تلك الآيات وتعرض للوعيد بمسيس النار نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه .

أحدها : التولى العام .

الثانى : المودة والمحبة الخاصة .

الثالث : الركون القليل ، قال تعالى : ﴿ ولولا أن ثَبَّتْنَاك لقد كدتَ تركنُ إليهم شيئاً قليلاً ، إذاً لأذقناك ضِعفَ الحياة وضِعفَ الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾ ، فإذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق صلاة الله وسلامه عليه فكيف بغيره ؟!

الرابع : مداهنتهم ومداراتهم ، قال تعالى : ﴿ وَدُّوا لو تُدْهِن فيدهنون ﴾ .

الخامس : طاعتهم فيما يقولون وفيما يشيرون ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلَّافٍ مهين ﴾ (الآيات) .

السادس : تقريبهم فى الجلوس والدخول على أمراء الإسلام .

السابع : مشاورتهم فى الأمور .

الثامن : استعمالهم فى أمر من أمور المسلمين ، أى أمر كان ، أمارة أو عمالة أو كتابة أو غير ذلك .

التاسع : اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين .

العاشر : مجالستهم ومزاورتهم والدخول عليهم .

الحادى عشر : البشاشة لهم والطلاقة .

الثانى عشر : الإكرام العام .

الثالث عشر : استئمانهم وقد خَوَّنهم الله .

الرابع عشر : معاونتهم فى أمورهم ولو بشىء قليل كَبَرْيِ القلم وتقريب الدواة ليكتبوا ظلمهم .

الخامس عشر : مناصحتهم .

السادس عشر : اتباع أهوائهم .

السابع عشر : مصاحبتهم ومعاشرتهم .

الثامن عشر : الرضاء بأعمالهم والتشبه بهم والتزيى بزيهم .

التاسع عشر : ذكر ما فيه تعظيم لهم كتسميتهم سادات وحكماء كما يقال لطواغيت السيد فلان أو يقال لمن يَدَّعى علم الطب الحكيم ونحو ذلك .

العشرون : السكنى معهم فى ديارهم كما قال ﷺ : « من جامع المشركين وسكن معهم فإنه مثلهم » ، (رواه أبو داود) .

إذا تبين هذا ، فلا فرق فى هذه الأمور ، بين أن يفعلها مع أقربائه منهم أو مع غيرهم كما فى آية المجادلة وحينئذٍ فالذى يتسبب بالدفع عنهم حمية إما بطرح نكال أو دفن نقائص المسلمين أو يشير بكف المسلمين عنهم من أعظم الموالين المحبين للكفار من المرتدين والمنافقين وغيرهم خصوصاً

المرتدين ، ينبغى أن تكون الغلظة عليهم أشد من الكافر الأصلى ، لأن هذا عادى الله على بصيرة وعادى رسوله ﷺ بعدما عرف الحق ، ثم أنكره وعاداه ، والعياذ بالله ، فإذا كان من أعان ظالماً فقد شاركه فى ظلمه فكيف بمن يعين الكفار والمنافقين ، على كفرهم ونفاقهم ، وإذا كان من أعان ظالماً مسلماً فى خصومة ظلم عند حاكم ، يكون شريكاً لظالم ، فكيف بمن يعين الكفار ويذب عنهم عند الأمراء .

وإذا كان الحرامية الذين يأخذون أموال الناس ، إذا بذلوا للأمير مالا عليلاً أن يكف عنهم فهو رئيسهم ، فما ظنك بمن يُسِرُّ إلى الكفار بالمودة ويعلمهم أنه يحبهم ليواصلوه ويكرموه ، كما نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه وغيره ، لكن طرح النكال إن كان عن مسلم مظلوم ، فالشفاعة فيه والسعى فى إسقاطه بالرأى ونحوه حسن وإن كان عن مرتد فلا نِعِمَّا لعثرته ولا كرامة .

ويكفى فى ذلك ما رواه أحمد ، والترمذى ، وحسنه ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن مسعود ، قال : لما كان يوم بدر جىء بالأسرى وفيهم العباس ، فقال رسول الله ﷺ : « ما تأمرون فى هؤلاء الأسرى ؟ » فقال أبو بكر : قومك يا رسول الله وأهلك ، فاسبقهم لعل الله يتوب عليهم . وفى حديث أنس عن أحمد : نرى أن نعفو عنهم وتقبل منهم الفداء .

رجع الحديث إلى ابن مسعود فقال عمر : يا رسول الله كَذَّبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قَدِّمهم فاضرب أعناقهم فدخل النبى ﷺ ولم يردَّ عليهم شيئاً فخرج رسول الله ﷺ وقال : يا أبا بكر مثلك مثل إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ من اتبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ ،

ومثلك يا عمر كمثل نوح قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دَيَّارا ﴾ أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق فأنزل الله : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثْخِن فى الأرض ﴾ الآيتين مختصراً ، وفى حديث أنس : فأنزل الله : ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ (الآية) . وفى حديث ابن عمر عن أبى نعيم : فلقى رسول الله ﷺ عمر ، فقال : « كاد أن يصيبنا فى خلافك شر » .

وفى رواية عنه عند ابن المنذر وابن مردويه ، فقال رسول الله ﷺ : « إن كاد ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل عذاب ما أفلت إلا عمر » فإذا كان هذا فى رأى للصديق رضى الله عنه الذى اجتهد فيه ونصح لله ورسوله ﷺ فما ظنك بمن يفعل ذلك مع قريبه حمية دنيوية ، لا لغرض دين ، ولا يقصد وجه الله بذلك ، بل لا يقصد إلا الدنيا .

فإن قيل : فالنبى ﷺ لم يذم أبا بكر على التشبيه بل شبهه بإبراهيم وعيسى وميكائيل عليه السلام وشبه عمر بجبرائيل ونوح وموسى عليهم السلام .

قيل : المراد فى الموافقة فى أهل اللين والرحمة لا فى خصوص هذه المسألة فإن الصواب فيها مع عمر قطعا بكتاب الله ، ومع ذلك توعد الله فى أخذ الفداء بالعذاب لولا ما سبق من كتاب الله أنه رأى للصديق رضى الله عنه الذى اجتهد فيه فكيف بمن ينصح لهم ويرفق بهم ويرى الكف عن القتال ويشير بإسقاط النكال عنهم من غير مسوغ شرعى بل لمجرد المحبة الدنيوية .

وأما من يشير بكف المسلمين عنهم ، فإنْ كان مراده بذلك تأليفهم على الدخول فى الإسلام أو دخلوا فيه أو واعدوه بالدخول فيه عن قريب ،

وكان المصلحة فى تركهم قليلة ونحوه يجوز ذلك ، وإن كان المراد به أن لا يتعرض المسلمون لهم بشيء ، لا بقتال ولا نكال وإغلاظ ونحو ذلك ، فهو من أعظم أعوانهم وقد حصلت له موالاتهم مع بُعْدِ الديار وتباعد الأقطار . كما قيل :

سهم أصاب وراميه بذى سلم   مَنْ بالعراق لقد أبعدتَ مرماك

وأما من يشير بترك نقائص المسلمين لهم إن كانوا مرتدين ، فهذا عند الفقهاء مخطىء آثم لأنه يجب على المرتد ضمان ما أتلفه للمسلمين فى حال الردة ، خصوصاً من تكرر منه الردة مراراً ، فإنه لا يقصد بذلك فى هذا الزمان الإغارة والنهب لا غير فترك ذلك له من أعظم المعاونة على الإثم والعدوان .

ولهذا لما صار هذا أمراً سائغاً عند بعض الناس انفتحت للبدو أبواب الردة وآتوها مهطعين من كل وجه ولو كان هذا مصلحة فى بعض الأوقات رآها بعض الأمراء فلا يجب طرد ذلك لكل أحد فى كل زمان فاعلم ذلك .

وأما قول السائل : هل يكون هذا موالاة نفاق أم يكون كفرا ؟

فالجواب : إن كانت الموالاة مع مساكنتهم فى ديارهم والخروج معهم فى قتالهم ونحو ذلك ، فإنه يحكم على صاحبها بالكفر ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقد نَزَّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكْفَر بها ويُسْتَهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذاً مثلهم ﴾ .

وقال النبى ﷺ : « من جامع المشركين وسكن معهم فإنه مثلهم » ، وقال : « أنا برىء من مسلم بين أَظْهُر المشركين » (رواهما أبو داود) .

وإن كانت الموالاة لهم فى ديار الإسلام ، إذا قدموا إليهم ونحو ذلك ، فهذا عاص آثم متعرض للوعيد ، وإن كانت موالاتهم لأجل دينهم يجب عليه من التعزير بالهجر والأدب ونحوه ما يزجر أمثاله وإن كانت الموالاة لأجل دينهم فهو مثلهم ، ومن أحب قوماً حُشِر معهم .

ولكن ليتفكر السائل فى قوله حمية دنيوية يمكن هذا لإبلاغ المحبة فى قلوبهم وإلا فلو كان يبغضهم فى الله وما يعاديهم لكان أقر شيء لعينه ما يسخطهم ولكن كما قال ابن القيم :

أتحب أعداء الحبيب وتدَّعِى حباً له ما ذاك فى إمكان

وأما قول السائل : فإن كان ما يقدر من نفسه أن يتلفظ بكفرهم وسبهم ما حكمه ؟

فالجواب : لا يخلو ذلك عن أن يكون شاكّاً فى كفرهم أو جاهلاً به أو يقر بأنهم كفرةٌ هم وأشباههم ولكن لا يقدر على مواجهتهم وتكفيرهم ، أو يقول أقول غيرهم كفار لا أقول إنهم كفار فَإِنْ كان شاكاً فى كفرهم أو جاهلاً بكفرهم بينت له الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على كفرهم ، فإن شكَّ بعد ذلك وتردَّد فإنه كافر بإجماع العلماء على أن من شك فى كُفْر الكفار فهو كافر ، وإن كان يُقِرُّ بكفرهم ولا يقدر على مواجهتهم بتكفيرهم فهو مداهن لهم ، ويدخل فى قوله تعالى : ﴿ ودوا لو تدهن فَيُدْهِنون ﴾ ، وله حكم أمثاله من أهل الذنوب وإن كان يقول : أقول غيرهم كفار ، ولا أقول هم كفار ، فهذا حكم منه بإسلامهم إذاً لا واسطة بين الكفر والإسلام فإن لم يكونوا كفاراً فهم مسلمون وحينئذٍ فمن سَمَّى الكفر إسلاماً أو سمى الكفار مسلمين فهو كافر فيكون كافراً .
وأما قوله : إذا عرفت هذا من إنسان ماذا يجب عليك ؟

فالجواب : يجب عليك أن تنصحه وتدعوه إلى الله سبحانه وتعرفه قبح ما ارتكبه فإن تاب فهذا هو المطلوب وإن أصر وعاند فله حكم ما ارتكبه إن كان كفراً فكافر وإن كان معصية أو إثماً فعاص آثم يجب الإنكار عليه وتأديبه وهجره وإبعاده حتى يتوب . وقد هجر النبى ﷺ من تَخَلَّف عن غزوة واحدة ونهى عن كلامهم والسلام عليهم فكيف بمن يوالى الكفار ويظهر لهم المودة . انتهى .

هذا ما نقلناه من تأليف الشيخ سليمان بن عبد الله ابن الشيخ رحمه الله وعفا عنه .

تمت

ويليه رسالة فى تعريف العبادة وتوحيد العبادة

رسالة فى تعريف العبادة وتوحيدهـا
هذا سؤال أورده الشيخ الإمـــام
عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب
على طلبة العلم من أهل نجد وأهل الأحساء فأجاب
الشيخ العالم عبد الله بن عبد الرحمن المعروف
بأبى بطين هذا الجـواب

بســم الله الرحمــن الرحيــم

ما قولكم دام فضلكم فى تعريف العبادة وتعريف توحيد العبادة وأنواعه وتعريف الإخلاص وما بين الثلاثة من العموم والخصوص وهل هو مطلق أو وجهى وما معنى الإله وما معنى الطاغوت الذى أُمِرْنا باجتنابه والكفر به ؟

الجواب : الحمد لله رب العالمين . أما العبادة فى اللغة فهى من الذل يقال : بعير مُعَبّد أى مذلل وطريق مُعَبّد إذا كان مذللاً قد وطأته الأقدام وكذلك الدين أيضاً من الذل يقال : دنتُه فدان أى أذللته فذل .

وأما تعريفها فى الشرع فقد اختلفت عباراتهم فى تعريفها والمعنى واحد . فعرفها طائفة بقولهم : هى ما أمر به شرعاً من غير اطراد عُرْفى ولااقتضاء عقلى وعرّفها طائفة بأنها كمال الحب مع كمال الخضوع .

وقال أبو العباس رحمه الله تعالى : هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضاء بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال

ذلك ، فالدين كله دخل فى العبادة ، انتهى .

ومن عرفها بالحب مع الخضوع ، فلأن الحب التام مع الذل التام يتضمن طاعة المحبوب والانقياد له ، والخضوع لمحبوبه ، فالعبد هو الذى ذلّله الحب ، فبحسب محبة العبد لربه وذله له ، تكون طاعته ، فمحبة العبد لربه وذله له يتضمن عبادته وحده لا شريك له والعبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهى تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له ، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

ليس العبادة غير توحيد المحبة مع خضوع القلب والأركان
والحب نفس وفاقه فيما يحب وبغض ما لا يرتضى بجنان
ووفاقه نفس اتباعك أمره والقصد وجه الله ذى الإحسان

فعرف العبادة بتوحيد المحبة مع خضوع القلب والجوارح فمن أحب شيئاً وخضع له فقد تعبّد قلبه له فلا تكون المحبة المنفردة عن الخضوع عبادة ولا الخضوع بلا محبة عبادة ، فالمحبة والخضوع ركنان للعبادة فلا يكون أحدهما عبادة بدون الآخر فمن خضع لإنسان مع بغضه له لم يكن عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له ، كما يحب ولده وصديقه . ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شىء ، وأن يكون أعظم عنده من كل شىء ، بل لا يستحق المحبة الكاملة ، والذل التام ، إلا الله سبحانه .

إذا عرف ذلك فتوحيد العبادة ، هو إفراد الله سبحانه بأنواع العبادة المتقدم تعريفها ، وهو نفس العبادة المطلوبة شرعاً ليس أحدهما دون الآخر .

ولهذا قال ابن عباس : كل ما ورد فى القرآن من العبادة فمعناه

التوحيد وهذا هو التوحيد الذى دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون .

وأما العبادة من حيث هى فهى أعم من كونها توحيداً عموماً مطلقا فكل موحّد عابد لله وليس كل من عبد الله يكون موحّدا . ولهذا يقال عن المشرك إنه يعبد الله مع كونه مشركاً كما قال الخليل ﷺ : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾ ، وقال عليه السلام : « إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين » ، فاستثنى الخليل ربه من معبوديهم فدل على أنهم يعبدون الله سبحانه .

فإن قيل ما معنى النفى فى قوله سبحانه : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ .

قيل : إنما نفى عنهم الاسم الدال على الوصف والثبوت ولم ينف وجود الفعل الدال على الحدوث والتجدد .

وقد نبّه ابن القيّم رحمه الله تعالى على هذا المعنى اللطيف فى بدائع الفوائد فقال : لما أنجز كلامه على سورة قل يا أيها الكافرون :

وأما المسألة الرابعة : وهو أنه لم يأت النفى فى حقهم إلا باسم الفاعل وفى جهته جاء بالفعل المستقبل تارة وباسم الفاعل أخرى ، وذلك والله أعلم لحكمة بديعة ، وهى أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه ، وفى كل وقت ، فأتى أولاً بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد ثم أتى فى هذا النفى بعينه ، بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت ، فأفاد فى النفى الأول ، أن هذا لا يقع منى ، وأفاد فى الثانى ، أن هذا ليس وصفى ولا شأنى ، فكأنه قال عبادة غير الله لا تكون فعلاً لى ، ولا وصفاً ، فأتى

بنفيين مقصودين بالنفى ، وأما فى حقهم ، فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت ، دون الفعل أى الوصف الثابت اللازم للعابد لله منتف عنكم فليس هذا الوصف ثابتاً لكم ، وإنما يثبت لمن خص الله وحده بالعبادة ، لم يشرك معه فيها أحدا وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابدين وإن عبدوه فى بعض الأحيان فإن المشرك يعبد الله ، ويعبد معه غيره ، كما قال أهل الكهف : ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ أى اعتزلتم معبوديهم إلا الله فإنكم لم تعتزلوه . وكذا قول المشركين عن معبوديهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره لم ينف عنهم الفعل لوقوعه منهم ونفى الوصف لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة الله موصوفاً بها .

فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد فى طيها أنه لا يوصف بأنه عابد لله وإن عبده ولا المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكلّيته وتبتل إليه تبتيلا ، لم يلتفت إلى غيره ، ولم يشرك به أحداً فى عبادته ، وأنه إن عبده وأشرك به غيره فليس عابداً لله ولا عبداً له .

وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التى هى إحدى سورتى الإخلاص التى تعدل ربع القرآن كما جاء فى بعض السنن وهذالا يفهمه كل أحد ، ولا يدركه إلا من منحه الله فهماً من عنده ، فله الحمد والمنّة ، انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

وأما الإخلاص فحقيقته أن يُخْلِص العبد لله فى أقواله وأفعاله وإرادته ونيته وهذه هى الحنيفية ملة إبراهيم ﷺ التى أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهى حقيقة الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ وهى ملة

إبراهيم التى من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء ، قال تعالى : ﴿ ومن يرغبُ عن ملة إبراهيم إلا من سَفِهَ نَفْسَه ﴾ ، وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على اشتراط الاخلاص للأعمال والأقوال الدينية ، وأن الله لا يقبل منها إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه .

ولهذا كان السلف الصالح يجتهدون غاية الاجتهاد فى تصحيح نياتهم ويرون الإخلاص أعز الأشياء وأشقها على النفس وذلك لمعرفتهم بالله وما يجب له وبعلل الأعمال وآفاتها ولا يهمهم العمل لسهولته عليهم وإنما يهمهم سلامة العمل وخلوصه من الشوائب المبطلة لثوابه أو المنقصة له .

قال الإمام أحمد رحمه الله : أمر النية شديد ، وقال سفيان الثورى : ما عالجت شيئاً أشَدّ على من نيتى لأنها تتقلب على ، وقال يوسف ابن أسباط : تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد ، وقال سهل ابن عبد الله : ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب ، وقال يوسف بن الحسين : أعز شيء فى الدنيا الإخلاص ، وكم أجتهد فى إسقاط الرياء عن قلبى وكأنه ينبت فيه على لون آخر .

فيجب على من نصح نفسه أن يكون اهتمامه بتصحيح نيته وتخليصها من الشوائب فوق اهتمامه بكل شيء لأن الأعمال بالنيات ، ولكل امرء ما نوى .

وأما ما بين الثلاثة من العموم والخصوص وهل هو وجهى أو مطلق فقد قدمنا أن العبادة من حيث هى أعم من توحيد العبادة عموماً مطلقاً وأن العبادة المطلوبة شرعاً هى نفس توحيد العبادة ودل كلام ابن القيم رحمه الله أن توحيد العبادة أعم من الإخلاص حيث قال :

فلواحدٍ كن واحداً فى واحدٍ أعنى سبيلَ الحق والإيمانِ
هذا وثانى نوعى التوحيـد توحيد العبادة منك للرحمـنِ
أن لا تكون لغيره عبـداً ولا تعبد بغير شريعة الإيمـانِ
فتقوم بالإخلاص والإيمـان والإحسـان فى سر وفى إعلانِ
والصدق والإخـلاص ركنـا ذلك التوحيد كالركنين للبنيانِ

إلى أن قال :

وحقيقة الإخلاص توحيد المراد فلا يزاحمه مراد ثانـى
والصدق توحيد الإرادة وهـو بذل الجهد لا كسلا ولا متوانى
والسنّة المثلـى لسالكهـا فتوحيد الطريق الأعظم السلطان

فقوله رحمه الله : والصدق والإخلاص ركنا ذلك التوحيد جعل الإخلاص أحد ركنى توحيد العبادة والصدق ركنه الآخر وفسر الصدق بما ذكره . وقال فى بعض كلامه ومقام الصدق جامع للإخلاص. فعرفنا رحمه الله أن توحيد العبادة أعم من الإخلاص ولم يذكر إلا عموماً مطلقاً

وأما العموم الوجهى فالظاهر أن المراد به إذا كان أحد الشيئين أعم من وجه ، وأخص من وجه ، والعموم الذى بين مطلق العبادة وبين توحيد العبادة والإخلاص مطلق لا وجهى .

وأما الإله فهو الذى تألهه القلوب بالمحبة والخضوع والخوف والرجاء وتوابع ذلك من الرغبة والرهبة والتوكل والاستغاثة والدعاء والذبح والنذر والسجود وجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة فهو إله بمعنى مألوه أى معبود وأجمع أهل اللغة أن هذا معنى الإله .

قال الجوهرى : أَلَهَ بالفتح آلهةٌ أى عبد عبادة ، قال : ومنه قولنا الله

وأصله إلاهُ على فِعال بمعنى مفعول ، لأنه مألوه بمعنى معبود ، كقولنا إمام فعال بمعنى مفعول لأنه مؤتّم به قال : والتأليه التعبيد والتأله التنسك والتعبد . قال رؤبة : سجن واسترجعنَ من تألّهى، انتهى .

وقال فى القاموس : ألَهَ آلهة وألوهية عبد عبادة ومنه لفظ الجلالة . واختلف فيه على عشرين قولاً يعنى فى لفظ الجلالة ، قال : وأصله إلاه بمعنى مألوه ، وكلما اتخذ معبوداً أله عند متخذه ، قال والتأله التنسك والتعبد ، انتهى .

وجميع العلماء من المفسرين وشراح الحديث والفقه وغيرهم يفسرون الإله بأنه المعبود ، وإنما غلط فى ذلك بعض أئمة المتكلمين ، فظن أن الإله هو القادر على الاختراع ، وهذه زلّة عظيمة وغلط فاحش إذا تصوره العامى العاقل تبيّن له بطلانه وكأن هذا القائل لم يستحضر ما حكاه الله عن المشركين فى مواضيع من كتابه ولم يعلم أن مشركى العرب وغيرهم يقرون بأن الله هو القادر على الاختراع وهم مع ذلك مشركون .

ومن أبعد الأشياء أن عاقلاً يمتنع من التلفظ بكلمة يقر بمعناها ويعترف به ليلاً ونهاراً سراً وجهارا هذا ما لا يفعله من له أدنى مسكة من عقل .

قال أبو العباس رحمه الله تعالى : وليس المراد بالإله هو القادر على الاختراع كما ظنه من ظنه من أئمة المتكلمين حيث ظن أن الألوهية هى القدرة على الاختراع وأنَّ من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا إله إلا الله فإن المشركين كانوا يقرّون بهذا التوحيد كما قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل : أفلا تذكرون ﴾ (الآيات) ، وقال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله ، وهم مع هذا يعبدون غيره . وهذا التوحيد من التوحيد الواجب لكن لا يحصل به الواجب ولا يخلص بمجرده عن الإشراك الذى هو أكبر الكبائر الذى لا يغفره الله بل لابد أن يخلص لله الدين فلا يعبد إلا إياه فيكون دينه لله ، والإله هو المألوه الذى تألهه القلوب ، فهو إله بمعنى مألوه ، لا بمعنى إله ، انتهى .

وقد دل صريح القرآن على معنى الإله وأنه هو المعبود كما فى قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه ﴾ ، قال المفسرون هى كلمة التوحيد لا إله إلا الله باقية فى عَقِبه أى ذريته ، انتهى .

قال قتادة : لا يزال فى ذريته من يعبد الله ويوحّده والمعنى جعل هذه الموالاة والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية فى ذرية إبراهيم يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض ، وهى كلمة لا إله إلا الله فتبين أن موالاة الله بعبادته والبراءة من كل معبود سواه هو معنى لا إله إلا الله .

إذا تبين ذلك فمن صرف لغير الله شيئاً من أنواع العبادة المتقدم تعريفها كالحب والتعظيم والخوف والرجاء والدعاء والتوكل والذبح والنذر وغير ذلك فقد عبد ذلك الغير واتخذه إلهاً وأشركه مع الله فى خالص حقه وإن فَرَّ من تسمية فعله ذلك تألُّهاً وعبادة وشركاً ، ومعلوم عند كل عاقل أن حقائق الأشياء لا تتغير بتغير أسمائها ، فلو سمى الزنا والربا والخمر بغير

أسمائها لم يخرجها تغيير الاسم عن كونها زنا وربا وخمراً ونحو ذلك ومن المعلوم أن الشرك إنما حرّم لقبحه فى نفسه وكونه متضمناً مسبة الرب وتنقصه وتشبيهه بالمخلوقين فلا تزول هذه المفاسد بتغيير اسمه كتسميته توسلاً وتشفعاً وتعظيماً للصالحين وتوقيراً لهم ونحو ذلك ، فالمشرك مشرك شاء أم أبى ، كما أن الزانى زانٍ شاء أم أبى ، والمرابى مراب شاء أم أبى .

وقد أخبر النبى ﷺ أن طائفة من أمته يستحلون الربا باسم البيع ويستحلون الخمر باسم آخر غير اسمها وذمهم على ذلك فلو كان الحكم دائراً مع الاسم لا مع الحقيقة لم يستحق الذم وهذه من أعظم مكائد الشيطان لبنى آدم قديماً وحديثا ، أخرج لهم الشرك فى قالب تعظيم الصالحين وتوقيرهم وغير اسمه بتسميته إياه توسلاً وتشفعاً ونحو ذلك والله الهادى إلى سواء السبيل .

وأما تعريف الطاغوت فهو مشتق من طغا وتقديره طغوت ثم قلبت الواو ألفاً .

قال النحويون : وزنه فعلوت والتاء زائدة ، وقال الواحدى : قال جميع أهل اللغة : الطاغوت كل ما عبد من دون الله يكون واحداً وجمعاً ، ويُذَكَّر ويؤنث . قال تعالى : ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أُمِرُوا أن يكفروا به ﴾ فهذا فى الواحد . وقال تعالى فى الجمع : ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ وقال فى المؤنث : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ﴾ قال : ومثله فى أسماء الفلك يكون واحداً وجمعاً ومذكراً ومؤنثاً قال : قال الليث وأبو عبيدة والكسائى وجماهير أهل اللغة ، الطاغوت كل ما عُبِد من دون الله ، وقال الجوهرى : الطاغوت الكاهن والشيطان وكل رأس فى الضلال ، وقال

مالك وغير واحد من السلف والخلف : كل ما عُبِد من دون الله فهو طاغوت ، وقال عمر ابن الخطاب وابن عباس رضى الله عنهما وكثير من المفسرين الطاغوت : الشيطان قال ابن كثير وهو قول قوى جداً ، فإنه يشمل كل ما عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها . وقال الواحدى عند قول الله تعالى : ﴿ يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ ، كل معبود من دون الله فهو جبت وطاغوت .

قال ابن عباس فى رواية عطية الجبت : الأصنام والطاغوت تراجمة الأصنام الذين يكونون بين أيديهم يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس ، وقال فى رواية الوالبى : الجبت الكاهن والطاغوت الساحر ، وقال بعض السلف فى قوله سبحانه : ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ﴾ إنه كعب ابن الأشرف وقال بعضهم حيى بن أخطب وإنما استحقا هذا الاسم لكونهما من رؤوس الضلال ولإفراطهما فى الطغيان وإغوائهما الناس ولطاعة اليهود لهما فى معصية الله فكل من كان بهذه الصفة فهو طاغوت . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ﴾ لما ذكر قيل إنها نزلت فى طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف أو إلى حاكم الجاهلية وغير ذلك .

قال : والآية أعم من ذلك كله ، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت ها هنا فتحصل من مجموع كلامهم رحمهم الله أن اسم الطاغوت يشمل كل معبود من دون الله وكل رأس فى الضلال يدعو إلى الباطل ويحسنه ويشمل أيضاً كل من نصبه الناس للحكم بينهم بأحكام الجاهلية المضادة لحكم الله ورسوله ويشمل أيضاً الكاهن والساحر وسدنة الأوثان إلى عبادة المقبورين وغيرهم بما يكذبون من الحكايات المضلة للجهال الموهمة ، أن المقبور ونحوه يقضى

حاجة من توجه إليه وقصده ، وأنه فعل كذا وكذا مما هو كذب أو من فعل الشياطين ليوهموا الناس أن المقبور ونحوه يقضى حاجة من قصده فيوقعهم فى الشرك الأكبر وتوابعه .

وأصل هذه الأنواع كلها ، وأعظمها الشيطان ، فهو الطاغوت الأكبر والله سبحانه وتعالى أعلم ، هذا ما جمعه الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بأبى بطين شكر الله سعيه آمين .

تمـــت

ويليه رسالة فى أسباب نجاة السئول من السيف المسلول

هذه رسالــة
فى أسباب نجاة السَّئول من السيف المسلــول

بســم الله الرحمــن الرحيــم

وبه نستعين . ما قولكم علماءَ المسلمين فى رجل يقول : نحن نقول لا إله إلا الله ولا تكفون عنا ، والكفار الأولون إذا قالوها كف عنهم وأنتم تقولون إنكم تقولونها وتشركون ، فماذا نقول حتى تكفوا عنا ؟ أفتونا مأجورين .

المسألة الثانية : هل يلزم للرجل أن يتمذهب بمذهب واحدٍ من المذاهب الأربعة أم لا وما يجب عليه فى ذلك بينوا لنا الجواب رحمكم الله .

الحمد لله الذى جَبَلَ عباده على طبائعَ شتى فمنهم شاكر ومنهم كفور ، وجعلهم فريقين فريق فهم يتقربون إليه بالذبح لغير الله والنذر للطواغيت ، وبالدق والطبل والزنبور ، وفريق منهم يتقربون إليه بتوحيده ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم وبالحج المبرور .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبدٍ مخلصٍ فى توحيده غير شاكٍّ ولا كفور ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أحيا به الملة الحنيفية حتى أضاء الحق وتمزق الديجور ، صلى الله عليه وعلى آله

وأصحابه والتابعين لهم بإحسانٍ صلاة دائمة إلى يوم البعث والنشور وسلم تسليماً .

أما بعد : فالجواب عن المسألة الأولى وهى قول السائل : ما تقولون فى لا إله إلا الله فنقول : لا إله إلا الله هى كلمة الإسلام ، وهى مفتاح دار السلام ، وهى كلمة التقوى ، وهى العروة الوثقى ، وهى التى قامت بها الأرض والسموات ، وفطر الله عليها جميع المخلوقات ، ولأجلها جُردت سيوف الجهاد ، وهى محض حق الله على العباد ، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان ، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان ، وهى العمود الحامل للفرض والسنة ، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة ، وهى الكلمة العاصمة للدم والمال والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار ، وبها انقسم الناس إلى شقى وسعيد ، ومقبول وطريد ، فهى وإن كانت كلمة قيدت بالقيود الثقال . فإذا كان إمام الحنفاء لم تحصل له قول لا إله إلا الله ولم تتم له المحبة والموالاة وهو إمام المحبين إلا بالمعادلة كما قال تعالى مخبراً عنه : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾ فإنه لا ولى إلا ببراءة ولا ولاء لله إلا بالبراءة من كل معبود سواه .

وهذا معنى قول لا إله إلا الله كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقيةً فى عقبه ﴾ ، فأورثها إمام الحنفاء عليه السلام لأتباعه يتوارثها الأنبياء بعضهم لبعض .

فلما بُعث بها محمد ﷺ ودعا إليها أَمَره الله أن يبين هذين الركنين ، كما ذكر الله ذلك فى سورة الكافرون ، أمره أن يقول : ﴿ قل يا أيها

الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ﴾ إلى قوله : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ ، وعرف المشركون ذلك حين دعاهم إلى قوله لا إله إلا الله ، قالوا : ﴿ أَجَعَل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عُجَاب ﴾ .

وكذلك ما جرى له ﷺ مع عمّه عند وفاته لما قال له : يا عم قل لا إله إلا الله وعنده أبو جهل وعبد الله ابن أبى أمية فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب عرفوا معناها أن فيها التولى والتبرى .

وكذلك ﷺ أمره الله أن يدعو أهل الكتاب إليها وهم يقولونها . قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ (الآية) .

وفى صحيح مسلم عنه ﷺ ، أنه قال : « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل » . فتبين بذلك خطأ المغرورين وبطلان حجة المبطلين فإن لا إله إلا الله معناها كما تقدم النفى والإثبات وحقيقتها الموالاة والمعاداة ثم لا بد مع ذلك من البغض والاعتزال للداعى والمدعو والعابد والمعبود مع الكفر بهم كما ذكر الله ذلك . قال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أُسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (الآية) .

وكذلك ما جرى للنبى ﷺ وأصحابه مع قومهم من الاعتزال والعداوة العظيمة وما جرى لسعدٍ مع أمه رضى الله عنه ، وكما ذكر الله ذلك أيضاً عن الخليل عليه السلام مخبراً ، قال تعالى : ﴿ وأَعْتزِلكم وما تدعون من دون الله ﴾ (الآية) ، وقال تعالى مخبراً عن أهل الكهف : ﴿ وإذ

اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ ، فذكر الله عنهم فى هذه الآيات المحكمات أنهم بدؤا بالمشركين واعتزلوهم قبل المعبودين .

فأين هذا من الواقع من أهل هذا الزمان إذا كان علماؤهم لا يعرفون معناها كما عرف جُهّال الكفار ، ولا يعلمون بمقتضاها ولا حقيقتها عندهم لا إله إلا الله وحده لا شريك له فى ملكه ، وهى كلمة عليها أقيمت الملة ، ونصبت القبلة ، ونبّه الله على فضلها ، عظم شأنها أنبياؤه ورسله . قال تعالى فى حق نبيه محمد ﷺ : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ ، أنزلت عليه ﷺ ، هذه الآية الكريمة فى السنة الثامنة من الهجرة بالمدينة .

وكذلك فى الحديث المشهور عنه ﷺ ، أن موسى قال : يارب علمنى شيئاً أذكرك وأدعوك به ، قال : يا موسى ، قل لا إله إلا الله ، قال : يارب ، كل عبادك يقولون هذا ، قال : يا موسى ، لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى ، والأرضين السبع فى كفة ، ولا إله إلا الله فى كفة ، لمالت بهن لا إله إلا الله .

فليتأمل الناصح لنفسهِ عظم شأن هذه الكلمة وعظم أركانها فى المبتدى وفضلها وعظم شأنها فى المنتهى ، فإذا كان لابد من هذه الشروط المتقدمة فى البداية والتنبيه على فضلها وعظم شأنها فى النهاية ، مع سيد المرسلين ، وموسى الكليم عليهما السلام ، فما الظن بغيرهما ، والآيات والأخبار فى ذلك كثيرة معلومة ، وإنما ذكرنا إشارة على ما قيدت به من القيود .

وأما الكلام عليها فأكثر العلماء والشراح فى ذلك ولكن ما تسعه هذه الأوراق ومعناها الجامع لا إله أى لا معبود فى الوجود بحق إلا الله ولأجل هذا المعنى قال تعالى : ﴿ آلر . كتابٌ أُحْكِمت آياته ثم فصلت من لدن

حكيم خبير ، ألا تعبدوا إلا الله ﴾ ، فأخبر الحكيم الخبير أنه أنزل كتاباً محكماً مفصلاً ألا يعبدواإلا هو ، وقوله : أن لا تعبدوا (من) أداة من أجل ألا تعبدوا إلا الله ، فأخبر أن الحكيم الخبير أنزل كتابه من أجل ذلك .

وهذا أيضاً هو معنى لا إله إلا الله وأما الإله فأصله فى اللغة من الوَلَه يقال وله الفصيل وأله الفصيل إذا اشتد حبه إلى أمه فقلبت الواو همزة فالإله من تألهه القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء والدعاء وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والذبح والنذر والرغبة والرهبة والخشية والتوبة فجميع التعظيم هو مستحق له حتى لا يحلف إلا به .

وسر لا إله إلا الله إفراد الله بذلك كله وتوابعه والإله صفة تدور مع القصد فمن قصد بشيءٍ من أنواع العبادة والتعظيم والتبرك فهو له كما فى حديث أبى واقد الليثى ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفرٍ وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرةٍ أخرى فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال ﷺ : « الله أكبر ثلاثاً ، إنها السنن قلتم والذى نفسى بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : لتركبن سنن من كان قبلكم » (رواه الترمذى وصححه) .

ومن لوازم الإله ألا يلتجأ إلا إليه ولا يطاع إلا أمره فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله فإن المحقق هو المتيقن بقلبه القائم بها قولاً وفعلاً . قال تعالى : ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ فلم يكن قائماً بشهادته فى ظاهره وباطنه وفى قلبه وقالبه إلا من كان شهادته على الأوصاف المذكورة فحياة الروح بهذه الكلمة كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه فلا أنفع للعبد من إقباله على الله واشتغاله بذكره وتنعمّه بتوحيده ومحبته وإيثاره لمرضاته

ويتفاوت فى ذلك الخلق تفاوتاً عظيماً حتى إن منهم من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب كما فى حديث السبعين الألف ووصفهم ﷺ بأنهم الذين لا يَسْترقُون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون .

فأهل لا إله إلا الله ، المحققون لها ، فى نعيم الدنيا ، وفى البرزخ وفى الآخرة فى الجنة وحرمهم الله على النار وبقدر ما ينقص العبد فى معرفتها والعمل بها والثبات عليها وتحقيق العمل بمقتضاها يضعف يقينه وسيره وصبره فلا يثبت على الصراط فى الدنيا إلا من حقَّق هذه الكلمة ومرورهم على الصراط فى الآخرة بقدر سيرهم واستقامتهم فمعطى ومحروم والفضل بيد الله نسأل الله الثبات عليها وأن يجعل الخاتمة لنا وللمسلمين عند الوفاة عليها برحمته إنه أرحم الراحمين .

فصل : وهنا المقصود بالجواب عن ما سأل عنه السائل فجوابه من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن الله شرع الجهاد وأمر بالقتال وبين لنا الحكمة فى ذلك وموجبه وما يحصل به الكف . قال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ قال المفسرون أى شرك ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾ والدين اسم عام وهو ما بعث الله به محمداً ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألَا لله الدينُ الخالص ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ ، وقال ﷺ فى الحديث الصحيح : « بُعثِتُ بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله لا يشرك به شيئاً » (الحديث) .

الوجه الثانى : أن الله أمر بقتال المشركين كافة وبين لنا ذلك ، قال تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ إلى قوله : ﴿ فإن تابوا ﴾

أى عن الشرك ﴿ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ . فبين سبحانه وتعالى أنه لا يكف عنهم ، حتى يقيموا أعلام الإسلام الظاهرة ، وهى هذه الثلاثة الأركان كما ذكر الله فى الآية المتقدمة فى قوله تعالى : ﴿ وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ إلى قوله : ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ .

وفى الحديث الصحيح عنه ﷺ قال : « أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » .

وهذه الثلاثة الأركان أيضاً أمر ﷺ معاذاً لما بعثه إلى اليمن أن يدعو إليها ونبّهه على الأهم فالأهم كما فى حديثه وأخذ بذلك الخلفاء رضى الله عنهم فأبو بكر قاتل مانعى الزكاة وهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وقاتلوا طوائف أهل الردة وهم يقولونها ، وهذا الذى ذكرنا هو الذى يجب به الكف عن قتال العامة إذا أقاموه كما تقدم .

الوجه الثالث : ما يجب به الكف عن الخاصة فى مثل هذا الزمان وغيره فهى الكلمةالتى تفيد الفعل والترك كما فى حديث أبى معبد المقداد ابن الأسود قال : قلت يا رسول الله : أرأيت إن لقيتُ رجلاً من المشركين فاقتتلنا فضرب إحدى يدى بالسيف ثم لاذ بشجرة فقال : أسلمت لله أأقتله قال : « لا ، فإنك إن قتلته كان بمنزلتك وكنت بمنزلته قبل ذلك » (متفق عليه) والمعنى أنه بمنزلتك معصوم الدم والمال وأنت بمنزلته أى مباح الدم بالقصاص لورثته ، لا بمنزلته فى الدين والله أعلم .

فإذا عرف المسلم عظم شأن هذه الكلمة وما قيدت به من القيود ولابد مع ذلك أن يكون بالجنان ونطق اللسان وعمل بالأركان ، فإذا اختل نوع من هذه الأنواع لم يكن الرجل مسلماً كما ذكر الله ذلك وبيَّنه فى كتابه ، فإذا كان الرجل مسلماً وعاملاً بالأركان ، ثم حدث منه قولٌ أو فعلٌ أو اعتقادٌ يناقض ذلك لم ينفعه ذلك كما قال الله تعالى للذين تكلموا فى غزوة تبوك : ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ وقال تعالى فى حق الآخرين : ﴿ ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ﴾ .

فأين هذا من الواقع من أهل هذا الزمان ، جعلوا التلفظ بها عادة وهذياناً ، والقعقعة بحروفها فهى عندهم الإسلام والإيمان ، مع ما هدموه من التوحيد الذى هو حق الله وأكبّوا وأقبلوا على عبادة المشاهد والأوثان وضيعوا الفرائض وسائر الأركان ، وزيَّن لهم ما ارتكبوه من التبدع والتنطع والعصيان ، إلا أنهم يقولون لا إله إلا الله فما أحسن ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله تعالى لا إله إلا الله سماها الله كلمة التقوى فجعلوها كلمة الفجور وذكرنا عليها إشارة على طريق الإيجاز والاختصار خشية الإطالة والله المستعان .

وأما الذى يجب به الكف عن القتال فهو لابد من إقامة أعلام الإسلام الظاهرة المتقدمة فى الآيات المحكمات ذكرها الله بعد الأمر بالقتال وكذلك فى الأحاديث الصحيحة الصريحة فبدأ بالتوحيد ، وترك الشرك ثم ذكر بعده ﴿ وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة ﴾ ثم ذكر بعد ذلك : ﴿ فَخَلُّوا سبيلهم ﴾ والنبى ﷺ قال بعد ذكره الثلاثة : « فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام » وفى بعض الآيات : ﴿ حتى يكون الدين كله لله ﴾ وهذا الذى يجب به الكف كما دلَّ عليه الكتاب والسنة وفعل سلف

الأمة وهذا الذى عليه الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين .

وأما الخاصة فهو كما قدمنا يجب الكف إذا أظهر بقولٍ أو فعلٍ ما يدل على تركه دينه ودخوله فى الإسلام كما تقدم فى الحديث وليس المراد بالجواب الخاصة إنما يراد به العامة إذا كان موجوداً طائفة ممتنعةً عن إحدى الثلاثة المذكورة قوتلوا .

أما التوحيد الذى هو محض حق الله على العبيد والصلاة التى هى الفارقة بين الكفر والإسلام أو الزكاة التى أجمع الصحابة رضى الله عنهم على قتال مانعيها .

وكذلك أجمع العلماء أيضاً على ذلك وتتبع ما ورد فى ذلك يطول إذ كل مصنف ذكر ذلك وكذلك الشراح والفقهاء رحمهم الله ، وهذا مصرح به فى كتبهم ولو قالوا لا إله إلا الله لم يكف عنهم أو عملوا ببعض الشرائع وتركوا بعضاً ولكن ﴿ من يهدى الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ .

فصل : وأما المسألة الثانية هل يلزم الرجل أن يتبع مذهباً من المذاهب الأربعة أم لا ؟

فالجواب : أنَّ الله أوجب على عباده أن يتبعوا ما أُنزِل إليهم من ربهم كما ذكر الله ذلك فى آى القرآن وما جاءهم به نبيهم ﷺ كما أمر الله بذلك ودلت عليه السنّة وعلق الله النجاة والفلاح باتباعه ﷺ وذكر الله ذلك فى كم موضعٍ ، ولا يجب على الخلق أن يتبعوا رجلاً بعينه غيره ﷺ .

وانقسموا فى ذلك الناس أقساماً وتحزبوا أحزاباً وصار كل حزب بما لديهم فرحون والاتباع والاقتداء أنواع منه ما هو محرم كما ذكر الله عن

الكفار : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ (الآية) ، وقال تعالى : ﴿ يوم تُقَلَّبُ وجوههم فى النار ، يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ (الآية) .

النوع الثانى : ما ذكره الله عن أهل الكتاب فى تقليدهم واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله وهذا أيضاً يحرم على كل مسلم مشابهتهم ، قال أبو بكر فى الجامع باب فساد التقليد ونفيه والفرق بينه وبين الأتباع ، قال أبو عمر : قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد فى غير موضعٍ من كتابه فقال : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ .

وروى عن حذيفة رضى الله وغيره ، قال : « لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم أحلوا وحرموا عليهم فاتبعوهم » .

وقال عدى بن حاتم : أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب ، فقال : يا عدى ألق هذا الوثن من عنقك وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ ، قال : فقلت يا رسول الله إنا لم نتخذهم أربابا ، قال : « بلى أليس يحلوّن لكم ما حرّم عليكم فتُحلّونه ويحرّمون عليكم ما أحل لكم فتحرمونه » فقلت : بلى ، قال : « فتلك عبادتهم » (والحديث فى المسند والترمذى مطولاً) .

وقال أبو البختري في قوله عز وجل : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ قال : « أما أنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكنهم أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه ، وحرامه حلاله فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية » .

فمن عرف هذه المقدمة عرف أن ليس بيننا وبين الناس اختلاف فى المذاهب الأربعة رضوان الله عليهم بل وقع بيننا وبينهم النزاع عند معارضتهم للحق ودفعه بهذين النوعين كما كان هذا هو الواقع من أهل هذا الزمان وليس لهم حجة إلا ذلك وارتكابهم المحرمات واتباعهم الأهواء والشهوات ومع ذلك ينتمون بأنهم ينتسبون إلى المذاهب وليسوا كذلك فإن من انتسب إلى شيء وليس عليه حقيقة لم ينفعه ذلك فإن النصارى لم ينفعهم انتسابهم إلى عيسى وكذلك اليهود لم ينفعهم انتسابهم إلى موسى .

وقد قال الله تعالى لنبيه : ﴿ ثُمَّ جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ إلى قوله : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ثم ذكر بعد ذلك : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علمٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ ولأن الله تعالى قال : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾ .

قال الشيخ ابن القيم رحمه الله : جمع الله الطرق فى طريقين إما هدى وإما هوى وكذلك فى الآية المتقدمة إما متبع لشريعته ﷺ التى جعله الله عليها ورضيها لعباده وإما متخذ إلهه هواه أعاذنا الله من الآراء المحدثة والأهواء المضلة .

وأما الأئمة رضى الله عنهم فهم أئمة الهدى ، إجماعهم حجة واختلافهم رحمة والدين وسط .

واختلف العلماء فى تقليدهم فطائفة نفوا التقليد وأنكروه وقالوا الناس أحد رجلين إما عامى فيجب عليه أن يتعلم ما يقوم به دينه ولا فائدة له فى لزوم مذهب معين فإنه كالأمى الذى يدّعى أنه يقرأ وليس بقارئ أو يدعى أنه يكتب وليس بكاتب فيدعى أنه على مذهب وهو لا يعرفه ولا يعرف الصحيح منه والضعيف .

والرجل الثانى فقيه فلا يصح له أن يقدم على شئ بغير حجة ولا دليل والتقليد أمر ضرورى يباح عند الضرورة ، وطائفة وهم أكثر الفقهاء توسطوا فى ذلك ، لم يخرجوا عن ما قاله الأئمة رضى الله عنهم ، وهم عندهم أكْفَاء فى موارد النزاع ، وهم عندهم معذورون فيما لم يبلغ أحدهما من السنّة كما بيّن ذلك شيخ الإسلام فى كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) ، وداروا مع أولئك النصوص حيث دارت ، وتمسكوا بالسنة حيث بانت واستنارت ، وهم أتباع الأئمة ، وهم أهل النجاة من هذه الأمة فإن الأئمة رضى الله عنهم نهوا عن تقليدهم وهو الواجب عليهم إلا فيما وافق السنة وهذا التقليد والاتباع هو النوع الثالث الممدوح لا كما تقدم ولنذكر طرفاً من مقالة الأئمة . قال ابن القاسم عن مالك ، قال : ليس كل ما قال رجل قولاً وإن كان له فضل يتبع عليه لقول الله عز وجل : ﴿ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ ، وقال بشر بن الوليد : قال أبو يوسف صاحب أبى حنيفة : لا يحل لأحدٍ أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا . وقال أبو حنيفة رضى الله عنه : هذا رأى ، فمن جاءنا برأى خيراً منه قبلناه ، وقال أوَ لأحدٍ قول مع قول النبى ﷺ . وقال مالك رضى الله عنه : كُلٌ يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر ﷺ .

وقد صرح مالك رضى الله عنه بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعى أنه يستتاب فكيف من ترك قول رسول الله ﷺ لمن هو دون إبراهيم أو مثله ، وذكر البيهقى عن الشافعى رضى الله تعالى عنه مَثَل الذى يطلب العلم بلا حجة كَمَثلِ حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعاء يلدغه وهو لا يدرى ، وقال رضى الله عنه : إذا صح الحديث فهو مذهبى إلى غير ذلك عنه . وقال أبو داود : قلت لأحمد الأوزاعى : هو أهل أن يقلد أم مال ؟ قال : لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء إلا ما جاء عن النبى ﷺ وأصحابه فخذه ، وفى لفظٍ : وخذ من حيث أخذوا ، وقال رضى الله عنه : من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال ، وتتبع ذلك يطول .

النوع الرابع : من التقليد مذموم وهو الغلو فيه وتعلق به طائفة إذا التزموا مذهباً من المذاهب الأربعة قالوا لا يجوز مخالفته ولابد من اتباعه على كل حالة وجعلوا كل إمامٍ فى اتباعه بمنزلة النبى فى أمته وهذا تبديل للدين .

قال أحمد رضى الله عنه : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأى سفيان والله يقول : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذابٌ أليم ﴾ . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله وتقولون : قال أبو بكر وعمر ، وقال سفيان ابن عيينة : اضطجع ربيعة مقنّعاً رأسه وبكى فقال : ما يبكيك ؟ قال : رياء ظاهر وشهوة خفية والناس عند علمائهم كالصبيان عند إمائهم ، ما نهوهم عنه انتهوا ، وما أمروهم به ائتمروا ، وقال عبد الله ابن المعتم : لا فرق بين بهيمةٍ تنقاد وإنسانٍ يقلد ، وقال ابن مسعود : لا يقلدنَّ أحدكم رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر فإنه لا أسوة فى الشر ، وقال أيضاً رضى الله عنه : اغدُ عالماً أو متعلماً ولا تغْدُ معه فيما بين ذلك .

وروى عن علي رضى الله عنه مثل ذلك والكلام على هاتين المسألتين يطول وإنما ذكرنا عليهما ما تيسر مع التقصير لأنهما يسأل عنهما الأولون والآخرون ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين .

فالمسألة الأولى فيها تحقيق العبادة . والمسألة الثانية فيها تحقيق المتابعة آخره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين .

تمـــت

ويليها رسالة فى مقادير زوال الشمـــس

رسالة فى مقادير زوال الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا كان قبل النوروز بيومين ظل الزوال ثلاثة أقدام وثلث وفى اثنى عشر ظل الزوال أربعة أقدام وفى أربعة وعشرين ظل الزوال أربعة أقدام وربع وفى ست وثلاثين ظل الزوال أربعة أقدام ونصف وفى ثمانية وأربعين ظل الزوال خمسة أقدام وفى الستين ظل الزوال ستة أقدام ونصف وفى ثلاث وسبعين ظل الزوال سبعة أقدام وفى ست وثمانين ظل الزوال سبعة أقدام ونصف وفى اثنين وتسعين ظل الزوال ثمانية أقدام إلا ربع وفى مائة وإحدى عشر ظل الزوال سبعة أقدام ونصف، وفى مائة وواحد وعشرين ظل الزوال سبعة أقدام وثلث ، وفى مائة وسبعة وعشرين ظل الزوال سبعة أقدام وربع وفى مائة وثمانية وثلاثين ظل الزوال سبعة أقدام وفى مائة وثمانية وأربعين ظل الزوال ستة أقدام ونصف وفى مائة وثمانية وخمسين ظل الزوال ستة أقدام وفى مائة وسبعة وستين ظل الزوال خمسة أقدام ونصف وفى مائة وست وسبعين ظل الزوال خمسة أقدام وفى مائة وإحدى وتسعين ظل الزوال أربعة أقدام ونصف وفى مائة وستة وتسعين ظل الزوال أربعة أقدام وفى مائتين وإحدى عشر ظل الزوال ثلاثة أقدام وفى مائتين وستة عشر ظل الزوال قدمان ونصف وفى مائتين وسبعة وعشرين ظل الزوال قدمان

وفى مائتين واثنين وأربعين ظل الزوال قدم وثلث وفى مائتين وست وأربعين ظل الزوال قدم وفى مائتين وسبعة وخمسين ظل الزوال نصف قدم وفى مائتين وسبع وستين ظل الزوال ثلث قدم وفى مائتين وسبع وسبعين يحتاط للزوال بثلث قدم وفى مائتين وواحد وثمانين يعدم ظل الزوال وفى ثلاث مائة وواحد يحتاط للزوال بثلث قدم وفى ثلاثمائة وثمانية عشر ظل الزوال ثلث قدم وفى ثلاث مائة وأربعة وعشرين ظل الزوال قدم وفى ثلاث مائة وتسعة وأربعين ظل الزوال قدمان وفى ثلاث مائة وأربعة وستين ظل الزوال ثلاثة أقدام وثلث .

اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثنى عليك الخير كله نشكر ولا نكفرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك نسعى ونحفد ونرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك الجد بالكفار ملحق .

تمـــت

ويليها كتاب التوحيد الذى حق الله على العبيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهـاب

كتـــاب التوحيـــد

الذى هو حق الله على العبيـــد

أَلَّفَه شيخ الإسلام وقدوة علماء الأعلام وزبدة
فضلاء الأنام وحيد عصره وفريد دهـره
العلامة الفهَّامة الشيخ محمد بن عبد الوهـاب
أعظم الله له الأجـر والثـواب

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب التوحيد

وقول الله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ، وقوله : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمّة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ (الآية) ، وقوله : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ (الآية) ، وقوله : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾ (الآية) ، وقوله : ﴿ قل تعالوا أتْلُ ما حَرَّم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً ﴾ (الآيات) .

قال ابن مسعود : من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التى عليها خاتمه ، فليقرأ قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما ﴾ (الآية) .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : كنت رديف النبى ﷺ على حمار فقال لى : « يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به

شيئا » ، قلت : يا رسول الله أفلا أبشّر الناس ، قال : « لا تبشّرهم فيتكلوا » (أخرجاه فى الصحيحين) .

فيه مسائل : (الأولى) الحكمة فى خلق الجن والإنس . (الثانية) أنَّ العبادة هى التوحيد لأن الخصومة فيه . (الثالثة) أن من لم يأت به لم يعبد الله فيفيه معنى قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ . (الرابعة) الحكمة فى إرسال الرسل . (الخامسة) أن الرسالة عمت كل أمة . (السادسة) أن دين الأنبياء واحد . (السابعة) المسألة الكبيرة ، أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت ، ففيه معنى قوله : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ﴾ « الآية » . (الثامنة) أن الطاغوت عام فى كل ما عُبِد من دون الله . (التاسعة) عظم شأن ثلاثة الآيات المحكمات ، فى سورة الأنعام ، عند السلف وفيها عشر مسائل : أولها النهى عن الشرك . (العاشرة) الآيات المحكمات فى سورة الإسراء ، وفيها ثمانى عشرة مسألة ، بدأها الله بقوله : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً ﴾ ، وختمها بقوله : ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحورا ﴾ ، ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله : ﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾ ، (الحادية عشرة) آية سورة النساء التى تسمى آية الحقوق العشرة، بدأها الله تعالى بقوله : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾ . (الثانية عشرة) التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته . (الثالثة عشرة) معرفة حق الله علينا . (الرابعة عشرة) معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه . (الخامسة عشرة) أن هذه المسألة يعرفها أكثر الصحابة . (السادسة عشرة) جواز كتمان العلم للمصلحة . (السابعة عشرة) استحباب بشارة المسلم بما يسره . (الثامنة عشرة) الخوف من الاتكال على

سعة رحمة الله . (التاسعة عشرة) قول المسئول عما لا يعلم الله ورسوله أعلم . (العشرون) جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض . (الحادية والعشرون) تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه . (الثانية والعشرون) جواز الإرداف على الدابة . (الثالثة والعشرون) فضيلة معاذ بن جبل . (الرابعة والعشرون) عظم شأن هذه المسألة .

(باب فضل التوحيد وما يكفّر من الذنـوب)

وقول الله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ (الآية) .

عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » (أخرجاه) .

ولهما فى حديث عتبان : فإن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله .

وعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : « قال موسى يارب علمنى شيئاً أذكرك وأدعوك به ، قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله ، قال : يارب كل عبادك يقولون هذا ، قال : يا موسى ، لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهن لا إله إلا الله » (رواه ابن حبّان والحاكم وصحّحه ، وللترمذى وحسّنه) .

وعن أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » .

فيه مسائل : (الأولى) سعة فضل الله . (الثانية) كثرة ثواب التوحيد عند الله . (الثالثة) تكفيره مع ذلك للذنوب . (الرابعة) تفسير الآية التى فى سورة الأنعام . (الخامسة) تأمل الخمس اللواتى فى حديث عبادة . (السادسة) أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول لا إله إلا الله ، وتبين لك خطأ المغرورين . (السابعة) التنبيه للشرط الذى فى حديث عتبان . (الثامنة) كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله . (التاسعة) التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه . (العاشرة) النص على أن الأرضين سبع كالسموات . (الحادية عشرة) أن لهن عماراً . (الثانية عشرة) إثبات الصفات خلافاً للأشعرية . (الثالثة عشرة) أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله فى حديث عتبان : « فإن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله » ، أنه ترك الشرك ، ليس باللسان . (الرابعة عشرة) تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبد الله ورسوله . (الخامسة عشرة) معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله . (السادسة عشرة) معرفة كونه روحاً منه . (السابعة عشرة) معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار . (الثامنة عشرة) معرفة قوله على ما كان من العمل . (التاسعة عشرة) معرفة أن الميزان له كفتان . (العشرون) معرفة ذكر الوجه .

بابٌ : (من حَقَّق التوحيد دخل الجنة بغير حساب)

وقول الله تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أُمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾ ، وقال : ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ .

عن حصين بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذى انقض البارحة ، فقلت أنا : ثم قلت : أما أنى لم أكن فى صلاة ولكنى لدغت ، قال : فما صنعت ؟ قلت : ارتقيت ، قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حدثناه الشعبى ، قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال : لا رقية إلا من عين أو حمة . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع . ولكن حدثنا ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : « عُرضَتْ علىَّ الأمم فرأيت النبى ومعه الرهط ، والنبى معه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد إذ رفع لى سواد عظيم فظننت أنهم أمتى فقيل لى : هذا موسى وقومه فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لى : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » ، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس فى أولئك فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه فقال : « هم الذين لا يسْترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » ، فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم ، قال : « أنت منهم » ، ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم فقال : « سبقك بها عكاشة » .

فيه مسائل : (الأولى) معرفة مراتب الناس فى التوحيد . (الثانية) ما معنى تحقيقه . (الثالثة) ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين . (الرابعة) ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك . (الخامسة) كون ترك الرقية والكى من تحقيق التوحيد . (السادسة) كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل . (السابعة) عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل . (الثامنة) حرصهم على الخير . (التاسعة) فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية . (العاشرة) فضيلة أصحاب موسى . (الحادية عشرة) عرض الأمم عليه عليه السلام . (الثانية عشرة) أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها . (الثالثة عشرة) قلة من استجاب للأنبياء . (الرابعة عشرة) أن من لم يجبه أحد يأتى وحده . (الخامسة عشرة) ثمرة هذا العلم وهو عدم الاغترار بالكثرة ، وعدم الزهد فى القلة . (السادسة عشرة) الرخصة فى الرقية من العين والحمة . (السابعة عشرة) عمق علم السلف ، لقوله : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن كذا وكذا ، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثانى . (الثامنة عشرة) بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه . (التاسعة عشرة) قوله أنت منهم علم من أعلام النبوة . (العشرون) فضيلة عكاشة . (الحادية والعشرون) استعمال المعاريض . (الثانية والعشرون) حسن خلقه ﷺ .

باب (الخوف من الشـــرك)

وقول الله عز وجل : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ . وقال الخليل عليه السلام : ﴿ واجْنُبنى وبَنى أن نعبد الأصنام ﴾ . وفى الحديث : « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » ، فسئل عنه فقال الرياء .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من مات وهو يدعو لله نداً دخل النار » (رواه البخارى) .

ولمسلم عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار » .

فيه مسائل : (الأولى) الخوف من الشرك . (الثانية) أن الرياء من الشرك . (الثالثة) أنه من الشرك الأصغر . (الرابعة) أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين . (الخامسة) قرب الجنة والنار . (السادسة) الجمع بين قربهما فى حديث واحد . (السابعة) أنه من لقيه لا يشرك به شيئاً ، دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئاً ، دخل النار ولو كان من أعبد الناس . (الثامنة) المسألة العظيمة سؤال الخليل إبراهيم له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام . (التاسعة) اعتباره بحال الأكثر لقوله : ﴿ ربِّ إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ . (العاشرة) فيه تفسير لا إله إلا الله كما ذكره البخارى . (الحادية عشرة) فضيلة من سلم من الشرك .

باب (الدعاء إلى شهادة لا إله إلا الله)

وقول الله تعالى : ﴿ قل هذه سبيلى ادعو إلى الله على بصيرة ﴾ (الآية) .

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن ، قال له : « إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله » وفى رواية : « إلى أن يوحدوا الله فإن هم أطاعوك لذلك فأعلِمْهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن أطاعوك لذلك ، فأعلِمْهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوك لذلك ، فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » (أخرجاه) .

ولهما عن سهل بن سعد رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه » ، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ ، كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : « أين على بن أبى طالب » فقيل هو يَشتكى عينيه فأرسلوا إليه فأتى به فبصق فى عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال : « انفذ على رسِلْك حتى تنزل بساحتهم ثم ادْعُهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النعم » (يدوكون) أى يخوضون .

فيه مسائل : (الأولى) أن الدعوة إلى الله طريق من اتبعه ﷺ . (الثانية) التنبيه على الإخلاص لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه . (الثالثة) أن البصيرة من الفرائض . (الرابعة) من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه لله تعالى عن المسبة . (الخامسة) أن من قبح الشرك كونه مسبة لله . (السادسة) وهى أهمها ، إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك . (السابعة) كون التوحيد أول واجب . (الثامنة) أنه يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة . (التاسعة) أن معنى أن يوحدوا الله معنى شهادة لا إله إلا الله . (العاشرة) أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها . (الحادية عشرة) التنبيه على التعليم بالتدريج . (الثانية عشرة) البداية بالأهم فالأهم . (الثالثة عشرة) مصروف الزكاة . (الرابعة عشرة) كشف العالم الشبهة عن المتعلم . (الخامسة عشرة) النهى عن كرائم الأموال . (السادسة عشرة) اتقاء دعوة المظلوم . (السابعة عشرة) الإخبار بأنها لا تحجب . (الثامنة عشرة) من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء . (التاسعة عشرة) قوله : « لأعطين الراية » الخ . علم من أعلام النبوة . (العشرون) تَفْله فى عينيه علم من أعلامها أيضاً . (الحادية والعشرون) فضيلة على رضى الله عنه . (الثانية والعشرون) فضل الصحابة فى دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح . (الثالثة والعشرون) الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى . (الرابعة والعشرون) الأدب فى قوله : « على رِسْلك » . (الخامسة والعشرون) الدعوة إلى الإسلام قبل القتال . (السادسة والعشرون) أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا . (السابعة والعشرون) الدعوة

بالحكمة لقوله : أخبرهم بما يجب عليهم . (الثامنة والعشرون) المعرفة بحق الله فى الإسلام . (التاسعة والعشرون) ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد . (الثلاثون) الحلف على الفتيا .

باب (تفسير التوحيد وشهادة لا إله إلا الله)

وقول الله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ (الآية) . وقوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴾ (الآية) . وقوله : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) ، وقوله : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ (الآية) .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل » وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب . فيه أكبر المسائل وأهمها وهو تفسير التوحيد وتفسير الشهادة وبيّنها بأمور واضحة منها آية الإسراء وبيّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين ، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر ، ومنها آية براءة بيّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله وبيّن أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهاً واحداً مع أن تفسيرها الذى لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد فى المعصية لادعائهم إياهم ، ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار : ﴿ إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴾ فاستثنى من المعبود ربه وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هى تفسير شهادة لا إله إلا الله ، فقال : ﴿ وجعلها كلمة باقية فى

عَقِبه لعلهم يرجعون ﴾ . ومنها آية البقرة فى الكفار الذين قال فيهم : ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ ، ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولم يدخلهم فى الإسلام ، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله ، ومنها قوله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه وحسابه على الله » ، وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله فإن لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال بل ولا معرفة معناها مع لفظها بل ولا الإقرار بذلك بل ولا كونه يدعو إلا الله وحده لا شريك له بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه فياها من مسألة ما أعظمها وأجلها ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع .

باب : (من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه)

وقوله تعالى : ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ (الآية) .

عن عمران بن حصين رضى الله عنه أن النبى ﷺ رأى رجلاً فى يده حلقة من صفر فقال : « ما هذا ؟ » قال : من الواهنة ، فقال : « انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً ، فإنك لو متَّ وهى عليك ما أفلحتَ أبداً » (رواه أحمد بسند لا بأس به) .

وله عن عقبة بن عامر مرفوعا : « من تعلق تميمة ، فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة ، فلا ودع الله له » ، وفى رواية : « من تعلق تميمة فقد أشرك » ، ولابن أبى حاتم عن حذيفة ، أنه رأى رجلاً فى يده خيط من الحمى ، فقطعه ، وتلا قوله : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

فيه مسائل : (الأولى) التغليظ فى لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك . (الثانية) أن الصحابى لو مات وهى عليه ، ما أفلح فيه شاهد لكلام الصحابة ، إن الشرك الأصغر ، أكبر الكبائر . (الثالثة) أنه لم يعذر بالجهالة . (الرابعة) أنها لا تنفع فى العاجلة بل تضر ، لقوله : « لا تزيدك إلا وهناً » . (الخامسة) الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك . (السادسة) التصريح بأن من تعلق شيئاً وكل إليه . (السابعة) التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك . (الثامنة) أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك . (التاسعة) تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التى فى الأكبر على الأصغر كما ذكر ابن عباس فى آية البقرة . (العاشرة) أن تعليق الودع عن العين من ذلك . (الحادية عشرة) الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له ، ومن تعلق ودعة ، فلا ودع الله له ، أى ترك الله له .

باب (ما جاء فى الرقى والتمائم)

فى الصحيح عن أبى بشير الأنصارى رضى الله عنه ، أنه كان مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره ، فأرسل رسولاً ، أن لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » (رواه أحمد وأبو داود) ، وعن عبد الله بن حكيم مرفوعاً : « من تعلق شيئاً وُكِل إليه » (رواه أحمد والترمذى) .

التمائم شىء يعلق على الأولاد من العين لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهى عنه منهم ابن مسعود رضى الله عنه .

والرقى هى التى تسمى العزائم وخص منها الدليل ما خلا من الشرك فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة .

والتولة شىء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته وروى أحمد عن رويفع قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا رويفع ؛ لعل الحياة تطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وتراً أو استنجى برجيع دابة أو عَظْم فإن محمدا برىء منه » .

وعن سعيد بن جبير قال : من قطع تميمة من إنسان كان كعِدْل رقبة (رواه وكيع) وله عن إبراهيم ، قال : كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير الرقى والتمائم . (الثانية) تفسير التولة . (الثالثة) أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء . (الرابعة) أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك . (الخامسة) أن التميمة إذا كانت من القرآن ، فقد اختلف العلماء هل هى من ذلك أم لا . (السادسة) أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك . (السابعة) الوعيد الشديد على من تعلق وتر . (الثامنة) فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان . (التاسعة) أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف لأن مراده أصحاب عبد الله .

باب (من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما)

وقول الله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ (الآية) .

عن أبى واقد الليثى ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر إنها السنن قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال : إنكم قوم تجهلون ﴾ لتركبن سنن من كان قبلكم » (رواه الترمذى وصححه) .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية النجم . (الثانية) معرفة صورة الأمر الذى طلبوا . (الثالثة) كونهم لم يفعلوا . (الرابعة) كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه . (الخامسة) أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل . (السادسة) أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم . (السابعة) أن النبى ﷺ لم يعذرهم الأمر بل رد عليهم بقوله : « الله أكبر إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم » ، فغلظ الأمر بهذه الثلاث . (الثامنة) الأمر الكبير وهو المقصود أنه أخبر أن طلبتهم كطلبة بنى إسرائيل لما قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً . (التاسعة) أن نفى هذا من معنى لا إله إلا الله مع دقته وخفائه على أولئك . (العاشرة) أنه حلف على الفتيا ، وهو لا يحلف إلا لمصلحة . (الحادية عشرة) أن الشرك فيه أكبر وأصغر ، لأنهم لم يرتدوا بهذا . (الثانية عشرة) قولهم : ونحن حدثاء عهد بكفر فيه أن غيرهم لا يجهله ذلك . (الثالثة عشرة) التكبير عند التعجب ، خلافاً لمن كرهه . (الرابعة عشرة) سداً للذرائع . (الخامسة عشرة) النهى عن التشبه بأهل الجاهلية . (السادسة عشرة) الغضب عند التعليم . (السابعة عشرة) القاعدة الكلية لقوله : إنها السنن . (الثامنة عشرة) أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر . (التاسعة عشرة) أن ما ذم به اليهود والنصارى فى القرآن أنه لنا . (العشرون) أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر ، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر ، أما من ربك فواضح ، وأما من نبيك فمن أخباره بأنباء الغيب ، وأما من دينك فمن قولهم : اجعل لنا إلى آخره . (الحادية والعشرون) أن سنّة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين . (الثانية والعشرون) أن المنتقل من الباطل الذى اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون فى قلبه بقية من تلك العادة لقولهم ونحن حدثاء عهد بكفر .

باب (ما جاء فى الذبح لغير الله)

وقول الله تعالى : ﴿ قل إن صلاتى ونُسُكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ﴾ (الآية) ، وقوله : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ .

عن على رضى الله عنه قال : حدثنى رسول الله ﷺ بأربع كلمات : « لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثاً ، لعن الله من غير منار الأرض » (رواه مسلم) .

عن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنة رجل فى ذباب ، ودخل النار رجل فى ذباب » قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « مرّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما قرب ، قال : ليس عندى شىء أقرب ، قالوا : قرب ولو ذبابا ، فقرب ذبابا فخلوا سبيله ، فدخل النار ، وقالوا للآخر : قرِّب ، فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة » (رواه أحمد) .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير صلاتى ونسكى . (الثانية) تفسير فصل لربك وانحر . (الثالثة) البداءة بلعنة من ذبح لغير الله . (الرابعة) لعن من لعن والديه ، ومنه أن تلعن والدى الرجل ، فيلعن والديك . (الخامسة) لعن من آوى محدثاً ، وهو الرجل يحدث شيئاً يجب فيه حق لله ، فيلتجىء إلى من يجيره من ذلك . (السادسة) لعن من غيَّر منار الأرض ، وهى المراسيم التى تفرق بين حقك وحق جارك ، فتغيرها بتقديم أو تأخير . (السابعة) الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصى على سبيل

العموم . (الثامنة) هذه القصة العظيمة وهى قصة الذباب . (التاسعة) كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذى لم يقصده بل فعله تخلصا من شرهم . (العاشرة) معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين ، وكيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر . (الحادية عشرة) أن الذى دخل النار مسلم ، لأنه لو كان كافراً ، لم يقل دخل النار فى ذباب . (الثانية عشرة) فيه شاهد للحديث الصحيح ، الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك . (الثالثة عشرة) معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عَبَدةِ الأوثان .

باب (لا يذبح بمكان يذبح فيه لغير الله)

وقول الله تعالى : ﴿ لا تقم فيه أبدا ﴾ (الآية) .

عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه ، قال : نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة ، فسأل النبى ﷺ ، فقال : « هل فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد » ، قالوا : لا ، قال : « فهل كان فيها عيد من أعيادهم » ، قالوا : لا ، فقال رسول الله ﷺ : « أوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم » (رواه أبو داود وإسناده على شرطهما) .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير قوله : ﴿ لا تقم فيه أبدا ﴾ . (الثانية) أن المعصية قد تؤثر فى الأرض ، وكذلك الطاعة . (الثالثة) رد المسألة

المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال . (الرابعة) استفصال المفتى إذا احتاج إلى ذلك . (الخامسة) أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع . (السادسة) المنع منه إذا كان فيه وثناً من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله . (السابعة) المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله . (الثامنة) أنه لا يجوز الوفاء بما نذر فى تلك البقعة لأنه نذر معصية . (التاسعة) الحذر من مشابهة المشركين فى أعيادهم ولو لم يقصده . (العاشرة) لا نذر فى معصية . (الحادية عشرة) لا نذر لابن آدم فيما لا يملك .

باب (من الشرك النذر لغير الله)

وقول الله تعالى : ﴿ يوفون بالنذر ﴾ ، وقوله : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ .

وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » .

فيه مسائل : (الأولى) وجوب الوفاء بالنذر . (الثانية) إذا ثبت كونه عبادة لله ، فَصَرْفُه إلى غيره شرك . (الثالثة) أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به .

باب (من الشرك الاستعاذة بغير الله)

وقول الله تعالى : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ .

وعن خولة بنت حكيم ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نزل منزلا ، فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك » (رواه مسلم) .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية الجن . (الثانية) كونه من الشرك . (الثالثة) الاستدلال على ذلك بالحديث لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة قالوا لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك . (الرابعة) فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره . (الخامسة) أن يكون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .

باب (من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره)

وقول الله : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين ، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ﴾ (الآية) . وقوله : ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ (الآية) ، وقوله : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ﴾ (الآيتين) ، وقوله : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ .

وروى الطبرانى بإسناده ، أنه كان فى زمن النبى ﷺ منافق يؤذى المؤمنين ، فقال بعضهم قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : « إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله » .

فيه مسائل : (الأولى) أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص . (الثانية) تفسير قوله : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾ . (الثالثة) أن هذا هو الشرك الأكبر . (الرابعة) أن أصلح الناس لو يفعله إرضاءً لغيره صار من الظالمين . (الخامسة) تفسير الآية التى بعدها . (السادسة) كون ذلك لا ينفع فى الدنيا مع كونه كفر . (السابعة) تفسير الآية الثالثة . (الثامنة) أن طلب الرزق لا ينبغى إلا من الله ، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه . (التاسعة) تفسير الآية الرابعة . (العاشرة) أنه لا أضل ممن دعا غير الله . (الحادية عشرة) أنه غافل عن دعاء الداعى لا يدرى عنه . (الثانية عشرة) أن تلك الدعوة سب لبغض المدعو للداعى وعداوته له . (الثالثة عشرة) تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو . (الرابعة عشرة) كفر المدعو بتلك العبادة . (الخامسة عشرة) هى سبب كونه أضل الناس . (السادسة عشرة) تفسير الآية الخامسة . (السابعة عشرة) الأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان ، أنه لا يجيب المضطر إلا الله ولأجل هذا يدعونه فى الشدائد مخلصين له الدين . (الثامنة عشرة) حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد والتأدب مع الله .

باب : قول الله تعالـــى :

﴿ أَيُشْرِكُونَ ما لا يخلق شيئا وهم يُخْلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ﴾ (الآية) . وقوله : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ (الآية) . وفى الصحيح عن أنس ، قال : شُجَّ النبى ﷺ يوم أحد وكُسِرَتْ رباعيته ، فقال : « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم » ، فنزلت : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ .

وفيه عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر : « اللهم العن فلانا وفلانا »، بعدما يقول سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد فأنزل الله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ (الآية) .

وفى رواية يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث ابن هشام فنزلت : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ . وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ فقال : « يا معشر قريش (أو كلمة نحوها) اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله ﷺ ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت ، لا أغنى عنك من الله شيئا » .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير الآيتين . (الثانية) قصد أحد . (الثالثة) قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يُؤَمِّنون فى الصلاة . (الرابعة) أن المدعو عليهم كفار . (الخامسة) أنهم فعلوا أشياء ما فعلها

غالب الكفار منها شجهم نبيهم وحرصهم على قتله ، ومنها التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم . (السادسة) أنزل الله عليه فى ذلك : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ . (السابعة) قوله : ﴿ أو يتوب عليهم أو يعذبهم ﴾ ، فتاب عليهم فآمنوا . (الثامنة) القنوت فى النوازل . (التاسعة) تسمية المدعو عليهم فى الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم . (العاشرة) لعن المعين فى القنوت . (الحادية عشرة) قصته ﷺ لما أنزل عليه : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ . (الثانية عشرة) جده ﷺ بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون ، وكذلك لو يفعله مسلم الآن . (الثالثة عشرة) قوله للأبعد والأقرب ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، حتى قال : يا فاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغنى شيئا عن سيدة نساء العالمين ، وآمن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق ، ثم نظر فيما وقع فى قلوب خواص الناس اليوم ، تبين له التوحيد وغربة الدين .

باب : قول الله تعالى : ﴿ حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم ، قالوا : الحق وهو العلى الكبير ﴾

فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إذا قَضَى الله الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، ينفذهم ذلك حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : ﴿ الحق وهو العلى الكبير ﴾ فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ، (وصفه سفيان بكفه فحرفها ، وبدّد بين أصابعه) ؛ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم

يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا ، كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء » .

وعن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله تعالى أن يُوحِى بالأمر ، تكلم بالوحى ، أخذت السموات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صُعِقُوا وخروا لله سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبرائيل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبرائيل ؟ فيقول جبرائيل : قال الحق وهو العلى الكبير ، فيقولون كلهم ، مثل ما قال جبرائيل ، فينتهى جبرائيل بالوحى إلى حيث ما أمره الله عز وجل .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير الآية . (الثانية) ما فيها من الحجة على إبطال الشرك ، خصوصاً من تعلق على الصالحين ، وهى الآية التى قيل إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب . (الثالثة) تفسير قوله : ﴿ قالوا الحق وهى العلى الكبير ﴾ . (الرابعة) سبب سؤالهم عن ذلك . (الخامسة) أن جبرائيل يجيبهم بعد ذلك بقوله ، قال كذا وكذا . (السادسة) ذكر أن أول من يرفع رأسه جبرائيل . (السابعة) أنه يقول لأهل السموات كلهم لأنهم يسألونه . (الثامنة) أن الغشى يعم أهل السموات كلهم . (التاسعة) ارتجاف السموات لكلام الله . (العاشرة) أن جبرائيل هو الذى ينتهى بالوحى إلى حيث أمره الله . (الحادية عشرة) ذكر استراق الشياطين . (الثانية عشرة) صفة ركوب بعضهم بعضا . (الثالثة عشرة) إرسال الشهاب . (الرابعة عشرة) أنه تارة يدركه

الشهاب قبل أن يلقيها ، وتارة يلقيها فى أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه . (الخامسة عشرة) كون الكاهن يصدق بعض الأحيان . (السادسة عشرة) كونه يكذب معها مائة كذبة . (السابعة عشرة) أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التى سمعت من السماء . (الثامنة عشرة) قبول النفوس للباطل كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة . (التاسعة عشرة) كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها . (العشرون) إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة . (الحادية والعشرون) بأن تلك الرجفة والغشى خوفا من الله عز وجل . (الثانية والعشرون) أنهم يخرون لله سجدا .

(بـــاب : الشفاعـــة)

وقول الله عز وجل : ﴿ وأَنْذِر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ﴾ ، وقوله : ﴿ قل لله الشفاعة جميعا ﴾ ، وقوله : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ، وقوله : ﴿ وكم من مَلَكٍ فى السموات لا تُغْنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ . وقوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ﴾ (الآيتين) .

قال أبو العباس : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ، أو يكون عوناً لله ولم يبق إلا الشفاعة فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ، كما قال : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ فهذه الشفاعة التى يظنها المشركون هى منتفية يوم القيامة ، كما نفاها القرآن ، وأخبر النبى ﷺ أنه يأتى فيسجد لربه

ويحمده ، لا يبدأ بالشفاعة أولاً ، ثم يقال له : ارفع رأسك وقل ، يُسْمَع ، وَسَلْ ، تُعْطَ ، واشفع ، تُشَفَّع .

وقال أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال : « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ولا تكون لمن أشرك بالله وحقيقته ، أن الله سبحانه هو الذى يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه ، وينال المقام المحمود ، فالشفاعة التى نفاها القرآن ، ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع ، وقد بين النبى ﷺ ، أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص ، انتهى كلامه .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير الآيات . (الثانية) صفة الشفاعة المنفية . (الثالثة) صفة الشفاعة المثبتة . (الرابعة) ذكر الشفاعة الكبرى وهى المقام المحمود . (الخامسة) صفة ما يفعله ﷺ ، أنه لا يبدأ بالشفاعة بل يسجد فإذا أُذِن له شُفِّع . (السادسة) من أسعد الناس بها . (السابعة) أنها لا تكون لمن أشرك بالله . (الثامنة) بيان حقيقتها .

باب : قول الله تعالى : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ﴾ (الآية)

وفى الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه ، قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبى أمية وأبو جهل ، فقال له : « يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله » ، فقالا له :

أترغب عن ملة عبد المطلب ، فأعاد عليه النبى ﷺ فأعادا ، فكان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب ، وأَبَى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال النبى ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ وأنزل الله فى أبى طالب : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ﴾ (الآية) . (الثانية) تفسير قوله : ﴿ ما كان للنبى ﴾ (الآية) . (الثالثة) وهى المسألة الكبيرة تفسير قوله : لا إله إلا الله بخلاف ما عليه من يدعى العلم . (الرابعة) أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبى ﷺ إذا قال للرجل : قل لا إله إلا الله ، فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام . (الخامسة) جِدُّه ﷺ ومبالغته فى إسلام عمه . (السادسة) الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه . (السابعة) كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له بل نهى عن ذلك . (الثامنة) مضرة أصحاب السوء على الإنسان . (التاسعة) مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر . (العاشرة) استدلال الجاهلية فى ذلك . (الحادية عشرة) الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم ، لأنه لو قالها لنفعته . (الثانية عشرة) التأمل فى كبر هذه الشبهة فى قلوب الضالين لأن فى القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها مع مبالغته ﷺ وتكريره ، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها .

(باب : ما جاء أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم هو الغلـوُّ فى الصالحين)

وقول الله عز وجل : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ﴾ الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرنَّ آلهتكم ولا تذرنَّ ودا ولا سُواعا ولا يغوثَ ويعوق ونسراً ﴾ ، قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا ، ولم تُعْبَد حتى إذا هلك أولئك ونُسِىَ العلم عُبِدَتْ .

وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم . وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لا تُطْرونى كما أُطْرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » ، (أخرجاه) . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو » ، ولمسلم عن ابن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال : « هلك المتنطعون (قالها ثلاثا) » .

فيه مسائل : (الأولى) أن من فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غُربة الإسلام ، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب . (الثانية) معرفة أول شرك حدث فى الأرض أنه بشُبْهة الصالحين . (الثالثة) أول شىء غير به دين الأنبياء وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم .

(الرابعة) قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها . (الخامسة) أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل ، فالأول محبة الصالحين ، والثانى فعل أناس من أهل العلم شيئاً أرادوا به خيراً ، فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره . (السادسة) تفسير الآية التى فى سورة نوح . (السابعة) جِبِلَّة الآدمى فى كون الحق ينقص فى قلبه والباطل يزيد . (الثامنة) فيه شاهد لما نقل عن السلف ، أن البدع سبب الكفر . (التاسعة) معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل . (العاشرة) معرفة القاعدة الكلية وهى النهى عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه . (الحادية عشرة) مضرّة العكوف على القبر لأجل عمل صالح . (الثانية عشرة) معرفة النهى عن التماثيل والحكمة فى إزالتها . (الثالثة عشرة) معرفة شأن هذه القصة وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها . (الرابعة عشرة) وهى أعجب ، وأعجب قراءتهم إياها فى كتب التفسير والحديث ، ومعرفتهم بمعنى الكلام وكون الله حَالَ بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات فاعتقدوا ، أنما نهى الله ورسوله عنه ، فهو الكفر المبيح للدم والمال . (الخامسة عشرة) التصريح أنهم لم يريدوا إلا الشفاعة . (السادسة عشرة) ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك . (السابعة عشرة) للبيان العظيم فى قوله : « لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم » فلصوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين . (الثامنة عشرة) نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين . (التاسعة عشرة) التصريح بأنها لم تعبد حتى نُسِيَ العلم ، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده . (العشرون) أن سبب فقد العلم موت العلماء .

باب (ما جاء من التغليـــظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده)

فى الصحيح عن عائشة ، أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ ، كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور ، فقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله فهؤلاء جمعوا بين فتنتين : فتنة القبور وفتنة التماثيل » .

ولهما عنها ، قالت : « لما نزل برسول الله ﷺ ، طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها ، كشفها فقال : وهو كذلك ، لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً ، (أخرجاه) .

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « إنى أبرأ إلى الله من أن يكون لى منكم خليل فإن الله قد اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ولو كنت متخذاً من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » فقد نهى عنه فى آخر حياته ثم إنه لعن وهو فى السياق من فعله والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبْن مسجد وهو معنى قولها : خشى أن يتخذ مسجدا فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدا بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدا كما قال ﷺ : « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » .

ولأحمد بسند جيد ، عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعا : « أن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد » ، (ورواه أبو حاتم فى صحيحه) .

فيه مسائل : (الأولى) ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجدا يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح ولو صحت نية الفاعل . (الثانية) النهى عن التماثيل وغلظ الأمر فى ذلك . (الثالثة) العبرة فى مبالغته ﷺ فى ذلك كيف بيّن لهم هذا أولاً ، ثم قبل موته بخمس ، قال ما قال ، ثم لما كان فى السياق لم يكتف بما تقدم . (الرابعة) نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر . (الخامسة) أنه من سنن اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم . (السادسة) لعنة إياهم على ذلك . (السابعة) أن مراده تحذيره إيّانا عن قبره . (الثامنة) العلة فى عدم إبراز قبره . (التاسعة) فى معنى اتخاذها مسجداً . (العاشرة) أنه قرن بين من اتخذها وبين من تقوم عليه الساعة فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه على خاتمته . (الحادية عشرة) ذكره فى خطبته قبل موته بخمس الرد على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع بل أخرجهم بعض أهل العلم من الاثنتين والسبعين فرقة ، وهم الرافضة والجهمية ، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور ، وهم أول من بنى عليها المساجد . (الثانية عشرة) ما بُلى به ﷺ من شدة النزع . (الثالثة عشرة) ما أكرم به من الخُلة . (الرابعة عشرة) التصريح بأنها أعلى من المحبة . (الخامسة عشرة) التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة . (السادسة عشرة) الإشارة إلى خلافته .

باب (ما جاء أن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله)

روى مالك فى الموطأ أن رسول الله ﷺ ، قال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ قال : كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس : كان يلت السويق للحاج . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور المتخذين عليها المساجد والسُّرج » (رواه أهل السنن) .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير الأوثان . (الثانية) تفسير العبادة . (الثالثة) أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه . (الرابعة) قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد . (الخامسة) ذكر شدة الغضب من الله . (السادسة) وهى من أهمها صفة معرفة عبادة اللات التى هى أكبر من الأوثان . (السابعة) معرفة أنه قبر رجل صالح . (الثامنة) أنه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية . (التاسعة) لعنه زائرات القبور . (العاشرة) لعنه من أسرجها .

باب (ما جاء فى حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك)

وقول الله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ (الآية) .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبرى عيدا وصلوا علىَّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » (رواه أبو داود بإسناد حسن رواته ثقات) . وعن على بن الحسين أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبى ﷺ فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبى عن جدى عن رسول الله ﷺ قال : « لا تتخذوا قبرى عيداً ولا بيوتكم قبورا وصلوا علىَّ فإن تسليمكم ليبلغنى أين كنتم » (رواه فى المختار) .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية براءة . (الثانية) إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد . (الثالثة) ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته . (الرابعة) نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص مع أن زيارته من أفضل الأعمال . (الخامسة) نهيه عن الإكثار من الزيارة . (السادسة) حثه على النافلة فى البيت . (السابعة) أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى فى المقبرة . (الثامنة) تعليل ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بَعُدَ فلا حاجة إلى ما يتوهمه من إرادة القرب . (التاسعة) كونه ﷺ فى البرزخ لغرض أعمال أمته فى الصلاة والسلام عليه .

باب (ما جاء أن بعض هذة الأمة يعبد الأوثـان)

وقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قل أأنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وَعَبَدَ الطاغوت ﴾ وقوله : ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم ، لنتخذن عليهم مسجدا ﴾ .

عن أبى سعيد رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ، قالوا : يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » (أخرجاه) .

ولمسلم عن ثوبان رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زوى لىَ الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإنى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة بعامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سِوَى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، وأن ربى قال : يا محمد ، إذا قضيتُ قضاء فإنه لا يرد ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً » (رواه البرقانى فى صحيحه) ، وزاد : « وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلّين ، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمّتى بالمشركين ، وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان ، وأنه سيكون فى أمتى

كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبى بعدى ، ولا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى » .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية النساء . (الثانية) تفسير آية المائدة . (الثالثة) تفسير آية الكهف . (الرابعة) وهى من أهمها ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت هل هو اعتقاد قلب أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها . (الخامسة) قولهم أن الكفّار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين . (السادسة) وهى المقصود بالترجمة أن هذا لابد أن يوجد فى هذه الأمة كما تقرر فى حديث أبى سعيد . (السابعة) التصريح بوقوعها أعنى عبادة الأوثان فى هذه الأمة فى جموع كثيرة . (الثامنة) العجب العجاب خروج من يدَّعى النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه أنه من هذه الأمة وأن الرسول حق وأن القرآن حق وفيه أن محمَداً خاتم النبيين ومع هذا يصدق فى هذا كله مع التضاد الواضح وقد خرج المختار فى آخر عصر الصحابة وتبعه فئام كثيرة . (التاسعة) البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى بل لا تزال عليه طائفة . (العاشرة) الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم . (الحادية عشرة) أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة . (الثانية عشرة) ما فيهن من الآيات العظيمة منها إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال وإخباره بأنه أعطى الكنزين وإخباره بإجابة دعوته لأمته فى الاثنتين وإخباره بأنه منع الثالثة وإخباره بوقوع السيف وأنه لا يُرْفع إذا وقع وإخباره بظهور المتنبئين فى هذه الأمة وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة وكل هذا – وقع كما أخبر – مع

أن كل واحد منها من أبعد ما يكون فى العقول . (الثالثة عشرة) حصره الخوف على أمته من الأئمة المضلين . (الرابعة عشرة) التنبيه على معنى عبادة الأوثان .

باب (ما جاء فى السحـــر)

وقول الله تعالى : ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ﴾ وقوله : ﴿ يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ . قال عمر : الجبت : السحر ، والطاغوت : الشيطان .

وقال جابر : الطواغيت ، كُهان كان ينزل عليهم الشيطان فى كل حى واحد . وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال « اجتنبوا السبع الموبقات » ، قالوا : يا رسول الله وما هنَّ ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولّى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . وعن جندب مرفوعاً : « حدّ الساحر ضربه بالسيف » (رواه الترمذى وقال : الصحيح أنه موقوف) .

وفى صحيح البخارى عن بجالة بن عبدة ، قال : كتب عمر ابن الخطاب : أَنِ اقتُلوا كل ساحر وساحرة ، قال : فقتلنا ثلاث سواحر ، وصح عن حفصة رضى الله عنها ، أنها أَمَرَتْ بقتل جارية لها سحرتْها فَقُتِلت ، وكذلك صح عن جندب ، قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية البقرة . (الثانية) تفسير آية النساء . (الثالثة) تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما . (الرابعة) أن الطاغوت قد يكون من الجن ، وقد يكون من الإنس . (الخامسة) معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهى . (السادسة) أن الساحر يكفر . (السابعة) أنه يقتل ولا يستتاب . (الثامنة) وجود هذا فى المسلمين على عهد عمر فكيف بعده .

باب : (بيان شيء من أنواع السحـــر)

قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عن عوف عن حيان بن العلى حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبى ﷺ ، قال : « إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت » قال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط بالأرض ، والجبت : قال الحسن : رنة الشيطان ، (إسناده جيد ولأبى داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه المسند منه) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتبس شعبة من النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر » زاد ما زاد رواه أبو داود وإسناده صحيح وللنسائى من حديث أبى هريرة : « من عَقَد عُقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئاً وكّل إليه » .
وعن ابن مسعود أن رسولَ الله ﷺ قال : « ألا هل أنبئكم ما العضة ؟ هى النميمة القالة بين الناس » (رواه مسلم) .

ولهما عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان لسحراً » .

وفيه مسائل : (الأولى) أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت . (الثانية) تفسير العيافة والطرق . (الثالثة)أن علم النجوم من نوع السحر . (الرابعة) العقد مع النفث من ذلك . (الخامسة) أن النميمة من ذلك . (السادسة) أن من ذلك بعض الفصاحة .

باب (ما جاء فى الكهان ونحوهم)

روى مسلم فى صحيحه ، عن بعض أزواج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال : « من أتى عرّافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما » ، وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنْزِل على محمد ﷺ » (رواه أبو داود والأربعة والحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما) . وعن أبى هريرة رضى الله عنه : « من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » ، ولأبى يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفا .

وعن عمران بن حصين مرفوعا : « ليس منا من تَطَيَّر أو تُطِيِّر له أو تكهَّنَ أو تُكُهِّن له أو سَحَر أو سُحِر له ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » (رواه البزار بإسناد جيد ، ورواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله ، ومن أتى إلى آخره) .

قال البغوى : العرّاف الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك ، وقيل هو الكاهن ، والكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل وقيل الذى يخبر عما فى الضمير . وقال

أبو العباس بن تيمية : العرّاف اسم للكاهن والمنجّم والرّمّال ونحوهم ممن يتكلم فى معرفة الأمور بهذه الطرق . وقال ابن عباس فى قوم يكتبون أبا جاد وينظرون فى النجوم ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خَلَاق .

فيه مسائل : (الأولى) أنه لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن . (الثانية) التصريح بأنه كفر . (الثالثة) ذكر من تُكُهِّن له . (الرابعة) ذكر من تُطُيِّر له . (الخامسة) ذكر من سُحِر له . (السادسة) ذكر من تعلم أبا جاد . (السابعة) ذكر الفرق بين الكاهن والعرّاف .

باب (ما جاء فى النشرة)

عن جابر ، أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة ، فقال : « هى من عمل الشيطان » (رواه أحمد بسند جيد . وأبو داود) ، وقال : سئل أحمد عنها ، فقال ابن مسعود يُكره هذا كله .

وفى البخارى عن قتادة ، قلت لابن المسيب : رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه أو ينشر ، قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع فلم ينه عنه . انتهى .

وروى عن الحسن ، أنه قال : لا يحل السحر إلا ساحر . قال ابن القيّم : النشسرة حل السحر عن المسحور ، وهى نوعان : حل بسحر مثله وهو الذى من عمل الشيطان ، وعليه يحمل قول الحسن ، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب ، فيبطل عمله عن المسحور .

والثانى النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة ، فهذا جائز .

فيه مسائل : (الأولى) النهى عن النشرة . (الثانية) الفرق بين المنهى عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال .

باب (ما جاء فى التطيـــر)

وقول الله تعالى : ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ وقوله : ﴿ قالوا طائركم معكم ﴾ (الآية) .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » (أخرجاه) . وزاد مسلم : « ولا نوء ولا غول » ولهما عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ولا طيرة ويعجبنى الفال » قالوا : وما الفال ؟ قال : « الكلمة الطيبة » . ولأبى داود بسند صحيح ، عن عقبة بن عامر ، قال : ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ ، فقال : « أحسنها الفال ، ولا ترد مسلما ، فإذا رأى أحدكم ما يَكْره ، فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وعن ابن مسعود مرفوعاً : « الطيرة شرك ، وما منا إلا[1] ولكن الله

---

(١) أى ويقع فى قلبه شىء من التطير عند حصول أى مخالفة عن المقصد ولكن إذا جهد المسلم نفسه وتذرع بالتوكل انتفى ذلك عنه حساً ومعنى . والطيرة شرك .

يذهبه بالتوكل » ، (رواه أبو داود والترمذى وصححه وجعل آخره من قول ابن مسعود) ، ولأحمد من حديث ابن عمر : « ومن ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك » ، قالوا : فما كفّارة ذلك ، قال : « أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » ، وله من حديث الفضل بن العباس رضى الله عنه : « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك » .

فيه مسائل: (الأولى) التنبيه على قوله: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ مع قوله : ﴿ طائركم معكم ﴾ . (الثانية) نفى العدوى . (الثالثة) نفى الطيرة . (الرابعة) نفى الهامة . (الخامسة) نفى الصفر . (السادسة) أن الفال ليس من ذلك بل مستحب . (السابعة) تفسير الفال . (الثامنة) أن الواقع فى القلوب من ذلك مع كراهيته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل . (التاسعة) ذكر ما يقول من وَجَدَه . (العاشرة) التصريح بأن الطيرة شرك . (الحادية عشرة) تفسير الطيرة المذمومة .

بـــاب (ما جـــاء فى التنجيـــم)

قال البخارى فى صحيحه : قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاثٍ زينة السماء ، ورجوم للشياطين ، وعلامات يُهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك ، أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به ، انتهى . وكره قتادة تعلُّم منازل القمر ، ولم يرخص ابن عيينة فيه ، ذكره حرب عنه، ورخص فى تعلم المنازل أحمد وإسحاق . وعن أبى موسى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ومصدق بالسحر

وقاطع الرحم » (رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه) .

فيه مسائل : (الأولى) الحكمة فى خلق النجوم . (الثانية) الرد على من زعم غير ذلك . (الثالثة) ذكر الخلاف فى تعلم المنازل . (الرابعة) الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل .

باب (ما جاء فى الاستسقـــاء بالأنـــواء)

وقول الله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ .

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « أربع فى أمّتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة » . وقال : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » (رواه مسلم) . ولهما عن زيد بن خالد رضى الله عنه، قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس ، فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مُطِرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى ، كافر بالكوكب ، وأما من قال مُطِرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب » ولهما من حديث ابن عباس معناه ، وفيه قال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ إلى قوله : ﴿ تكذبون ﴾ .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية الواقعة . (الثانية) ذكر الأربع التى من أمر الجاهلية . (الثالثة) ذكر الكفر فى بعضها . (الرابعة) أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة . (الخامسة) قوله : « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بسبب نزول النعمة » . (السادسة) التفطن للإيمان فى هذا الموضع . (السابعة) التفطن للكفر فى هذا الموضع . (الثامنة) التفطن لقوله : لقد صدق نوء كذا وكذا . (التاسعة) إخراج العالم للتعليم للمسألة بالاستفهام عنها لقوله : « أتدرون ماذا قال ربكم » . (العاشرة) وعيد النائحة .

باب (قــول الله تعالــى)

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ وقوله : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم ﴾ إلى قوله : ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله ﴾ .

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (أخرجاه) . ولهما عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن انقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف فى النار » ، وفى رواية : « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى إلى آخره » .

وعن ابن عباس ، قال : من أحب فى الله ، وأبغض فى الله ، وعادى

فى الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدى على أهله شيئا ، (رواه ابن جرير) . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ ، قال : المودة .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية البقرة . (الثانية) تفسير آية البراءة . (الثالثة) وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال . (الرابعة) نفى الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام . (الخامسة) أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها . (السادسة) أعمال القلب الأربع التى لا تنال ولاية الله إلا بها ، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها (السابعة) فهم الصحابى للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا (الثامنة) تفسير : ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ . (التاسعة) أن من المشركين من يحب حباً شديدا . (العاشرة) الوعيد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه . (الحادية عشرة) أن من اتخذ نِداً تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر .

بابٌ (قول الله تعالـــى)

﴿ إنما ذلكم الشيطان يُخوِّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ وقوله : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ﴾ (الآية) ، وقوله : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ (الآية) .

عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا : « أن من ضعف اليقين أن تُرْضِي الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره » .

وعن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « من التمس رضى الله بسخط الناس رَضِيَ الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله ، سَخِطَ عليه وأسْخَطَ عليه الناس » رواه ابن حبان في صحيحه .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية آل عمران . (الثانية) تفسير آية براءة . (الثالثة) تفسير آية العنكبوت . (الرابعة) أن اليقين يضعف ويقوى . (الخامسة) علامة ضعفه ، ومن ذلك هذه الثلاث . (السادسة) أن إخلاص الخوف لله من الفرائض . (السابعة) ذكر ثواب من فعله . (الثامنة) ذكر عقاب من تركه .

باب (قول الله تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾)

وقوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِر الله وَجِلَت قلوبهم ﴾ (الآية) ، وقوله : ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ﴾ (الآية) . وقوله : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ .

عن ابن عباس ، قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له إن الناس قد جمعوا لكم

فاخشوهم فزادهم إيمانا (الآية) ، رواه البخارى والنسائى .

وفيه مسائل : (الأولى) أن التوكل من الفرائض . (الثانية) أنه من شروط الإيمان . (الثالثة) تفسير آية الأنفال . (الرابعة) تفسير الآية فى آخرها . (الخامسة) تفسير آية الطلاق . ﴿ السادسة ﴾ عظم شأن هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ .

باب (قول الله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾)

وقوله : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ .

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ، سئل عن الكبائر ، قال : « الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله » . وعن ابن مسعود قال : « أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله » رواه عبد الرزاق .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية الأعراف . (الثانية) تفسير آية الحجر . (الثالثة) شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله . (الرابعة) شدة الوعيد فى القنوط .

باب (من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله)

وقوله تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ .

قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اثنتان فى الناس هما بهم كفر: الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت » . ولهما عن ابن مسعود مرفوعا : « ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » . وعن أنس : أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أراد الله بعبده الخير ، عجل له بالعقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر ، أمسك عنه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة » .

وقال النبى ﷺ : « إن أعظم الجزاء مع عظم البلاء ، وأن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » (حسنه الترمذى) .

فيه مسائل : (الأولى) تفسر آية التغابن . (الثانية) أن هذا من الإيمان بالله . (الثالثة) الطعن فى النسب . (الرابعة) شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية . (الخامسة) علامة إرادة الله بعبده الخير . (السادسة) علامة إرادة الله به الشر . (السابعة) علامة حب الله للعبد . (الثامنة) تحريم السخط . (التاسعة) ثواب الرضى بالبلاء .

باب (ما جـاء فى الريـــاء)

وقول الله تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إلى ، أنما إلهكم إله واحد ﴾ (الآية) .

عن أبى هريرة مرفوعاً : « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه» رواه مسلم . وعن أبى سعيد مرفوعاً : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال » ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « الشرك الخفى ، يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يَرى من نظر رجل » (رواه أحمد) .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية الكهف . (الثانية) الأمر العظيم فى رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله . (الثالثة) ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى . (الرابعة) أن من الأسباب أنه أغنى الشركاء . (الخامسة) خوف النبى ﷺ على أصحابه من الرياء . (السادسة) أنه فسر ذلك أن المرء يصلى لله لكن يزينها لما يرى من نظر رجل .

باب (من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا)

وقوله تعالى : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها ﴾ (الآيتين) .

في الصحيح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعِس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة ، إن أُعطِى رضى ، وإن لم يُعطَ سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يُؤْذن له ، وإن شفع لم يُشَفَّع » .

فيه مسائل : (الأولى) إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة . (الثانية) تفسير آية هود . (الثالثة) تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة . (الرابعة) تفسير ذلك بأنه إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط . (الخامسة) قوله : « تعس وانتكس » . (السادسة) قوله : « وإذا شيك فلا انتقش » . (السابعة) الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات .

باب (من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه الله فقد اتخذهم أربابا)

وقال ابن عباس : « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول قال رسول الله ﷺ ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر » . وقال أحمد بن حنبل : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأى سفيان ،

والله تعالى يقول : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ ، أتدرى ما الفتنة ، الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع فى قلبه شيء من الزيغ فيهلك .

وعن عدى بن حاتم أنه سمع النبى ﷺ يقرأ هذه الآية : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ (الآية) ، فقلت له : إنَّا لسنا نعبدهم ، قال : « أليس يُحرِّمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه » ، فقلت : بلى ، قال : « فتلك عبادتهم » ، رواه أحمد والترمذى وحسنه .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية النور . (الثانية) تفسير آية براءة . (الثالثة) التنبيه على معنى العبادة التى أنكرها عدى . (الرابعة) تمثيل ابن عباس بأبى بكر وعمر ، وتمثيل أحمد بسفيان . (الخامسة) تغير الأحوال إلى هذه الغاية صار عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال وتسمى الولاية وعبادة الأحبار هى العلم والفقه ، ثم تغيرت الأحوال ، إلى أن عُبِد من دون الله من ليس من الصالحين ، وعُبِد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين .

باب (قــول الله تعالـــى)

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزِل إليك ، وما أُنزِل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أُمِروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾ (الآيات) . وقوله : ﴿ وإذا

قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ . وقوله : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ ، وقوله : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ (الآية) .

عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ، قال النووى : حديث صحيح رويناه فى كتاب الحجة بإسناد صحيح . وقال الشعبى : كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة ، فقال اليهودى : نتحاكم إلى محمد لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة ، وقال المنافق : نتحاكم إلى اليهود ، لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ، فاتفقا أن يأتيا كاهنا فى جهينة فيتحاكما إليه ، فنزلت : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون ﴾ (الآية) .

وقيل : نزلت فى رجلين اختصما فقال أحدهما : نترافع إلى النبى ﷺ ، وقال الآخر : إلى كعب بن الأشرف ، ثم ترافعا إلى عمر فذكر له أحدهما القصة ، فقال للذى لم يرض برسول الله ﷺ ، أكذلك ؟ قال : نعم ، فضربه بالسيف فقتله .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت . (الثانية) تفسير آية البقرة : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ . (الثالثة) تفسير آية الأعراف : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ . (الرابعة) تفسير : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ . (الخامسة) ما قال الشعبى فى سبب نزول الآية الأولى . (السادسة) تفسير الإيمان الصادق والكاذب . (السابعة) قصة عمر مع المنافق . (الثامنة) كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون

هواه تبعا لما جاء به الرسول ﷺ .

باب (من جحد شيئاً من الأسمـــاء والصفـــات)

وقول الله تعالى : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ (الآية) .

وفى صحيح البخارى ، قال على : حَدِّثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله . وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس ، أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثا عن النبى ﷺ فى الصفات ، استنكاراً لذلك ، فقال : « ما فرق هؤلاء . يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه » ، انتهى .

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ .

فيه مسائل : (الأولى) عدم الإيمان بشىء من الأسماء والصفات . (الثانية) تفسير آية الرعد . (الثالثة) ترك التحديث بما لا يفهم السامع . (الرابعة) ذكر العلة أنه يفضى إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر . (الخامسة) كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك وأنه أهلكه .

باب (قول الله تعالى :
﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ (الآية)

قال مجاهد ما معناه : هو قول الرجل هذا مالى ورثته عن آبائى . وقال عون بن عبد الله : يقولون لولا فلان لم يكن كذا . وقال ابن قتيبة : يقولون هذا بشفاعة آلهتنا . وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد ، الذى فيه أن الله تعالى قال : « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر » ، الحديث وقد تقدم ، وهذا كثير فى الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ، ويشرك به . قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة والملاّح حاذقاً ، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة الكثير من الناس .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير معرفة النعمة وإنكارها . (الثانية) معرفة أن هذا جار على ألسنة كثير . (الثالثة) تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة . (الرابعة) اجتماع الضدين فى القلب .

باب (قول الله تعالى :
﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾

قال ابن عباس فى الآية : الأنداد هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل ، وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلانة وحياتى ، وتقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط فى الدار

لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلاناً هذا كله به شرك ، (رواه ابن أبى حاتم) .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » (رواه الترمذى ، وحسنه وصححه الحاكم) . وقال ابن مسعود : « لأن أحلفُ بالله كاذباً ، أحب إلى أن أحلف بغيره صادقا » . وعن حذيفة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « لا تقولوا ما شاء وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان » (رواه أبو داود بسند صحيح) . وجاء عن إبراهيم النخعى ، أنه يكره أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول بالله ثم بك ، قال : ويقول لولا الله ثم فلان ، ولا تقولوا : لولا الله وفلان .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية البقرة فى الأنداد . (الثانية) أن الصحابة يفسرون الآية النازلة فى الشرك الأكبر بأنها تعم الأصغر . (الثالثة) أن الحلف بغير الله شرك . (الرابعة) أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس . (الخامسة) الفرق بين الواو وثم فى اللفظ .

باب (ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله)

عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تحلفوا بآبائكم ، من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف له بالله فليرض ، ومن لم يرض فليس من الله » رواه ابن ماجه بسند حسن .

فيه مسائل : (الأولى) النهى عن الحلف بالآباء . (الثانية) الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى . (الثالثة) وعيد من لم يرض .

باب (قول ما شاء الله وشئت)

عن قتيلة ، أن يهودياً أتى النبى ﷺ ، فقال : إنكم تشركون ، تقولون ما شاء الله وشئت وتقولون والكعبة ، فأمرهم النبى ﷺ ، إذا أرادوا أن يحلفوا ، أن يقولوا ، ورب الكعبة ، وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت ، (رواه النسائى وصححه) .

وله أيضاً عن ابن عباس ، أن رجلاً قال للنبى ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتنى لله نداً ، قل : ما شاء الله وحده » .

ولابن ماجه عن الطفيل أخى عائشة لأمها ، قال : رأيت كأنى أتيت على نفر من اليهود ، قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عُزَير ابن الله ، قالوا : وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد ، ثم مررت بنفر من النصارى ، فقلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد . فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبى ﷺ فأخبرته ، قال : هل أخبرت بها أحداً ، قلت : نعم ، قال : فحمد الله ، وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإن طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتم كلمة كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله وحده » .

فيه مسائل : (الأولى) معرفة اليهود بالشرك الأصغر . (الثانية) فهم الإنسان إذا كان له هواء . (الثالثة) قوله ﷺ : « أجعلتنى لله نداً ، فكيف بمن قال : يا أكرم الخلق ما لى من ألوذ به سواك والبيتين بعده . (الرابعة) أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله : يمنعنى كذا وكذا . (الخامسة) أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحى . (السادسة) أنها قد تكون سبباً لشروع بعض الأحكام .

باب (من سَبَّ الدهــر فقد آذى الله)

وقول الله تعالى : ﴿ وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ (الآية) .

فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، قال : « قال الله تعالى : يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر ، أقلب الليل والنهار » . وفى رواية : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » .

فيه مسائل : (الأولى) النهى عن سب الدهر . (الثانية) تسميته أذى لله . (الثالثة) التأمل فى قوله : « فإن الله هو الدهر » . (الرابعة) أنه قد يكون سابا ولو لم يقصده بقلبه .

باب (التسمى بقاضى القضـــاة ونحـوه)

فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، قال : « إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله » ، قال سفيان : مثل شاهان شاه ، وفى رواية : « أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه ، قوله أخنع يعنى أوضع » .

فيه مسائل : (الأولى) النهى عن التسمى بملك الأملاك . (الثانية) أن ما فى معناه مثله كما قال سفيان . (الثالثة) التفطن للتغليظ فى هذا ونحوه مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه . (الرابعة) التفطن أن هذا لإجلال الله سبحانه وتعالى .

باب (احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك)

عن أبى شريح أنه كان يكنى أبا الحكم ، فقال له النبى ﷺ : « إن الله هو الحكم ، وإليه الحكم » ، فقال : إن قومى إذا اختلفوا فى شيء أتونى فحكمت بينهم ، فرضى كلا الفريقين ، فقال : ما أحسن هذا فما لك من الولد ؟ قال : شريح ومسلم وعبد الله . قال : فمن أكبرهم ، قلت : شريح ، قال : « فأنت أبو شريح » ، (رواه أبو داود وغيره) .

فيه مسائل : (الأولى) احترام أسماء الله وصفاته ، ولو لم يقصد معناه . (الثانية) تغيير الإسم لأجل ذلك واختيار أكبر الأبناء للكنية .

باب (من هزل بشيء فيه ذكر الله والقرآن والرسول)

وقول الله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ (الآية) .

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة ، دخل حديث بعضهم فى بعض ، أنه قال : رجل فى غزوة تبوك ، ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ، ولا أكذب ألسناً ، ولا أجبن عند اللقاء ، يعنى رسول الله ﷺ وأصحابه القراء ، فقال له عوف بن مالك : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ ، وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله : إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب ، نقطع به عنا الطريق ، قال ابن عمر : كأنى أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ ، وأن الحجارة تنكب رجليه وهو يقول : ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ ، فيقول له رسول الله ﷺ : « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » ، ما يلتفت إليه وما يزيده عليه .

فيه مسائل : (الأولى) وهى العظيمة ، أن من هزل بهذا أنه كافر . (الثانية) أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائن من كان . (الثالثة) الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله . (الرابعة) الفرق بين العفو الذى يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله . (الخامسة) أن من الاعتذار ما لا ينبغى أن يقبل .

باب (قـول الله تعالـى)

﴿ ولئن أذقناه رحمةً منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى ﴾ (الآية) .

قال مجاهد : هذا بعملى وأنا محقوق به . وقال ابن عباس يريد من عندى ، وقوله : ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندى ﴾ ، قال قتادة : على علم منى بوجوه المكاسب . وقال آخرون : على علم من الله أنى له أهل ، وهذا معنى قول مجاهد : أوتيتُه على شرف .

وعن أبى هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « أن ثلاثة من بنى إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى ، فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص ، فقال : أى شىء أحب إليك ، قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس به ، قال : فمسحه ، فذهب عنه قذره ، فأُعْطِى لوناً حسناً ، وجلداً حسناً ، قال : فأى المال أحب إليك ، قال : الإبل أو البقر ، شك إسحاق ، فأُعْطِى ناقة عشراء وقال : بارك الله لك فيها .

قال : فأتى الأقرع ، فقال : أى شىء أحب إليك ، قال : شعر حسن ويذهب عنى الذى قذرنى الناس به ، فمسحه ، فذهب عنه وأعطى شعراً حسناً ، فقال : أى المال أحب إليك ، قال : البقر أو الإبل ، فأُعْطِى بقرة حاملاً ، قال : بارك الله لك فيها .

فأتى الأعمى ، فقال : أى شىء أحب إليك ، قال : أن يرد الله إلىَّ بصرى فأبصر به الناس ، فمسحه ، فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال

أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأُعْطِى شاة والداً ، فأنتج هذان وولّد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم . قال : ثم أتى الأبرص فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلَّغُ به فى سفرى ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال له : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله عز وجل المال ، فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، فقال : إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأقرع فى صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا ، فقال : إن كنتَ كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأعمى فى صورته ، فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها فى سفرى ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلىَّ بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله ، فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك ، وسخط على صاحبيك » ، (أخرجاه) .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير الآية . (الثانية) ما معنى ليقولن هذا لى . (الثالثة) ما معنى قوله : ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ . (الرابعة) ما فى هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة .

بـــاب (قول الله تعالى)
﴿ فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما ﴾
(الآيــة)

قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله ، كعبد عمر وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب .

وعن ابن عباس فى الآية ، قال : لما تغشاها آدم حملت ، فأتاهما إبليس فقال : إنى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لتطيعانى أو لأجعلن له قرنى أيّل فيخرج من بطنِكِ فيشقه ، ولأفعلن ، ولأفعلن يخوفهما ، سمياه عبد الحارث ، فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً ، ثم حملت فأتاهما ، فقال مثل قوله ، فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً ، ثم حملت ، فأتاهما ، فذكر لهما ، فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث ، فذلك قوله : ﴿ جعلا له شركاء فيما آتاهما ﴾ رواه ابن أبى حاتم .

وله بسند صحيح عن قتادة ، قال : شركاء فى طاعته ، ولم يكن فى عبادته . وله بسند صحيح عن مجاهد فى قوله : ﴿ لئن آتيتنا صالحاً ﴾ ، قال : أشفقا أن لا يكون إنساناً ، وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما .

فيه مسائل : (الأولى) تحريم كل اسم معبد لغير الله . (الثانية) تفسير الآية . (الثالثة) أن هذا الشرك فى مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها .

(الرابعة) أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم . (الخامسة) ذكر السلف الفرق بين الشرك فى الطاعة والشرك فى العبادة .

باب (قول الله تعالــــى)

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ﴾ (الآية) .

ذكر ابن أبى حاتم عن ابن عباس : يلحدون فى أسمائه : يشركون ، وعنه سموا اللات من الإله والعزى من العزيز ، وعن الأعمش ، يدخلون فيها ما ليس منها .

فيه مسائل : (الأولى) إثبات الأسماء . (الثانية) كونها حُسْنى . (الثالثة) الأمر بدعائه بها . (الرابعة) ترك من عارض من الجاهلين الملحدين . (الخامسة) تفسير الإلحاد فيها . (السادسة) وعيد من ألحد .

باب (لا يقال السـلام على الله)

فى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنا إذا كنا مع النبى ﷺ فى الصلاة ، قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان ، فقال النبى ﷺ : « لا تقولوا السلام على الله ، فإن الله هو السلام » .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير السلام . (الثانية) أنه تحية . (الثالثة) أنها لا تصلح لله . (الرابعة) العلة فى ذلك . (الخامسة) تعليم التحية التى تصلح لله .

باب (قول : اللهم اغفر لى إن شئت)

فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقول أحدكم اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، ليعزم المسألة ، فإن الله لا مكره له » ، ولمسلم : « وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه » .

فيه مسائل : (الأولى) النهى عن الاستثناء فى الدعاء . (الثانية) بيان العلة فى ذلك . (الثالثة) قوله ليعزم المسألة . (الرابعة) إعظام الرغبة . (الخامسة) التعليل لهذا الأمر .

باب (لا يقول عبدى وأمتى)

فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقل أحدكم أطعم ربك ، وضئ ربك ، وليقل : سيدى ومولاى ، ولا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى وغلامى » .

فيه مسائل : (الأولى) النهى عن قول عبدى وأمتى . (الثانية) لا يقول العبد : ربى ولا يقال له : أطعم ربك . (الثالثة) تعليم الأول قول فتاى وفتاتى وغلامى . (الرابعة) تعليم الثانى قول سيدى ومولاى . (الخامسة) التنبيه للمراد وهو تحقيق التوحيد حتى فى الألفاظ .

باب (لا يرد من سـأل الله)

عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ومن استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه » ، (رواه أبو داود والنسائى بسند صحيح) .

فيه مسائل : (الأولى) إعاذة من استعاذ بالله . (الثانية) إعطاء من سأل به . (الثالثة) إجابة الدعوة . (الرابعة) المكافأة على الصنيعة . (الخامسة) أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه . (السادسة) قوله : « حتى ترون أنكم قد كافأتموه » .

باب (لا يسأل بوجه الله إلا الجنـة)

عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة » (رواه أبو داود) .

فيه مسائل : (الأولى) النهى عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطلب . (الثانية) إثبات صفة الوجه .

باب (ما جـاء فى اللـو)[1]

وقول الله تعالى : ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قُتِلنا هٰهنا ﴾ وقوله : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ .

فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أننى فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل قَدَّر الله وما شاء فعل ، فإن لَوْ تفتح عمل الشيطان » .

---

(١) اعلم أن كلمة (لو) تنقسم إلى قسمين : قسم منهى عن إيراده ، وهو ما أراد به شيخ الإسلام رحمه الله ، وهو أن تعلق وقوع أمر قدره الله لك أو عليك بأمر لو صدر منك لما قدر الأمر الأول (مثال ذلك) : (لو لم يخرج خادمى من البيت لما وقع فى البئر ، أو لو لم أحفر الأرض لما تحصلت على الدفينة) ، وذلك لأنك جعلت السبب الأول هو الموجد للأمر الثانى فهذا منهى عنه .

القسم الثانى : يجوز التمثل به وذلك أن تتمنى أن لو علمت بأمر يسير لما فعلت ما يمنعك من الوصول إليه، كقولك : لو علمت أن محمداً قد حضر المسجد لما أتعبت نفسى فى المسير إليه . والدليل على جوازه قول النبى ﷺ : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلته عمره » .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير الآيتين فى آل عمران . (الثانية) النهى الصريح عن قول (لو) إذا أصابك شيء . (الثالثة) تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان . (الرابعة) الإرشاد إلى الكلام الحسن . (الخامسة) الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله . (السادسة) النهى عن ضد ذلك وهو العجز .

باب (النهى عن سب الريح)

عن أبى بن كعب رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكرهوا فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أُمِرْت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح ، وشر ما فيها ، وشر ما أمرت به » (صححه الترمذى) .

فيه مسائل : (الأولى) النهى عن سب الريح . (الثانية) الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره . (الثالثة) الإرشاد إلى أنها مأمورة . (الرابعة) أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر .

باب (قول الله تعالى)

﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمرَ كله لله ﴾ (الآية) .

وقوله : ﴿ الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء ﴾ (الآية) .

قال ابن القيم فى الآية الأولى : فسّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل ، وفسّر أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته ، ففسّر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يتم أمر رسوله وأن يظهره على الدين كله وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون والمشركون فى سورة الفتح ، وإنما كان هذا ظن السوء لأنه غير ما يليق به سبحانه ، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق ، فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق ، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره ، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة ، فذلك ظن الذين كفروا ، فويلٌ للذين كفروا من النار ، وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم ، وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده ، فليعتنِ اللبيب الناصح لنفسه بهذا ، وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء ، ولو فتشت من فتشت ، لرأيت عنده تعنتاً على القَدَر وملامة له ، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا ، فمستقل ومستكثر ، وفتش نفسك هل أنت سالم :

فإن تنجُ منها تنجُ من ذى عظيمة ... وإلا فإنى لا أخالك ناجيا

فيه مسائل : (الأولى) تفسير آية آل عمران . (الثانية) تفسير آية الفتح . (الثالثة) الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر . (الرابعة) أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه .

باب (ما جاء فى منكــرى القــدر)

وقال ابن عمر : والذى نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أُحُد ذهباً ثم أنفقه فى سبيل الله ، ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر ، ثم استدل بقول النبى ﷺ : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » (رواه مسلم) .

وعن عبادة بن الصامت ، أنه قال لابنه : يا بنى إنك لا تجد طعم الإيمان ، حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فقال رب : وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة » ، يا بنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات على غير هذا فليس منى » . وفى رواية لأحمد : « أن أول ما خلق الله تعالى القلم فقال له : اكتب ، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » . وفى رواية لابن وهب ، قال رسول الله ﷺ : « فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار » . وفى المسند والسنن عن ابن الديلمى قال : أتيت أبى بن كعب فقلت فى نفسى شىء من القَدَر فحدثنى بشىء لعل الله يذهبه من قلبى ، فقال : لو أنفقت مثل أُحُد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار ، قال : فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد ابن ثابت ، فكلهم حدثنى بمثل ذلك عن النبى ﷺ ، (حديث صحيح رواه الحاكم فى صحيحه) .

فيه مسائل : (الأولى) بيان فرض الإيمان بالقدر . (الثانية) بيان كيفية الإيمان . (الثالثة) إحباط عمل من لم يؤمن به . (الرابعة) الإخبار بأن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به . (الخامسة) ذكر أول ما خلق الله . (السادسة) أنه جرى بالمقادير فى تلك الساعة إلى قيام الساعة . (السابعة) براءته ﷺ ممن لم يؤمن به . (الثامنة) عادة السلف فى إزالة الشبهة بسؤال العلماء . (التاسعة) أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط .

باب (ما جاء فى المصورين)

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شُعَيْرة » (أخرجاه) .

ولهما عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله » ، ولهما عن ابن عباس ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل مصور فى النار ، يجعل له بكل صورة صَوَّرها نفس يعذب بها فى جهنم » ، ولهما عنه مرفوعاً : « من صَوَّر صورة فى الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » ، ولمسلم عن أبى الهياج ، قال : قال لى على ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ : « ألا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » .

فيه مسائل : (الأولى) التغليظ الشديد فى المصورين . (الثانية) التنبيه على العلة وهو ترك الأدب مع الله ، لقوله : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى . (الثالثة) التنبيه على قدرته وعجزهم ، لقوله : « فليخلقوا ذرة أو شعيرة » . (الرابعة) التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً . (الخامسة) أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها فى جهنم .(السادسة) أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح . (السابعة) الأمر بطمسها إذا وُجِدت .

باب (ما جاء فى كثرة الحلف)

وقول الله تعالى : ﴿ واحفظوا أَيْمَانكم ﴾ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للكسب » (أخرجاه) . وعن سلمان رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : أشميط زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته لا يشترى إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه » (رواه الطبرانى بسند صحيح) .

وفى الصحيح عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير أمتى قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، قال عمران : فلا أدرى أَذَكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ، ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن » . وفيه عن ابن مسعود ، أن النبى ﷺ ، قال :

« خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ثم يجىء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » ، قال إبراهيم : كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ، ونحن صغار .

فيه مسائل : (الأولى) الوصية بحفظ الأيمان . (الثانية) الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة . (الثالثة) الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشترى إلا بيمينه . (الرابعة) التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعى . (الخامسة) ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون . (السادسة) ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة ، وذكر ما يحدث بعدهم . (السابعة) الذين يشهدون ولا يستشهدون . (الثامنة) كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد .

باب (ما جاء فى ذمة الله وذمة نبيه)

وقول الله : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ (الآية) .

عن بريدة رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا أَمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، فقال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأيتهم ما أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى

التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبَوْا أن يتحولوا منها فأخْبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله تعالى ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أَبَوْا ، فاسألهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أَبَوْا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخفروا ذممكم ، وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا » (رواه مسلم) .

فيه مسائل : (الأولى) الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين . (الثانية) الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً . (الثالثة) قوله : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله » . (الرابعة) قوله : « قاتلوا من كفر بالله » . (الخامسة) قوله : « استعن بالله وقاتلهم » . (السادسة) الفرق بين حكم الله وحكم العلماء . (السابعة) فى كون الصحابى يحكم عند الحاجة بحكم لا يدرى أيوافق حكم الله أم لا .

باب (ما جاء فى الإقسام على الله)

عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال رجل ، والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : من ذا الذى

يتألى علىَّ أن لا أغفر لفلان ؟ إنى قد غفرت له وأحبطت عملك » (رواه مسلم) .

وفى حديث أبى هريرة : أن القائل رجل عابد ، قال أبو هريرة : تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته .

فيه مسائل : (الأولى) التحذير من التألى على الله . (الثانية) كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله . (الثالثة) أن الجنة مثل ذلك . (الرابعة) فيه شاهد لقوله إن الرجل ليتكلم بالكلمة إلى آخره . (الخامسة) أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه .

باب (لا يُسْتَشْفَع بالله على خلقه)

عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ ، فقال يا رسول الله : نهكت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلكت الأموال ، فاستسق لنا ربك فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله ، فقال النبى ﷺ : « سبحان الله سبحان الله ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك أتدرى ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد » ، وذكر الحديث رواه أبو داود .

فيه مسائل : (الأولى) الإنكار على من قال نستشفع بالله عليك . (الثانية) تغيره تغيراً عُرِف فى وجوه أصحابه من هذه الكلمة . (الثالثة)

أنه لم ينكر عليه قوله نستشفع بك على الله . (الرابعة) التنبيه على تفسير سبحان الله . (الخامسة) أن المسلمين يسألونه الاستسقاء .

باب (ما جاء فى حماية النبى ﷺ حمى التوحيد وسدِّه طرق الشـــرك)

عن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه قال : انطلقت فى وفد بنى عامر إلى رسول الله ﷺ ، فقلنا أنت سيدنا ، فقال : « السيد الله تبارك وتعالى » قلنا : وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولا فقال : « قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان » (رواه أبو داود بسند جيد) وعن أنس رضى الله عنه ، أن ناساً قالوا : يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا ، فقال : « يا أيها الناس قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل » رواه النسائى بسند جيد

فيه مسائل : (الأولى) تحذير الناس عن الغلو . (الثانية) ما ينبغى أن يقول له أنت سيدنا . (الثالثة) قوله : « لا يستجرينكم الشيطان » مع أنهم لم يقولوا إلا الحق . (الرابعة) قوله : « ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى » .

باب (ما جاء فى قــول الله تعالى)

﴿ وما قدَرُوا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ (الآية) .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : جاء حَبرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فيقول أنا الملك ، فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ (الآية) .

وفى رواية لمسلم : « والجبال والشجر على أصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك أنا الله » . وفى رواية للبخارى : « يجعل السموات على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع » (أخرجاه) .

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً : « يطوى الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول أنا الملك ، أين الجبارون أين المتكبرون » . وروى عن ابن عباس ، قال : ما السموات السبع والأرضون السبع فى كف الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم » . وقال ابن جرير : حدثنى يونس : أنبأنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : حدثنى أبى : قال رسول الله ﷺ : « ما السموات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس » ، قال : وقال أبو ذر رضى الله عنه : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد أُلْقِيَتْ بين ظهرى فلاة من الأرض » .

وعن ابن مسعود قال : « بين السماء الدنيا والتى تليها خمسمائة عام ، وبين كل سماء خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة والكرسى خمسمائة عام ، وبين الكرسى والماء خمسمائة عام ، والعرش فوق الماء والله فوق العرش لا يخفى عليه شىء من أعمالكم » (أخرجه ابن مهدى عن حماد ابن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله ورواه بنحوه المسعودى عن عاصم عن أبى وائل عن عبد الله) ، قاله الحافظ الذهبى رحمه الله تعالى قال : وله طرق) . وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ؟ قال : « بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه ، كما بين السماء والأرض ، والله تعالى فوق ذلك ، وليس يخفى عليه شىء من أعمال بنى آدم » أخرجه أبو داود وغيره .

فيه مسائل : (الأولى) تفسير قوله : « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة . (الثانية) أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين فى زمنه ﷺ ، لم ينكروها ولم يتأولوها . (الثالثة) أن الحَبر لما ذكر ذلك للنبى ﷺ صَدَّقه ونزل القرآن بتقرير ذلك . (الرابعة) وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحَبر هذا العلم العظيم . (الخامسة) التصريح بذكر اليدين وأن السماوات فى اليد اليمنى والأرضين فى الأخرى . (السادسة) التصريح بتسميتها الشمال . (السابعة) ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك . (الثامنة) قوله : كخردلة فى كف أحدكم . (التاسعة) عظم الكرسى بالنسبة للسماء . (العاشرة) عظم العرش بالنسبة

إلى الكرسى . (الحادية عشرة) أن العرش غير الكرسى والماء . (الثانية عشرة) كم بين كل سماء إلى سماء . (الثالثة عشرة) كم بين السماء السابعة والكرسى . (الرابعة عشرة) كم بين الكرسى والماء . (الخامسة عشرة) أن العرش فوق الماء . (السادسة عشرة) أن الله فوق العرش . (السابعة عشرة) كم بين السماء والأرض . (الثامنة عشرة) كثف كل سماء خمسمائة سنة . (التاسعة عشرة) أن البحر الذى فوق السموات بين أسفله وأعلاه خمسمائة سنة والله أعلم . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا .

حُكــــم مـــوالاة
أهـــل الإشْــــراك

بسم الله الرحمـن الرحيـم

اعلم رحمك الله أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم خوفاً منهم ومداراة لهم ومداهنة لدفع شرهم فإنه كافر مثلهم وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين ، هذا إذا لم يقع منه إلا ذلك فكيف إذا كان فى دار منعة واستدعى بهم ودخل فى طاعتهم وأظهر الموافقة على دينهم الباطل ، وأعانهم عليه بالنصرة والمال ووالاهم وقطع الموالاة بينه وبين المسلمين ، وصار من جنود القباب والشرك وأهلها ، بعدما كان من جنود الإخلاص والتوحيد وأهله ، فإن هذا لا يشك مسلم أنه كافر من أشد الناس عداوة لله تعالى ورسوله ﷺ ، ولا يستثنى من ذلك إلا المُكْرَه ، وهو الذى يستولى عليه المشركون فيقولون له اكفر ، أو افعل كذا وإلا فعلنا بك وقتلناك ، أو يأخذونه فيعذبونه حتى يوافقهم ، فيجوز له الموافقة باللسان مع طمأنينة القلب بالإيمان .

وقد أجمع العلماء على أن من تكلم بالكفر هازلاً أنه يكفر ، فكيف بمن أظهر الكفر خوفاً وطمعاً فى الدنيا ، وأنا أذكر بعض الأدلة على ذلك بعون الله وتأييده .

(**الدليل الأول**) : قوله تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ ، فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى وكذلك المشركون لا يرضون عن النبى ﷺ حتى يتبع ملتهم ، ويشهد أنهم على حق ، ثم قال تعالى : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾ .

وفى الآية الأخرى : ﴿ إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ ، فإذا كان النبى ﷺ ، لو وافقهم على دينهم ظاهراً من غير عقيدة القلب ، لكن خوفاً من شرهم ومداهنة ، كان من الظالمين ، فكيف بمن أظهر لعبّاد القبور والقباب أنهم على حق وهدى مستقيم فإنهم لا يرضون إلا بذلك .

(**الدليل الثانى**) : قوله تبارك وتعالى : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومنْ يرتددْ منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

فأخبر تعالى أن الكفار لا يزالون يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا ، ولم يرخص فى موافقتهم خوفاً على النفس والمال والحرمة بل أخبر عن من وافقهم بعد أن قاتلوه ليدفع شرهم أنه مرتد ، فإن مات على ردته بعد أن قاتله المشركون ، فإنه من أهل النار الخالدين فيها فكيف بمن وافقهم من غير قتال ، فإذا كان من وافقهم بعد أن قاتلوه لا عذر له ، عرفت أن الذين يأتون إليهم يسارعون فى الموافقة لهم من غير خوف ولا قتال ، أنهم أولى بعدم العذر ، وأنهم كفار مرتدون .

(**الدليل الثالث**) : قوله تبارك وتعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء

إلا أن تتقوا منهم تقاةً ﴾ ، فنهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصدقاء وأصحاباً من دون المؤمنين وإن كانوا خائفين منهم ، وأخبر أن من فعل ذلك فليس من الله فى شىء ، أى لا يكون من أولياء الله الموعودين بالنجاة فى الآخرة إلا أن تتقوا منهم تقاة ، وهو أن يكون الإنسان مقهوراً معهم لا يقدر على عداوتهم فيظهر لهم المعاشرة ، والقلب مطمئن بالبغضاء والعداوة ، فكيف بمن اتخذهم أولياء من دون المؤمنين من غير عذر ، استحباب الحياة الدنيا على الآخرة ، والخوف من المشركين وعدم الخوف من الله ، فما جعل الله الخوف منهم عذراً ، بل قال تعالى : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ .

(**الدليل الرابع**) : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ . فأخبر تعالى أن المؤمنين إن أطاعوا الكفار فلابد أن يردوهم على أعقابهم عن الإسلام ، فإنهم لا يقنعون منهم بدون الكفر وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك صاروا من الخاسرين فى الدنيا والآخرة ، ولم يرخص فى موافقتهم وطاعتهم خوفاً منهم ، وهذا هو الواقع فإنهم لا يقنعون ممن وافقهم إلا بشهادة أنهم على حق ، وإظهار العداوة والبغضاء للمسلمين وقطع اليد منهم ، ثم قال : ﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ . فأخبر تعالى ، أن الله مولى المؤمنين وناصرهم ، وهو خير الناصرين ففى ولايته وطاعته غنية وكفاية عن طاعة الكفار ، فيا حسرة على العباد الذين عرفوا التوحيد ونشأوا فيه ودانوا به زماناً ، كيف خرجوا عن ولاية رب العالمين وخير الناصرين ، إلى ولاية القباب وأهلها ورضوا بها بدلاً عن ولاية من بيده ملكوت كل شىء ، بئس للظالمين بدلا .

(**الدليل الخامس**) : قوله تعالى : ﴿ أفمن اتَّبع رضوان الله كمن باء بسخطٍ من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ . فأخبر تعالى أنه لا يستوى من اتَّبع رضوان الله ومن اتبع ما يسخطه ومأواه جهنم يوم القيامة ، ولا ريب أن عبادة الرحمن وحدها ونصرها ، وكون الإنسان من أهلها من رضوان الله ، وأن عبادة القباب والأموات ونصرها والكون من أهلها مما يسخط الله ، فلا يستوى عند الله من نصر توحيده ودعوته بالإخلاص وكان مع المؤمنين ، ومن نصر الشرك ودعوة الأموات وكان مع المشركين .

فإن قالوا : خفنا قيل لهم : كذبتم ، وأيضاً فما جعل الله الخوف عذراً فى اتباع ما يسخطه واجتناب ما يرضيه ، وكثير من أهل الباطل إنما يتركون الحق خوفاً من زوال دنياهم ، وإلا فيعرفون الحق ويعتقدونه ولم يتركوا بذلك مسلمين .

(**الدليل السادس**) : قوله تعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ أى فى أى فريق كنتم ، أفى فريق المسلمين أم فى فريق المشركين ، فاعتذروا عن كونهم ليسوا فى فريق المسلمين بالاستضعاف ، فلم تعذرهم الملائكة ، وقالوا لهم : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ ، ولا يشك عاقل أن البلدان الذين خرجوا عن المسلمين صاروا مع المشركين وفى فريقهم وجماعتهم هذا مع أن الآية نزلت فى أناسٍ من أهل مكة أسلموا واحتبسوا عن الهجرة فلما خرج المشركون إلى بدر أكرهوهم على الخروج معهم فخرجوا خائفين ، فقتلهم المسلمون يوم بدرٍ ، فلما علموا بقتلهم تأسفوا ، وقالوا : قتلنا إخواننا ، فأنزل الله فيهم هذه

الآية ، فكيف بأهل البلدان الذين كانوا على الإسلام فخلعوا ربقته من أعناقهم ، وأظهروا لأهل الشرك الموافقة على دينهم ، ودخلوا فى طاعتهم ، وآووهم ونصروهم وخذلوا أهل التوحيد ، واتبعوا غير سبيلهم وخطّأوهم وظهر فيهم سبهم وشتمهم وعيبهم والاستهزاء بهم وتسفيه رأيهم فى ثباتهم على التوحيد والصبر عليه وعلى الجهاد فيه ، وعاونوهم على أهل التوحيد طوعاً لا كرهاً واختياراً لا اضطراباً ، فهؤلاء أولى بالكفر والنار من الذين تركوا الهجرة شحاً بالوطن وخوفاً من الكفار وخرجوا فى جيشهم مكرهين خائفين .

فإن قال قائل : هلا كان الإكراه على الخروج عذراً للذين قُتِلوا يوم بدر ؟ قيل : لا يكون عذراً لأنهم فى أول الأمر لم يكونوا معذورين إذ أقاموا مع الكفار فلا يعذرون بعد ذلك الإكراه ، لأنهم السبب فى ذلك حيث أقاموا معهم وتركوا الهجرة .

(**الدليل السابع**) : قوله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكْفر بها ويُسْتَهزَأُ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذاً مثلهم ﴾ ، فذكر تعالى أنه نزّل على المؤمنين فى الكتاب أنهم إذا سمعوا آيات الله يُكْفَر بها ويُسْتَهزأ بها فلا يقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وأنَّ من جلس مع الكافرين بآيات الله المستهزئين بها فى حال كفرهم واستهزائهم فهو مثلهم ولم يفرق بين الخائف وغيره إلا المكْرَه ، هذا وهم فى بلدٍ واحدٍ فى أول الإسلام ، فكيف بمن كان فى سعة الإسلام وعزه وبلاده ، فدعا الكافرين بآيات الله المستهزئين بها إلى بلاده ، واتخذهم أولياء وأصحاباً وجلساء ، وسمع كفرهم واستهزاءهم وأقرهم ، وطرد أهل التوحيد وأَبْعَدهم .

(**الدليل الثامن**) : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ، فنهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، وأخبر أن من تولاهم من المؤمنين فهو منهم ، وهكذا حكم من تولى الكفار من المجوس وعبّاد الأوثان ، فهو منهم .

فإن جادل مجادل فى أن عبادة القباب ، ودعاء الأموات مع الله ليس بشرك ، وأن أهلها ليسوا بمشركين ، بان أمره واتضح عناده وكفره ، ولم يفرق تبارك وتعالى بين الخائف وغيره ، بل أخبر تعالى أن الذين فى قلوبهم مرض يفعلون ذلك خوفاً من الدوائر ، وهكذا حال هؤلاء المرتدين خافوا من الدوائر وما فى قلوبهم من الإيمان بوعد الله الصادق بالنصر لأهل التوحيد ، فبادروا وسارعوا إلى أهل الشرك خوفاً أن تصيبهم دائرة ، قال الله تعالى : ﴿ فعسى الله أن يأتىَ بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ﴾ .

(**الدليل التاسع**) : قوله تعالى : ﴿ ترى كثيراً منهم يتولّوْن الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ﴾ فذكر تعالى أن موالاة الكفار موجبة لسخط الله والخلود فى العذاب بمجردها وإن كان الإنسان خائفاً إلا من أُكْرِه بشرطه فكيف إذا اجتمع ذلك مع الكفر الصريح وهو معاداة التوحيد وأهله والمعاونة على زوال دعوة الله بالإخلاص وعلى تثبيت دعوة غيره .

(**الدليل العاشر**) : قوله تعالى : ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أُنزِل إليه ما اتخذوهم أولياء ، ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾ ، فذكر تعالى أن موالاة الكفار ، منافية للإيمان بالله والنبى ﷺ وما أُنزل إليه ، ثم

أخبر أن سبب ذلك كون كثير منهم فاسقين ، ولم يفرّق بين من خاف الدائرة وبين من لم يخف ، وهكذا حال كثير من هؤلاء المرتدين قبل ردتهم كثير منهم فاسقون ، فجرهم ذلك إلى موالاة الكفار والردة عن الإسلام ، نعوذ بالله من ذلك .

(**الدليل الحادى عشر**) : قوله تعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ وهذه الآية نزلت لمّا قال المشركون : تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ، فأنزل الله هذه الآية ، فإذا كان من أطاع المشركين فى تحليل الميتة مشركاً من غير فرق بين الخائف وغيره إلا المكرَه ، فكيف بمن أطاعهم فى تحليل موالاتهم والكون معهم ونصرهم والشهادة أنهم على حق واستحلال دماء المسلمين وأموالهم والخروج عن جماعة المسلمين إلى جماعة المشركين ، فهؤلاء أولى بالكفر والشرك بمن وافقهم على أن الميتة حلال .

(**الدليل الثانى عشر**) : قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ وهذه الآية نزلت فى عالِم عابد فى زمان بنى إسرائيل يقال له بلعام ، وكان يعلم الاسم الأعظم ، قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس : لما نزل بهم موسى عليه السلام ، يعنى بالجبارين ، أتاه بنو عمه وقومه ، فقالوا إن موسى رجلٌ حديد ، ومعه جنود كثيرة ، وأنه إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال : إنى إن دعوتُ ، ذهبت دنياى وآخرتى ، فلم يزالوا به ، حتى دعا عليهم فسلخه الله مما كان عليه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ .

وقال ابن زيد : كان هواه مع القوم ، يعنى الذين حاربوا موسى

وقومه فذكر تعالى أمر هذا المنسلخ من آيات الله بعد أن أعطاه الله إيّاها وعرفها وصار من أهلها ثم انسلخ منها أى ترك العمل بها ، وذكر فى انسلاخه منها ما معناه أنه مظاهرة المشركين ومعاونتهم برأيه والدعاء على موسى عليه السلام ومن معه أن يردهم الله عن قومه خوفاً على قومه وشفقة عليهم مع كونه يعرف الحق ويشهد به ويتعبد ، ولكن صده عن العمل به متابعة قومه وعشيرته وهواه وإخلاده إلى الأرض فكان هذا انسلاخاً من آيات الله وهذا هو الواقع من هؤلاء المرتدين وأعظم فإن الله أعطاهم آياته التى فيها الأمر بالتوحيد ودعوته وحده لا شريك له والنهى عن الشرك به ودعوة غيره ، والأمر بموالاة المؤمنين ومحبتهم ونصرتهم والاعتصام بحبل الله جميعاً والكون مع المؤمنين والأمر بمعاداة المشركين وبغضهم وجهادهم وفراقهم والأمر بهدم الأوثان وإزالة القحاب واللواط والمنكرات وعرفوها وأقروا بها ثم انسلخوا من ذلك كله ، فهم أولى بالانسلاخ من آيات الله وبالكفر والردة من بلعام أو هم مثله .

(**الدليل الثالث عشر**) : قوله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنْصرون ﴾ ، فذكر تعالى أن الركون إلى الظَلَمة من الكفار والظالمين موجب لمسيس النار ، ولم يفرق بين من خاف منهم وغيره إلا المكْرَه ، فكيف بمن اتخذوا الركون إليهم ديناً ورأياً حسناً وأعانهم بما قدر عليه من مال ورأى ، وأحب زوال التوحيد وأهله ، واستيلاء أهل الشرك عليهم ، فإن هذا أعظم الكفر والركون .

(**الدليل الرابع عشر**) : قوله تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكْرِهِ وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شَرَح بالكفر صدراً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذابٌ عظيم ، ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا

على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ ، فحكم الله تعالى حكماً لا يبدل أن من رجع عن دينه إلى الكفر فهو كافر سواء كان له عذر خوفاً على نفس أو مال أو أهل أم لا ، وسواء كفر بباطنه أم بظاهره دون باطنه ، وسواء كفر بفعاله ومقاله أو بأحدهما دون الآخر ، وسواء كان طامعاً فى دنيا ينالها من المشركين أم لا ، فهو كافر على كل حال ، إلا المكْرَه ، وهو فى لغتنا المغصوب ، فإذا أُكْرِه الإنسانُ على الكفر وقيل له اكفر وإلا قتلناك أو ضربناك أو أخذه المشركون ، فضربوه ولم يمكنه التخلص إلا بموافقتهم ، جاز له موافقتهم فى الظاهر بشرط أن يكون قلبه مطمئنا بالإيمان ، أى ثابتاً عليه ، معتقداً له فأما إن وافقهم بقلبه فهو كافر ولو كان مكرهاً .

وظاهر كلام أحمد رحمه الله ، أنه فى الصورة الأولى لا يكون مكرهاً حتى يعذبه المشركون فإنه لما دخل عليه يحيى بن معين وهو مريض فسلم عليه فلم يرد السلام فما زال يعتذر ويقول حديث عمار ، وقال الله : ﴿ إلا من أُكْرِه وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾، فقلب أحمد وجهه إلى الجانب الآخر فقال يحيى : لا يقبل عذراً ، فلما خرج يحيى قال أحمد : يحتج بحديث عمار ، وحديث عمار مررت بهم وهم يسبونك ، فنهيتهم فضربونى ، وأنتم قيل لكم نريد أن نضربكم ، فقال يحيى : والله ما رأيت تحت أديم السماء أفقه فى دين الله منك ، ثم أخبر تعالى ، أن هؤلاء المرتدين الشارحين صدورهم بالكفر ، وإن كانوا يقطعون على الحق ويقولون : ما فعلنا هذا إلا خوفاً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذابٌ عظيم .

ثم أخبر تعالى أن سبب هذا الكفر والعذاب ليس بسبب الاعتقاد للشرك والجهل بالتوحيد أو البغض للدين أو محبة الكفر ، وإنما سببه أن له فى ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره على الدين وعلى رضا رب العالمين ، فقال : ﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لا يهدى

القوم الكافرين ﴾ ، فكفرهم تعالى وأخبره أنه لا يهديهم مع كونهم يعتذرون بمحبة الدنيا ، ثم أخبر تعالى ، أن هؤلاء المرتدين لأجل استحباب الدنيا على الآخرة ، هم الذين طُبِعَ على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأنهم هم الغافلون ، ثم أخبر خبراً مؤكداً محققاً أنهم فى الآخرة هم الخاسرون .

(**الدليل الخامس عشر**) : قوله تعالى عن أهل الكهف : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا ﴾ ، فذكر تعالى عن أهل الكهف ، أنهم ذكروا عن المشركين ، أنهم إن قهروكم وغلبوكم ، فهم بين أمرين : إما أن يرجموكم أى يقتلوكم شر قتلة بالرجم ، وإما أن يعيدوكم فى ملتهم ودينهم ﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ ، أى وإن وافقتموهم على دينهم بعد أن غلبوكم وقهروكم ، فهذا حال من وافقهم بعد أن غلبوه ، فكيف بمن وافقهم وراسلهم من بعيد وأجابهم إلى ما طلبوا من غير غَلَبة ولا إكراه، ومع ذلك يحسبون أنهم مهتدون .

(**الدليل السادس عشر**) : قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ ، فأخبر تعالى أن من الناس من يعبد الله على حرفٍ أى على طرف فإن أصابه خير أى نصر وعز وصحة وسعة وأمن وعافية ونحو ذلك اطمأن به ، أى ثبت وقال : هذا دين حسن ، ما رأينا فيه إلا خيراً ، وإن أصابته فتنة ، أى خوف ومرض وفقر ونحو ذلك انقلب على وجهه ، أى ارتد عن دينه ورجع إلى أهل الشرك ، فهذه الآية مطابقة لحال المنقلبين عن دينهم فى هذه الفتنة ، يعبدون الله على حرف ، أى على طرفٍ ليسوا ممن يعبدون الله على يقين وثباتٍ فلما أصابتهم هذه الفتنة انقلبوا عن دينهم وأظهروا موافقة المشركين ، وأعطوهم الطاعة

وخرجوا عن جماعة المسلمين إلى جماعة المشركين ، فهم معهم فى الآخرة كما هم معهم فى الدنيا فخسروا الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

هذا مع أن كثيراً منهم فى عافية ، ما أتاهم من عدو ، وإنما ساء ظنهم بالله ، فظنوا أنه يدلل الباطل وأهله على الحق وأهله فأرداهم سوء ظنهم بالله ، كما قال تعالى فيمن ظن به ظن السوء : ﴿وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ ، وأنت تأمن من الله عليه بالثبات على الإسلام ، احذر أن يدخل فى قلبك شىء من الريب ، أو تحسين أمر هؤلاء المرتدين وأن موافقتهم للمشركين وإظهار طاعتهم رأى حسن حذراً على الأنفس والأموال والمحارم ، فإن هذه الشبهة هى التى أوقعت كثيراً من الأولين والآخرين فى الشرك بالله ، ولم يعذرهم الله بذلك ، وإلا فكثير منهم يعرفون الحق ويعتقدونه بقلوبهم ، وإنما يدينون بالشرك للأعذار الثمانية التى ذكرها الله فى كتابه ولا ببعضها فلم يعذر بها أحداً ولا بعضها ، فقال : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهادٍ فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ .

(**الدليل السابع عشر**) : قوله تعالى : ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم ، ذلك بأنهم قالوا للذين كَرِهوا ما نزل الله ، سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ، فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ ، فذكر تعالى عن المرتدين على أدبارهم ، أنهم من بعد ما تبين لهم الهدى ارتدوا على علم ، ولم ينفعهم علمهم بالحق مع الردة ، وغرّهم الشيطان بتسويله وتزيين

ما ارتكبوه من الردة ، وهكذا حال هؤلاء المرتدين فى هذه الفتنة غرّهم الشيطان وأوهمهم أن الخوف عذر لهم فى الردة ، وأنهم بمعرفة الحق ومحبته والشهادة به لا يضرهم ما فعلوه ، ونسوا أن كثيراً من المشركين يعرفون الحق ويحبونه ويشهدون به ، ولكن يتركون متابعته ، والعمل به محبة للدنيا وخوفاً على الأنفس والأموال والمآكل والرئاسات .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كَرِهوا ما نَزَّل الله سنطيعكم فى بعض الأمر ﴾ ، فأخبر تعالى ، أن سبب ما جرى عليهم من الردة وتسويل الشيطان وإملائه لهم هو قولهم للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر فإذا كان من وعد المشركين الكارهين لما أنزل الله بطاعتهم فى بعض الأمر كافراً ، وإن لم يفعل ما وعدهم به ، فكيف بمن وافق المشركين الكارهين لما أنزل الله من الأمر بعبادته وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه من الأنداد والطواغيت والأموات ، وأظهر أنهم على هدى وأن أهل التوحيد مخطئون فى قتالهم وأن الصواب فى مسالمتهم والدخول فى دينهم الباطل فهؤلاء أولى بالردة من أولئك الذين وعدوا المشركين بطاعتهم فى بعض الأمر ، ثم أخبر عن حالهم الفظيع عند الموت ، ثم قال ذلك الأمر الفظيع عند الوفاة بأنهم : ﴿ اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ . ولا يستريب مسلم أن اتباع المشركين والدخول فى جملتهم والشهادة أنهم على حق ومعاونتهم على زوال التوحيد وأهله ونصرة القباب والقحاب واللواط من اتباع ما يسخطه الله وكراهة رضوانه وإن ادّعْوا أن ذلك لأجل الخوف ، فإن الله ما عذر أهل الردة بالخوف من المشركين ، بل نهى عن خوفهم ، فأين هذا ممن يقول : ما جرى منا شيء ونحن على ديننا .

(**الدليل الثامن عشر**) : قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخرِجْتم لنخرجنَّ

معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ ، فعقد الله تعالى الأخوة بين المنافقين والكفار ، وأخبر أنهم يقولون فى السر : ﴿ لئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم ﴾ ، أى لئن غلبكم محمد ﷺ ، وأخرجكم من بلادكم لنخرجنَّ معكم ، ﴿ ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ﴾ ، أى لا نسمع من أحد فيكم قولا ، ولا نعطى فيكم طاعة ، ﴿ وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ ، أى إن قاتلكم محمد ﷺ لننصرنكم ونكون معكم ، ثم شهد تعالى أنهم كاذبون فى هذا القول .

فإذا كان وعد المشركين فى السر بالدخول معهم ونصرهم والخروج معهم إن جلوا نفاقاً وكفراً وإن كان كذباً ، فكيف بمن أظهر ذلك صادقاً وقدم عليهم ودخل فى طاعتهم ودعى إليها ونصرهم وانقاد لهم وصار من جملتهم وأعانهم بالمال والرأى ، هذا مع أن المنافقين لم يفعلوا ذلك إلا خوفاً من الدوائر ، كما قال تعالى : ﴿ فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾ ، فكذا حال كثير من المرتدين فى هذه الفتنة ، فإن عُذْرَ كثيرٍ منهم ، هو هذا العذر الذى ذكره الله عن الذين فى قلوبهم مرض ولم يعذرهم به ، قال الله تعالى : ﴿ فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ﴾ ويقول : ﴿ ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جَهْدَ أَيْمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ ، فأخبر تعالى أنه لابد عند وجود المرتدين من وجود المحبين المحبوبين المجاهدين ووصفهم بالذلة والتواضع للمؤمنين ، والعزة والغلظة والشدة على الكافرين ، يقصد من كان تواضعه وذله ولينه لعبّاد القباب ، وأهل القحاب

واللواط ، وعزته وغلظته على أهل التوحيد والإخلاص ، فكفى بهذا دليلاً على كفر من وافقهم وإن ادعى أنه خائف ، فقد قال تعالى : ﴿ ولا يخافون لومة لائم ﴾ ، وهذا بضد من يترك الصدق والجهاد خوفاً من المشركين .

ثم قال تعالى : ﴿ يجاهدون فى سبيل الله ﴾ أى فى توحيده صابرين على ذلك ابتغاء وجه ربهم لتكون كلمة الله هى العليا ﴿ ولا يخافون لومة لائمٍ ﴾ ، أى لا يبالون بمن لامهم وآذاهم فى دينهم بل يمضون على دينهم يجاهدون فيه غير ملتفتين للوم أحدٍ من الخلق ولا لسخطه ولا رضاه إنما همتهم وغاية مطلوبهم رضا سيدهم ومعبودهم والهرب من سخطه ، وهذا بخلاف من كانت همته وغاية مطلوبه رضا عبّاد القباب وأهل القحاب واللواط ، ورجاءهم والهرب مما يسخطهم فإن هذا غاية الضلال والخذلان ، ثم قال تعالى : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ ، فأخبر تعالى أن هذا الخير العظيم والصفات الحميدة لأهل الإيمان الثابتين على دينهم عند وقوع الفتن ، ليس بحولهم ولا بقوتهم وإنما هو ﴿ فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ، ثم قال : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ ، فأخبر تعالى خبراً بمعنى الأمر بولاية الله ورسوله والمؤمنين ، وفى ضمنه النهى عن موالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين ، ولا يخفى أى الحزبين أقرب إلى الله ورسوله ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فالمتولى لضدهم واضع للولاية فى غير محلها مستبدلاً بولاية الله ورسوله والمؤمنين المقيمين للصلاة المؤتين الزكاة ، ولاية أهل الشرك والأوثان والقباب ، ثم أخبر تعالى ، أن الغلبة لحزبه ولمن تولاهم ، فقال : ﴿ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا ، فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ .

(**الدليل التاسع عشر**) : قوله تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ (الآية) ، فأخبر تعالى أنك لا تجد من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، يواد من حاد الله ورسوله ، ولو كان أقرب قريب ، وأن هذا مناف للإيمان مضادٍ له لا يجتمع هو والإيمان إلا كما يجتمع الماء والنار .

وقد قال تعالى فى غير موضع آخر : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ . ففى هاتين الآيتين البيان الواضح أنه لا عذر لأحدٍ فى الموافقة على الكفر خوفاً على الأموال والأبناء والأزواج والعشائر ونحو ذلك مما يعتذر به كثير من الناس إذا كان لم يرخص لأحدٍ فى موادتهم واتخاذهم أولياء بأنفسهم خوفاً منهم وإيثاراً لمرضاتهم ، فيكف بمن اتخذ الكفار الأباعد أولياء وأصحاباً ، وأظهر لهم الموافقة على دينهم خوفاً على بعض هذه الأمور ومحبة لها ، ومن العجب استحسانهم لذلك واستحلالهم له فجمعوا مع الردة استحلال الحرام .

(**الدليل العشرون**) : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ إلى قوله : ﴿ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ ، فأخبر تعالى أن من تولى أعداء الله وإن كانوا أقرباء فقد ضل سواء السبيل ، أى أخطأ الصراط المستقيم ، وخرج عنه إلى الضلالة فأين هذا ممن يدعى أنه على الصراط المستقيم لم يخرج عنه ، فإن هذا تكذيب لله ، ومن كذَّب الله فهو كافر ، واستحلال لما حرم الله من ولاية الكفار ومن استحلَّ محرماً فهو كافر ، ثم ذكر تعالى شبهة من اعتذر بالأرحام والأولاد ، فقال : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل

بينكم والله بما تعملون بصير ﴾ ، فلم يعذر الله تعالى من اعتذر بالأرحام والأولاد ، والخوف عليها ومشقة مفارقتها ، بل أخبر أنها لا تنفع يوم القيامة ، ولا تغنى من عذاب الله شيئا ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ فإذا نُفِخَ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾ .

(**الدليل الحادى والعشرون**) : من السنة ما رواه أبو داود وغيره عن سمرة بن جندب عن النبى ﷺ أنه قال : « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله » فجعل ﷺ فى هذا الحديث من جامع المشركين أى اجتمع معهم وخالطهم وسكن معهم مثلهم ، فكيف بمن أظهر لهم الموافقة على دينهم وآواهم وأعانهم ، فإن قالوا خفنا ، قيل لهم : كذبتم ، وأيضاً فليس الخوف بعذرٍ ، كما قال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذِىَ فى الله ، جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ ، فلم يعذر تبارك وتعالى من يرجع عن دينه عند الأذى والخوف فكيف بمن لم يصبه أذى ولا خوف ، وإنما جاءوا إلى الباطل محبة له وخوفاً من الدوائر ، والأدلة على هذا كثيرة ، وفى هذا كفاية لمن أراد الله هدايته ، وأما من أراد الله فتنته وضلالته ، فكما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ، ونسأل الله الكريم المنان أن يحيينا مسلمين ، وأن يتوفانا مسلمين ، وأن يلحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مفتونين ، برحمته وهو أرحم الراحمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم آمين .

تمـــت

ويليه كتاب بيان النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك

جمعه الشيخ حمد بن على بن عتيق النجدى

هذا كتاب بيان النجـاة والفكـاك
من موالاة المرتدين وأهل الإشـراك
جمع شيخنا الشيخ حمد بن على بن عتيق النجـدى

بسـم الله الرحمـن الرحيـم

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قيما بلا اعوجاج ، وجعله عصمة لمن تمسك به واعتمد عليه فى الاحتجاج وأوجب فيه مقاطعة أهل الشرك بإيضاح الشرعة والمنهاج والصلاة والسلام على محمد الذى مزّق الله ظلام الشرك بما معه من السراج وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا أهل الكفر وباينوهم من غير امتزاج .

أما بعد ، فإنى قد كنت تكلمت وشددتُ فى النهى عن موالاة المشركين ودعوت من حولى من المسلمين إلى عداوة الكافرين ثم كتبتُ فى ذلك بعض الآيات الدالة عليه مع كلمات قليلة من كلام بعض المحققين من أهل العلم والدين ، وكنت أظن أن من قرأ القرآن وآمن أنه كلام الله وأن الله تعبدنا بالعمل به والقيام إذا سمع ذلك أذعن له وانقاد وبادر إلى السمع والطاعة لحكمه لقوله الله تعالى : ﴿ اتبعوا ما أُنزِل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ وقال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما

قضيت ويسلموا تسليما ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فإما يأتينَّكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ ، فحصل من بعض الجاهلين والمعاندين إنكارٌ لذلك وجحد لما أوجب الله الإقرار به والقيام ، فصار المنتسبون إلى العلم المدعون أنهم من طلبته فى ذلك على أقسام :

طائفة منهم استحسنت المعارضة الجاهلة الضالة ورضيتها وإن لم تصرح بذلك فإنه ظاهر على وجوهها . وطائفة كرهت المعارضة واستجهلت صاحبها لكنها لم تفعل ما أوجب الله عليها من رد ذلك والإنكار على سالكه ، ولولا ما وقع لهؤلاء ، لما كان المعارض مساوياً لمن يجاوبه ، فلأجل ذلك كتب شيخنا الشيخ عبد الرحمن بن حسن رسالة مفيدة فى الرد على هذا المعارض نقض فيها أقواله نقضاً بديعاً ، وهى كافية فى الرد عليه ، فصار شيخنا ، هو إمام الطائفة الراد لأقوال أهل الباطل المنكرة لها ، والله ناصر دينه ومظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

ثم إنى كتبت إن شاء الله كلمات فيها بيان ما وقع الغلط فيها ممن ينتسب إلى العلم لقول الله تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ .

ومنها وجوب معاداة الكفار والمشركين ومقاطعتهم ، ومنها مما يصير به الرجل مرتداً ، ومنها ما يعذر الرجل به على موافقة المشركين ويظهر

الطاعة لهم ، ومنها مسألة الاستضعاف ، ومنها وجوب الهجرة وأنها باقية .

وسميتُ هذا الكتاب سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك ، وأسأل الله تعالى أن يجعله مبنياً على الإخلاص وأن ينفع به من قرأه طالباً للنجاة والخلاص .

فصل : اعلم أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق فبيّن للناس ما نُزل إليهم ، فما من خير إلا دلهم عليه وعرفهم الطرق الموصلة إليه وما من شر إلا حذرهم منه وسد عليهم أبوابه المفضية إليه .

ومن أعظم ذلك أنه أخبرهم أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، وأخبرهم بظهور الفتن التى كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسى كافراً ، ويمسى كافراً ويصبح مؤمناً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا ، فكان وقوع هذا لما وقع هو وأمثاله من الأدلة على أنه رسول الله ومما أخبر به أن أمته تقاتل الترك ووصفهم بأنهم صغار العيون دلف الأنوف ، فكأن وجوههم المجان المطرقة ، ومعنى دلف الأنوف أنها قصار مبطحة ، والمجان جمع مجن وهو الترس ، أراد أن وجوههم مستديرة ناتئة وجنتها ، هذا معنى كلام البغوى فى شرح السنة فكان من حكمة الله وعدله أن سلطهم على المسلمين .

لما ظهرت فيهم الملة الحنيفية ، ودعوا إلى الطريقة المحمدية ، ولكن حصل من بعضهم ذنوب بها تسلطت هذه الدولة الكفرية ، فجرى ما هو ثابت فى الأقدار الأزلية ، وإن كانت لا تجيزه الأحكام الشرعية ، والله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يُسْألون ، وامتحن أهل الإسلام بأمور تشبه ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، فى حادثة ظهور التتار فى زمنه ، وهم بادية الترك ، فناسب أن نذكر بعض كلامه .

قال رحمه الله تعالى : فإن هذه الفتنة التى ابتُلى بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام ، قد جرى فيها شبه بما جرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله ﷺ فى المغازى التى أنزل الله فيها كتابه ، وابتُلى بها نبيه والمؤمنون مما هو أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً ، إلى يوم القيامة ، فإن نصوص الكتاب والسنة ، اللذين هما دعوة محمد ﷺ ، تتناول عموم الخلق بالعموم اللفظى ، وبالعموم المعنوى ، وعهود الله فى كتابه وسنّته تتناول آخر هذه الأمة كما نالت أولها ، وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم ليكون عبرة لنا فنشبه حالنا بحالهم ، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها ، فيكون المؤمن من المستأخرين شبهاً بما كان للمؤمن من المستقدمين ويكون الكافر والمنافق من المستأخرين شبها بما كان للكافر والمنافق من المستقدمين ، كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة وأجمل ذكر قصص الأنبياء : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ ، وقال لما ذكر قصة فرعون : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ ، وقال فى محاصرة بنى النضير ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ﴾ ، إلى قوله : ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ ، فأمر أن نعتبر بأحوال المستقدمين علينا من هذه الأمة وممن قبلنا ، وذكر فى غير موضع ، أن سنته فى ذلك مطردة وعادة مستمرة . فقال تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ، ملعونين أينما ثقفوا أُخِذوا وقُتِّلوا تقتيلا ، سنّة الله فى الذين خَلَوْا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ، ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً سنّة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ .

وأخبر سبحانه أن دأب الكافرين من المستأخرين ، كدأب الكافرين من المستقدمين ، فينبغي للعقلاء أن يعتبروا سنة الله وأيامه فى عباده ، ودأب الأمم وعاداتهم لا سيما فى مثل هذه الحادثة العظيمة التى طبق الخافقين خبرها ، واستطار فى جمع الديار شررها ، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه ، وكشر فيها الكفر عن أنيابه ، وأضراسه ، وكاد فيها عمود الكتاب أن يجتث ويُخْتَرم ، وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم ، وعقر دار المؤمنين أن يحل بها البوار ، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار ، وظن المنافقون والذين فى قلوبهم مرض أنه ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ ، وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهليهم أبداً ، وزين ذلك فى قلوبهم وظنوا ظن السوء وكانوا قوماً بوراً ، ونزلت فتنة تركت الحليم حيران ، وأنزله الرجل الصادق منزلة السكران ، وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوساوس ليس بالنائم ولا اليقظان ، وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان حتى إن فى الرجل بنفسه شغلاً عن أن يغيث اللهفان ، وميز الله فيها أهل البصائر والإيقان ، من الذين فى قلوبهم مرض أو نفاق أو ضعف إيمان ، ورفع بها أقواماً إلى الدرجات العالية ، كما خفض بها أقواماً إلى المنزلة الهاوية ، وكفر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة ، وحدث من أنواع البلوى ما جعلها مختصرة من القيامة الكبرى فإن الناس تفرقوا فيها ما بين شقى وسعيد ، كما يتفرقون كذلك فى اليوم الموعود ولم ينفع المنفعة الخالصة من البلوى إلا الإيمان والعمل الصالح والبر والتقوى وبليت فيها السرائر وظهرت الخفايا التى تكنها الضمائر وتبين أن البهرج من الأقوال والأعمال يخون صاحبه أحوج ما كان إليه فى المال وذم سادته وكبرائه من أطاعهم فأضلوه السبيلا كما حمد ربه من صدق فى إيمانه واتخذ مع الرسول سبيلا وبان صدق ما جاءت به الأخبار النبوية من الأخبار بما يكون ، وواطأتها قلوب الذين هم فى هذه الأمة

محدثون ، أى ملهمون ، كما تواطات عليها المبشرات التى رآها المؤمنون ، وتبين فيها الطائفة المنصورة الظاهرة ، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة حيث تحزب الناس ثلاثة أحزاب : حزب مجتهد فى نصرة الدين ، وآخر خاذل له ، وآخر خارج عن شريعة الإسلام ، وانقسم الناس بين مأجور ومغرور ، وآخر قد غرّه بالله الغرور ، وكان هذا الامتحان تميزاً من الله وتقسيماً ﴿ ليجزى الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ .

قلت : وما ذكره من الافتتان ، قد رأينا ما هو نظيره أو أعظم منه فى هذه الأزمان ، وكذلك انقسم الناس ثلاثة أقسام : **أحدها** ناصر لدين الإسلام وساع فى ذلك بكل جهده ، وهم القليلون عدداً الأعظمون عند الله أجراً .

القسم الثانى : خاذل لأهل الإسلام تارك لمعونتهم .

القسم الثالث : خارج عن شريعة الإسلام بمظاهرة حزب المشركين ومناصحتهم . وقد روى الطبرانى عن ابن عباس عن النبى ﷺ ، قال : « من أعان صاحب باطل ليدحض بباطله حقاً ، فقد بَرِئَتْ منه ذمة الله وذمة نبيه » .

فصل : وهذا أوان الشروع فى المقصود فأما معاداة الكفار والمشركين فاعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أوجب ذلك وأكد إيجابه وحرم موالاتهم وشدد فيها حتى إنه ليس فى كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم ، بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده .

قال الله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ . قال ابن جرير رحمه الله تعالى : فأهل النفاق مفسدون فى

الأرض بمعصيتهم ربهم ، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه وتضييعهم فرائضه وشكهم فى دينه الذى لا يقبل من أحد التصديق (بالآية) ، والإيقان بحقيقته وتكذيبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والتكذيب ، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إن وجدوا إلى ذلك سبيلاً . قال ابن كثير : وهذا الذى قاله حسن ، فإن من الفساد فى الأرض ، اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء ، كما قال تعالى : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ﴾ ، فقطع الموالاة بين المؤمنين والكافرين ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ (الآية) . وقوله : ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ ، أى نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصلح مع هؤلاء ، وهؤلاء يقول الله : ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ ، يقول ألا إن هذا الذى يعتمدون ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لا يشعرون أنه فساد . انتهى .

وهذا الذى ذكره وقد والله سمعناه ورأينا أهله إذا قيل لهم ما الحامل لكم على مجالسة أهل الشر والفساد ، قالوا : نريد أن نصلح أحوالنا ونستخرج دنيانا منهم ويكون لنا يد عندهم ، وبعضهم إذا ظن بالله ظن السوء من إيذائه أهل الباطل ، ورأى من له اتصال بهم وتوصل إليهم اتخذه صديقاً ورضى به قائلاً بلسان حاله نخشى أن تصيبنا دائرة ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون .

وقال تعالى : ﴿ بشّر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ إلى قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون

المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبينا ﴾ قال ابن كثير : ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يعنى معهم فى الحقيقة يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة ، ويقولون لهم إذا خلوا بهم : إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، أى بالمؤمنين فى إظهارنا لهم الموافقة . قال الله تعالى منكراً عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين : ﴿ أيبتغون عندهم العزة ﴾ ، ثم أخبر أن العزة كلها له وحده لا شريك له ، ولمن جعلها له كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ (الآية) .

والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله تعالى ، والالتجاء إلى عبوديته والانتظام فى جملة عباده المؤمنين ، الذين لهم النصرة فى هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

قلت : فإذا كانت موالاة الكافرين من أفعال المنافقين ، فهذا كافٍ فى تحريمها والنهى عنها . وقال تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء ﴾ ، فنهى سبحانه المؤمنين عن موالاة الكافرين ، ثم قال : ومن يفعل ذلك ، أى ومن يوال الكافرين فليس من الله فى شيء ، أى فقد برىء من الله ، وبرىء الله منه ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد حفظاً للإسلام والتوحيد . وقال تعالى : ﴿ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أُنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾ .

قال شيخ الإسلام : فبيّن سبحانه الإيمان بالله والنبى ، وما أُنزل إليه ملتزم بعدم ولايتهم ، فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان لأن عدم اللازم

يقتضى عدم الملزوم ، قلت : رتب الله تعالى على موالاة الكافرين سخطه والخلود فى العذاب ، وأخبر أن ولايتهم لا تحصل إلا ممن ليس بمؤمن وأما أهل الإيمان بالله وكتابه ورسوله فإنهم لا يوالونهم بل يعادونهم كما أخبر الله عن إبراهيم والذين معه من المرسلين ، كما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ماأسروا فى أنفسهم نادمين ﴾ ، فنهى سبحانه وتعالى المؤمنين أن يوالوا اليهود والنصارى وذكر أن من والاهم فهو منهم أى من تولى اليهود فهو يهودى ومن تولى النصارى فهو نصرانى .

وقد روى ابن أبى حاتم عن محمد بن سيرين ، قال : قال عبد الله ابن عتبة : ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر ، قال : فظنناه يريد هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ ، إلى قوله : ﴿ فإنه منهم ﴾ (الآية) وكذلك من تولى المشرك فهو مشرك ومن تولى الأعاجم فهو أعجمى ، فلا فرق بين من تولى أهل الكتابين وغيرهم من الكفار ، ثم أخبر تعالى أن الذين فى قلوبهم مرض أى شك فى الدين وشبهة يسارعون فى الكفر قائلين : ﴿ نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾ أى إذا أنكرت عليهم موالاة الكافرين ، قالوا : نخشى أن تكون الدولة لهم فى المستقبل فيتسلطون علينا ، فيأخذون أموالنا ويشردوننا من بلداننا ، وهذا هو ظن السوء بالله الذى قال الله فيه : ﴿ الظانّين بالله ظن

السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ .

ولهذا قال تعالى فى هذه الآية : ﴿ فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ﴾ ، وعسى من الله واجب والحمد لله الذى أتى بالفتح فأصبح أهل الظنون الفاسدة على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ ، فنهى سبحانه وتعالى المؤمنين عن موالاة أهل الكتابين وغيرهم من الكفار وبيّن أن موالاتهم تنافى الإيمان . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء ، إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم ، فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهادٍ فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

فنهى سبحانه وتعالى المؤمنين عن موالاة أبيه وأخيه اللذين هما أقرب الناس إليه إذا كان دينهما غير الإيمان ، وبين أن الذى يتولى أباه وأخاه إذا كانا كافرين فهو ظالم ، فكيف بمن تولى الكافرين الذين هم أعداء له ولآبائه ولدينه ، أفلا يكون هذا ظالماً ، بلى والله إنه أظلم الظالمين ، ثم بين تعالى أن هذه الثمانية لما تكون عذرا فى موالاة الكافرين ، فليس لأحد أن يواليهم خوفاً على أبيه أو أخيه أو بلاده أو ماله أو مشنحته بعشيرته أو مخافة على زوجاته ، فإن الله قد سد على الخلق باب الأعذار بأن هذا ليس بعذر ، فإن قيل أنه قد قال كثير من المفسرين إن هذه الآية نزلت فى شأن الجهاد .

فالجواب من وجهين : **أحدهما** أن نقول إذا كانت هذه الثمانية ليس بيانه عذراً فى ترك الجهاد الذى هو فرض على الكفاية ، فكونها لا تكون عذراً فى ترك عداوة المشركين ومقاطعتهم بطريق الأول .

الوجه الثانى : أن الآية بنفسها دالة على ما ذكرنا كما دلت على الجهاد فإنه قال : ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ﴾ فمحبة الله ورسوله توجب إيثار عداوة المشركين ومقاطعتهم على هذه الثمانية وتقديمها عليها كما أن محبة الجهاد توجب إيثاره عليها ، وبالله التوفيق .

وهذا إذا سمعه المنصف يكون عنده ظاهر إلا من أعمى الله بصيرته بسبب تعصبه كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ﴾ ، ثم قال : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ﴾ ، فأخبر أن الكافرين إذا لم يوالِ بعضهم بعضا بأن ينحازوا عن المسلمين ويقطعوا للمسلمين أيديهم منهم وإلا وقعت الفتنة والفساد الكبير ، فتبين أن موالاة المسلم للكافر سبب الافتتان فى الدين بترك واجباته ، وارتكاب محرماته ، والخروج عن شرائعه ، وسبب الافتتان فى الأديان والأبدان والأموال ، فأين هذا من أقوال الفساد والمحبون ، إن موالاة المشركين صلاح وعافية وسلامة . وقال تعالى : ﴿ وَدُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيرا ﴾ ، فأخبر تعالى عن الكفار أنهم يودون كفر المسلمين كما كفروا ثم نهى أهل الإيمان عن موالاتهم حتى تحصل منهم الهجرة بعد الإسلام .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يُخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تُسِرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وماأعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودُّوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ، قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ ، إلى قوله : ﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أنْ تولَّوْهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ ، إلى قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوْا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ .

وقد ثبت فى الصحاح ، أن هذه السورة نزلت فى رجل من الصحابة لما كتب إلى أهل مكة يخبرهم بمسير النبى ﷺ ، إليهم عام الفتح ، فأنزل الله هذه الآيات بخبر هذا الكتاب ، وبعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فى أثر المرأة التى ذهبت بالكتاب فوجده فى عقيصة رأسها ، فجاء الرجل إلى النبى ﷺ يعتذر ويحلف أنه ما شك ولكنه ليس له من يحمى وراءه من أهله بمكة وأنه أراد بهذا يداً عند قريش ، واستأذن بعض الصحابة فى قتله ، فقال النبى ﷺ : « وما يدريك أن الله أطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فلولا أن ذلك الرجل كان من أهل بدر لقُتِل بهذا

الكتاب ، ففى هذه السورة مع سبب نزولها من الأدلة على وجوب عداوة الكفار ومقاطعتهم أدلة كثيرة ، فنهى تعالى أهل الإيمان عن اتخاذ عدوه وعدوهم ، وهذا تهييج على عداوتهم ، فإن عداوة المعادى لربك باعثة وداعية إلى عداوتك .

ولنضرب لذلك مثلاً ، ولله المثل الأعلى ، فقدر نفسك مملوكاً لإنسان هو سيدك ، والسبب فى حصول مصالحك ومنع مضارك وسيدك هو عدو من الناس فهل يصح عندك ويجوز فى عقلك أن تتخذ عدو سيدك ولياً ، ولو لم ينهك عن ذلك ، فكيف إذا نهاك عن ذلك أشد النهى ، ورتب على موالاتك له أن يعذبك ، وأن يسخط عليك ، وأن يوصل إليك ما تكره ويمنع عنك ما تحب فكيف إذا كان هذا العدو ، عدواً لك ولسيدك ، فإذا واليته مع ذلك كله إنك إذاً لمن الظالمين الجاهلين ، ثم قال : تلقون إليهم بالمودة ، وهذا كاف فى إبطال شبهة المشبهين فإنه إذا أنكر عليهم موالاة المشركين وموادتهم ، قالوا : لم يصدر منا ذلك وهم مع ذلك يعينون أهل الباطل بأموالهم ، ويذبون عنهم بألسنتهم ويكاتبونهم بعورات المسلمين ، فأين هذا من الكتاب الذى نزلت فيه هذه السورة وقد سماه الله ، إلقاء بالمودة وهذا ظاهر جداً .

ثم قال : ﴿ وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ فذكر ما يدعو إلى عداوتهم وهو كفرهم بالحق الذى جاء من عند الله ، وأخرجهم النبى ﷺ وأهل الإسلام لأجل الإيمان بالله ، ثم حذر تعالى من موالاتهم بأنه يعلم السر والعلانية وهذا تهديد شديد ، ثم قال : ﴿ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ ، أى من يتولَّ أعداء الله ويلقى إليهم بالمودة ويسر إليهم ، فقد أخطأ الصراط المستقيم وخرج عن طريق الصواب .

ثم قال : ﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ﴾ (الآية) ، فبين أنهم إن قدروا على المسلم ، واستولوا عليه ، ساموه سوء العذاب ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالضرب والقتل ، وبالكلام الغليظ ، ولو كان يواليهم ويكاتبهم فى حال بعده عنهم ، فإنهم لا يرضون عنه ويسلمونه من شرهم ، حتى يكون دينه دينهم ولهذا قال : ﴿ وودوا لو تكفرون ﴾ ، كما قال : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ ، ثم قال : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ﴾ (الآية) . فبين أن كون الرجل له أرحام وأولاد عند المشركين ، لا يبيح له موالاتهم ، كما اعتذر هذا الرجل بأن له فى مكة أرحاماً وأولاداً فلم يعذره الله تعالى ، فإنه يجب على الإنسان أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، ولا يحصل الإيمان حتى يكون الرسول أحب إلى الإنسان من ولده ووالده والناس أجمعين ، فقوله : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ﴾ ، أى لن ينجوكم من عذاب الله ، فكيف تقدمونهم على مراد الله ، ولأجلهم توالون أعداء الله ، والله تعالى مطلع عليكم ، بصير بأقوالكم وأعمالكم ونياتكم .

ثم بين أن هذا الذى دلهم عليه من موالاة المؤمنين ، ونهاهم من موالاة الكافرين ، ليس هو أمراً لهم وحدهم ، بل هو الصراط المستقيم الذى عليه جميع المرسلين ، فقال : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ ، فقوله : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتَّبعْ ملة إبراهيم حنيفا ﴾ ، فأمرنا سبحانه أن نتأسى بإبراهيم الخليل ومن معه من المرسلين فى قولهم لقومهم : ﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ﴾ إلى آخره ، وإذا كان هذا واجباً على المسلم أن يقول هذا لقومه الذين

هو بين أظهرهم ، فكونه واجباً مع الكفار الأبعدين المخالفين له فى جميع الأمور ، أبين وأبين .

وها هنا نكتة بديعة فى قوله : ﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ﴾ ، وهى أن الله تعالى قدم البراءة من المشركين العابدين غير الله على البراءة من الأوثان المعبودة من دون الله لأن الأول أهم من الثانى ، فإنه قد يتبرأ من الأوثان ولا يتبرأ ممن عبدها ، فلا يكون آتياً بالواجب عليه ، وأما إذا تبرأ من المشركين ، فإن هذا يستلزم البراءة من معبوداتهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقياً ﴾ ، فقدم اعتزالهم على اعتزال معبوداتهم وكذا قوله : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ﴾ وقوله : ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ ، فعليك بهذه النكتة فإنها تفتح لك باباً إلى عداوة أعداء الله ، فكم من إنسان لا يقع منه الشرك ولكنه لا يعادى أهله ، فلا يكون مسلماً بذلك إذا ترك دين جميع المرسلين ، ثم قال : ﴿ كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ ، فقوله : ﴿ وبدا ﴾ أى ظهر وبان . وتأمل تقديم العداوة على البغضاء ، لأن الأولى أهم من الثانية ، فإن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم ، فلا يكون آتياً بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة والبغضاء ، ولابد أيضاً من أن تكون العداوة والبغضاء باديتين ظاهرتين بينتين .

واعلم أنه وإن كانت البغضاء متعلقة بالقلب ، فإنها لا تنفع حتى تظهر آثارها وتتبين علامتها ، ولا تكون كذلك حتى تقترن بالعداوة والمقاطعة ، فحينئذٍ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين ، وأما إذا وجدت الموالاة والمواصلة ، فإن ذلك يدل على عدم البغضاء ، فعليك بتأمل هذا

الموضع فإنه يجلو عنك شبهات كثيرة ، ثم قال : ﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ ، فذكر سبحانه وتعالى أفعالاً تدعو إلى مقاطعتهم وترك موالاتهم ، وهى أنهم يقاتلون فى الدين أى من أجله ، يعنى أن الدين حملهم على قتالكم لما أنتم عليه من الدين لعداوتهم ، وأيضاً يُخْرِجون المؤمنين من ديارهم ، ويعاونون على إخراجهم ، فمن تولاهم مع ذلك فهو من أظلم الظالمين ، وفى هذه الآية أعظم دليل وأوضح البرهان على أن موالاتهم محرَّمة منافية للإيمان ، وذلك أنه قال : ﴿ إنما ينهاكم الله ﴾ فجمع بين لفظة (إنما) المفيدة للحصر وبين النهى الصريح ، وذكر الخصال الثلاث وضمير الحصر ، وهو لفظة هم .

ثم قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ ، فنهى سبحانه أهل الإيمان عن موالاة الذين غضب الله عليهم ، فلا يحسن من المؤمن ولا يجوز منه أن يوالى من فعل ما يغضب الله تعالى من الكفر ، فإن موالاته له تنافى الإيمان بالله تعالى .

فصل : وها هنا أمور يجب التنبيه عليها ، ويتعين الاعتناء بها ليتم لفاعلها مجانبة دين المشركين :

(**الأمر الأول**) : ترك اتباع أهوائهم ، وقد نهى الله تعالى عن اتباعها . قال تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ﴾ .

قال شيخ الإسلام : فانظر كيف قال فى الخبر (ملتهم) ، وقال فى

النهى : (أهواءهم) ، لأن القوم لا يرضون إلا باتباع الملة مطلقاً ، والزجر وقع عن اتباع أهوائهم فى قليل أو كثير ، وقال تعالى لموسى وهارون : ﴿ فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ . وقال موسى لأخيه هارون : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، عما جاءك من الحق ﴾ ، إلى قوله : ﴿ ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يُغْنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ﴾ .

وقال شيخ الإسلام : فأخبر سبحانه وتعالى ، أنه أنعم على بنى إسرائيل بنعم الدين والدنيا ، وأنهم اختلفوا بعد مجىء العلم بغياً من بعضهم لبعض ، ثم جعل محمداً ﷺ على شريعة شرعها له وأمره باتباعها ، ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون ، وقد دخل فى الذين لا يعلمون كل من خالف شريعته ، وأهوى ما يهوونه ، قلت : فإذا كان اتباع أهواء جميع الكفار وسلوك ما يحبونه منهياً عنه وممنوعاً منه ، فهذا هو المطلوب ، وما ذاك إلا خوفاً من اتباعهم فى أصل دينهم الباطل .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا واق ﴾ ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل كتابه حكماً عربياً ، ثم توعده على اتباع أهواء الكفار بهذا الوعيد الشديد ، وقال تعالى : ﴿ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون ﴾ ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على وجوب ترك أهواء الكافرين ، وتحريم اتباعهم ، وأنه من أعظم القوادح فى الدين .

(**الأمر الثانى**) : معصيتهم فيما أمروا به فإن الله تعالى نهى عن طاعة الكافرين ، وأخبر أن المسلمين إن أطاعوهم ، ردوهم عن الإيمان إلى الكفر والخسارة ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولو شئنا لبعثنا فى كل قريةٍ نذيرا ، فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ ، وقال تعالى إخباراً عن من أطاع رؤساء الكفر : ﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ .

وفسَّر النبى ﷺ اتخاذهم أرباباً ، أنها طاعتهم فى تحريم الحلال وتحليل

الحرام ، فإذا كان من أطاع الأحبار وهم العلماء والرهبان وهم العباد فى ذلك ، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله ، فمن أطاع الجهَّال والفساق فى تحريم ما أحل الله ، أو تحليل ما حرم الله ، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله ، بل ذلك أولى وأحرى .

(**الأمر الثالث**) : ترك الركون إلى الكفرة والظالمين وقد نهى الله عن ذلك فقال : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنْصرون ﴾ ، فنهى سبحانه وتعالى عن الركون إلى الظلمة وتوعد على ذلك بمسيس من النار وعدم النصر والترك ، وهو أعظم أنواع الظلم ، كما قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ فمن ركن إلى أهل الشرك أى مال إليهم ورضى بشىء من أعمالهم ، فإنه مستحق لأن يعذبه الله بالنار وأن يخذله فى الدنيا والآخرة ، وقال تعالى : ﴿ ولولا أن ثَبَّتْناك لقد كدتَ تركن إليهم شيئاً قليلا إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾ ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه لولا تثبيته لرسوله ﷺ لركن إلى المشركين شيئاً قليلا ، وأنه لو ركن إليهم لأذاقه عذاب الدنيا والآخرة مضاعفاً ، ولكن الله ثَبَّتَهُ فلم يركن إليهم بل عاداهم وقطع اليد منهم ، ولكن إذا كان الخطاب للنبى ﷺ مع عصمته بهذه الشدة فغيره أولى بلحوق هذا الوعيد به .

(**الأمر الرابع**) : ترك موادة أعداء الله . قال الله تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ .

قال شيخ الإسلام : فأخبر سبحانه وتعالى ، أنه لا يوجد مؤمن يوادُّ من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم ، ولا يوجد مؤمن يوادُّ كافراً ، فمن

وادَّ كافراً ، فليس بمؤمن ، قلت : فإذا كان الله قد نفى الإيمان عن من وادَّ أباه وأخاه وعشيرته إذا كانوا محادين الله ورسوله فمن واد الكفار الأبعدين عنه فهو أولى بأن لا يكون مؤمنا .

(**الأمر الخامس**) : ترك التشبُّه بالكفار فى الأفعال الظاهرة ، لأنها تورث نوع مودة ومحبة وموالاة فى الباطن ، كما أن المحبة فى الباطن تورث المشابهة فى الظاهر ، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة حتى إن الرجلين إذا كانا من بلد واحد ثم اجتمعا فى دار غربة كان بينهما من المودة والإيلاف أمر عظيم ، وإن كانا فى مصرهما لم يكونا متعارفين ، أو كانا متهاجرين ، وذلك لأن الاشتراك فى نوع وصف اختصاص به عن بلد الغربة ، بل لو اجتمع رجلان فى سفر أو بلد غريب ، فكانت بينهما مشابهة فى العمامة أو الثياب أو الشعر أو المركب ، ونحو ذلك لكان بينهما من الإيلاف أكثر مما بين غيرهما ، وكذلك تجد أرباب الصناعات الدنيوية ، يألف بعضهم ببعض ما لا يألفون غيرهم حتى إن ذلك يكون مع المعاداة والمحاربة ، أما على الدين تجد الملوك من الرؤساء وإن تباعدت ديارهم وممالكهم ، بينهم مناسبة تورث مشابهة وحماية من بعضهم لبعض ، وهذا كله موجب الطباع ومقتضاها ، إلا أن يمنع من ذلك دين أو غرض حاضر ، فإذا كانت المشابهة فى أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة لهم ، فكيف بالمشابهة فى أمور دينية ، فإن إفضاءها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد ، هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

قلت : فإذا كانت مشابهة الكفار فى الأفعال الظاهرة ، إنما نهى عنها لأنها وسيلة وسبب يفضى إلى موالاتهم ومحبتهم بالنهى عن هذه الغاية ، والمحذور أشد والمنع منه وتحريمه أوكد ، وهذا هو المطلوب .

ذكر بعض الدليل على النهْى عن مشابهة الكفار والمشركين

روى أبو داود فى سننه عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من تشبَّه بقوم فهو منهم » .

قال شيخ الإسلام : وإسناده جيد ، وأقل أحواله أن يقتضى تحريم التشبه بهم ، وإن كان ظاهره يقتضى كفر المتشبه بهم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ وهو نظير ما سنذكره عن عبد الله ابن عمر وأنه قال : من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت حُشِر معهم يوم القيامة . وقد ثبت عن عائشة أنها كرهت الاختصار فى الصلاة وقالت : لا تتشبهوا باليهود .

وروى البيهقى بإسناد صحيح عن عمر بن دينار قال : قال عمر ابن الخطاب : لا تتعلموا رطانة الأعاجم ، ولا تدخلوا على المشركين فى كنائسهم يوم عيدهم فإن السَّخَط ينزل عليهم . وروى بإسناد صحيح عن أبى أسامة قال : حدثنا عوف عن أبى المغيرة عن عبد الله بن عمرو ، قال : من بنى ببلاد الأعاجم ، فصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حُشِر معهم يوم القيامة ، فهذا عمر نهى عن تعلم لسانهم ، وعن مجرد دخول الكنيسة عليهم يوم عيدهم ، فكيف بفعل بعض أفعالهم ، أو فعل ما هو من دينهم ، أليست موافقتهم فى العمل أعظم من الموافقة فى

اللغة أو ليس عمل بعض أعمالهم ، أى أعمال عيدهم أعظم من مجرد الدخول عليهم فى عيدهم ، وإذا كان السَّخَط ينزل عليهم يوم عيدهم بسبب عملهم ، فمن يشركهم فى العمل أو بعضه أليس قد تعرض إلى العقوبة ، وأما عبد الله بن عمرو فصرح أنه من بنى ببلادهم وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم ، وهذا يقتضى أنه جعله كافراً بمشاركتهم فى مجموع هذه الأمور ، أو جعل ذلك من الكبائر الموجبة للنار ، وإن كان الأول ظاهراً لفظه فتكون المشاركة فى بعض ذلك معصية ، لأنه لو لم يكن مؤثراً فى استحقاق العقوبة ، لم يجز جعله جزءاً من المقتضى ، إذ المباح لا يعاقب عليه ، وليس الذم على بعض ذلك مشروطاً ببعض ، إلا أن أبعاض ما ذكره يقتضى الذم منفرداً .

وعن عمرو بن ميمون الأزدى قال : قال عمر رضى الله عنه : كان أهل الجاهلية لا يفيضون من جمع حتى تطلع الشمس ويقولون أشرق ثبير كيما نغير ، فخالفهم النبى ﷺ ، وأفاض قبل طلوع الشمس ، وقد روى هذا الحديث فيما أظنه أنه قال : « خالف هدينا هدى المشركين » ، وكذلك كانوا يفيضون من عرفات قبل غروب الشمس فخالفهم النبى ﷺ ، فالإفاضة بعد الغروب .

وعن عبد الله بن عمرو ، قال : رأى رسول الله ﷺ علىَّ ثوبين مُعَصْفَرين ، قال : « إن هذه ثياب الكفار فلا تلبسها » (رواه مسلم) نهى عن لبسها بأنها من ثياب الكفار . وفى كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عتبة بن فرقد : وإياك وزى أهل الشرك ، (وهو فى الصحيحين) . وروى الخلال ، عن محمد بن سيرين : أن حذيفة أتى بيتاً ، فرأى فيه شيئاً من زىِّ العجم ، فخرج وقال : من تشبه بقوم فهو منهم . وقال على بن أبى صالح السواق : كنا فى وليمة فجاء أحمد بن حنبل ، فلما دخل نظر إلى

كرسى فى الدار عليه فضة فخرج ، فلحقه صاحب الدار ، فنفض يده فى وجهه ، وقال : زى المجوس ، زى المجوس . وعن قيس ابن أبى حازم قال : دخل أبو بكر رضى الله عنه على امرأة من أُحمس يقال لها زينب فرآها لا تتكلم ، فقال : ما لها لا تتكلم ؟ فقالوا : حجة مصمتة ، فقال لها : تكلمى فإن هذا لا يحل ، هذا من عمل الجاهلية ، فتكلمت ، فقالت : من أنت ؟ قال : امرؤ من المهاجرين . قالت : أى المهاجرين ؟ قال : من قريش . قالت : من أى قريش ؟ قال : إنك لسئول ، أنا أبو بكر ، قالت : ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذى جاء به بعد الجاهلية ، قال : بقاؤكم عليه ما استقامت لكم أئمتكم ، قالت : وما الأئمة ؟ قال : أما كان لقومكم رؤساء وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم ، قالت : بلى ، قال : فهم أولئك على الناس . (رواه البخارى فى صحيحه) .

فأخبره أبو بكر رضى الله عنه أن الصمت المطلق لا يحل ، وعقب ذلك بقوله : هذا عمل الجاهلية ، قاصداً بذلك عيب هذا العمل وذمه ، وتعقيب الحكم بالوصف دليل على أن الوصف علة ، فدل على أن كونه من عمل الجاهلية وصف يوجب النهى عنه والمنع منه ، وقد كتب عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى المسلمين المقيمين ببلاد فارس : إياكم وزى أهل الشرك . وهذا النهى منه للمسلمين ، من كل ما كان من زى المشركين ، وفى كتابه إلى عتبة بن فرقد : إياكم والتنعم ، وزى أهل الشرك ، ولبوس الحرير . وروى أحمد فى المسند : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان بالجابية ، فذكر فتح بيت المقدس ، قال حماد ابن سلمة : فحدثنى أبو سنان عن عبيد بن آدم ، قال : سمعت عمر رضى الله عنه يقول لكعب : أين ترى أن أصلى ، قال : إن أخذت عنى صليت خلف الصخرة ، وكانت القدس كلها بين يديك ، فقال عمر رضى الله عنه : ضاهية اليهود ،

لا ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ فتقدم إلى القبلة فصلى ، ثم جاء فبسط رداءه فكسر فكنس الكناسة فى ردائه ، وكنس الناس فعاب رضى الله على كعب مضاهاة اليهود ، مشابهتها فى مجرد استقبال الصخرة ، لما فيه من مشابهة من يعتقدها قبلة باقية ، وأن المسلم لا يقصد أن يصلى إليها ، وقد كان لعمر رضى الله عنه فى هذا الباب من السياسات المحكمة ، ما هى مناسبة لسائر سيرته المرضية ، فإنه رضى الله عنه هو الذى استحالت ذنوب الإسلام فى يده غرباً ، فلم يفرِ عبقرى فرِيه ، حتى صَدَر الناس بعطن ، فأعز الإسلام وذل الكفر وأهله ، وأقام شعار الدين الحنيفى ، ومنع من كل أمر فيه تذرع إلى نقض عرى الإسلام مطيعاً فى ذلك لله ولرسوله ، وقَّافاً عند كتاب الله ممتثلاً لسنة رسول الله ﷺ محتذياً حذو صاحبه مشاوراً فى أموره السابقين الأولين حتى إن العمدة فى الشروط على أهل الكتاب على شروطه ، وحتى منع من استعمال كافر وائتمانه على الأئمة ، وإعزازه بعد إذلاله أى من أذله الله ، وحتى روى أنه حَرق الكتب العجمية ، وهو الذى أمر بأهل البدع أن ينفوا وألزمهم ثوب الصَّغار .

وروى الخلال عن عكرمة عن ابن عباس أنه سأل رجلاً احتقن قال : تبد العورة ولا تستن بسنة المشركين ، فقوله : لا تستن بسنة المشركين عام . وروى أبو داود عن أنس أنه دخل عليه غلام وله قرنان أو قصتان ، فقال : احلقوا هذين أو قصوهما ، فإن هذا زى اليهود . علل النهى عنهما بأن ذلك زى اليهود ، وتعليل النهى بعلة يوجب أن تكون العلة مكروهة ، مطلوب إعدامها ، نقل ذلك شيخ الإسلام .

وقال أيضاً عند قوله ﷺ : « هل بها عيد من أعياد الجاهلية » وهذا نهى شديد عن أن يفعل شيء من أعياد الجاهلية على أى وجه كان ، وأعياد

الكفار من الكتابيين والأميين فى دين الإسلام من جنس واحد كما أن كفر الطائفتين سواء فى التحريم وإن كان بعضه أشد تحريماً وإذا كان الشارع قد حسم مادة أعياد أهل الأوثان خشية تدنس المسلم بشىء من أمر الكفار الذين يئس الشيطان أن يقيم أمرهم فى جزيرة العرب ، فالخشية من تدنسه بأوضاع الكتابيين الباقين أشد ، والنهى عنه أوكد ، إلى أن قال : وقد بالغ ﷺ فى أمر أمَّته بمخالفتهم فى كثير من المباحات ، وصفات الطاعات ، لئلا يكون ذريعة إلى موافقتهم ، فى غير ذلك من أمورهم ، ولتكون المخالفة فى ذلك حاجزاً ومانعاً عن سائر أمورهم ، كلما كثرت المخالفة بينك وبين أهل الجحيم كان أبعد عن أعمال أهل الجحيم ، فليس بعد حرصه على أمته ونصحه لهم غايته ﷺ ، وكل ذلك من فضل الله عليه وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

قلت : فإذا كانت مبالغته ﷺ فى أمر أمته بمخالفة الكفار إنما خوفاً من أن تكون مشابهتهم فى الهدى الظاهر ، مؤدية وجارَّة إلى الموافقة والموالاة ، فما بال كثير ممن يدعى الإسلام قد وقع فى المحذور بعينه ، وهم مع ذلك يحسبون أنهم يُحْسِنون صنعاً .

وروى أبو داود فى سننه وغيره من حديث هشيم : أخبرنا أبو بشر عن أبى عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار ، قال : اهتم النبى ﷺ ، كيف يجمع الناس لها فذكروا له طنبور اليهود ، فلم يعجبه ذلك ، وقال : « هو من أمر اليهود » ، قال : فذكروا له الناقوس ، فقال : « هو من أمر النصارى » ، (الحديث) . قال فى القاموس : تنبور كتنور البوق الذى ينفخ فيه ويزمر ، انتهى .

والغرض أنه ﷺ لما ذكر بوق اليهود المنفوخ بالفم ، وناقوس النصارى المضروب باليد ، علل هذا بأنه من أمر اليهود ، وعلل هذا بأنه من أمر النصارى ، لأن ذكر الوصف عقب الحكم يدل على أنه علة له وهذا يقتضى نهيه عما هو من أمر اليهود والنصارى ، ويقتضى كراهة هذا النوع من الأصوات مطلقاً فى غير الصلاة أيضاً لأنه من أمر اليهود والنصارى ، فالنصارى يضربون بالنواقيس فى أوقات متعددة غير أوقات عباداتهم ، وإنما شعار الدين الحنيف الأذان المتضمن للإعلان بذكر الله سبحانه وتعالى الذى به تُفْتح أبواب السماء ، وتهرب الشياطين ، وبه تنزل الرحمة ، وقد ابتُلى كثير من هذه الأمة ، من الملوك وغيرهم بهذا الشعار اليهودى والنصرانى ، وهذه المشابهة لليهود والنصارى والأعاجم من أهل الشرك والفرس ، لما غلب على ملوك المشرق هى وأمثالها ، مما خالفوا به هدى المسلمين ، ودخلوا فيما كرهه الله ورسوله سَلَّط عليهم أهل الشرك الموعود بقتالهم ، حتى فعلوا فى العباد والبلاد ، ما لم يجر فى دولة الإسلام مثله ، وذلك تصديق قوله ﷺ : « لتركبن سنن من كان قبلكم » . انتهى من الاقتضاء .

وكما وقع من العقوبة على مخالفة هدى المسلمين بتسليط أهل الشرك على ما ذكره شيخ الإسلام ، وقع نظيره فى هذه الأزمان فإن المنتسبين إلى الإسلام لما سلكوا كثيراً من هدى اليهود والنصارى ، وأهل الجاهلية المشركين والأعاجم أعداء الله ، وتشبهوا بهم فى كثير من الأمور ، سُلِّط عليهم أهل الشرك الخارجون عن شرائع الإسلام ، فجرى على الإسلام محن عظيمة ، وأمور كبيرة ، حتى إنهم يذلون الرئيس ويمتهنون الشيخ الكبير ، ولا يرحمون العاجز ولا الضعيف ، فأفسدوا الأديان ، وخربوا البلدان ، وأهانوا الأبدان ، وذلك بحكمة الديان عقوبة على الظلم والعصيان ، والله المستعان وعليه التكلان ، ولكن من رحمة الله تعالى أن الحق لا يزول ، ويأبى

الله إلا إظهار دين الرسول : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

فإذا محَّص الله أهل الإيمان وانتهى ما عاقبهم به على العصيان ، وشمخت أنوف أهل الفساد والكفران ، وظنوا أن الدولة لهم فى غابر الأزمان ، أظهر الله عليهم شمس الإيمان والإسلام فمزقهم بها فى أقرب أوان ، وشردهم إلى أقصى البلدان ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

والله ناصر دينه وكتابه ورسوله فى سائر الأزمانِ
لكن بمحنة حزبه من حزبه ذا حكمه مذ كُانت الفئتان

وقال أيضاً :

والحق منصور وممتحَن فلا تعجب فهذا سنة الرحمن
وبذاك يظهر حزبه من حزبه ولأجل ذاك الناس طائفتان

وقال شيخ الإسلام فى الكلام على شروط أهل الذمة : وذلك يقتضى إجماع المسلمين للتميز عن الكفار ظاهراً وترك التشبه بهم ، ولقد كان أمراء الهدى مثل العمرين وغيرهما يبالغون فى تحقيق ذلك بما يتم به المقصود .

وقد روى أبو الشيخ الأصبهانى أن عمر رضى الله عنه كتب : أن لا تكاتبوا أهل الذمة فتجرى بينكم وبينهم المودة ، ولا تكْنوهم وأذلوهم ولا تظلموهم ، ثم قال : ومن جملة الشروط ، ما يعود بإخفاء منكرات دينهم وترك إظهارها ومنها ما يعود بإخفاء شعار دينهم ، فاتفق عمر رضى الله عنه والمسلمون معه وسائر العلماء وبعدهم من وفقه الله عز وجل من ولاة الأمور على منعهم من أن يظهروا فى الإسلام شيئاً مما يختصون به مبالغة

فى أن لا يظهر فى دار الإسلام خصائص المشركين ، فكيف إذا عملها المسلمون وأظهروها ، ومنها ما يعود بترك إكرامهم وإلزامهم الصَّغار الذى شرعه الله تعالى ، ومن المعلوم أن تعظيم أعيادهم ونحوها بالموافقة فيها نوع من أنواع إكرامهم فإنهم يفرحون بذلك ، ويسرون به كما يغتمون بإهمال أمر دينهم الباطل .

قال شيخ الإسلام أيضاً : وقال تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء ﴾ وذلك يقتضى تبريه منهم فى جميع الأشياء ومن تابع غيره فى بعض أموره فهو منه فى ذلك الأمر ، لأن قول القائل : أنا من هذا ، وهذا منى ، أى أنا من نوعه وهو من نوعى ، لأن الشخصين لا يتحدان إلا بالنوع ، كما فى قوله : ﴿ بعضهم من بعض ﴾ ، وقوله عليه السلام ، لعلى : « أنت منى وأنا منك » ، وقول القائل : لست من هذا فى شىء ، أنا متبرئْ من جميع أموره ، وإذا كان الله ورسوله قد برىء من جميع أمورهم ، فمن كان متابعاً لرسوله ﷺ حقيقة كان متبرئاً لتبريه ، ومن كان موافقهم كان مخالفاً للرسول ﷺ ، بقدر موافقته ، فإن الشخصين المختلفين من كل وجه كلما شابهه أحدهما خالفه الآخر .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ (الآية) . وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين تَوَلَّوْا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ﴾ ، يعيب بذلك المنافقين الذين تولوا اليهود ، إلى قوله : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ إلى آخر السورة . وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ إلى آخر السورة .

فعقد سبحانه وتعالى المؤالاة بين المهاجرين والأنصار ، وبين من آمن

منهم وهاجر وجاهد إلى يوم القيامة ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والجهاد باق إلى يوم القيامة . وقال تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ (الآيتين) ، ونظائر هذا فى غير موضع من القرآن يأمركم سبحانه بموالاة المؤمنين حقاً الذين هم حزبه وجنده ، ويخبر أن هؤلاء لا يوالون الكفار ، ولا يوادونهم ، والموالاة والمودة وإن كانت متعلقة بالقلب لكن المخالفة فى الظاهر أعود على مقاطعة الكافرين ، ومباينتهم مشاركتهم فى الظاهر ، إن لم تكن ذريعة أو سبباً قريباً أو بعيداً إلى نوع ، أما الموالاة والمودة فليس فيها مصلحة المقاطعة والمباينة ، مع أنها تدعو إلى نوع ما من المواصلة ، كما تحب الطبيعة ، وتدل عليه العادة ، ولهذا كان السلف رضى الله عنهم يستدلون بهذه الآيات ، على ترك الاستعانة بهم فى الولايات ، فروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبى موسى رضى الله عنه ، قال : قلت لعمر رضى الله عنه : إن لى كاتباً نصرانياً ؟ قال لى : ما لك قاتلك الله ، أما سمعت الله يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ ، ألَا اتخذت حنيفا ؟ قال : قلت : يا أمير المؤمنين : لى كتابته ، وله دينه ، قال : لا أكرمهم إذا أهانهم الله ، ولا أعزهم إذا أذلهم الله ، ولا أُدنيهم إذا أقصاهم الله ، وكما دل عليه معنى الكتاب ، جاءت سنة رسول الله ﷺ ، وسنة خلفائه الراشدين التى أجمع الفقهاء عليها ، بمخالفتهم وترك التشبه بهم .

ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم » ، أمر بمخالفتهم وذلك يقتضى أن يكون جنس مخالفتهم أمراً مقصوداً للشارع لأنه إن كان الأمر بجنس المخالفة حصل المقصود ، وإن كان الأمر بالمخالفة فى الشعر فقط فهو لأجل ما فيه من المخالفة ، فالمخالفة إما علة مفردة ، أو علة أخرى

أو بعض علة ، وعلى التقديرات تكون مأموراً بها مطلوبة من الشارع . قال تعالى : ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ . قال الضحاك : الزور عيد المشركين ، (رواه أبو الشيخ بإسناده) ، وبإسناده عنه : الزور كلام الشرك . وبإسناده عن مرة : لا يمالون أهل الشرك على شركهم ولا يخالطونهم . وبإسناده عن عطاء بن يسار قال : قال عمر : إياكم ورطانة الأعاجم وأن تدخلوا على المشركين يوم عيدهم فى كنائسهم . وقول هؤلاء التابعين : إنه أعياد الكفار ليس مخالفاً لقول بعضهم ، إنه شرك أو صنم كان فى الجاهلية . ولقول بعضهم : إنه مجالس الخنا . وقول بعضهم : إنه الغنا ، لأن عادة السلف فى تسعرهم هكذا يذكر الرجل نوعاً من أنواع المسمى لحاجة المستمع إليه أو للتنبيه على الجنس .

ووجه تفسير التابعين تارة بما يظهر حسنه لشبهة أو لشهوة فالشرك ونحوه يظهر حسنه لشبهة ، والغنى ونحوه يظهر حسنه لشهوة وأما أعياد المشركين فجمعت الشبهة والشهوة ، وهى باطلة إذ لا منفعة فيها فى الدين ، وما فيها من اللذة العاجلة فعاقبتها إلى ألم ، فصارت زوراً وشهودها محضوراً ، وإذا كان الله قد مدح ترك شهودها الذى هو مجرد الحضور برؤية أو سماع ، فكيف بالموافقة بما يزيد على ذلك من العمل الذى هو عمل الزور ، لا مجرد شهوده .

واعلم أنَّا لو لم نعلم من موافقتهم إلا ما قد أفضت إلى هذه القبائح وافقت الطباع عليه (استُدِل أن بأصول الشريعة ما يوجب النهى عن هذه الذريعة ، فكيف وقد رأينا من المنكرات التى أفضت إليها المشابهة ، ما قد أوجب الخروج عن الإسلام بالكلية) .

وسر هذا أن المشابهة تفضى إلى كفر أو معصية غالباً أو تُفْضى إليهما

فى الجملة ، وما أفضى إلى ذلك كان محرماً ، فهذا بعض ما جاء من الأدلة فى النهى ، عن مشابهة المشركين والكفار ، ولكن رحم الله من تنبه لسر الذى سبق الكلام لأجله وهو أن المشابهة فى الظاهر ، إنما نهى عنها لأنها تورث نوع مودة وموالاة فى الباطن ، وتُفْضى أيضاً إلى كفر أو معصية ، وهذا هو السبب فى تحريمها والنهى عنهما ، فإذا علمت ذلك وتبين لك ما وقع فيه كثير من الناس أو أكثرهم من موالاة الكفار والمشركين التى إنما نهى عن هذه الأمور خوفاً من الوقوع فيها ، تبين لك أنهم وقعوا فى نفس المحذور ، وتوسطوا مفازة المهلكة ، والله الهادى إلى سواء الصراط .

فصل فى ذكر جوابات عن إيرادات أوردها بعض المسلمين على أولاد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، فأجابوا عنها رحمهم الله وعفا عنهم ، فَمِنْ ذلك :

ما قولكم فى رجل دخل هذا الدين وأحبه ، لكن لا يعادى المشركين أو عاداهم ولم يُكفِّرْهم ، أو قال : أنا مسلم ولكن ما أقدر أُكَفِّر أهل لا إله إلا الله ، ولو لم يعرفوا معناها .

ورجل دخل هذا الدين وأحبه ولكن يقول : لا أتعرض القباب ، وأعلم أنها لا تنفع ولا تضر ولكن لا أتعرضها .

فالجواب : أن الرجل لا يكون مسلماً إلا إذا عرف التوحيد ودان به وعمل بموجبه وصدق الرسول ﷺ فيما أخبر به وأطاعه فيما نهى عنه وأمر به وآمن به وبما جاء به فمن قال : لا أعادى المشركين أو عاداهم ولم يكفِّرهم أو قال : لا أتعرض لأهل لا إله إلا الله ولو فعلوا الكفر والشرك وعادوا دين الله أو قال : لا أتعرض للقباب فهذا لا يكون مسلماً ، بل هو ممن قال الله فيهم : ﴿ ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن

يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا ﴾ .

والله سبحانه وتعالى أوجب معاداة المشركين ومنابذتهم وتكفيرهم فقال : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تُلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يُخْرجون الرسول ﴾ (الآيات) والله أعلم .

نقل من جواب الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأخيه عبد الله ، وفى أجوبة أخرى : ما قولكم فى الموالاة والمعاداة ، هل هى من معنى لا إله إلا الله ، أو من لوازمها .

الجواب : أن يقال والله أعلم ، حسب المسلم أن يعلم أن الله افترض عليه عداوة المشركين ، وعدم موالاتهم وأوجب عليهم محبة المؤمنين وموالاتهم ، وأخبر أن ذلك من شروط الإيمان ، ونفى الإيمان عن من يواد من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

وأما كون ذلك من معنى لا إله إلا الله أو من لوازمها ، فلم يكلفنا الله بالبحث عن ذلك ، وإنما كلفنا بمعرفة أن الله فرض ذلك وأوجبه ، وأوجب العمل به فهذا الغرض والحتم الذى لا شك فيه ، ومن عرف أن ذلك من معناها أو من لوازمها فهو حسن وزيادة خير ، ومن لم يعرف فلم يكلف بمعرفته لا سيما إذا كان الجدال فى ذلك والمنازعة فيه مما يفضى إلى شر واختلاف ، ووقوع فرقة بين المؤمنين الذين قاموا بواجبات الإيمان ،

وجاهدوا فى الله وعادوا المشركين ، ووالوا المسلمين ، والسكوت عن ذلك متعين ، وهذا ما ظهر لى على أن الاختلاف قريب من جهة المعنى ، والله أعلم .

فهذا بعض الأدلة الدالة على وجوب مقاطعة الكفار والمشركين وهى المسألة الأولى .

وأما المسألة الثانية ، وهى الأشياء التى يصير بها المسلم مرتداً ، فأحدها الشرك بالله تعالى ، وهو أن يجعل الله نداً من مخلوقاته يدعى كما يدعى الله ويخاف كما يخاف الله أو يتوكل عليه كما يتوكل على الله أو يصرف له شيئاً من عبادات فإذا فعل ذلك كفر وخرج من الإسلام ، وإن صام النهار وقام الليل ، والدليل على ذلك ، قول الله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خَوَّله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ليضلَّ عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾. وقوله تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يُفْلح الكافرون ﴾ ، وغير ذلك من الآيات الدالة على أن من أشرك مع الله تعالى فى عبادته مخلوقاً من المخلوقين فقد كفر وخرج من الإسلام وحبطت أعماله ، كما قال تعالى : ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ .

الثانى : إظهار الطاعة والموافقة للمشركين على دينهم ، والدليل قوله تعالى : ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، الشيطان سول لهم وأملى لهم ، ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله ، سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ، فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ .

وذكر الفقيه سليمان ابن الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب فى هذه المسألة عشرين آية من كتاب الله ، وحديث عن رسول الله ﷺ ، استدل بها أن المسلم إذا أظهر الطاعة والموافقة للمشركين من غير إكراه ، أنه يكون بذلك مرتداً خارجاً من دين الإسلام وإن كان يشهد أن لا إله إلا الله ، ويفعل الأركان الخمسة أن ذلك لا ينفعه ، وقال شيخ الإسلام المذكور ، إمام هذه الدعوة الحنيفية فى كلامه على آخر سورة الزمر .

الثانية : أن المسلم إذا أطاع من أشار عليه فى الظاهر كفر ولو كان باطنه يعتقد الإيمان ، فأنهم لم يريدوا من النبى ﷺ تغيير عقيدته ففيه بيان لما يكثر وقوعه ممن ينتسب إلى الإسلام فى إظهار الموافقة للمشركين خوفاً منهم ، وظن أنه لا يكفر إذا كان قلبه كارهاً له إلى أن قال .

الثالثة : أن الذى يكفر به المسلم ليس هو عقيدة القلب خاصة ، فإن هؤلاء الذين ذكرهم الله لم يريدوا منه ﷺ تغيير العقيدة كما تقدم بل إذا أطاع المسلم من أشار عليه بموافقتهم لأجل ماله أو بلده أو أهله مع كونه يعرف كفرهم ويبغضهم فهذا كافر إلا من أكره إلى أن قال : ولكن رحم الله من تنبه لسر الكلام وهو المعنى الذى نزلت فيه هذه الآيات من كون المسلم يوافقهم فى شيء من دينهم الظاهر مع كون القلب بخلاف ذلك فإن هذا هو الذى أرادوا من النبى ﷺ فافهمه فهماً حسناً لعلك تعرف شيئاً من دين إبراهيم عليه السلام وقد بادأ أباه وقومه بالعداوة عنده ، وقال فى سورة الكهف (التاسعة) المسألة المشكلة على أكثر الناس ، أنه إذا وافقهم بلسانه مع كونه مؤمناً حقاً ، كارهاً لمرافقتهم ، فقد كذب فى قول لا إله إلا الله ، واتخذ إلهين اثنين ، وما أكثر الجهل بهذه والتى قبلها ، (العاشرة) أنه لو يصدر منهم أعنى موافقة الحاكم فيما أراد من ظاهرهم مع كراهتهم لذلك ، فهو قوله شطط والشطط الكفر .

واعلم أن إظهار الموافقة والطاعة للمشركين له أحوال ستأتى فى المسألة الثالثة إن شاء الله تعالى .

(**الأمر الثالث**) : مما يصير به المسلم مرتداً من موالاة المشركين ، والدليل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ﴾ فذكر فى الآية الأولى أن من تولى اليهود والنصارى فهو منهم ، وظاهره أن من تولاهم فهو كافر مثلهم ، ذكر معناه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

وقد تقدم قول عبد الله بن عتبة عند قوله : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر .

وقال ابن جرير فى قوله : ﴿ فليس من الله فى شىء ﴾ يعنى فقد برىء من الله وبرىء الله منه لارتداده عن دينه . وأما قوله : ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاةً ﴾ ، فهى كقوله : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ ، وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى .

(**الأمر الرابع**) : الجلوس عند المشركين فى مجالس شركهم من غير إنكار ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وقد نَزَّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكْفَر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم ، إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا ﴾ .

وفى أجوبة آل الشيخ رحمهم الله تعالى لما سئلوا عن هذه الآية وعن قوله ﷺ : « من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله » قالوا : الجواب أن الآية على ظاهرها ، أن الرجل إذا سمع آيات الله يُكفر بها ويستهزأ بها ،

فجلس عند الكافرين المستهزئين بآيات الله من غير إكراه ولا إنكار ولا قيام عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، فهو كافر مثلهم ، وإن لم يفعل فعلهم ، لأن ذلك يتضمن الرضا بالكفر والرضا بالكفر كفر ، وبهذه الآية ونحوها استدل العلماء على أن الرضا بالذنب كفاعله ، فإذا ادَّعى أنه يكره ذلك بقلبه لم يقبل منه لأن الحكم بالظاهر ، وهو قد أظهر الكفر ، فيكون كافراً .

ولهذا لما وقعت الردة وادَّعى أُناسٌ منهم كرهوا ذلك لم يقبل منهم الصحابة بل جعلوهم كلهم مرتدين إلا من أنكر بلسانه ، وكذلك قوله فى الحديث : من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله على ظاهره ، وهو أن الذى يدَّعى الإسلام ويكون مع المشركين فى الاجتماع والنصرة والمنزل بحيث يعده المشركون منهم فهو كافر مثلهم وإن ادعى الإسلام ، إلا أن يكون يظهر دينه ، ولا يتولى المشركين . انتهى .

قلت : ويأتى مخاطبة خالد لمجاعة وفيه : يا مجاعة تركت اليوم ما كنت عليه أمس ، وكان رضاك بأمر هذا الكذاب ، وسكوتك عنه إقراراً له ، إلى آخره .

وتقدم قول عبد الله بن عمرو ، من بَنَى ببلاد المشركين فصنع نيروزهم ومهرجانهم ، وتشبه بهم حتى يموت حُشِر معهم يوم القيامة ، وقال تعالى : ﴿ ولكن من شَرَح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذابٌ عظيم ، ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ .

(**الأمر الخامس**) : الاستهزاء بالله أو بكتابه أو برسوله ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ،

لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعفُ عن طائفة منكم ، نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ .

واعلم أن الاستهزاء على نوعين : أحدهما الاستهزاء الصريح ، كالذى نزلت الآية فيه ، وهو قولهم : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسُناً ، ولا أجبن عند اللقاء أو نحو ذلك ، من أقوال المستهزئين ، كقول بعضهم : دينكم هذا دين خامس ، وقول الآخر : دينكم أخرق ، وقول الآخر إذا رأى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر : جاءكم أهل الديك بالكاف بدل النون ، وقول الآخر إذا رأى طلبة العلم : هؤلاء الطلبة بسكون اللام وما أشبه ذلك ، مما لا يحصى إلا بكلفة مما هو أعظم من قول الذين نزلت فيهم الآية .

النوع الثانى غير الصريح وهو البحر الذى لا ساحل له ، مثل الرمز بالعين ، وإخراج اللسان ومد الشفة والغمزة باليد عند تلاوة كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أو عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(**الأمر السادس**) : ظهور الكراهية والغضب عند الدعوة إلى الله وتلاوة كتابه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدليل على ذلك ، قول الله تعالى : ﴿ وإذا تُتْلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بِشَرٍ من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾ . فبين الله ذكر هذا الصنف فى أول هذه الآية وآخرها .

(**الأمر السابع**) : كراهة ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة والدليل قول الله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ .

(**الأمر الثامن**) : عدم الإقرار بما دلت عليه آيات القرآن والأحاديث والمجادلة فى ذلك ، والدليل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبُهم فى البلاد ﴾ .

(**الأمر التاسع**) : جحد الناس شيئاً من كتاب الله ولو آية أو بعضها أو شيئاً مما جاء عن النبى ﷺ ، والدليل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا ﴾ ، وهذا أخص من الذى قبله .

(**الأمر العاشر**) : الإعراض عن تعلم دين الله والغفلة عن ذلك والدليل قول الله تعالى : ﴿ والذين كفروا عما أُنْذِروا معرضون ﴾ .

(**الأمر الحادى عشر**) : كراهة إقامة الدين والاجتماع عليه والدليل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ شَرَع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾ ، فذكر أنه لا يكره إقامة الدين إلا مشرك وقد تبين أن من أشرك بالله فهو كافر .

(**الأمر الثانى عشر**) : السحر تعلمه وتعليمه والعمل بموجبه والدليل ، قول الله تعالى : ﴿ وما يُعَلِّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ .

(**الأمر الثالث عشر**) : إنكار البعث والدليل قول الله تعالى : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفى خلق جديد أولئك الذين

كفروا بربهم ﴾ ، إلى قوله : ﴿ خالدون ﴾ .

(**الأمر الرابع عشر**) : التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، قال ابن كثير : كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات ، وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن (جنكسخان) ، الذى وضع لهم كتابا مجموعا من أحكام اقتبسها من شرائع شتى فصار فى بيته يقدمونه على الحكم بالكتاب والسنة ، ومن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير .

قال تعالى : ﴿ أفحكمَ الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ ، قلت : ومثل هؤلاء ما وقع فيه عامة البوادى ومن شابههم من تحكيم عادات آبائهم وضعة أوائلهم من الموضوعات الملعونة التى يسمونها شرع الرفاقة ، يقدمونها على كتاب الله وسنة رسوله ، ومن فعل ذلك فإنه كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ولا ريب أن من يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر ، فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزله الله فهو كافر ، فإنه ما من أمة إلا وهى تأمر بالحكم بالعدل ، وقد يكون العدل فى دينها ما رآه أكابرهم ، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التى لم ينزلها الله كسواليف البادية ، وكان أوامر المطاعين ، ويرون أن هذا هو الذى ينبغى الحكم به دون الكتاب والسنة ، وهذا هو الكفر ، فإن كثيراً من الناس أسلموا ، ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التى يأمر بها المطاعون ، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله ، فلم يلتزموا ذلك ، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار . انتهى من منهاج السنة النبوية ذكره عند قوله

سبحانه وتعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ فرحمه الله وعفا عنه .

فهذا بعض المواضيع التى دل القرآن عليها ، وإن كان قد يقال إن بعضها يغنى عن بعض أن يندرج فيه ، فذكرها على هذا الوجه أوضح ، وأما كلام العلماء رحمهم الله تعالى فكثير جداً . وقد ذكر صاحب الإقناع أشياء كثيرة فى باب حكم المرتد ، وهو الذى يكفر بعد إسلامه ، وقد لخصت منه مواضع يسيرة ، فمن ذلك قوله : قال الشيخ : أو كان مبغضاً لرسوله أو لما جاء به كفر اتفاقاً ، ومنها قوله : أو جعل له بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ، ويسألهم ، كَفَرَ إجماعاً . ومنه قوله : أو وجد منه امتهان للقرآن أى فيكفر بذلك ، ومنها قوله : أو سخر بوعد الله أو وعيده أى فيكفر بذلك ، ومنها قوله : أو لم يكفر من دان بغير الإسلام أو شك فى كفرهم أى فيكفر بذلك ومنها قوله : قال الشيخ: ومن استحل الحشيشة كفر ، قلت : من استحل أموال المشركين ومظاهرتهم وإعانتهم على المسلمين فكفره أعظم من كفر هذا ، لأن تحريم ذلك آكد وأشد من تحريم الحشيشة ، ومنها قوله : ومن سب الصحابة أو واحداً منهم واقترن سبه دعوى أن علياً إله أو نبى أو أن جبرائيل غلط فلا شك فى كفر هذا بلا شك فى كفر من توقف فى تكفيره ، ومنها قوله : أو زعم أن للقرآن تأويلات باطنة تسقط الأعمال المشروعة ونحو ذلك فلا خوف فى كفر هؤلاء ومنها قوله : أو زعم أن الصحابة ارتدُّوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفراً قليلاً لا يبلغون بضعة عشر ، أو أنهم فسقوا فلا ريب أيضاً فى كفر قائل ذلك ، بل من شك فى كفره فهو كافر . انتهى ملخصاً وعزاه الصارم المسلوك .

ومنها قوله : ومن أنكر أن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ فقد كفر ، لقوله تعالى : ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن ﴾ .

قلت : فإذا كان من جحد مدلول آية كفر ، ولم تنفعه الشهادتان ، ولا الانتساب إلى الإسلام ، فما الظن بمن جحد مدلول ثلاثين آية أو أربعين ، أفلا يكون كافراً لا تنفعه الشهادتان ولا ادعاء الإسلام ، بلى والله بلى والله ، ولكن نعوذ بالله من رَيْن القلوب ، وهوى نفوس الذين يصدون عن معرفة الحق واتباعه .

ومنها قوله : أو جحد حل الخبز أو اللحم أو الماء أى فيكفر بذلك ، ومنها قوله : أو أحل الزنا ونحوه أى فيكفر بذلك ، ومن أحل الركون إلى الكافرين ، وموادَّة المشركين ، فهو أعظم كفراً ممن أحل الزنا بأضعاف مضاعفة ، وكلام العلماء رحمهم الله تعالى فى هذا الباب لا يمكن حصره حتى إن بعضهم ذكر أشياء أسهل من هذه الأمور ، وحكموا على مرتكبها بالارتداد عن الإسلام وأنه يستتاب منها ، فإن تاب وإلا قُتِل مرتداً ، ولم يغسَّل ولم يصلَّ عليه ولم يُدفن مع المسلمين ، وهو مع ذلك يقول لا إله إلا الله ، ويفعل الأركان الخمسة ، ومن له أدنى نظر واطلاع على كلام أهل العلم فلابد أن يكون قد بلغه بعض ذلك .

وأما هذه الأمور التى تقع فى هذه الأزمان من المنتسبين إلى الإسلام بل من كثير ممن ينتسب إلى العلم فهى من قواصم الظهور ، وأكثرها أعظم وأفحش مما ذكره العلماء من المكفرات ولولا ظهور الجهل وخفاء العلم وغلبة الأهواء لما كان أكثرها محتاجاً لمن ينبه عليه .

فصل : وأما المسألة الثالثة وهى ما يعذر الرجل به على موافقة المشركين ، وإظهار الطاعة لهم ، فاعلم أن إظهار الموافقة للمشركين له ثلاث حالات :

الحالة الأولى : أن يوافقهم فى الظاهر والباطن ، فينقاد لهم بظاهره

ويميل إليهم ويوادهم بباطنه ، فهذا كافر خارج عن الإسلام ، سواء أكان مُكرَهاً على ذلك أو لم يكن مُكرَهاً وهو ممن قال الله فيه : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ .

الحالة الثانية : أن يوافقهم ويميل إليهم فى الباطن ، مع مخالفتهم فى الظاهر ، فهذا كافر أيضاً ، ولكن إذا عمل بالإسلام ظاهراً عصم ماله ودمه وهو المنافق .

الحالة الثانية : أن يوافقهم فى الظاهر مع مخالفته لهم فى الباطن وهو على وجهين : **أحدهما** أن يفعل ذلك لكونه فى سلطانهم مع ضربهم وتقيدهم له ، ويتهددونه بالقتل فيقولون له : إما أن توافقنا وتظهر الانقياد لنا وإلا قتلناك ، فإنه والحالة هذه يجوز له موافقتهم فى الظاهر مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان ، كما جرى لعمار حين أنزل الله تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكْرِه وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ . وكما قال تعالى : ﴿ إلا أن تتقوا منهم تُقَاة ﴾ ، فالآيتان دلتا على الحكم ، كما نبه على ذلك ابن كثير فى تفسير آية آل عمران .

الوجه الثانى : أن يوافقهم فى الظاهر مع مخالفته لهم فى الباطن ، وهو ليس فى سلطانهم ، وإنما حمله على ذلك إما طمع فى رئاسة أو مال أو مشحة بوطنٍ أو عيالٍ أو خوفٌ مما يحدث فى المال ، فإنه فى هذه الحال يكون مرتداً ولا تنفعه كراهته لهم فى الباطن ، وهو ممن قال الله فيهم : ﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ . فأخبر أنه لم يحملهم على الكفر الجهل أو بغضه ، ولا محبة الباطل ، وإنما هو أن لهم حظاً من حظوظ الدنيا فآثروه على الدين ، هذا معنى كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وعفا عنه ، وأما ما يعتقده كثير من

الناس عذراً ، فإنه من تزيين الشيطان وتسويله ، وذلك أن بعضهم إذا خَوَّفه أولياء الشيطان خوفاً لا حقيقة له ظن أنه يجوز له بذلك إظهار الموافقة للمشركين ، والانقياد لهم وآخر منهم إذا زين له الشيطان طمعاً دنيوياً تخيل أنه يجوز له موافقته للمشركين لأجل ذلك وشبه على الجهال بأنه مكروه ، وقد ذكر العلماء صفة الإكراه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكره فليس المعتبر فى كلمات الكفر كالإكراه المعتبر فى الهبة ونحوها فإن أحمد قد نص فى غير موضع على أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب أو قيد ولا يكون الكلام إكراهاً وقد نص على أن المرأة لو وهبت زوجها صداقها بمسكنه فلها أن ترجع على أنها لا تهب له إلا إذا خافت أن يطلقها أو يسىء عشرتها فجعل خوف الطلاق أو سوء العشرة إكراهاً ولفظه فى موضع آخر لأنه أكرهها ومثل هذا لا يكون إكراهاً على الكفر فإن الأسير إن خشى الكفار أن لا يزوجوه أو أن يحولوا بينه وبين امرأته لم يبح له التكلم بكلمة الكفر . انتهى .

والمقصود منه أن الإكراه على كلمة الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب أو قتل وأن الكلام لا يكون إكراهاً وكذلك الخوف من أن يحول الكفار بينه وبين زوجته لا يكون إكراهاً فإذا علمت ذلك وعرفت ما وقع من كثير من الناس تبين لك قول النبى ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ » وقد عاد غريباً وأغرب منه من يعرفه على الحقيقة . وبالله التوفيق .

فصل : وأما المسألة الرابعة وهى مسألة إظهار الدين فإن كثيراً من

الناس قد ظن أنه إذا قدر على أن يتلفظ بالشهادتين وأن يصلى الصلوات الخمس ولا يرد عن المسجد فقد أظهر دينه وإن كان مع ذلك بين المشركين أو فى أماكن المرتدين وقد غلطوا فى ذلك أقبح الغلط .

واعلم أن الكفر له أنواع وأقسام تتعدد بتعدد المكفرات وقد تقدم بعض ذلك وكل طائفة من طوائف الكفر قد اشتهر عندها نوع منه ولا يكون المسلم مظهراً لدينه حتى يخالف كل طائفة بما اشتهر عندها ويصرح لها بعداوته والبراءة منه فمن كان كفره بالشرك فإظهار الدين عنده التصريح بالتوحيد والنهى عن الشرك والتحذير منه ومن كان كفره بجحد الرسالة ، فإظهار الدين عنده التصريح بأن محمداً رسول الله ﷺ والدعوة إلى اتباعه ومن كان كفره بترك الصلاة فإظهار الدين عنده فعل الصلاة والأمر بها ومن كان كفره بموالاة المشركين والدخول فى طاعتهم فإظهار الدين عنده التصريح بعداوته والبراءة منه ومن المشركين وبالجملة فلا يكون مظهراً لدينه إلا من صرح لمن ساكنه من كل كافر ببراءته منه وأظهر له عداوته لهذا الشيء الذى صار به كافراً وبراءته منه ، ولهذا قال المشركون للنبى ﷺ : عاب ديننا وسفَّه أحلامنا وشتم آلهتنا . قال الله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأُمرتُ أن أكون من المؤمنين وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين . ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلتَ فإنك إذاً من الظالمين ﴾ ، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم : « يا أيها الناس » إلى آخر الآيات ، أى إذا شككتم فى الدين الذى أنا عليه فدينكم الذى أنتم عليه أنا برىء منه ، وقد أمرنى ربى أن أكون من المؤمنين الذين هم أعداؤكم ونهانى أن أكون من المشركين الذين هم أولياؤكم . وقال تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون .

ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ إلى آخر السورة ، فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول للكفار : دينكم الذى أنتم عليه أنا برىء منه ودينى الذى أنا عليه أنتم برآء منه والمراد التصريح لهم بأنهم على الكفر وأنى برىء منهم ومن دينهم فعلى من كان متبعاً للنبى ﷺ أن يقول ذلك ولا يكون مظهراً لدينه إلا بذلك ولهذا لما علم الصحابة بذلك وآذاهم المشركون أمرهم النبى ﷺ بالهجرة إلى الحبشة ولو وجد لهم رخصة فى السكوت عن المشركين لما أمرهم بالهجرة إلى بلد الغربة .

وفى السيرة أن خالد بن الوليد لما وصل إلى العرض فى مسيره إلى أهل اليمامة لما ارتدوا قدم مائتى فارس وقال : من أصبتم من الناس فخذوه ، فأخذوا (مجاعة) فى ثلاثة وعشرين رجلا من قومه فلما وصل إلى خالد ، قال له : يا خالد ، لقد علمت أنى قدمت على رسول الله ﷺ فى حياته فبايعته على الإسلام ، وأنا اليوم على ما كنت عليه أمس فإن يك كذَّاباً قد خرج فينا فإنَّ الله يقول : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ، فقال : يا مجاعة ، تركت اليوم ما كنت عليه أمس وكان رضاك بأمر هذا الكذَّاب وسكوتك عنه وأنت أعز أهل اليمامة وقد بلغك مسيرى إقراراً له ورضاء بما جاء به فهل لا أبيت عذرا وتكلمت فيمن تكلم فقد تكلم ثمامة فرد وأنكر وتكلم اليشكرى .

فإن قلت : أخاف قومى فهلا عمدت إلىَّ أو بعثت إلىَّ رسولا فقال : إن رأيت يا بن المغيرة أن تعفو عن هذا كله فقال : قد عفوت عن رمك ، ولكن فى نفسى حرج من تركك . انتهى . وسيأتى فى ذكر الهجرة قول أولاد الشيخ : إن الرجل إذا كان فى بلد كفر وكان يقدر على إظهار دينه حتى يتبرأ من أهل الكفر الذى هو بين أظهرهم ويصرح لهم بأنهم كفار

وأنه عدو لهم فإن لم يحصل ذلك لم يكن إظهار الدين حاصلا .

فصل : وأما المسألة الخامسة وهى مسألة الاستضعاف فإن كثيراً من الناس بل أكثر ممن ينتسب إلى العلم فى هذه الأزمان غلطوا فى معنى الاستضعاف وما هو المراد به وقد بين الله ذلك فى كتابه بياناً شافياً ، فقال تعالى : ﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ .

فبين تعالى مقالتهم الدالة على أنهم لم يقيموا مختارين للمقام وذلك أنهم يدعون الله أن يخرجهم فدل على حرصهم على الخروج وأنه متعذر عليهم ويدل على ذلك وصفهم أهل القرية بالظلم وسؤالهم ربهم أن يجعل لهم ولياً يتولاهم ويتولونه وأن يجعل لهم ناصراً ينصرهم على أعدائهم الذين هم بين أظهرهم . قال تعالى : ﴿ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ﴾ . فذكر فى هذه الآية حالتهم التى هم عليها وهى أنهم لا يستطيعون حيلة . قال ابن كثير : لا يقدرون على التخلص من أيدى المشركين ولو قدروا ما عرفوا كيف يسلكون الطريق ولهذا قال : (لا يستطيعون حيلة) . قال عكرمة : يعنى نهوضاً إلى المدينة (ولا يهتدون سبيلا) قال مجاهد وعكرمة : يعنى طريقاً . انتهى .

والحاصل أن المستضعفين هم العاجزون عن الخروج من بين أظهر المشركين وهم مع ذلك يقولون : ﴿ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ وهم مع ذلك لا يدلون الطريق فمن كانت هذه حاله ومقاله ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفورا ﴾ .

وأما إذا كان يقدر على الخروج من بلاد المشركين ولم يمنعه من ذلك إلا المشحة بوطنه أو عشيرته أو ماله أو غير ذلك فإن الله تعالى لم يعذر من تعذر بذلك وسماه ظالماً لنفسه ، فقال تعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ﴾ . وفى تفسير الجلالين قوله : ﴿ ظالمى أنفسهم ﴾ بالمقام بين المشركين .

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى : فهذه الآية عامة فى كل من أقام بين ظهرانى المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو مرتكب حراماً بالإجماع وبنص الآية حيث يقول : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ أى بترك الهجرة ﴿ قالوا فيما كنتم ﴾ أى لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة ﴿ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ .

وروى أبو داود عن سمرة بن جندب مرفوعاً : « من جامعَ المشرك وسكن معه فإنه مثله » ، وقال السدى : لما أسر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله ﷺ للعباس : « افْدِ نفسك وبر أخويك » قال يا رسول الله : ألم نُصَلِّ قبلتك ونشهد شهادتك ؟ قال : « يا عباس إنكم خاصمتم فخصمتم » ثم تلا هذه الآية : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ (الآية) [رواه ابن أبى حاتم] . انتهى .

والمقصود منه بيان مسألة الاستضعاف وأن المستضعف هو الذى لا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا وهو مع ذلك يقول : ﴿ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ ، وبيان أن الذى يعتذر بوطنه أو عشيرته أو ماله ويدعى أنه يكون

بذلك مستضعفاً كاذب فى دعواه وعذره غير مقبول عند الله تعالى ولا عند رسوله ولا عند أهل العلم بشريعة الله .

فصل : وأما المسألة السادسة وهى وجوب الهجرة وأنها باقية فالدليل عليه قول النبى ﷺ : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » (رواه أحمد وأبو داود) . وروى أبو يعلى عن أزهر بن راشد ، قال : حدث أنس عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تستضيئوا بنار المشركين » .

قال ابن كثير معناه : « لا تقاربوهم فى المنازل بحيث تكونو معهم فى بلادهم بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم » ولهذا روى أبو داود : « لا تتراءى نارهما » . وفى الحديث الآخر : « من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله » . وقال تعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم . قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ﴾ .

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان قوم من أهل مكة أسلموا ، وكانوا يستخفون بالإسلام فأخرجهم المشركون يوم بدر فأحسب بعضهم قتل بعضاً ، فقال المسلمون : كانوا أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ (الآية) . وقال الضحاك : نزلت فى أناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا ، ذكره ابن كثير ثم قال : فهذه الآية عامة فى كل من أقام بين ظهرانى المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنا من إقاة الدين فهو مرتكب حراماً بالإجماع وبنص الآية إلى بيانه فى كلامه الذى تقدم قريباً ، وفى أجوبة آل الشيخ لما

سئلوا : هل يجوز للإنسان أن يسافر إلى بلد الكفار لأجل التجارة أم لا .

الجواب : إن كان يقدر على إظهار دينه ، ولا يوالى المشركين جاز له ذلك فقد سافر بعض الصحابة كأبى بكر رضى الله عنه وغيره ولم ينكر ذلك النبى ﷺ كما رواه أحمد فى مسنده وغيره وإن كان لا يقدر على إظهار دينه ولا على عدم موالاتهم ، لم يجز له السفر إلى ديارهم كما نص على ذلك العلماء ، وعليه تُحْمل الأحاديث التى تدل على النهى عن ذلك ، ولأن الله تعالى أوجب على الإنسان العمل بالتوحيد ، وفرض عليه عداوة المشركين فما كان ذريعة وسبباً إلى إسقاط ذلك لم يجز وأيضاً فقد يجره ذلك إلى موافقتهم ورضاهم كما هو الواقع لكثير ممن يسافر إلى بلدان المشركين من فساق المسلمين .

المسألة الثانية : هل يجوز للإنسان أن يجلس فى بلد الكفار وشعائر المشركين ظاهرة لأجل التجارة أم لا .

الجواب عن هذه المسألة ، والجواب عن التى قبلها سواء ولا فرق بين دار الحرب ودار الصلح ، فكل بلد لا يقدر المسلم على إظهار دينه فيها لا يجوز السفر إليها .

المسألة الثالثة : هل يفرق بين المدة القريبة مثل شهر أو شهرين وبين المدة البعيدة .

الجواب : لا فرق بين المدة القريبة والمدة البعيدة ، فكل بلد لا يقدر على إظهار دينه فيها ولا على عدم موالاة المشركين لا يجوز له المقام فيها ولا يوماً واحداً إذا كان يقدر على الخروج منها . انتهى .

وفى أجوبة أخرى : ما قولكم فى رجل دخل هذا الدين وأحبه ويحب من دخل فيه ويبغض الشرك وأهله ، ولكن أهل بلده يصرحون بعداوة

الإسلام ويقاتلون أهله ، ويعتذر بأن ترك الوطن يشق عليه ولم يهاجر عنهم بهذه الأعذار فهل يكون مسلماً هذا أم كافراً ؟

الجواب : أما الرجل الذى عرف التوحيد وآمن به وأحبه وأحب أهله وعرف الشرك وأبغضه وأبغض أهله ، ولكن أهل بلده على الكفر والشرك ولم يهاجر فهذا فيه تفصيل فإن كان يقدر على إظهار دينه عندهم ، ويتبرأ منهم ومما هم عليه من الدين ويظهر لهم كفرهم وعداوته لهم ولا يفتنونه عن دينه لأجل عشيرته أو ماله أو غير ذلك فهذا لا يحكم بكفره ولكنه إذا قدر على الهجرة ولم يهاجر ومات بين أظهر المشركين فنخاف أن يكون قد دخل فى أهل هذه الآية : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ (الآيتين) .

فلم يعذر الله إلا من لم يستطع حيلة ولا يهتدون سبيلا .

ولكن قَلَّ أن يوجد اليوم من هو كذلك بل الغالب أن المشركين لا يدعونه بين أظهرهم بل إما قتلوه وإما أخرجوه .

وأما من ليس له عذر فى ترك الهجرة وجلس بين أظهرهم وأظهر لهم أنه منهم وأن دينهم حق ودين الإسلام باطل فهذا كافر مرتد ولو عرف الدين بقلبه لأنه يمنعه عن الهجرة محبة الدنيا عن الآخرة ، وتكلم بكلام الكفر من غير إكراه فدخل فى قوله : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً ﴾ (الآيات) ، هذا من جواب الشيخ حسين والشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى وعفا عنهم .

وكما سئلوا عن أهل بلد بَلَغتْهم هذه الدعوة وبعضهم يقول هذا الأمر حق ولا أغير منكراً ولا آمر بمعروف وينكر على الموحدين إذا قالوا تبرأنا من دين الآباء والأجداد والذى يقول هذا الأمر لا يمكنه أن يقوله جهاراً

أجابوا بأن أهل هذه القرية المذكورة إذا كانوا قد قامت عليهم الحجة التى يكفر من خالفها حكمه حكم الكفار والمسلم الذى بين أظهرهم ولا يمكنه إظهار دينه تجب عليه الهجرة إذا لم يكن ممن عذره الله فإن لم يهاجر فحكمه حكمهم فى القتل وأخذ المال .

وفى هذه الأجوبة مسائل منها بيان المستضعف ، وأنه من الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا وقد تقدم ذلك ومنها أن المسلم الذى لم يقدر على إظهار دينه واجبة عليه الهجرة وقد تقدم أيضاً . ومنها صفة إظهار الدين وهو أن يصرح للكفار بكفرهم وعداوته لهم ولما هم عليه من الدين وقد تقدم أيضاً ومنها بيان أنه إذا فعل ذلك أعنى صرح لهم بكفرهم وعداوته لهم فإنهم لا يتركونه بين أظهرهم بل إما قتلوه أو أخرجوه .

قلت : وقد أخبر الله بذلك عن جميع الكفار ، فقال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ وقال تعالى إخباراً عن قوم شعيب : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال : أو لو كنا كارهين ﴾ . وقال تعالى إخباراً عن أصحاب الكهف : ﴿ إنهم إنْ يظهروا عليكم يرجموكم ﴾ (الآية) . وقوله : ﴿ يرجموكم ﴾ أى يقتلوكم بالرجم وهذا الذى أخبر الله به وأشار إليه أئمة الإسلام هو الواقع فى هذه الأزمان فإن المرتدين بسبب موالاة المشركين والدخول فى طاعتهم لا يرضون إلا بمن وافقهم على ذلك وإذا أنكره عليهم منكرٌ آذوه أشد الأذى وأخرجوه من بين أظهرهم بل سَعَوْا فى قتله إن وجدوا إلى ذلك سبيلاً والله المستعان .

تمت رسالة بيــان النجــاة

ويليها بيان المحجة فى الرد على صاحب اللجة

للشيخ عبد الرحمن حسن آل الشيخ

هذا بيـــان المحجـــة فى
الرد على صاحب اللجـــة

تأليف شيخنا وإمامنا ناصر السنة الشيخ
عبد الرحمن بن حسن ابن شيخ الإسلام
ومفتى الأنام الشيخ محمد بن عبد الوهـاب
أسكنهم الله الجنة بغير حســاب
آمين والمسلمين أجمعين يارب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخنا الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ الإمام محمد ابن عبد الوهاب أجزل الله لهم الثواب وأدخلهم الجنة بغير حساب :

اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا ، واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشورا ﴾ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الذى قال الله خطاباً له : ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ .

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصحابه ومن أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

أما بعد فإني وقفت على جواب للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن ، وقد سئل عن أبيات من البردة وما فيها من الغلو والشرك العظيم المضاهى لشرك النصارى ونحوهم ، ممن صرف خصائص الربوبية والإلهية لغير الله ، كما هو صريح الأبيات المذكورة فى البردة ، ولا يخفى على من عرف دين الإسلام أنه

الشرك الأكبر الذى لا يغفره لمن لم يتب عنه وأن الجنة عليه حرام ، وذكره الشيخ فى جوابه أن الأبيات المذكورة تضمنت الشرك وصرف خصائص الربوبية والإلهية لغير الله ، فاعترض عليه جاهل ضال فقال مبرأ لصاحب الأبيات ﷺ من ذلك الشرك بقوله: حماه الله من ذلك ويكفيه فى نفى هذه الشناعة قوله أول المنظومة :

دع ما ادَّعَتْه النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

لقول النبى ﷺ : « لا تُطْرونى كما أطرت النصارى ابن مريم » .

الجواب : أن هذه التبرئة إنما نشأت عن الجهل وفساد التصور ، فلو عرف الناظم وهذا المعترض ومن سلك سبيلهما حق الله على عباده ، وما اختص به من ربوبيته وألوهيته ، وعرفوا معنى كلام الله وكلام رسوله ، لما قالوا ما قالوه هم وأمثالهم ممن جهل التوحيد ، كما قال تعالى فى حق من هذا وصفه : ﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ .

فالجهل بما بعث الله به رسله قد عم كثيراً من هذه الأمة فظهر فيها ما أخبر به النبى ﷺ بقوله : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ، قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » ونحو هذا من الأحاديث ، وقوله : ويكفيه فى نفى هذه الشناعة قوله أول المنظومة : دع ما ادعته النصارى فى نبيهم (البيت) .

الجواب : أن هذا يزيده شناعة ومقتاً لأن هذا تناقض بيّن وبرهان على أنه لا يعلم ما يقول ، فلقد وقع فيما وقعت فيه النصارى من الغلو العظيم الذى نهى الله عنه ورسوله ولعن النبى ﷺ من فعله ، أو فعل

ما يوصل إليه ، بقوله : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذر ما صنعوا ، وقال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » .

وقوله لما قال له رجل : ما شاء الله وشئت ، قال : « أجعلتنى لله نداً بل ما شاء الله وحده » ، وقال : « إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله عز وجل»، فلقد حذر أمته وأنذرهم عن الشرك ووسائله وما رقّ منه وجلّ ودعا الناس إلى التوحيد ، ونهاهم عن الشرك ، وجاهدهم على ذلك ، حتى أزال الله به الشرك والأوثان من جميع الجزيرة وما حولها من نواحى الشام واليمن وغير ذلك ، وقد بعث السرايا فى هدم الأوثان وإزالتها ، كما هو مذكور فى كتب الحديث والتفسير والسير ، وكما فى حديث أبى الهياج الأسدى الذى فى الصحيح قال : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ : أن لا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته ولا تمثالاً إلا طمسته ، وقد بعثه النبى ﷺ ، يوم الفتح لهدم مناة ، وبعث خالد بن الوليد يومئذٍ لهدم العزى ، وقطع السمرات التى كانت تعبدها قريش وهذيل ، وبعث المغيرة بن شعبة لهدم اللات فهدمها ، وأزال من جزيرة العرب وما حولها جميع الأصنام والأوثان التى كانت تُعْبد من دون الله ، والصحابة رضى الله عنهم تعاهدوا هذا الأمر واعتنوا بإزالته أعظم الاعتناء بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وقد أخبر النبى ﷺ بما يقع فى أمته من الاختلاف ، كما فى حديث العرباض بن سارية ، قال : « فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً » (الحديث) .

فوقع ما أخبر به ﷺ وعظم الاختلاف فى أصل الدين بعد القرون المفضلة كما هو معلوم عند العلماء ، ولو أخذنا نذكر ذلك أو بعضه لخرج بنا عن المقصود من الاختصار ، فانظر إلى ما وقع اليوم من البناء على القبور

والمشاهد وعبادتها ، فلقد عمت هذه البلية فى كثير من البلاد ، ووقع ما وقع من الشرك وسوء الاعتقاد فى أناس ينتسبون إلى العلم .

قال سليمان التيمى : لو أخذت بزلة كل عالم لاجتمع فيك الشر كله فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقوله المطابق لقول النبى ﷺ : « لا تُطْرونى كما أطرت النصارى ابن مريم » .

أقول : لا ريب أن المطابقة وقعت منه ولابد ، لكنها فى المنهى عنه لا فى النهى ، فالذى نهى عنه النبى ﷺ من الإطراء ، طابقته الأبيات من قوله :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

فقد تضمنت غاية الإطراء والغلو الذى وقعت فيه النصارى وأمثالهم ، فإنه قصر خصائص الإلهية والربوبية التى قصرها الله على نفسه وقصرها على رسول الله ﷺ فصرفها لغير الله ، فإن الدعاء مخ العبادة واللياذ من أنواع العبادة ، وقد جمع فى أبياته الاستعانة والاستغاثة بغير الله والالتجاء والرغبة إلى غير الله فإن غاية ما يقع من المستغيث والمستعين والراغب إنما هو الدعاء واللياذ بالقلب واللسان وهذه هى أنواع العبادة ، ذكرها الله تعالى فى مواضع كثيرة من كتابه ، وشكرها لمن قصرها على الله ، ووعده على ذلك الإجابة والإثابة .

كقوله تعالى : ﴿ هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعونى استجب لكم ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً . قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا . قل إنى لا أملك لكم ضرا

ولا رشدا . قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجدَ من دونه ملتحدا ﴾ (الآية) .

فهذا هو الدين الذى بعث الله نبيه محمداً ﷺ وأمره أن يقول لهم : ﴿ إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا ﴾ فقصر الدعاء على ربه الذى هو توحيد الإلهية ، وقال : ﴿ قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ﴾ إلى آخر الآيات ، وهذا هو توحيد الربوبية فوحد الله فى إلهيته وربوبيته وبين للأمة ذلك كما أمره الله تعالى ، وقال تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصَب وإلى ربك فارغب ﴾ ، أمره بقصر الرغبة على ربه تعالى ، وقال : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

ونهى عن الاستعاذة بغيره بقوله تعالى عن مؤمنى الجن : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ ، واحتج الإمام أحمد رحمه الله وغيره على القائلين بخلق القرآن ، بحديث خولة بنت حكيم مرفوعاً : « من نزل منزلا ، فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » الحديث على أن القرآن غير مخلوق إذ لو كان مخلوقاً لما جاز أن يستعاذ بمخلوق ، لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك ، وأمثال ذلك فى القرآن والحديث كثير يظهر بالتدبر .

وأما قول المعترض إن النصارى يقولون إن المسيح ابن الله نعم قاله طائفة وطائفة قالوا هو الله ، والطائفة الثالثة قالوا هو ثالث ثلاثة ، وبهذه الطرق الثلاثة عبدوا المسيح عليه السلام ، فأنكر الله عليهم تلك الأقوال فى المسيح وأنكر عليهم ما فعلوه من الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً

واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ فأنكر عليهم عبادتهم للمسيح والأحبار والرهبان .

أما المسيح فعبادتهم له بالتأله وصرف خصائص الإلهية من دون الله ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ﴾ . فأخبر أن الإلهية وهى العبادة حق الله لا يشركه فيها أولو العزم ولا غيرهم ، يبين ذلك قوله : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ﴾ ، وأما عبادتهم للأحبار والرهبان فإنهم أطاعوهم فيما حللوه لهم من الحرام وتحريم ما حرموه عليهم من الحلال .

ولما قدم عدى بن حاتم رضى الله عنه عند النبى ﷺ بعد فراره إلى الشام وكان قبل مقدمه على النبى ﷺ ، نصرانياً ، فلما قدم على النبى ﷺ مسلما تلا عليه هذه الآية : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ ، قال : يا رسول الله لسنا نعبدهم ، فقال النبى ﷺ : « أليسوا يُحِلون لكم ما حرم الله فتحلونه ويحرمون عليكم ما أحل الله فتحرمونه » ، قال : بلى ، قال : « فتلك عبادتهم » .

ففيه بيان من أشرك مع الله غيره فى عبادته وأطاع غير الله فى معصيته ، فقد اتخذه رباً ومعبوداً ، وهذا بيّن بحمد الله .

فلو تأمل هذا الجاهل المعترض قول الله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ﴾ ، لعلم أن الله تعالى قد أنكر على النصارى قولهم وفعلهم ، وعلى كل من عبد مع غيره بأى نوع كان من أنواع العبادة لكن هذا وأمثاله كرهوا التوحيد وألفوا الشرك وأحبوه وأحبوا أهله فترى مآب هذا الداء العضال إلى ما ترى من التخليط والضلال والاستغناء بالجهل

ووساوس الشيطان ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه ولا شفاء لهذا الداء العظيم إلا بالتجرد عن الهوى والعصبية والإقبال على تدبر الآيات المحكمات فى بيان التوحيد الذى بعث الله به المرسلين ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ ، ومثل قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ .

أمره تعالى أن يدعو أهل الكتاب إلى أن يخلصوا العبادة لله وحده ولا يشركوا فيها أحداً من خلقه فإنهم كانوا يعبدون أنبياءهم كالمسيح ابن مريم ويعبدون أحبارهم ورهبانهم .

وتأمل قوله : ﴿ كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ وهذا هو التوحيد الذى بعث الله به رسوله ﷺ إلى جميع من أرسل إليه ، كما قال تعالى : ﴿ قل إنما أُمِرتُ أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه متاب ﴾ وقوله : (لا نشرك به شيئاً) يَعُمُّ كل الشرك دقَّ أو جَلَّ كُثَر أو قَلَّ .

قال العماد بن كثير فى تفسيره هذا الخطاب مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم . وقوله : ﴿ سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ لا وثنا ولا صنما ولا صليباً ولا طاغوتا ولا نارا ولا شيئا بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له .

قلت : وهذا هو معنى لا إله إلا الله . ثم قال : وهذه دعوة جميع الرسل . قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . انتهى المقصود .

وقال رحمه الله فى تفسير قوله : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ﴾ (الآية) . قال محمد بن إسحاق : حدثنا محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : قال أبو رافع القرضى حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك كما عَبَدَتْ النصارى عيسى ابن مريم ، فقال رجل من أهل نجران يقال له الرئيس أو ذاك : منا يا محمد إليه تدعونا ، أو كما قال ، فقال رسول الله ﷺ : « معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غير الله وما بذلك بعثنى الله ولا بذلك أمرنى » ، أو كما قال ﷺ ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ﴾ ، إلى قوله : ﴿ بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ .

قوله : ﴿ ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ﴾ ، أى ما ينبغى لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس اعبدونى من دون الله ، أى مع الله وإذا كان هذا لا يصح لنبى ولا لمرسل ، فلأن لا يصح لأحد من الناس بطريق الأوْلى والأحْرى .

ولهذا قال الحسن البصرى : لا ينبغى هذا للمؤمن أن يأمر الناس بعبادته ، وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضا ، يعنى أهل الكتاب ، وقوله : ﴿ ولا يأمركم ﴾ أى بعبادة أحدٍ غير الله لا ملك مقرب ولا نبى مرسل . ﴿ أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ أى لا يفعل ذلك لأن من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر والأنبياء إنما يأمرونكم بالإيمان وعبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا

فاعبدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ واسأل مَنْ أرسلنا قبلك من رسلنا أَجَعَلنا من دون الرحمن آلهة يُعْبدون ﴾ وقال تعالى فى حق الملائكة : ﴿ ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين ﴾ انتهى .

وهو فى غاية الوضوح وبيان التوحيد وخصائص الربوبية والإلهية ، ونظائر هذه الآيات كثيرة فى القرآن وفى السنة من الأحاديث كذلك فإذا كان من المستحيل عقلاً وشرعاً على رسول الله ﷺ هو وجميع الأنبياء والمرسلين أن يأمروا أحداً بعبادتهم فكيف جاز فى عقول هؤلاء الجهلة أن يقبلوا قول صاحب البردة :

يا أكرم الخلق ما لى من الوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وقد أخلص الدعاء الذى هو مخ العبادة واللياذ الذى هو من أنواع العبادة وتضمن إخلاص الرغبة والاستكانة والاستغاثة والالتجاء إلى غير الله وهذه هى معظم العبادة كما أشير إلى ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء ﴾ (الآية) وقوله : ﴿ قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا ﴾ ، إلى قوله : ﴿ قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ .

وعن أنس رضى الله عنه مرفوعاً : « الدعاء مخ العبادة » (رواه الترمذى) ، وقوله :

إن لم تكن فى معادى آخذا بيدى
فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

هذا القول المنافى لقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك

ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذٍ لله ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرا ﴾ (الآية) .

وفى الحديث الصحيح ، أن رسول الله ﷺ قال لابنته فاطمة وأحب الناس إليه : « يا فاطمة سليني من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

فتأمل ما بين هذا وبين قول الناظم من التضاد والتباين ثم المصادمة منه لما ذكره الله تعالى وذكره رسوله ﷺ وكقوله تعالى لرسوله : ﴿ ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ .

وتأمل ما ذكره العلماء فى سبب نزول هذه الآية وأمثال هذه الآية كثير لم ينسخ حكمها ولم يغير ومن ادَّعى ذلك فقد افترى على الله كذبا وأضل الناس بغير عِلم وتأمل قول الله تعالى : ﴿ لله غيب السموات والأرض وإليه يُرْجع الأمرُ كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

وبهذا يعلم أن الناظم قد زلت قدمه اللهم إلا أن يكون قد تاب وأناب قبل الوفاة والله أعلم ، وأما قوله :

فإن من جُودِك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فمن المعلوم أن الجواد لا يجود إلا بما يملكه ، فمقتضى ذلك أن الدنيا والآخرة ليست لله بل لغيره وأن أهل الجنة من الأولين والآخرين لم يدخلهم الجنة الرب الذى خلقهم وخلقها لهم بل أدخلهموها غيره ، ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ .

وفى الحديث الصحيح : « لن يدخل الجنة أحد منكم بعمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » . وقد قال تعالى : « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » ، وقوله تعالى : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وأن لنا للآخرة والأولى ﴾ ، فلا شريك لله فى ملكه كما لا شريك له فى إلهيته وربوبيته ، والآيات فى هذا المعنى كثيرة جداً . وقوله : (ومن علومك علم اللوح والقلم) ، وهذا أيضاً كالذى قبله ، لا يجوز أن يقال : إلا فى حق الله تعالى ، الذى أحاط علمه بكل شيء ، كما قال تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما يعزُب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثيرة تفوق الحصر ، وكل هذه الأمور من خصائص الربوبية والإلهية التى بعث الله رسله وأنزل كتبه لبيانها واختصاصها لله سبحانه دون كل من سواه . وقال تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يُظْهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ . وقوله فى آية الكرسى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾ ، فقد أطلعَ من شاء من أنبيائه ورسله على ما شاء من الغيب بوحيه إليهم فمن ذلك ما جرى من الأمم السالفة وما جرى عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ تلك

من أنباء الغيب نوحيه إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ وكذلك ما تضمنه الكتاب والسنة من أخبار المعاد والجنة والنار ونحو ذلك أَطْلَعَ الله عليه رسوله والمؤمنون عرفوه من كتاب الله وسنة رسوله وآمنوا به وأما إحاطة العلم بالمعلومات كلياتها وجزئياتها ، وما كان منها وما لم يكن فذاك إلى الله وحده لا يضاف إلى غيره من خلقه ، فمن ادَّعى ذلك لغير الله فقد أعظم الفرية على الله ، وعلى رسوله ﷺ ، فما أجرأ هذا القائل على الله فى سلب حقه وما أَعْدَاهُ لرسول الله ﷺ ولمن تولاه من المؤمنين والموحدين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وذكر قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنما تنقض عُرَى الإسلام عُرْوَةً عروة إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية والشرك ، وما عابه القرآن وذمه ووقع فيه وأقره ودعا إليه وصَوَّبه وحَسَّنه وهو لا يعرف أنه الذى كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه فتنتقض بذلك عُرَى الإسلام ويعود المعروف منكراً والمنكر معروفا ، والبدعة سنة والسنة بدعة ، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع ومن له بصيرة وقلب حى يرى ذلك عيانا والله المستعان . انتهى .

قلت : وقد رأينا ذلك والله عيانا من هؤلاء الجهلة الذين ابتلينا بهم فى هذه الأزمنة أُشْرِبَتْ قلوبُهم الشرك والبدع واستحسنوا ذلك وأنكروا التوحيد والسنة وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فَضَلُّوا وأَضَلُّوا .

وأما قول الناظم : فإن لى ذمة منه بتسميتى محمدا (البيت) .

فهذا من جهله إذ من المعلوم عند من له أدنى مسكة من عقل ، أن الاتفاق فى الاسم لا ينفع إلا بالموافقة فى الدين واتباع السنة فأولياء الرسول

ﷺ هم من أتباعه على دينه والعمل بسنته كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وكما قال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ ، إلى قوله : ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ .

وتأمل قصة أبى طالب عم النبى ﷺ وقد كان يحوطه ويحميه وينصره ويجمع القبائل على نصرته ﷺ وحمايته من أعدائه وقد قال فى حق النبى ﷺ :

لقد علموا أن ابننا لا مكذب　　لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
حدبتُ بنفسى دونه وحميتُه　　ودافعت عنه بالذرى والكلاكل

ولما لم يتبرأ من دين أبيه عبد المطلب ومات على ذلك ، وقال النبى ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك » أنزل الله سبحانه : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ فلا وسيلة للعبد إلى نيل شفاعة النبى ﷺ ، إلا بالإيمان به وبما جاء به من توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له ومحبته واتباعه وتعظيم أمره ونهيه والدعوة إلى ما بعث به من دين الله والنهى عما نهى عنه من الشرك بالله والبدع وما لا فلا فعكس الملحدون الأمر فطلبوا الشفاعة الذى بعث الله رسوله ﷺ بالنهى عنه وإنكاره وقتال أهله وإحلال دمائهم وأموالهم وأضافوا إلى ذلك إنكار التوحيد وعداوة من قام به واقتفى أثر النبى ﷺ كما تقدم فى كلام شيخ الإسلام رحمه الله من قوله : ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد إلى آخر كلامه .

وأما قول الناظم : ولن يضيق رسول الله جاهك بى (البيت) .

فهذا هو الذى ذكر الله عن المشركين من اتخاذ الشفعاء ليشفعوا لهم ويقربوهم إلى الله زلفى . قال الله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾ .

فهذا هو دين الله الذى لا يقبل الله من أحد ديناً سواه ثم ذكر بعد ذلك دين المشركين ، فقال : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ﴾ فتأمل كون الله تعالى كَفَّرهم بقولهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وقال فى آخر هذه السورة : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل : لله الشفاعة جميعاً﴾ قلت : وقد وقع من هؤلاء من اتخذهم شفعاء بدعائهم وطلبهم ورغبتهم والالتجاء إليهم وهم أموات غافلون عنهم لا يقدرون ولا يسمعون لما طلبوا منهم وأرادوه .

وقد أخبر تعالى أن الشفاعة ملكه لا ينالها من أشرك به غيره وهو الذى له ملك السموات والأرض ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون وإذا حُشِرَ الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ .

فعاملهم الله بنقيض قصدهم من جميع الوجوه وسجَّل عليهم الضلال ولهذه الآية نظائر كثيرة ، كقوله : ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا يُنَبئك مثل خبير ﴾ .

فبين أن دعوتهم غير الله شرك بالله وأن المدعو غيره لا يملك شيئاً وأنه لا يسمع دعاء الداعى ولا يستجيب وأن المدعو ينكر ذلك الشرك ويتبرأ منه ومن صاحبه يوم القيامة فمن تأمل هذه الآيات انزاحت عنه بتوفيق الله وفتحه جميع الشبهات ومما يشبه هذه الآية فى حرمان من أنزل حوائجه بغير الله واتخذه شفيعاً من دون الله بتوجيه قلبه وقالبه إليه واعتماده فى حصول الشفاعة عليه كما قد تضمنه بيت الناظم قول الله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

فانظر كيف حرمهم الشفاعة لما طلبوها من غير الله وأخبر أن حصولها مستحيل فى حقهم بطلبها فى دار العمل من غيره وهذه هى الشفاعة التى نفاها القرآن كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يومٌ لا بيع فيه ولا خُلة ولا شفاعة ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ﴾ فهذه الشفاعة المنفية ، هى التى فيها شرك ، وأما الشفاعة التى أثبتها القرآن فإنما ثبتت بقيدين عظيمين إذن الرب تعالى للشفيع ورضاه عن المشفوع له وهو لا يرضى من الأديان الستة المذكورة فى قوله : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ﴾ (الآية) إلا الإيمان الذى أصله وأساسه التوحيد والإخلاص كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات

والأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ .

وفى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ لما ذكر شفاعته قال : « وهى نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً » . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » .

قال شيخ الإسلام فى هذا الحديث : فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله ، وقد كشفنا بحمد الله بهذه الآيات المحكمات تلبيس هذا المعترض الملبس ، ولجاجه وافتراءه على الله ورسوله فإن دعوة غير الله ضلال وشرك ينافى التوحيد وإن اتخاذ الشفعاء إنما هو بدعائهم ، والالتجاء إليهم وسؤالهم أن يشفعوا للداعى ، وقد نهى الله عن ذلك وبين أن الشفاعة له فإذا كانت له وحده فلا تطلب إلا ممن هى ملكه ، فيقول : اللهم شفع نبيك فىّ لأنه تعالى هو الذى يأذن للشفيع أن يشفع فيمن يرضى دينه ، وهو الإخلاص كما تقدم بيانه ، وأما قول المعترض : إن المعتزلة احتجوا بالآيات التى فيها نفى الشفاعة على أنها لا تقع لأهل الكبائر من الموحدين .

فأقول : لا ريب أن قولهم هذا بدعة وضلالة ، وأنت أيها المجادل فى آيات سلطان مع المعتزلة فى طرفى نقيض ، تقول : إن الشفاعة ثبتت لمن طلبها وسألها من الشفيع فجعلت طلبها موجباً لحصولها ، والقرآن قد نفى ذلك وأبطله فى مواضع كثيرة بحمد الله والحق أنها لا تقع إلا لمن طلبها من الله وحده ورغب إليه فيها وأخلص له العبادة بجميع أنواعها فهذا هو الذى تقع له الشفاعة قبل دخول النار أو بعده إن دخلها بذنوبه وهذا هو الذى يأذن

الله للشفعاء أن يشفعوا له بما معه من الإخلاص كما صرحت بذلك الأحاديث والله أعلم .

وقد قدمنا ما دل عليه الكتاب والسنة أن ما فى القرآن من ذكر الشفاعة نفياً وإثباتاً فحق لا اختلاف فيه بين أهل الحق فالشفاعة المنفية إنما هى فى حق المشرك الذى اتخذ له شفيعاً بطلب الشفاعة منه فيرغب إليه فى حصولها كما فى البيت المتقدم وهو كفر كما صرح به القرآن .

وأما الشفاعة التى أثبتها الكتاب والسنة فقد ثبتت للمذنبين الموحدين المخلصين وهذا هو الذى تظاهرت عليه النصوص واعتقده أهل السنة والجماعة ودانوا به والحديث الذى أشار إليه المعترض من قوله : « أنا لها أنا لها » ، لا ينافى ما تقرر وذلك أن الناس فى موقف القيامة إذا فزعوا إلى الرسل ليشفعوا لهم إلى الله فى إراحتهم من كرب ذلك المقام بالحساب وكل نبى ذكر عذره .

قال النبى ﷺ فى الحديث : « فيأتونى فَأَخِرُّ بين يدى الله ساجداً - أو كما قال - فأحمده بمحامد يفتحها علىَّ ثم يقال : ارفع رأسك ، وقل تُسْمَع ، واسأل تعظ ، واشفع تشفع . قال : فيحدُّ لى حداً فأدخلهم الجنة » .

فتأمل كون هذه الشفاعة لم تقع إلا بعد السجود لله ودعائه وحمده والثناء عليه بما هو أهله . وقوله : « فيحد لى حداً » فيه بيان أن الله هو الذى يحد له وهذا الذى يقع من الناس يوم القيامة مع الرسل هو من باب سؤال الحى الحاضر والتوسل إلى الله بدعائه كما كان الصحابة رضى الله عنهم يسألون رسول الله ﷺ فى حياته أن يدعو لهم إذا نابهم شىء كما فى حديث الاستسقاء وغيره .

ولما تُوفى رسول الله ﷺ لم يكونوا يفعلون عند قبره شيئاً من ذلك البتة ففرق أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم أعلم الأمة وأفضلها بين حالتى الحياة والممات وكانوا يصلون على النبى ﷺ عند دخول المسجد والخروج منه وفى الصلاة والخطب وعند ذكره امتثالاً لقوله ﷺ : « لا تجعلوا قبرى عيداً ولا بيوتكم قبوراً وصلوا علىَّ فإن صلاتكم تبلغنى أينما كنتم » .

ولما أراد عمر رضى الله عنه أن يستسقى بالناس أخرج معه العباس ابن عبد المطلب رضى الله عنه فقال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيدعو فلو جاز أن يتوسل عمر والصحابة بذات النبى ﷺ بعد وفاته لما صلح منهم أن يعدِلوا عن النبى ﷺ إلى العباس فلما عدلوا عنه إلى العباس علم أن التوسل بالنبى ﷺ بعد وفاته لا يجوز فى دينهم وصار هذا إجماعاً منهم .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : وقد أنكر أئمة الإسلام ذلك ، فقال أبو الحسن القدورى فى شرح كتاب الكرخى : قال بشر بن الوليد : سمعت أبا يوسف يقول : قال أبو حنيفة : لا ينبغى لأحد أن يدعو الله إلا به وأُكره أن يقول بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام ، قال أبو الحسن : أما المسألة بغير الله فتكره فى قولهم لأنه لا حق لغير الله عليه ، وإنما الحق لله على خلقه .

وقال ابن بلدمى فى شرح المختار : ويكره أن يدعو الله إلا به ، فلا يقول : أسألك بفلان ، أو بملائكتك ، أو بأنبيائك ونحو ذلك ، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق ، وما يقول فيه أبو حنيفة وأصحابه : أكره كذا هو عند محمد حرام . وعند أبى حنيفة وأبى يوسف : هو إلى الحرام أقرب وجانب التحريم عليه أغلب فإذا قرر الشيطان عنده أن الإقسام على الله

به والدعاء به أبلغ فى تعظيمه واحترامه ، وأنجع بقضاء حاجته ، نقله درجة أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله ، ثم ينقله بعد درجة أخرى إلى أن يتخذ قبره وثناً يعكف عليه ، ويوقد عليه القنديل ، ويعلق عليه الستور ، ويبنى عليه المسجد ، ويعبده بالسجود له والطواف ، وتقبيله واستلامه ، والحج إليه والذبح عنده ، ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس لعبادته ، واتخاذه عيداً ومنسكاً ، وإن ذلك نفع لهم فى دنياهم وأخراهم .

قال شيخنا قدس الله روحه : وهذه الأمور المبتدعة عند القبور مراتب أبعدها عن الشرع ، أن يسأل الميت حاجته ، ويستغيث به فيها كما يفعله كثير من الناس ، قال : وهؤلاء من جنس عُبَّاد الأصنام ، وهذا يحصل للكفار من المشركين وأهل الكتاب، يدعو أحدهم من يُعَظمه ، ويتمثل لهم الشيطان أحياناً ، وقد يخاطبهم ببعض الأمور الغائبة .

ثم ذكر المرتبة الثانية ، وهى أن يسأل الله به ، وقال : وهو بدعة باتفاق المسلمين .

والثالثة : أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب ، أو أنه أفضل من الدعاء فى المساجد ، فهذا أيضاً من المنكرات المبتدعة باتفاق المسلمين ، وهى محرمة وما علمت فى ذلك نزاعاً بين أئمة الدين ، وإن كان كثيراً من الناس يفعل ذلك ، انتهى .

ففرض على كل أحد أن يعلم ما أمره الله به ورسوله ، من إخلاص العبادة لله وحده ، فإنه الدين الذى بعثه به ، وأن يترك ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ من الشرك فما دونه ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلتَ ، فإنك إذاً من الظالمين ﴾ (الآية) ، وأن لا يدين الله تعالى إلا بما دلّه الدليل على أنه من دين الله ،

ولا يكون إمعة يطير مع كل ريح ، فإن الناس من أمة محمد ﷺ ، والأمم قبلها ، قد تنازعوا فى ربهم وأسمائه وصفاته ، وما يجب له على عباده ، وقد قال تعالى : ﴿ فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ .

فيا سعادة من تجرد عن العصبية والهوى ، والتجأ إلى حصن الكتاب والسنة ، فإن العلم معرفة الهدى بدليله ، وما ليس كذلك فجهل وضلال .

وأما قول المعترض : فانظر إلى الشفا تجده حكى كفر من قال مثل هذه الكلمة ، أى الكلمة التى ذكرها المجيب ، فى معنى قوله : ﴿ قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا ﴾ (الآيات) . ذكر عبارة النسفى فى معناها ، وهى قوله هو إظهار العبودية ، وبراءة مما يختص بالربوبية من علم الغيب ، أى أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسى اجتلاب نفع ، ولا دفع ضر ، إلى آخر كلامه ، إذْ من عادة هذا المعترض الجاهل ، رد الحق والمكابرة فى دفعه والغلو المتناهى ، وإلا فمن المعلوم عند من له معرفة بدين الإسلام ، أن المجيب إنما أتى فى جوابه بتحقيق التوحيد ، ونفى الشرك بالله ، وذلك تعظيم لجانب الرسالة .

وكان النبى ﷺ ، ينهى أمته عن كل ما يؤول بهم إلى الغلو ، ولما قيل له ﷺ : أنت سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا ، قال : « يا أيها الناس قولوا بقولكم ، أو بعض قولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا عبد الله ورسوله ، ما أُحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله تعالى » .

والنبى ﷺ ، هو أحق الخلق بالتواضع لله وحده سبحانه ، وفى الحديث : « فإنك إن تكلنى إلى نفسى ، تكلنى إلى ضعف وعورة وذنب

وخطيئة ، وإنى لا أثق إلا برحمتك » (الحديث) .

والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة ، يخبر بذلك عن نفسه ويعترف بذلك لربه ، وهو الصادق المصدوق ، فإذا قال المسلم مثل هذا فى حقه ﷺ ، وأخبر بما أخبر به عن نفسه لم يكن منتقصاً له ، بل هذا من تصديقه والإيمان به .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : إذا كان الكلام فى سياق توحيد الرب ، ونفى خصائصه عما سواه ، لم يجز أن يقال هذا سوء عبارة فى حق من دون الله ، من الأنبياء والملائكة ، فإن المقام أجل من ذلك وكل ما سوى الله يتلاشى عن تجريد توحيده ، والنبى ﷺ كان من أعظم الناس تقريراً لما يقال على هذا الوجه ، وإن كان نفسه المسلوب ، كما فى الصحيحين فى حديث الإفك ، لما نزلت براءة عائشة من السماء ، وأخبرها النبى ﷺ بذلك ، قالت لها أمها : قومى إلى رسول الله ﷺ ، قالت : والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا إياكما ، ولا أحمد إلا الله الذى أنزل براءتى ، فأقرها النبى ﷺ وأبوها على هذا الكلام الذى نفت فيه أن تحمد رسول الله ﷺ . وفى رواية : بحمد الله لا بحمدك . ولم يقل أحد هذا سوء أدب منها عليه ﷺ .

وأخرج البيهقى بسنده إلى محمد بن مسلم ، قال : سمعت حبان صاحب ابن المبارك يقول : قلت لعبد الله بن المبارك : قول عائشة للنبى ﷺ : بحمد الله لا بحمدك ، إنى لأستعظم هذا ، فقال عبد الله : ولّت الحمد أهله ، وكذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد بسنده ، عن الأسود ابن سريع : أن النبى ﷺ أتى بأسير ، فقال : اللهم أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد . فقال النبى ﷺ: « عرف الحق لأهله » .

وهذا المعترض وأمثاله ، ادَّعوا تعظيم أمر رسول الله ﷺ ، بما قد

نهى عنه من الغلو والإطراء ، وهضموا ربوبية الله ، وتنقصوا إلهيته ، وأتوا بزخارف شيطانية وحاولوا أن يكون حق الله من العبادة التى خلق لها عباده ، نهباً بين الأحياء والأموات ، هذا يصرفه لنبى ، وهذا لملك ، وهذا لصالح ، أو غير هؤلاء ممن اتخذوهم أنداداً لله ، وعبدوا الشياطين بما أمروهم به ، من ذلك الشرك بالله ، فإن عبادتهم للملائكة والأنبياء والصالحين ، إنما تقع فى الحقيقة على من زيَّنها لهم من الشياطين ، وأمرهم بها ، كما قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ، ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، قالوا : سبحانك ، أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ ، ونحو هذه الآية كثير فى القرآن .

ولما ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله ، ما وقع فى زمانه من الشرك بالله ، قال : وهذا هضم للربوبية ، وتنقص للإلهية ، وسوء ظن برب العالمين ، وذكر أنهم ساووهم بالله فى العبادة ، كما قال تعالى عنهم ، وهم فى النار : ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ﴾ .

وأما ما ذكره عن خالد الأزهرى ، فخالد وما خالد ، أغرّك منه كونه شرح التوضيح والأجرومية فى النحو وهذا لا يمنع كونه جاهلاً بالتوحيد الذى بعث الله رسوله ﷺ ، كما جهله من هو أعلم وأقدم منه ، ممن له تصانيف فى المعقول كالفخر الرازى ، وأبى معشر البلخى ، ونحوهما ممن غلط فى التوحيد ، وقد كان خالد هذا يشاهد أهل مصر يعبدون البدوى وغيره ، فما أنكر ذلك فى شىء من كتبه ولا نقل عنه أحد إنكاره ، فلو صح ما ذكره خالد من حال الناظم لم يكن جسراً تُذاد عنه النصوص ، من الآيات المحكمات القواطع ، والأحاديث الواضحات البينات ، كقوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ومن

يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

وقول النبى ﷺ : « من مات وهو يدعو لله نداً دخل النار » وقد استدرج الله أهل الشرك بأمور تقع لهم يظنونها كرامات عقوبة لهم ، وكثير منها أحوال شيطانية أعانوا بها أولياءهم من الإنس كما قد يقع كثيراً لعُبَّاد الأصنام وما أحسن ما قال بعضهم شعراً :

تخالف الناس فيما قد رَأَوْا وَرَوَوْا ... وكلهم يدَّعْون الفوز بالظفرِ
فخذ بقولٍ يكون النصُّ ينصره ... إما عن الله أو عن سيد البشر

وقد حاول هذا الجاهل المعترض صرف أبيات البردة ، عما هو صريح فيها ونص فى ما دلت عليه من الشرك فى الربوبية والإلهية ، ومشاركة الله فى علمه وملكه ، وهى لا تحتمل أن تصرف عما هى فيه من ذلك الشرك والغلو ، فما ظفر هذا المعترض من ذلك بطائل ، غير أنه وسم نفسه بالجهل والضلال والزور والمحال ، ولو سكت لسلم من الانتصار ، لهذا الشرك العظيم ، الذى وقع فيه .

وأما قول المعترض : ورد فى الحديث : « لولا حبيبى محمد ما خلقت سمائى ولا أرضى ، ولا جنتى ولا نارى » ، فهذا من الموضوعات لا أصل له ، ومن ادَّعى خلاف ذلك ، فليذكر من رواه من أهل الكتب المعتمدة فى الحديث ، وأنّى له ذلك ، بل هو من أكاذيب الغلاة الوضاعين .

وقد بين الله تعالى حكمته فى خلق السموات والأرض فى كثير من سور القرآن ، كما فى الآية التى تأتى بعد ، وهى قول الله تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ﴾ .

ولها نظائر تبين حكمة الرب فى خلق السموات والأرض ، وقوله : وكيف ينكر تصرفه فى إعطاء أحد بإذن الله من الدنيا فى حياته أو فى الآخرة بعد وفاته .

أقول هذا كلام من اجترأ وافترى ، وأساء الأدب مع الله ، وكذب على رسوله ، ولم يعرف حقيقة الشفاعة ، ولا عرف تفرد الله بالملك يوم القيامة ، وهل قال رسول الله ﷺ أو أحد من أصحابه أو من بعدهم من أئمة الإسلام ، أن أحداً يتصرف يوم القيامة فى ملكه ولو أطلقت هذه العبارة فى حق رسول الله ﷺ ، لا ادَّعاها كلٌّ لمعبوده من نبى أو ملك أو صالح ، أنه يشفع له إذا دعاه ، سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، وقال تعالى : ﴿ يوم يأتى لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلا بإذنه ﴾ ، وقال : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ . وهذا القول الذى قاله الجاهل ، قد شافهنا به جاهل مثله بمصر ، يقول الذى يتصرف فى الكون سبعة : البدوى ، والإمام الشافعى ، والشيخ الدسوقى ، حتى أكمل السبعة من الأموات ، يقول : هذا ولىّ له شفاعة وهذا صالح كذلك ، وقد قال تعالى : ﴿ لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ﴾ إلى قوله : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ ، وأى ظلم أعظم من الشرك بالله ، ودعوى الشريك له الملك والتصرف وهذا غاية الظلم .

قال شيخ الإسلام رحمه الله فى هذا المعنى : قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ، نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون فنفى أن يكون

لغيره ملك أو قسط منه ، أو يكون عوناً لله ولم يبق إلا الشفاعة التى يظنها المشركون وهى منتفية كما نفاها القرآن ، وأخبر النبى ﷺ أنه يأتى فيسجد لربه ويحمده ، لا يبدأ بالشفاعة أولاً ثم يقال : ارفع رأسك ، وقل تُسمع ، وسل تعْط ، واشفع تُشفع ، وقال له أبو هريرة رضى الله عنه : من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » ، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله .

وحقيقته أن الله سبحانه هو الذى يتفضل على أهل الإخلاص ، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه ، وينال المقام المحمود .

فالشفاعة التى نفاها القرآن ، ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع ، وقد بين النبى ﷺ ، أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص . انتهى كلامه .

وقال العلامة ابن القيم فى مدارج السالكين : وقد قطع الله الأسباب التى يتعلق بها المشركون جميعاً ، فقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ، فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له به من النفع ، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع ، إما مالك لما يريده عابده منه ، فإن لم يكن شريكاً له ، كان معيناً وظهيراً ، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً ، كان شفيعاً عنده ، فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً منتقلاً من الأعلى إلى الأدنى ، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التى يطلبها المشرك ، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك ، وهى الشفاعة بإذنه ، فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً وتجريداً للتوحيد ، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها ، والقرآن مملوء

من أمثالها ونظائرها ، ولكن أكثر الناس لا يشعر بدخول الواقع تحته ، وتضمنه له ويظنه فى نوعه .

وقوم قد خَلَوْا من قبل ، ولم يعقبوا وارثاً ، فهذا الذى يحول بين القلب وفهم القرآن ، ولعَمْرُ اللهِ إن كان أولئك قد خَلَوْا فقد ورثهم من هو مثلهم أو دونهم ، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك إلى أن قال : ومن أنواعه أى الشرك ، طلب الحوائج من الموتى ، والاستعانة بهم والتوجه إليهم ، وهذا أصل شرك العالم ، فإن الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلاً لمن استغاث به ، وسأله قضاء حاجته أو سأله أن يشفع له إلى الله ، وهذا بجهله بالشافع والمشفوع عنده ، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه ، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه ، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن ، وهو بمنزلة من استعان فى حاجته بما يمنع حصولها ، وهذه حالة كل مشرك ، جمع بين الشرك بالمعبود ، وتغيير دينه ومعاداة أهل التوحيد ، ونسبة أهله إلى تنقص بالأموات ، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك ، وأولياء التوحيد له بذمهم وعيبهم ومعاداتهم ، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقيص ، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا ، وأنهم يوالونهم عليه ، وهؤلاء أعداء الرسل فى كل زمان ومكان وما أكثر المستجيبين لهم ، قال : وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله ، وعادى المشركين فى الله ، وتقرب بمقتهم إلى الله ، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده ، فجرد حبه لله ، وخوفه لله ، ورجاءه لله ، وذله لله ، وتوكله على الله ، واستعانته بالله ، والتجاءه إلى الله ، وأخلص قصده لله ، متبعاً لأمره متطلباً لمرضاته ، وإذا سأل سأل الله ، وإذا استعان ، استعان بالله ، وإذا عمل ، عمل لله ، وبالله ومع الله ، انتهى .

فرحم الله هذا الإمام ، وشيخه ، فلقد بَيَّنَا للناس حقيقة الشرك وطرقه وما يبطله .

وفى حديث ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال له : « إذا سألت ، فاسأل الله ، وإذا استعنت ، فاستعن بالله » ، ولم يقل : فاسألنى ، واستعن بى ، بل قصر السؤال والاستعانة على الله ، الذى لا يستحقه سواه ، كما فى قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، فمن صرف ذلك لغير الله فقد عصى الله ورسوله ، وأشرك بالله .

وللمعترض كلام ركيك ، لا حاجة لنا إلى ذكر ما فيه ، وإنما نتتبع من كلامه ما يحتاج إلى رده وإبطاله كجنس ما تقدم .

واعلم أنه قال لما ذكر قول المجيب ، أنه لا يجتمع الإيمان بالآيات المحكمات ، وتلك الأبيات لما بينهما من التنافى والتضاد ، وقال المعترض : أقول يجتمعان بأن يفرد الله بالعبادة ، ولا يقدح فيه تشفعه بأحباب حبه إليه ، وكيف يحكم عليه بالضلال بمجرد طلبه الشفاعة ممن هو أهل لها ، كما فى الحديث : « أنا لها أنا لها » ، ومعلوم أن الضلال ضد الحق .

فالجواب لا يخفى ما فى كلامه من التخليط والتلبيس ، والعصبية المشوبة بالجهل المركب ، حيث إنه لا يدرى ، ولا يدرى أنه لا يدرى .

وقد بيَّنَّا فيما تقدم أن دعوة غير الله ضلال ، وأن اتخاذ الشفعاء الذين أنكر الله تعالى ، إنما هو بدعائهم والالتجاء إليهم والرغبة إليهم ، فيما أراده الراغب منهم ، من الشفاعة التى لا يقدر عليها إلا الله ، وذلك ينافى الإسلام والإيمان بلا ريب ، فإن طلبها من الأموات والغائبين طلب لما لا يقدر عليه إلا الله من غير الله ، وهو خلاف لما أمر به الله تعالى ، وارتكاب لما نهى عنه ، كما تقدم بيانه فى معنى قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا

يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ (الآية) . وقوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾ (الآية) . وقوله تعالى : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ . فطلب الشفاعة من النبى ﷺ أو غيره بعد وفاته وبعده عن الداعى ، لا يحبه الله تعالى ولا يرضاه ، ولا رسوله ﷺ ، وهو التوسل الذى ذكره العلامة ابن القيم وشيخه ، وصرحا بأنه شرك وللعلامة ابن القيم أبيات فى هذا المعنى وهى قوله :

والشرك فهو توسل مقصوده الـ ... زلفى من الرب العظيم الشانِ
بعبادة المخلوق من حجر ومن ... بشر ومن قبر ومن أوثانِ
والناس فى هذا ثلاث طوائف ... ما رابع أبدا بذى إمكـانِ
أحد الطوائف مشرك بإلهـه ... فإذا دعاه دعا إلهاً ثـان
هذا وثانى هذه الأقسـام ذلـ ... ـك جاحد يدعو سوى الرحمن
هو جاحد للرب يدعو غيـره ... شركاً وتعطيلاً له قدمان
هذا وثالث هذه الأقسام خير ... الخلق ذاك خلاصة الإنسـان
يدعو إله الحق لا يدعـو ولا ... أحداً سواه قط فى الأكوان
يدعوه فى الرغبات والرهبـات ... والحالات من سر ومن إعلان

وقد أنكر الله ذلك الدعاء على من زعم فى الرسل والملائكة ، وذلك كما قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾ .

قالت طائفة من السلف : كان أقوام يَدْعون المسيح وأمه ، وعَزَيْراً أو الملائكة فأنكر الله ذلك وقال : هؤلاء عبيدى ، يرجون رحمتى ، كما ترجون رحمتى ، ويخافون عذابى كما تخافون عذابى ، وهؤلاء الذين نزلت

هذه الآية فى إنكار دعوتهم من أوليائه وأحبابه ، وقد تقدم أن الدعاء وجميع أنواع العبادة حق الله المحض ، كما تقدم فى الآيات .

والحاصل أن الله تعالى لم يأذن لأحد أن يتخذ شفيعاً من دونه ، يسأله ويرغب إليه ويلتجىء إليه ، وهذه هى العبادة ومن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد أشرك مع الله غيره ، كما دلت عليه الآيات المحكمات وهذا ضد إفراد الله بالعبادة ، وكيف يتصور إفراد الله بالعبادة ، وقد جعل العبدُ ملاذاً ومفزعاً سواه ، فإن هذا ينافى الإفراد ، فأين ذهب عقل هذا وفهمه .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، انتهى .

وقد تبين أن الدعاء مخ العبادة وهو مما يحبه ويأمر به عباده وأن يخلصوه له ، وقد تقدم من الآيات ما يدل على ضلال من فعل ذلك وكفره .

وبهذا يحصل الجواب عن قول المعترض ، إن الشفاعة المنفية إنما هى فى حق الكفار ، فنقول : فمن اتخذ معبوداً سوى الله يرجوه أو يخافه ، فقد كفر ، وتأمل قول الله تعالى : ﴿ والذين يدعون من دون الله ، لا يَخْلُقُون شيئاً ، وهم يُخْلَقون . أموات غير أحِياء وما يشعرون أيان يُبْعَثون . إلهكم إله واحد ﴾ .

فبين تعالى أن المخلوق لا يصلح أن يُدْعَى من دون الله ، وأن من دعاه فقد أشره مع الله غيره ، فى الإلهية ، والقرآن من أوله إلى آخره يدل على ذلك ، وكذلك سنة رسول الله ﷺ ، ولكن الملحدين محجوبون عن فهم القرآن ، كما حُجِبُوا عن الإيمان بجهلهم وضلالهم وإعراضهم ، كما أنزل فى كتابه من بيان دينه الذى رضيه لنفسه ، ورضيه لعباده .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : وحقيقة التوحيد أن يُعْبَد الله وحده ، لا يُدْعَى إلا هو ، ولا يُخْشَى ولا يُتَّقَى إلا هو ، ولا يُتَوَكَّل إلا عليه ، ولا يكون الدين إلا له ، وأن لا يتخذ الملائكة والنبيين أرباباً ، فكيف بالأئمة والشيوخ ، فإذا جعل الإمام والشيخ كأنه إله يُدْعى مع غيبته وموته ، ويستغاث به ويطلب منه الحوائج كأنه مشبهٌ بالله ، فيخرجون عن حقيقة التوحيد الذى أصله شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، انتهى .

وثبت عن النبى ﷺ أنه قال لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » فلو جاز أن يسأل رسول الله ﷺ لما قصر سؤاله واستعانته على الله وحده ، وابن عباس أحق الناس بأن يعلمه رسول الله ﷺ ما فيه له منفعة ، فلو جاز صرف ذلك لغير الله لقال : واسألنى واستعن بى ، بل أتى ﷺ بمقام الإرشاد والإبلاغ والنصح لابن عمه بتجريد إخلاص السؤال والاستعانة على الله تعالى ، فأين ذهبت عقول هؤلاء الضُّلَّال عن هذه النصوص ؟ والله المستعان .

وقال الشيخ رحمه الله : واعلم أن لفظ الدعاء والدعوة فى القرآن يتناول معنيين : دعاء العبادة ودعاء المسألة ، وكل عابد سائل ، وكل سائل عابد ، وأحد الإسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ، وإذا جمع بينهما فإنه يراد بالسائل الذى يطلب لجلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ المسئول والطلب ، ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر ، وإن لم يكن هناك صيغة سؤال ، ولا يتصور أن يخلو داع لله دعاء عبادة ، أو دعاء مسألة من الرغبة والرهبة والخوف والطمع ، انتهى .

فتبين أن أبيات البردة التى قدمنا الكلام عليها تنافى الحق وتناقضه وماذا بعد الحق إلا الضلال .

وقول المعترض : لا سيما والناظم على جانب عظيم من الزهد والورع والصلاح بل وله يد فى العلوم كما حكى ذلك مترجموه ، وهذا كله صار هباء منثورا حيث لم يرضوا عنه .

أقول هذه دعوى تحتمل الصدق والكذب ، والظاهر أنه لا حقيقة لذلك ، فإنه لا يُعْرف إلا بهذه المنظومة ، فلو قدر أن لذلك أصلاً فلا ينفعه ذلك مع تلك الأبيات ، لأن الشرك يحبط الأعمال ، كما قال تعالى : ﴿ ولو أشركوا لَحَبِطَ عنهم ما كانوا يعملون ﴾ ، وقد صار العمل مع الشرك هباء منثورا . قال سفيان بن عيينة : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فإن كان للرجل عبادة فقد فُتِنَ بأبياته كثير من الجهال ، وعبادته إن كانت ، فلا تمنع كونه ضالا كما يرشد إلى ذلك آخر الفاتحة . قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا ففيه شَبَهٌ من اليهود ، ومن فسد من عُبَّادنا ، ففيه شَبَهٌ من النصارى ، فالواجب علينا أن نبين ما فى كلامه مما يسخط الله ورسوله من الشرك والغلو ، وأما الشخص وأمثاله ممن قد مات فيسعنا السكوت عنه ، لأنا لا ندرى ما آل أمره إليه وما مات عليه ، وقد عرف أن كلام خالد الأزهرى لا حجة فيه ، وأهل الغلو والشرك ليس عندهم إلا المنامات والأحوال الشيطانية ، التى يحكيها بعضهم عن بعض ، كما قال لى بعض علماء مصر : أن شيخنا مشى بأصحابه على البحر ، فقال : لا تذكروا غيرى ، وفيهم رجل ذكر الله فسقط فى البحر فأخذ بيده الشيخ ، فقال : ألم أقل لكم لا تذكروا غيرى ، فقلت هذه الحكاية تحتمل أحد أمرين ، لا ثالث لهما : أحدهما أن تكون مكذوبة مثل أكاذيب سَدَنة الأوثان ، أو أنها حال شيطانية ، وأسألك أيها الحاكى لذلك ، أيكون فيها حجة على جواز دعوة غير الله ، فأقر وقال لا حجة فيها على ذلك ، والمقصود بيان أنه ليس عند

الغلاة من الحجة على ما زخرفوه ، أو حرفوه أو كذبوه ، وما قال الله وقال رسوله فهذا بحمد الله كله عليهم لا لهم ، وما حرفوه من ذلك رد إلى صحيح معناه ، الذى دل عليه لفظه مطابقة وتضمناً والتزاماً .

قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يُوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ . وذكر المعترض حكاية يقول عن غير واحد من العلماء العظام ، إنه رأى النبى ﷺ والمنظومة تنشد بين يديه ، إلى قوله : لكن الخصم مانع ذلك كله بقوله إنهم كفار .

فالجواب : أن يقال ليس هذا وجه المنع وإنما وجهه ، أنها حكاية مجهولة عن مجهول ، وهذا جنس إسناد الأكاذيب ، فلو قيل من هؤلاء العظام وما أسماءهم ، وما زمنهم ، وما طبقتهم ، لم يدر عنهم ، وأخبار المجهولين لا تقبل شهادة ، ولا رواية يقظة ، فكيف إذا كانت أحلاماً ، والمعترض كثيراً ما يحكى عن هيا بن بيا . ثم قال المعترض على قول المجيب : وطلب الشفاعة من النبى ﷺ ممتنع شرعاً وعقلاً ، قال المعترض : من أين هذا الامتناع وما دليله من العقل والسمع .

فالجواب : أن يقال معلوم أن دليله من الجهتين لا تعرفه أنت ومن مثلك ، وإنما معرفتك فى اللجاج الذى هو كالعجاج ، الذى يحوم فى الفجاج .

أما دليله من السمع فقد تقدم فى آيات الزُّمَر ويونس وغيرها ، وقد بسطنا القول فى ذلك بما يغنى عن إعادته ، فليرجع إليه .

وأما دليله من العقل ، فالعقل الصحيح يقضى ويحكم بما يوافق النقل ، بأن النجاة والسعادة والفلاح ، وأسباب ذلك كله ، لا تحصل

إلا بالتوجه إلى الله تعالى وحده ، وإخلاص الدعاء والالتجاء له وإليه ، لأن الخير كله بيده وهو القادر عليه ، وأما المخلوق فليس فى يده من هذا شيء ، كما قال تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ . فتسوية المخلوق بالخالق ، خلاف العقل ، كما قال تعالى : ﴿ أفمن يَخْلُق كمن لا يَخْلُق أفلا تذكرون ﴾ . فالذى له الخلق والأمر والنعم كلها منه ، وكل مخلوق فقير إليه لا يستغنى عنه طرفة عين ، هو الذى يستحق أَنْ يدعى ويُرْجى ويُرْغَب إليه ، ويرهب منه ، ويتخذ معاذاً وملاذاً ، ويتوكل عليه .

وقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد ﴾ . وقال المفسرون المحققون السلفيون المتبعون فى قول الله تعالى : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف فى الملك وحده لا شريك له ، لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

ولهذا قال سعيد بن جبير : التوكل جِماع الإيمان ، ذكره العلماء فى تفسيره ، وليتأمل ما ذكره الله عن صاحب يٓس من قوله : ﴿ أأتَّخِذُ من دونه آلهة إن يردنِ الرحمنُ بِضُرٍ ، لا تغنى عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ، إنى إذا لفى ضلال مبين ﴾ . فهذا دليل فطرى عقلى سمعى . وأما قول المعترض إن قول الناظم ، ومن علومك علم اللوح والقلم ، أن من بيانية .

فالجواب : أنه ليس كما قال ، بل هى تبعيضية ، ثم لو كانت بيانية ، فما ينفعه والمحذور بحاله ، وهو أنه يعلم ما فى اللوح المحفوظ ، وقد صرح المعترض بذلك ، فقال : ولا شك أنه أوتى علم الأولين والآخرين ، وعلم ما كان وما يكون .

فالجواب : هذه مضاربة لما هو صريح فى كتاب الله وسنة رسوله ، بأن الإحاطة بما فى اللوح المحفوظ ، علما ليس إلا لله وحده ، كذلك علم الأولين والآخرين ليس إلا لله وحده ، إلا ما أطلع الله عليه نبيه فى كتابه ، كما قال الله تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه ، إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ ، فالرجل فى عمى عن قول الله تعالى : ﴿ بشىء من علمه ﴾ . وقال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ﴾ ، وقد تقدم لهذه الآيات نظائر ، فإحاطة العلم بالموجودات والمعدومات التى وجدت واستوجدت لله وحده ، لم يجعل ذلك لأحد سواه .

وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مُرْساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ ، فأسند علم وقت الساعة إلى ربه بأمره ، كقوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ﴾ . وأمثال هذه الآيات مما يدل على أن الله تعالى اختص بعلم الغيب كله إلا ما استثناه بقوله : ﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾ ، ومن تبعيضية ها هنا بلا نزاع ، وقد قال الخضر لموسى عليه السلام : ما نقص علمى وعلمك فى جانب علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

فتأمل هذا وتدبر ، وأما قول المعترض وتأويله لقوله تعالى : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ ، فتأويل فاسد ، ما قاله غيره ولا يقوله مسلم ، من أنه يعلم الغيب بتعليم الله له ، والمنفى فى الآية أن يعلمه بنفسه بدون أن يُعلمه الله ذلك ، فما أجرأ هذا الجاهل على هذا التأويل ، وما أجهله بالله وبكتابه ، فيقال فى الجواب : لا ينفعك هذا

التأويل الفاسد ، إذ لو كان أحد يعلم جميع الغيب بتعليم الله ، لصدق عليه أن يقال هذا يعلم الغيب كله الذى يعلمه الله ، فما بقى على هذا ، لقصر علم الغيب على الله فى هذه الآية معنى ، وحصل الاشتراك نعوذ بالله من الافتراء على الله وعلى كتابه وصرف ما لم ينزل الله به سلطانا .

وأما قوله فى قول الناظم : إن لم تكن فى معادى آخذاً بيدى .

إن الأخذ باليد هى الشفاعة .

فالجواب : أن حقيقة هذا القول وصريحه طلب ذلك من غير الله ، فلو صح هذا الحمل ، فالمحذور بحاله ، لما قد عرفت من الاستغاثة بالأموات والغائبين ، والاستشفاع بهم فى أمر هو من الله ممتنع حصوله من غير الله لكونه تألهاً وعبادة ، وقد أبطله القرآن فهذا المعترض الجاهل يدور على منازعة الله فى حقه وملكه ، وشمول علمه ، والله يجزيه بعلمه .

وأما قوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ ، فقيل المراد بها الخمس المذكورة فى سورة لقمان وهذا قبل أن يطلع نبيه عليها ، وإلا فقد ذكر عامة أهل العلم ، أنه لم يتوفه الله تعالى حتى علمه الله كل شيء حتى الخمس .

فالجواب : انظر إلى هذا المفترى الجاهل البليد ، كيف اقتفى أثر صاحب الأبيات بجميع ما اختلقه وافتراه ، وأكثر من الأكاذيب على أهل العلم ، فإن قوله ذكر عامة أهل العلم أنه لم يتوفه الله حتى علمه كل شيء حتى الخمس ، فحاشا أهل العلم الذين يعرفون بأنهم من أهل العلم ، من هذه المقالة ، وعامة أهل العلم بل كلهم على خلاف ما ادعاه سلفاً وخلفاً .

قال أبو جعفر محمد بن جرير رحمه الله فى تفسير الكبير الذى فاق

على التفاسير : ابتدأ تعالى ذكر الخبر عن علمه بمجيء الساعة ، فقال تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ ، والتى تقوم فيها القيامة ، لا يعلم ذلك أحد غيره ، ﴿ وينزل الغيث ﴾ من السماء لا يقدر على ذلك أحد غيره ، ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ الإناث ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ﴾ ، يقول : وما تعلم نفس حى ماذا تعمل فى غد . ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ يقول : وما تعلم نفس حىّ بأى أرض يكون موتها ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ ، يقول : إن الذى يعلم ذلك كله هو الله دون كل أحد سواه وذكر سنده عن مجاهد : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ ، قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : امرأتى حبلى ، فأخبرنى ماذا تلد ، وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث ، وقد علمت متى ولدتُ ، فمتى أموتُ ، فأنزل الله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ ، إلى آخر السورة ، قال : فكان مجاهد يقول : هن مفاتيح الغيب التى قال الله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ .

وأخرج بسنده عن قتادة : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ (الآية) خمس من الغيب ، استأثر الله بهن ، فلم يطلع عليهن ملك مقرب ولا نبى مرسل . وبسنده عن عائشة رضى الله عنها ، من قال : إن أحداً يعلم الغيب إلا الله فقد كذب وأعظم الفرية على الله ، قال تعالى : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ ، وبالسند عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : مفاتح الغيب خمس ، لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ﴾ (الآية) . ثم قال : لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا يعلم أحد متى ينزل الغيث إلا الله ، ولا يعلم أحد متى قيام الساعة إلا الله ، ولا يعلم أحد ما فى الأرحام إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت .

وبسنده عن مسروق ، عن عائشة ، قالت : من حَدَّثَك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب . ثم قرأت : ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال : خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ﴾ (الآية) ، انتهى ما ذكره ابن جرير .

وذكر البغوى فى تفسير حديث ابن عمر وعائشة المتقدم ، ثم قال : وقال الضحاك ومقاتل ، مفاتح الغيب خزائن الأرض ، وقال عطاء : ما غاب عنكم من الثواب ، وقيل : انقضاء الأجل ، وقيل : أحوال العباد من السعادة والشقاوة ، وخواتيم أعمالهم ، وقيل : ما لم يكن بعد أنه يكون أم لا يكون وما لا يكون كيف يكون . انتهى .

قلت : ولا يُعْرَف عن أحد من أهل العلم خلاف ما دلت عليه هذه الآيات المحكمات ، ونعوذ بالله من مخالفة ما أنزل الله فى كتابه ، وما أخبر به عن نفسه ، أو أخبر به رسوله ﷺ ، وأجمع عليه العلماء فإن الله استأثر بعلمه عن خلقه ، ووصف نفسه بأنه علّام الغيوب ، ونعوذ بالله من حال أهل الافتراء والتكذيب .

وأما قوله : ولو أن عبارات أهل العلم مثل البيضاوى وأبى السعود والقسطلانى ، وأمثالهم تُجْدى إليكم شيئاً لذكرناها ، لكنها تُمْحَى بلفظة واحدة ، وهى أنهم كلهم كفار ، فلا نقبل منهم أحداً ، ومن هذه حاله فلا حيلة به .

فالجواب : أنه ليس للبيضاوى ومن ذكر ، عبارات تخالف ما قاله السلف والعلماء فى معنى الآيات ، ومعاذ الله أن يقول المجيب : إن هؤلاء

كفار ، ولا يوجد عند أحد من علماء المسلمين ، أنه كفَّر أحداً قد مات من هذه الأمة ، فمن ظاهره الإسلام ، فلو وجد فى كلامه زلة من شرك أو بدعة ، فالواجب التنبيه على ذلك ، والسكوت عن الشخص ، لما تقدم من أنا لا ندرى ما خاتمته ، وأما هؤلاء الذين ذكرهم من المفسرين ، فإنهم من المتأخرين الذين نشأوا فى اغتراب من الدين ، والمتأخرين يغلب عليهم الاعتماد على عبارات أهل الكلام مخالفة لما عليه السلف ، وأئمة الإسلام من الأرجاء ونفى حكمة الله ، وتأويل صفات الله ، وسلب معانيها ما يقارب ما فى كشاف الزمخشرى ، والأرجاء والجبر يقابل ما فيه من نفى القدر ، وكلاهما فى طرفى نقيض ، وكل واحد خالف ما عليه أهل السنة والجماعة فى ذلك ، ومعلوم أن صاحب الكشاف أقدم من هؤلاء الثلاثة ، وأرسخ قدماً منهم فى فنون من العلم ، ومع هذا فقال شيخ الإسلام البلقينى : استخرجت ما فى الكشاف من دسائس الاعتزال بالمناقيش . وقال أبو حيان : وقد مدح الكشاف ما فيه من لطيف المعنى ، ثم قال :

ولكنه فيه مجال لناقد   وزلات سوء قد أَخَذْن المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلا   ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقا
وينسب إبداء المعانى لنفسه   ليوهم اغمارا وإن كان سارقا
ويسهب فى المعنى الوجيز دلالة   بتكثير ألفاظ تسمى الشقاشقا
يقوِّل فيها الله ما ليس قائلا   وكان محباً فى المخاطب وامقا
ويشتم أعلام الأئمة ضلة   ولا سيما أن ولجوه المضائقا

إلى أن قال :

لئن لم تَدَارَكْه من الله رحمة   لسوف يُرَى للكافرين مُرَافقا

فإذا كان هذا فى تفسير مشهور وصاحبه معروف بالذكاء والفهم ،

فما دونه من المتأخرين أولى بأن لا يتلقى من كلامهم بالقبول ، إلا ما وافق تفسير السلف ، وقام عليه الدليل ، وهذا المعترض من جهله يحسب كل بيضاء شحمة ، يعظم المفضول من الأشخاص والتصانيف ، ولا يعرف ما هو الأفضل ، ولو كان له أدنى مسكة من فهم ومعرفة للعلماء ومصنفاتهم ، لعلم أنَّ أفضل ما فى أيدى الناس من التفاسير ، هذه الثلاثة التى نقلنا منها ، تفسير أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، وتفسير الحسين بن مسعود البغوى ، وتفسير العماد إسماعيل بن كثير ، فهذه أجل التفاسير ، ومصنفوها أئمة مشهورون ، أهل سنة ليسوا بجهمية ولا معتزلة ولا قدرية ولا جبرية ولا مرجئة بحمد الله ، وأكثر ما فى هذه التفاسير الأحاديث الصحيحة ، وآثار الصحابة ، وأقوال التابعين وأتباعهم ، فلا يرغب عنها إلا الجاهلون الناقصون المنقوصون والله المستعان .

والمصنفون فى التفسير وغيره غير ما ذكر البيضاوى وأبو السعود البحر لأبى حيان لأنه كثيراً ما ينقله فى تفسيره عن السلف والأئمة ، وكذلك تفسير الخازن ، وبالجملة فمن كان من المصنفين أبعد عن تقليد المتكلفين ، وذكر عباراتهم ، ويعتمد أقوال السلف ، فهو الذى ينبغى النظر إليه ، والرغبة فيه ، وعلى كل حال فليس فى تفسير البيضاوى وأبى السعود وشرح القسطلانى ومواهبه ، ما ينفعه هذا الجاهل المفترى ، وكُلٌّ يُؤْخَذُ من قوله ويُتْرك إلا رسول الله ﷺ .

وقول المعترض على قول المجيب : علماؤهم شر من تحت أديم السماء فيقال : هل ورد هذا الحديث فى أهل العراق ، فهم على عهد النبى ﷺ كفار مجوس ، أو فيما يأتى ، فهذه شناعة على غالب علماء الأمة ، ومنهم الإمام أبو حنيفة والإمام أحمد وأمثالهم .

فالجواب : أن هذا كلام من لا يعقل ولا يفهم شيئاً ، ولا يفرق بين أهل السنة والجماعة وأهل البدعة والضلالة . ففى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يعبد فئام من أمتى الأوثان ، ولا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » رواه البرقانى فى صحيحه .

وقد أخبر النبى ﷺ أن أمته ستفترق كما افترقت اليهود والنصارى ، فاليهود افترقت إحدى وسبعين ، والنصارى على اثنتين وسبعين ، وهذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة ، وأول من فارق الجماعة فى عهد الصحابة رضى الله عنهم ، الخوارج قاتلهم على رضى الله عنه بالنهروان ، والقدرية فى أيام ابن عمر وابن عباس ، وأكثر الصحابة موجودون ، ومن دعاتهم معبد الجهنى ، وغيلان القدرى الذى قتله هشام بن عبد الملك ، وكذلك الغلاة فى على ، الذين خذَّلَهُم على الأخاديد ، وحَرَّقهم بالنار ، ومنهم المختار بن أبى عبيد الذى قتله مصعب ابن الزبير ، ادَّعى النبوة ، وتبعه خلق كثير .

ثم ظهر فتنة الجهمية وأول من أظهراها الجعد بن درهم ، قتله خالد ابن عبد الله القسر ، والصحابة رضى الله عنهم والتابعون ، والأئمة متوافرون وقت ظهور مبادىء هذه البدع ، لم يلحقهم من ضلال هذه الفرق شناعة ولا غضاضة ، لأنهم متمسكون بالكتاب والسنة ، منكرون لما خالف الحق ، وصح من حديث أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يأتى على الناس زمان إلا والذى بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم » سمعته من نبيكم ﷺ ، وظهرت بدعة جهم بن صفوان فى زمن أبى حنيفة وأنكرها ، وناظَرهم ، وانتشرت فى زمن الإمام أحمد رحمه الله ، والفقهاء وأهل الحديث ، وامتحن الإمام أحمد ، فتمسك بالحق وصبر ، وصنف

العلماء رحمهم الله المصنفات الكبار فى الرد على الجهمية القائلين بخلق القرآن ، المعطلين لصفات الملك الديان ، كالإمام أحمد فى رده المعروف ، وابنه عبد الله وعبد العزيز الكنانى فى كتاب الحيدة ، وأبى بكر الأثرم ، والخلال وعثمان بن سعيد الدارمى ، وإمام الأئمة محمد بن خزيمة ، واللالكائى وأبى عثمان الصابونى ، وقبلهم وبعدهم ممن لا يحصى ، وهذا كله إنما هو القرون الثلاثة المفضلة ، ثم بعدها ظهرت كل البدع : بدعة الفلاسفة ، وبدعة الرافضة ، وبدعة المعتزلة ، وبدعة المجبرة ، وبدعة أهل الحلول ، وبدعة أهل الاتحاد ، وبدعة الباطنية الإسماعيلية ، وبدعة النصرية والقرامطة ونحوهم .

وأما أهل السنة والجماعة فيردون بدعة كل طائفة من هؤلاء الطوائف بحمد الله ، فالأئمة متمسكون بالحق فى كل زمان ومكان ، والبلد الواحد من هذه الأمصار ، يجتمع فيها أهل السنة وأهل البدعة ، وهؤلاء يناظرون هؤلاء ويناضلونهم بالحجج والبراهين ، وظهر معنى قول النبى ﷺ : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل .

وقال ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذ فسد الناس » . وفى رواية : « يصلحون ما أفسد الناس » .

وقد صنف العلماء رحمهم الله فى بيان الاثنتين والسبعين فرقة عدة مصنفات وبينوا ما تنتحله كل فرقة من بدعتها المخالفة لما عليه أهل الفرقة

الناجية ، وليس على الفرقة الناجية شناعة ولا نقص فى مخالفة هذه الفرق كلها ، وإنما ظهر فضل هذه الفرقة بتمسكها بالحق ، وَصَبْرِها على مخالفة هذه الفرق الكثيرة ، والاحتجاج بالحق ونصرته ، وما ظهر فضل الإمام أبو حنيفة والإمام أحمد ، ومن قبلهما من الأئمة ومن بعدهما ، إلا بتمسكهم بالحق ونصرته ، وردهم الباطل ، وما ضر شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وأصحابه ، حين أجلب عليهم أهل البدع ، وآذوهم بل أظهر الله بهم السنة وجعل لهم لسان صدق فى الأمة ، وكذلك من قبلهم ومن بعدهم ، كشيخنا شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ، لما دعا إلى التوحيد ، وبين أدلته ، وبيّن الشرك وما يبطله ، وفيه قال الإمام العلامة الأديب أبو بكر حسين ابن غنام رحمه الله تعالى :

وعاد به نهج الغواية طامسا   وقد كان مسلوكاً به الناس ترتعُ
وجرت به نَجْدٌ ذيولَ افتخارها   وحق لها بالأمعى ترفـع
فآثاره فيها سوام سوافـرٍ   وأنواره فيها تضيىء وتسطـع

فهذا المعترض لو تصور وعقل ، لتبين له أن ما احتج به ، ينقلب حجة عليه ، وقول المعترض : وإن كان قد ورد فى حق أهل الحرمين ، فهذا ظاهر البطلان ، إذ هى مهبط الوحى ومنبع الإيمان ، ولو قيل : أن هذا الحديث وأمثاله ، وَرَدَ فى ذم نجد وأهلها ، فقد ورد فى ذمهم أحاديث كثيرة شهيرة منها قوله ﷺ : « لا يزالون فى شر من كذابهم إلى يوم القيامة » .

فالجواب : أن نقول : الأحاديث التى وردت فى غربة الدين وحدوث البدع وظهورها لا تختص بمكة والمدينة ، ولا غيرهما من البلاد ، والغالب أن كل بلد لا تخلو من بقايا متمسكين بالسنة ، فلا معنى لقوله : وإن كان قد ورد فى حق أهل الحرمين ، والواقع يشهد لما قلنا ، وقد حدث

فى الحرمين ، فى أواخر عهد الصحابة رضى الله عنهم ، بل وفى وقت الخلفاء الراشدين ، ما هو معروف عند أهل العلم مشهور فى السير والتاريخ ، وأول ذلك مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ثم وقعة الحرة المشهورة ، ومقتل ابن الزبير فى مكة ، وما جرى فى خلال ذلك من الفتن وصارت الغلبة فى الحرمين وغيرها لأهل الأهواء ، فإذا كان هذا وقع فى خير القرون ، فما ظنك فيما بعد حين اشتدت غربة الإسلام ، وعاد المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، فنشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير ، وأما قوله : إذ هى مهبط الوحى ومنبع الإيمان .

فالجواب : أن نقول مهبط الوحى فى الحقيقة ، قلب رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ ، فهذا محل الوحى ومستقره ، وقوله : ومنبع الإيمان ، الإيمان ينزل به الوحى من السماء ، لا ينبع من الأرض ، ومحله قلوب المؤمنين ، وهذه السورة المكية فى القرآن معلومة ، التى نزلت على النبى ﷺ ، وأكثر من فى مكة المشركون ، وفيها ذمهم والرد عليهم كقوله : ﴿ وكَذَّبَ به قومُك وهو الحق ﴾ . وقوله : ﴿ وهم يَنْهَوْن عنه ويَنْأَون عنه ﴾ . وقوله : ﴿ فإنهم لا يُكذِّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ ، ونحو هذه الآيات ، كما فى فُصِّلت والمدثر وغيرهما .

ثم هاجر النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وأهل الشرك لم يزالوا بها ، ومنعوا رسول الله ﷺ وأصحابه من دخولها بالوحى ، وقاتلوهم ببدر وأُحد والخندق ، وهم كانوا آخر العرب دخولاً فى الإسلام ، حاشا من هاجر وكل هذا بعد نزول الوحى ، ونحن بحمد الله لا ننكر فضل الحرمين ،

بل ننكر على من أنكره ، ولكن نقول الأرض لا تقدس أحداً وإنما يقدس المرءَ علمُه وعمَلُه ، فالمحل الفاضل قد يجتمع فيه المسلم والكافر ، وأهل الحق وأهل الباطل كما تقدم ، فأهل الحق يزدادون بالعمل الصالح فى محل الفضل لكثرة ثوابه ، وأهل الباطل لا يزيدهم ذلك إلا شراً ، تعظم فيه سيئاتهم ، كما قال تعالى فى حرم مكة : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ ، فإذا كان هذا الوعيد فى الإرادة فعمل السوء أعظم ، فالمعول عليه هو الإيمان والعمل الصالح ومحله قلب المؤمن ، والناس مجزيون بأعمالهم ، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشر ، وقوله : ولو قيل إن هذا الحديث ورد فى ذم نجد وأهلها إلى آخره .

فأقول : الذم إنما يقع فى الحقيقة على الحال لا على المحل ، والأحاديث التى وردت فى ذم نجد ، كقوله ﷺ : « اللهم بارك لنا فى يمننا ، اللهم بارك لنا فى شامنا » ، قالوا : وفى نجدنا ، قال : « هناك الزلازل والفتن ، وبها يطلع قرن الشيطان » ، قيل : إنه أراد نجد العراق ، لأن فى بعض ألفاظه ذكر المشرق ، والعراق شرقى المدينة ، والواقع يشهد له لا نجد الحجاز ، ذكره العلماء فى شرح هذا الحديث ، فقد جرى فى العراق من الملاحم والفتن ما لم يجرِ فى نجد الحجاز ، يعرف ذلك من له اطلاع على السير والتاريخ ، كخروج الخوارج بها الذين قاتلهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وكمقتل الحسين ، وفتنة ابن الأشعث ، وفتنة المختار وقد ادعى النبوة ، وقتال بنى أمية لمصعب بن الزبير وقتله ، وما جرى فى ولاية الحجاج ابن يوسف من القتل وسفك الدماء وغير ذلك مما يطول عهده وعلى كل حال فالذم يكون فى حال دون حال ، ووقت دون وقت بحسب حال الساكن ، لأن الذم إنما يكون للحال دون المحل ، وإن كانت الأماكن تتفاضل وقد تقع المداولة فيها ، فإن الله يداول بين خلقه حتى فى البقاع ،

فمحل معصية فى زمن قد يكون محل طاعة فى زمن آخر وبالعكس ، وأما قول المعترض منها قوله ﷺ : « لا يزالون فى شر من كذابهم » .

فالجواب : أن هذا من جملة كذبه على رسول الله ﷺ ، وجهله بالعلم لا يميز بين الحديث وغيره ، وهذا الكلام ورد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى نفر من بنى حنيفة ، سكنوا الكوفة فى ولاية ابن مسعود عليها ، وكانوا فى مسجد من مساجدها ، فسمع منهم كلمة تشعر بتصديق مسيلمة ، فأخذهم عبد الله بن مسعود وقتل كبيرهم ابن النواح ، وقال فى الباقين : لا يزالون فى بلية من كذابهم ، يعنى ذلك النفر فلا يذم نجد بنفر أحدثوا حدثاً فى العراق ، وقد أفنى الله كل من حضر مسيلمة فى القرن الأول ، ولم يبق بنجد من يصدق مسيلمة الكذاب ، بل من كان فى أواخر عهد الصحابة رضى الله عنهم ، ومن بعدهم بنجد يكفرون بمسيلمة ويكذبونه ، فلم يبق بنجد من فتنة مسيلمة لا عين ولا أثر ، فلو ذم نجد بمسيلمة بعد زواله وزوال من يصدقه لذم اليمن ، بخروج الأسود العنسى ، ودعواه النبوة ، وما ضر المدينة سكن اليهود فيها ، وقد صارت مهاجر رسول الله ﷺ وأصحابه ، معقل الإسلام ، وما ذمت مكة بتكذيب أهلها الرسول ﷺ ، وشدة عداوتهم له بل هى أحب أرض الله إليه ، فإذا كان الأمر كذلك فأرض اليمامة لم تعص الله ، وإنما ضرت المعصية ساكنيها بتصديقهم كذابهم ، وما طالت مدتهم على ذلك الكفر بحمد الله ، فطهر الله تلك البلاد منهم ومن سلم منهم من القتل دخل فى الإسلام ، فصارت بلادهم بلاد إسلام بُنِيَتْ فيها المساجد ، وأقيمت الشرائع ، وعُبِدَ الله فيها فى عهد الصحابة رضى الله عنهم وبعدهم ونفر كثير منهم ، مع خالد ابن الوليد ، لقتال العجم ، فقاتلوا مع المسلمين فنالت تلك البلاد من الفضل ما نال غيرها من بلاد أهل الإسلام ، على أنها تفضل على كثير من

البلاد ، بالحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه ، أن النبى ﷺ قال وهو بمكة لأصحابه : « أرأيت دار هجرتكم » فوصفها ، ثم قال : « فذهب وَهْلِىَ إلى أنها اليمامة أو يثرب » ، ورؤيا النبى ﷺ حق وكفى بهذا فضلاً لليمامة وشرفاً لها على غيرها ، فإن ذهاب وَهْله ﷺ فى رؤياه إليها لابد أن يكون له أثر فى الخير يظهر ، فظهر ذلك الفضل بحمد الله فى القرن الثانى عشر ، فقام الداعى يدعو الناس إلى ما دعت إليه الرسل من إفراد الله بالعبادة ، وترك عبادة ما سواه ، وإقامة الفرائض والعمل بالواجبات ، والنهى عن مواقعة المحرمات ، وظهر فيها الإسلام أعظم من ظهوره فى غيرها فى هذه الأزمان ، ولولا ذلك ما سَبَّ هؤلاء نجد واليمامة بمسيلمة .

إذا عُرِف ذلك فليعلم أن مسيلمة وبنى حنيفة إنما كفروا بجحودهم بعض آية من كتاب الله جهلاً أو عناداً ، وهذا المعترض وأمثاله جحدوا حقيقة ما بعث الله رسله من التوحيد الذى دلت عليه الآيات المحكمات ، التى تفوق الحصر ، وعصوا رسول الله ﷺ بارتكاب ما نهى عنه من الغلو والشرك ، فجوزوا أن يُدْعى مع الله غيره ، وقد نهى الله ورسوله عن ذلك فى أكثر سور القرآن وجوزوا أن يستعان بغير الله ، وقد نهى الله ورسوله عن ذلك ، وجوزوا الالتجاء إلى الغائبين والأموات والرغبة إليهم ، وقد نهى الله ورسوله عن ذلك أشد النهى ، وجعلوا لله شريكاً فى ملكه وربوبيته ، كما جعلوا له شريكاً فى إلهيته وجعلوا له شريكاً فى إحاطة العلم بالمعلومات كلياتها وجزئياتها ، وقد قال تعالى مبيناً لما اختص به من شمول علمه : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شىء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ ، إلى قوله : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ﴾ (الآيات) .

وهذه الأصول كلها فى الفاتحة ، يبين الله تعالى أنه هو المختص بذلك دون كل من سواه ، ففى قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ اختصاص الله بالحمد لكماله فى ربوبيته وإلهيته وملكه وشمول علمه وقدرته وكماله فى ذاته وصفاته ﴿ رب العالمين ﴾ ، هو ربهم وخالقهم ورازقهم ومليكهم ، والمتصرف فيهم بحكمته ومشيئته ، ليس ذلك إلا لَهُ . ﴿ مالك يوم الدين ﴾ فيه تفرده بالملك كقوله : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ ، وقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، فيه قصر العبادة عليه تعالى بجميع أفرادها ، وكذلك الاستعانة ، وفى ﴿ إياك نستعين ﴾ أيضاً توحيد الربوبية .

وهذه الأصول أيضاً فى ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ، فهو ربهم ورازقهم والمتصرف فيهم والمدبر لهم ، ﴿ ملك الناس ﴾ هو الذى له الملك كما فى الحديث الوارد فى الأذكار ، (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) ، وقوله : ﴿ إله الناس ﴾ هو مألوهم ومعبودهم لا معبود لهم سواه ، فأهل الإيمان خصوه بالإلهية ، وأهل الشرك جعلوا له شريكاً يألهونه بالعبادة ، كالدعاء والاستعانة والاستغاثة والالتجاء والرغبة والتعلق عليه ونحو ذلك .

وفى ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ، براءة النبى ﷺ من الشرك والمشركين ، ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ إلى قوله : ﴿ لكم دينكم ، ولى دين ﴾ فهذا هو التوحيد العملى وأساسه البراءة من الشرك والمشركين باطناً وظاهراً .

وفى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، توحيد العلم والعمل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، يعنى هو الله الواحد الأحد الذى لا نظير له ولا وزير ولا ند

ولا شبيه ولا عديل ، ولا يطلق هذا اللفظ فى الإثبات ، إلا على الله عز وجل ، لأنه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله ، وقوله ﴿ الله الصمد ﴾ ، قال عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه : يعنى الذى يصمد الخلائق إليه فى حوائجهم ومسائلهم .

قلت : وفيه توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية . وقال الأعمش عن شقيق عن أبى وائل : الصمد : السيد الذى قد انتهى سؤدده . وقال الحسن أيضاً : الصمد : الحى القيوم الذى لا زوال له . وقال الربيع بن أنس : هو الذى لم يلد ولم يولد ، كأنه جعل ما بعده تفسيراً له . وقال سفيان ابن منصور عن مجاهد : الصمد : المصمت الذى لا جوف له . قال أبو القاسم الطبرانى فى كتاب السنة : وكل هذه صحيحة وهى صفات ربنا عز وجل . وقال مجاهد : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ، يعنى لا صاحبة له ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ ، أى هو مالك كل شيء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه ، أو قريب يدانيه تعالى وتقدس وتنزه .

قلت : فتدبر هذه السورة وما فيها من توحيد الإلهية والربوبية ، وتنزيه الله عن الشريك والشبيه والنظير ، وما فيها من مجامع صفات كماله ونعوت جلاله ، ومن له بعض تصور يدرك هذا بتوفيق الله ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ .

وأما قول المعترض المجيب ، ونوع الشرك جرى فى زمن شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه الله تعالى ، أقول : هذه البردة متقدمة على زمن شيخ الإسلام ومع هذا لم ينقل عنه فيها كلمة واحدة .

فالجواب : تقدم البردة على زمن شيخ الإسلام، إن كان كذلك فماذا يجدى عليه ، وما الحجة منه على جواز الشرك ، وأيضاً فشهادته هذه على شيخ الإسلام غير محصورة فلا تُقْبل ، وهو لم يطلع إلا على النزر اليسير من كلام شيخ الإسلام ، ولم يفهم معنى ما أطلع عليه ، وهو فى شق وشيخ الإسلام فى شق ، وليس فى كلام شيخ الإسلام إلا ما هو حجة على هذا المعترض ، لكنه يتعلق فى باطله بمثل خيط العنكبوت ، فإن كان يقنعه كلام شيخ الإسلام رحمه الله ، المؤيد بالبرهان فقد تقدم من كلامه ما يكفى ويشفى فى تميز الحق من الباطل ، وكلامه رحمه الله فى أكثر كتبه يبين هذا الشرك وينكره ويرده ، كما رد على البكرى حين جوز الاستغاثة بغير الله ولا يشك من له أدنى مسكة من عقل وفهم أن كلام صاحب البردة داخل تحت كلام شيخ الإسلام فى الرد عليه والإنكار ، وأنا أُورِد هنا جواباً لشيخ الإسلام عن سؤال من سأله عن نوع هذا الشرك وبعض أفراده، فأتى بجواب عام شامل كاف واف .

قال السائل : ما قول علماء المسلمين فيمن يستنجد بأهل القبور ويطلب منهم إزالة الألم ، ويقول يا سيدى أنا فى حسبك وفيمن يستلم القبر ، ويمرغ وجهه عليه ويقول : قضيت حاجتى ببركة الله وبركة الشيخ ونحو ذلك .

الجواب : الحمد لله رب العالمين ، الدين الذى بعث الله به رسله وأنزل به كتبه وهو عبادة الله وحده لا شريك له واستعانته والتوكل عليه ودعاؤه بجلب المنافع ودفع المضار ، كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾ (الآيات) . وقال تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وادعوه مخلصين له الدين ﴾ . وقوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من

دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾ (الآيات) .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يَدْعُون المسيحَ وعُزَيْراً أو الملائكة ، قال تعالى : هؤلاء الذين تدعون عبادى يرجون رحمتى ، كما ترجون رحمتى ، ويخافون عذابى كما تخافون عذابى فإذا كان هذا حال من يدعو الأنبياء والملائكة فكيف بمن دونهم . قال تعالى : ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ﴾ (الآية) . وقال : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ، فبيّن سبحانه أنه من دُعِيَ من دون الله من جميع المخلوقات الملائكة والبشر وغيرهم ، أنهم لا يملكون مثقال ذرة فى ملكه ، وأنه ليس له شريك فى ملكه ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وأنه ليس له عون كما يكون للملك أعوان وظهراء ، وأن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا لمن ارتضى ، فنفى بذلك وجوه الشرك ، وذلك أن من دُعِي من دونه ، إما أن يكون مالكاً ، وإما أن لا يكون مالكاً ، وإذا لم يكن مالكاً ، فإما أن يكون شريكاً ، وإما أن لا يكون شريكاً، وإذا لم يكن شريكاً ، فإما أن يكون معاوناً ، وإما أن يكون سائلاً طالباً ، فأما الرابع ، فلا يكون إلا من بعد إذنه ، كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ وكم من مَلَكٍ فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ، قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ﴾ ،

إلى قوله : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ .

فبين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً كان كافراً ، فكيف بمن اتخذ من دونهم من المشائخ وغيرهم أرباباً ، فلا يجوز أن يقول لملك ولا لنبي ولا لشيخ سواء كان حياً أو ميتاً : اغفر ذنبي وانصرني على عدوي أو أشف مريضي أو ما أشبه ذلك ، ومن سأل ذلك مخلوقاً كائناً من كان فهو مشرك بربه من جنس المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والتماثيل التى يصورونها على صورهم ، ومن جنس دعاء النصارى للمسيح وأمه .

قال تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ﴾ . والآية الثانية ، وقال : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ .

وإن قال : أنا أسأله لأنه أقرب منى إلى الله ليشفع لى لأنى أتوسل إلى الله به ، كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه ، فهذا من أفعال المشركين والنصارى ، فإنهم يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم فى مطالبهم ، ولذلك أخبر الله عن المشركين ، أنهم قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

وقد قال سبحانه : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء ﴾ ، إلى قوله : ﴿ ترجعون ﴾ . وقال : ﴿ ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ . وقال : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ .

فبين الفرق بينه وبين خلقه ، فإن من عادة الناس أن يستشفعوا إلى الكبير بمن يكرم عليه ، فيسأله ذلك الشافع فيقضى حاجته ، إما رغبة وإما رهبة وإما حياء وإما غير ذلك ، فالله سبحانه لا يشفع عنده أحدٌ حتى يأذن هو للشافع ، فلا يفعل إلا ما يشاء ، وشفاعة الشافع عن إذنه والأمر كله لله ، فالرغبة يجب أن تكون إليه ، كما قال تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ ، والرهبة تكون منه ، قال تعالى : ﴿ وإياى فارهبون ﴾ ، وقال : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾ ، وقد أمرنا أن نصلى على النبى ﷺ فى الدعاء ، وجعل ذلك من أسباب إجابة دعائنا .

وقول كثير من الضُّلَّال هذا أقرب إلى الله منى وأنا بعيد منه ، ولا يمكن أن ندعوه إلا بهذه الواسطة ونحو ذلك ، هو من قول المشركين ، والله تعالى يقول : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ . وقد روى أن الصحابة رضى الله عنهم ، قالوا : يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ، فنزلت الآية .

وقد أمر الله العباد كلهم بالصلاة ، ومناجاته ، وأمر كلا منهم أن يقول : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

ثم يقال لهذا المشرك : أنت إذا دعوت هذا ، فإن كنت تظن أنه أعلم بحالك ، أو يقدر على سؤالك ، أو أرحم بك من ربك ، فهذا جهل وضلال وكُفْر ، وإن كنت تعلم أن الله تعالى أعلم وأقدر وأرحم ، فلماذا عدلتَ عن سؤاله إلى سؤال غيره ، وإن كنت تعلم أنه أقرب إلى الله منك وأعلى منزلة عند الله منك ، فهذا حق أريد به باطل ، فإنه إذا كان أقرب منك وأعلى درجة ، فإن معناه أن يثيبه ويعطيه ، ليس معناه أنك إذا دعوته كان الله عند قضاء حاجتك أعظم مما يقضيها إذا دعوته أنت ، فإنك إن

كنت مستحقاً للعقاب ورد الدعاء ، فالنبى والصالح لا يعين على ما يكره الله ، ولا يسعى فيما يبغضك إليه ، وإن لم يكن كذلك فالله أولى بالرحمة والقبول منه ، فإن قلت هذا إذا دعا الله أجاب دعاءه أعظم مما يجيب إذا دعوته أنا .

فهذا القسم الثانى ، وهو أن يطلب منه الفعل ، ولا يدعوه ، ولكن يطلب أن يدعو له ، كما يقال للحى ، ادع لى ، وكما كان الصحابة يطلبون من النبى ﷺ الدعاء ، فهذا مشروع فى الحى ، وأما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم ، فلم يشرع لنا أن نقول ادع لنا واسأل لنا ربك ونحو ذلك ، ولم يفعل ذلك أحد من الصحابة ولا التابعين ، ولا أمر به أحد من الأئمة ، ولا ورد فى ذلك حديث بل الذى ثبت فى الصحيح أنهم لما أجدبوا زمن عمر استسقى بالعباس رضى الله عنهما ، فقال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون فلم يجيئوا إلى قبر النبى ﷺ قائلين : يا رسول الله ادع الله لنا ، أو استق لنا ونحن نشكو إليك ما أصابنا ونحو هذا ، ولم يقله أحد من الصحابة قط ، بل هو بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، بل كانوا إذا جاءوا عند قبر النبى ﷺ يسلمون عليه ، ثم إذا أرادوا الدعاء لم يدعوا الله مستقبلى القبر ، بل ينحرفون فيستقبلون القبلة ، ويدعون الله وحده لا شريك له ، كما كانوا يدعونه فى سائر البقاع .

وفى الموطأ وغيره أن النبى ﷺ قال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعْبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وفى السنن أيضاً أنه قال : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، وصلوا علىَّ حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى » . وفى الصحيح أنه قال فى مرضه الذى

لم يقم منه : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذر ما فعلوا . قالت عائشة رضى الله عنها : ولولا ذلك لأبرز قبره لكن خشى أن يُتَّخَذَ مسجداً .

وفى سنن أبى داود عنه ، أنه قال : « لعن الله زوارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج .

ولهذا قال العلماء : لا يجوز بناء المساجد على القبور ، وقالوا : إنه لا يجوز أن ينذر لقبر ولا للمجاورين عند القبر ، لا من دراهم ولا زيت ولا شمع ولا حيوان ولا غير ذلك كله نذر معصية ، ولم يقل أحد من أئمة المسلمين إن الصلاة عند القبر فى المساجد مستحبة ، ولا الدعاء هناك أفضل ، بل اتفقوا كلهم على أن الصلاة فى المساجد وفى البيوت أفضل من الصلاة عند قبر ، لا قبر نبى ولا صالح سواء سُمِّيت مشاهد أم لا ، وقد شرع الله ذلك فى المساجد دون المشاهد .

وقال : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ﴾ ، ولم يقل فى المشاهد ، وقال تعالى : ﴿ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ .

وذكر البخارى فى صحيحه ، والطبرى وغيره فى تفاسيرهم فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وداً ولا سُواعاً ، ولا يغوثَ ويعوقَ ونسرا ﴾ ، قالوا هذه أسماء رجال صالحين فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم طال عليهم الأمد فاتخذوا تماثيلهم أصناماً ، فالعكوف على القبور والتمسح بها وتقبيلها والدعاء عندها ، هو أصل الشرك وعبادة الأوثان .

ولهذا اتفق العلماء على أن من زار قبر النبى ﷺ ، أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين ، فإنه لا يتمسح به ولا يقبله ، وليس فى الدين ما شرع تقبيله إلا الحجر الأسود .

وقد ثبت فى الصحيحين أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : والله إنى لأعلم أنك حجرٌ لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يُقَبِّلك ما قَبَّلتُك .

ولهذا لا يُسَنُّ أن يُقبِّل الرجل ركنى البيت اللذين يليان الحجر ولا يستلمهما ، ولا مقام إبراهيم ، ولا صخرة بيت المقدس ، ولا قبر أحد من الأنبياء والصالحين . انتهى .

وقال رحمه الله فى الرد على البكرى بعد كلام له سبق : لكن من هو الذى جعل الاستغاثة بالمخلوق ودعاءه ، سبباً فى الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله ، ومن الذى قال إنك إذا استغثت بميت أو غائبٍ من البشر كان نبياً أو غير نبى ، كان ذلك سبباً فى حصول الرزق والنصر والهدى وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله ، ومن الذى شرع ذلك وأمر به ، ومن الذى فعل من الأنبياء والصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فإن هذا المقام يحتاج إلى مقدمتين :

إحداهما : أن هذه أسباب لحصول المطالب التى لا يقدر عليها إلا الله ، **والثانية** : أن هذه الأسباب مشروعة لا يحرم فعلها ، فإنه ليس كل ما كان سبباً كونياً يجوز تعاطيه ، إلى أن قال : وهذا المقام مما يظهر به ضلال هؤلاء المشركين خلقاً وأمراً ، فإنهم مطالبون بالأدلة الشرعية على أن الله شرع لخلقه أن يسألوا ميتاً أو غائباً ، وأن يستغيثوا به سواء كان ذلك عند قبره أو لم يكن عند قبره ، بل نقول سؤال الميت والغائب نبياً كان

أو غير نبى ، من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين ، لم يأمر الله به ولا رسوله ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين فإن أحداً منهم ما كان يقول إذا نزلت به شدة أو عرضت له حاجة لميت ، يا سيدى فلان أنا فى حسبتك أو أقض حاجتى ، كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى والغائبين ، ولا أحد من الصحابة استغاث بالنبى ﷺ بعد موته ، ولا بغيره من الأنبياء لا عند قبورهم ، ولا إذا بعدوا عنها ، بل ولا أقسم بمخلوق على الله أصلاً ، ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأنبياء ولا قبور غير الأنبياء ، ولا الصلاة عندها وقد كره العلماء كمالك وغيره ، أن يقوم الرجل عند قبر النبى ﷺ يدعو لنفسه ، وذكروا أن هذا من البدع التى لم يفعلها السلف ، وأما ما يروى عن بعضهم أنه قال : قبر (معروف) الترياق المجرب ، وقول بعضهم : فلان يُدْعى عنده قبره ، وقول بعض الشيوخ : إذا دعت حاجة فاستغث بى ، أو قال : استغث عند قبرى ونحو ذلك ، فإن هذا قد وقع فيه كثير من المتأخرين وأتباعهم ، ولكن هذه الأمور كلها بدع محدثة فى الإسلام بعد القرون المفضلة ، وكذلك المساجد المبنية على القبور التى تسمى المشاهد ، محدثة فى الإسلام ، والسفر إليها محدث فى الإسلام ، لم يكن شيء من ذلك فى القرون الثلاثة المفضلة ، بل ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ ، أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذر ما فعلوا . قالت عائشة رضى الله عنها : ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كَرِه أن يُتَّخَذَ مسجدا .

وثبت فى الصحيح عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألَا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » . وقد تقدم أن عمر لما أجدبوا استسقى بالعباس ، فقال :

اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون ، فلم يذهبوا إلى القبر ولا توسلوا بميت ، ولا غائب ، بل توسلوا بالعباس ، وكان توسلهم به توسلاً بدعائه كالإمام مع المأموم ، وهذا تعذر بموته .

فأما قول القائل عن ميت من الأنبياء والصالحين : اللهم إنى أسألك بفلان ، أو بجاه فلان أو بحرمة فلان ، فهذا لم ينقل لا عن النبى ﷺ ، ولا عن الصحابة ولا التابعين ، وقد نص غير واحد من العلماء أنه لا يجوز فكيف يقول القائل للميت : أنا أستغيث بك وأستجيرك وأنا فى حسبك أو سل الله لى ونحو ذلك .

فتبين أن هذا ليس من الأسباب المشروعة لو قدر أن له تأثيراً ، فكيف إذا لم يكن له تأثير صالح ، وذلك أن من الناس الذين يستغيثون بغائب ، أو ميت من تتمثل له الشياطين ، وربما كانت على صورة ذلك الغائب ، وربما كلمته وربما قُضِيتْ له أحياناً بعض حوائجه كما تفعل شياطين الأصنام ، فإن أحداً من الأنبياء والصالحين لم يعبد فى حياته إذ هو ينهى عن ذلك ، وأما بعد الموت ، فهو لا ينهى ، فيفضى ذلك إلى اتخاذ قبره وثناً يعبد .

ولهذا قال النبى ﷺ : « لا تتخذوا قبرى عيداً » إلى آخره ، وقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعْبَد » .

وقال غير واحد من السلف فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ﴾ (الآية) : إن هؤلاء كانوا قوماً صالحين فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم ،

ولهذا المعنى لعن النبى ﷺ الذين اتخذوا قبور الأنبياء والصالحين مساجد . انتهى .

وأخرج ابن أبى شيبة عن الزبير أنه رأى قوماً يمسحون المقام فقال : لم تُؤْمروا بهذا ، إنما أُمِرْتم بالصلاة عنده . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ، فى قول الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ قال : إنما أُمِرُوا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه ، ولقد تكلفت هذه الأمة أشياء ما تكلفته الأمم قبلها .

فإن كان المعترض يستدل بكلام شيخ الإسلام ، فهذا صريح كلامه المؤيد بالأدلة والبراهين ، وكلام العلماء كمثل كلام الشيخ فى هذا المعنى كثيرٌ جداً ، ولو ذكرناه لطال الجواب ، وأما قول المعترض : بل مدح الصرصرى وأثنى عليه بقوله : قال الفقيه الصالح يحيى بن يوسف الصرصرى فى نظمه المشهور .

فالجواب : أن هذا من جملة أكاذيب المعترض على شيخ الإسلام وغيره ، وقد كذب على الإقناع والشفا ، وليس فى الكتابين إلا ما يبطل قوله ، وفى الحديث : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ، وإلا فكلام شيخ الإسلام فى رد ما يقوله الصرصرى وإنكاره موجود بحمد الله . قال رحمه الله ، فى رده على ابن البكرى بعد وجهين ذكرهما .

الثالث : أنه أدرج سؤاله أيضاً فى الاستغاثة به وهذا جائز فى حياته لكنه أخطأ فى التسوية بين المحيا والممات ، وهذا ما علمته ينقل عن أحد العلماء ، ولكنه موجود فى كلام بعض الناس ، مثل الشيخ الصرصرى ففى شعره قطعة ، وكمحمد بن النعمان ، وهؤلاء لهم دين وصلاح لكنهم ليسوا

من أهل العلم العالمين بمدارك الأحكام الذين يؤخذ بقولهم فى شرائع الإسلام ، وليس معهم دليل شرعى ولا نقل عن عالم مرضى ، بل عادة جروا عليها كما جرت عادة كثير من الناس ، بأنه يستغيث بشيخه فى الشدائد ويدعوه ، وأكثرهم من يأتى إلى قبر الشيخ يدعوه ويدعو به ويدعو عنده ، وهؤلاء ليس لهم مستند شرعى من كتاب الله أو سنة رسوله أو قول عن الصحابة والأئمة ، وليس عندهم إلا قول طائفة أخرى ، قبر معروف ترياق مجرب ، والدعاء عند قبر الشيخ مجاب ونحو ذلك ، ومعهم أن طائفة استغاثوا بحى أو ميت فرأوه قد أتى فى الهواء ، وقضى بعض تلك الحوائج ، وهذا كثير واقع فى المشركين الذين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين أو الكواكب والأوثان ، فإن الشياطين كثيراً ما تتمثل لهم فيرونها ، وأنها قد تخاطب أحدهم ولا يراها ، ولو ذكرت ما أعلم من الوقائع الموجودة فى زماننا لطال المقال ، وكلما كان القوم أعظم جهلاً وضلالاً ، كانت هذه الأحوال الشيطانية عندهم أكثر ، وقد يأتى الشيطان أحدهم بمالٍ أو لباسٍ أو غير ذلك ، وهو لا يرى أحداً أتاه به فيحسب ذلك كرامة ، وإنما هو من الشيطان ، وسببه شركه بالله ، وخروجه عن طاعة الله ورسوله إلى طاعة الشيطان ، فأضلتهم الشياطين بذلك ، كما كانت تضل عُبَّاد الأصنام ، انتهى ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله ، من إنكاره ما فى شعر الصرصرى وغيره من هذه الأمور الشركية وبيّن أسبابها .

وأما قول المعترض : وفيه توسل عظيم ، إن لم يزد على قول صاحب البردة لم ينقص عنه .

فالجواب : أن هذا من عدم بصيرته وكبير جهله ، فإن من له أدنى معرفة وفهم ، يعلم أن بين قول صاحب البردة وقول الصرصرى فى أبياته

تفاوتاً بعيداً ، فقد نبهنا على ما يقتضيه كلام صاحب البردة من قصر الإلهية والربوبية والملك ، وشمول العلم على عبد شرَّفه الله بعبوديته ورسالته ، ودعوة الخلق إلى عبادته وحده ، وجهاد الناس على ذلك ، زبلّغ الأمة ما أنزله الله تعالى عليه فى الآيات المحكمات ، فى تجريد التوحيد ، والنهى عن الشرك ووسائله كما قدمنا الإشارة إليه .

وأما الصرصرى ، ففى كلامه التوسل بالنبى ﷺ ، والاستغاثة به بلا قصر ولا حصر للاستغاثة ، والاستعانة فى جانب المخلوق وقد أنكره شيخ الإسلام رحمه الله ، وذكر أنه لا دليل من كتاب ولا سنة عليه ولا قال به أحد من الصحابة والتابعين والأئمة .

وقد بين رحمه الله أن استغاثة الحى بالحى إنما هى بدعائه وشفاعته ، وأما الميت والغائب فلا يجوز أن يستغاث به وكذلك الحى فيما لا يقدر عليه إلا الله ، وأن أهل الإشراك ليس معهم إلا الجهل والهوى ، وعوائد نشأوا عليها بلا برهان ، وقد عرفت أن هذا المعترض لم يأت إلا بشبهات واهية ، وحكايات سوفسطائية أو منامات تضليلية ، كما قال كعب بن زهير :

فلا يغرنْكَ ما مَنَّتْ وما وَعَدَتْ ... إن الأمانىَّ والأحلامَ تضليلُ

وليس مع هؤلاء المشركين إلا دعوى مجردة محشوة بالأكاذيب ، وليس معهم بحمد الله دليل من كتاب أو سنة أو قول واحد من سلف الأمة وأئمتها ، وقد جئناهم بأدلة الكتاب والسنة ، وما عليه الصحابة والأئمة ، ولو استقصينا ذكر الأدلة وبسط القول لاحتمل مجلداً ضخماً .

وسبب الفتنة بقصائد هؤلاء المتأخرين كقصائد البوصيرى والبرعى واختيارها على قصائد شعراء الصحابة كحسان بن ثابت ، وكعب ابن

مالك ، وكعب بن زهير وغيرهم من شعراء الصحابة رضى الله عنهم ، وفيها من شواهد اللغة والبلاغة ما لم يدرك هؤلاء المتأخرون منه عُشْر المعشار ، وما ذاك إلا لأن قصائد هؤلاء المتأخرين تجاوزوا فيها الحد إلى ما يكرهه الله ورسوله ، فزيَّنَها الشيطان فى نفوس الجُهَّال والضُّلَّال فمالت إليهم نفوسهم عن قصائد الصحابة التى ليس فيها إلا الحق والصدق ، وما قصروا فيها جهدهم عما يصلح أن يمدح به رسوله ﷺ ، وتحروا فيها ما يرضيه وتجنبوا ما يسخطه ﷺ ، وما نهى عنه من الغلو ، فما أشبه هؤلاء بقول أبى الوفا ابن عقيل وهو فى القرن الخامس : لما صعبت التكاليف على الجهال الطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم ، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم .

قال : وهم عندى كفار بهذه الأوضاع إلى آخره ومما يتعين أن نختم به هذا الجواب .

فصل : ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله ونفعنا بعلومه ، قال بعد أن ذكر زيارة الموحدين للقبور وأن مقصودها ثلاثة أشياء :

أحدها : تذكير الآخرة والاعتبار والاتعاظ . **الثانى** : الإحسان إلى الميت وأن لا يطول عهده فيتناساه ، فإذا زاره أو أهدى إليه هدية من دعاء أو صدقة ، ازداد بذلك سروره وفرحه ، ولهذا شرع النبى ﷺ للزائرين أن يدعو لأهل القبور بالمغفرة والرحمة ، وسؤال العافية فقط .

ولم يشرع أن يدعوهم ولا يدعو بهم ولا يصلى عندهم .

الثالث : إحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة والوقوف عند ما شرعه الرسول ﷺ ، وأما الزيارة الشركية ، فأصلها مأخوذ من عُبَّاد الأصنام ، قالوا : الميت المعظم الذى لروحه قرب ومزية عند الله ، لا يزال

تأتيه الألطاف من الله ، وتفيض على روحه الخيرات ، فإذا علق الزائر روحه به وأدناها ، فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها ، كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء على الجسم المقابل له .

قالوا : فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت ، ويعكف بهمته عليه ، ويوجه قصده كله وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره ، وكلما كان جمع القلب والهمة عليه أعظم ، كان أقرب إلى الانتفاع به ، وقد ذكر هذه الزيارة ابن سينا والفارابى ، وغيرهما وصرح بها عُبّاد الكواكب فى عبادتها ، وهذا بعينه هو الذى أوجد لعُبّاد القبور اتخاذها أعياداً وتعليق الستور عليها ، وإيقاد السرج وبناء المساجد عليها ، وهو الذى قصد رسول الله ﷺ إبطاله ومحوه بالكلية ، وسد الذرائع المفضية إليه ، فوقف المشركون فى طريقه وناقضوه فى قصده ، وكان رسول الله ﷺ فى شق ، وهؤلاء فى شق ، وهذا الذى ذكره هؤلاء فى زيارة القبور والشفاعة التى ظنوا أن إلهتهم تنفعهم بها ، وتشفع لهم عند الله قالوا فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله ، وتوجه بهمته إليه وعكف بقلبه عليه ، صار بينه وبينه اتصال يفيض عليه نصيب مما يحصل له من الله ، وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه وحظوة وقرب من السلطان ، وهو شديد التعلق به فما يحصل لذلك من السلطان ، من الإنعام والأفضال ينال ذلك المتعلق به بحسب تعلقه به ، فهذا سر عبادة الأصنام ، وهو الذى بعث الله رسله ، وأنزل كتبه بإبطاله ، وتكفير أصحابه ، ولعنهم وأباح دماءهم وأموالهم ، وسبى ذراريهم وأوجب لهم النار ، والقرآن من أوله إلى آخره مملوء بالرد على أهله وإبطال مذهبهم .

قال الله تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ، قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾ .

فأخبر أن الشفاعة لمن له مُلْك السموات والأرض وهو الله وحده ، وهو الذى يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه ، فصارت الشفاعة فى الحقيقة إنما هى له ، والذى يشفع عنده إنما يشفع بإذنه وأمره ، بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه ، وهى إرادته من نفسه أن يرحم عبده ، وهذا ضد الشفاعة الشركية التى أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم ، وهى التى أبطلها الله سبحانه بقوله : ﴿ واتقوا يوماً لا تَجْزِى نفسٌ عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ﴾ .

وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يُحْشَروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ﴾ .

وأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيع من دونه ، بل إذا أراد سبحانه رحمته بعبده أذن هو لمن يشفع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ . وقال تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ .

فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه ، ولا الشافع شفيع من دونه ، بل يشفع بإذنه ، والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور ، فالشفاعة التى أبطلها شفاعة الشريك فإنه لا شريك له ، والتى أثبتها شفاعة العبد المأمور الذى يشفع ولا يتقدم بين يدى مالكه حتى يأذن له ، ويقول اشفع فى فلان ، ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء

يوم القيامة أهل التوحيد ، الذين جردوا التوحيد وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه ، وهم الذين ارتضى الله سبحانه .

قال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يومئذٍ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورَضِيَ له قولا ﴾ ، فأخبر أنه لا تحصل يومئذٍ شفاعة تنفع إلا بعد رضا قول المشفوع له ، وإذنه للشافع فأما المشرك فإنه لا يرضاه ولا يرضى قوله ، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه فإنه سبحانه علقها بأمرين : رضاه عن المشفوع له وإذنه للشافع ، فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة .

وسر ذلك أن الأمر كله لله وحده فليس لأحد معه من الأمر شيء ، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده هم الرسل والملائكة المقربون ، وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول ، ولا يتقدمون بين يديه ، ولا يفعلون شيئاً إلا من بعد إذنه لهم ، ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، فهم مملوكون مربوبون ، أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه ، فإذا أشركهم به المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظناً منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله ، فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وما يجب له ويمتنع عليه ، فإن هذا محال ممتنع يشبه قياس الرب سبحانه على الملوك والكبراء ، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم فى الحوائج .

وبهذا القياس الفاسد عُبِدَتْ الأصنام واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولى ، والفرق بينهما ، هو الفرق بين الخالق والمخلوق ، والرب والمربوب ، والسيد والعبد ، والمالك والمملوك ، والغنى والفقير ، والذى لا حاجة به إلى أحد قط والمحتاج من كل وجه إلى غيره ، فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم فإن قيام مصالحهم بهم ، وهم أعوانهم وأنصارهم

الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم ، ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم فى الناس ، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم ، وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع ، لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم فينتقص طاعتهم لهم ، ويذهبون إلى غيرهم فلا يجدون بُدّاً من قبول شفاعتهم على الكره والرضا .

فأما الذى غناه من لوازم ذاته ، وكل ما سواه فقير إليه لذاته ، وكل من السموات والأرض عبيد له مقهورون لقهره مصرفون بمشيئته لو أهلكهم جميعاً ، لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة .

قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئاً ، إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ، ولله ملك السموات والأرض ﴾ ، قال فى سيدة آى القرآن آية الكرسى : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ، له ملك السموات والأرض ﴾ ، فأخبر أن مَنْ ملكُه السموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده ، وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه ، فإنه ليس بشريك بل مملوك محض ، بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض .

فتبين أن الشفاعة التى نفاها الله سبحانه فى القرآن هى هذه الشفاعة الشركية التى يفعلها بعضهم مع بعض ، ولهذا يطلق نفيها تارة بناء على أنها هى المعروفة عند الناس ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بإذنه ، وهذه الشفاعة فى الحقيقة هى منه ، فإنه الذى أذِنَ ، والذى قَبِل ، والذى رَضِى عن المشفوع ، والذى وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة ، وقوله : فمتخذ الشفيع لا تنفعه شفاعته ، ولا يشفع فيه ، ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده

ومحبوبه ومرجوه ومخوفه الذى يتقرب إليه وحده ، ويطلب رضاه ويتباعد من سخطه ، هو الذى يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع له .

قال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

فبين سبحانه أن متخذى الشفعاء مشركون ، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم .

وسر الفرق بين الشفاعتين أن شفاعة المخلوق للمخلوق وسؤاله للمشفوع عنده لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده لا خلقاً ولا أمراً ولا إذناً ، بل هو سبب محرك له من خارج كسائر الأسباب ، وهذا السبب المحرك قد يكون عند المحرك لأجله ما يوافقه كمن يشفع عنده فى أمر يحبه ويرضاه وقد يكون عنده ما يخالفه ، كمن يشفع إليه فى أمر يكرهه ، ثم قد يكون سؤاله وشفاعته أقوى من المعارض فيقبل شفاعة الشافع ، وقد يكون المعارض الذى عنده أقوى من شفاعة الشافع ، فيردها ، وقد يتعارض عنده الأمران ، فيبقى متردداً بين ذلك المعارض الذى يوجب الرد ، وبين الشفاعة التى تقتضى القبول ، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح ، وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه وتعالى فإنه لم يخلق شفاعة الشافع ، ويأذن له فيها ويحبها منه ويرضى عن الشافع ، لم يكن أن توجد ، والشافع لا يشفع عنده بمجرد امتثال أمره وطاعته له ، فهو مأمور بالشفاعة مطيع بامتثال الأمر ، فإنَّ أحداً من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئة الله وخلقه .

فالرب تعالى هو الذى يحرك الشفيع حتى يشفع ، والشفيع عند المخلوق هو الذى يحرك المشفوع إليه حتى يقبل ، والشافع عند المخلوق مستغن عنه فى أكثر أموره ، وهو فى الحقيقة شريكه ولو كان مملوكه وعبده ، فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله من النفع والنصر والمعاونة وغير ذلك ، كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله من رزق أو نصر أو غيره ، فكل منهما محتاج إلى الآخر ، ومن وفقه الله لفهم هذا الموضع تبين له حقيقة التوحيد والشرك ، والفرق بين ما أثبت الله من الشفاعة وما نفاه وأبطله ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ، ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ، وبما عليه أهل الشرك والبدع اليوم علم أن بين السلف وبين هؤلاء الخلوف أبعد مما بين المشرق والمغرب ، وأنهم على شىء ، والسلف على شىء ، كما قيل :

سارتْ مُشَرِّقَةً وسِرتُ مُغَرِّباً   شتان بين مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبِ

والأمر والله أعظم مما ذكرنا . انتهى . وبه كَمُل الجواب والحمد لله الذى هدانا لدينه الذى رضيه لعباده وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وصلى الله على محمد النبى الأمى وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً جزيلاً وفياً وافرا .

تمــــت

ويليها قاعدة جلية فى العبادة تفسيراً لقوله عز وجل :

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكــم ﴾

قسمى العبودية تأليف الشيخ الإمام العالم الربانى أوحد العلماء الزهاد

تقى الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام

ابن تيميـــة رحمــه الله

قاعدة جليلة فى العبادة

تفسيراً لقوله عز وجل : يا أيها الناس اعبدوا ربكم .

قسمي العبودية

تأليف الشيخ الإمام العالم الرباني أوحد
العلماء الزهاد تقي الدين أبي العباس أحمد
ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية
رحمه الله أملاها بالقاهرة

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

وبه نستعين : سئل شيخ الإسلام وناصر السنّة فريد وقته وبحر العلوم كنز المستفيدين وبقية المجتهدين الإمام الحجة الربانى أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبدالسلام ابن تيمية ، أدام الله علو قدره فى الدارين ، وجعله يتسنّم ذروة الكمال مسرور القلب قرير العين ، عن مهمّاتٍ من جملتها ، قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ ، فما العبادة وفروعها وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا ، وحقيقة العبودية وهل هى أعلى المقامات فى الدنيا والآخرة ، أم فوقها شئ من المقامات ، وليبسط القول .

فأجاب رحمه الله ، الحمد لله رب العالمين ، العبادة اسم « جامع » لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين ، وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد للكفّار والمنافقين ، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه ، والرضاء بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك هى العبادة ، وذلك أن العبادة لله هى الغاية المحبوبة لله والمرضية له ، التى خَلَق الخلق لها .

قال تعالى : ﴿ وما خلقتُ الجنَّ والإنْسَ إلا ليعبدون ﴾ .

وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح لقومه : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم .

وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمّة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم ﴾ ، وجعل ذلك لازماً لرسوله ﷺ إلى الموت ، كما قال : ﴿ واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين ﴾ ، وبذلك وصف ملائكته وأنبيائه ، فقال تعالى : ﴿ وله من فى السموات ومن فى الأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يَفْتُرون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فالذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ ، وذمّ المستكبرين عنها بقوله : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ونعت صفوة خلقه بالعبودية له ، فقال تعالى : ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجّداً وقياماً ﴾ .

ولما قال الشيطان : ﴿ فبما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ إن عبادى ليس

لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ . وقال فى وصف الملائكة بذلك : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عبادٌ مُكْرَمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئاً إدّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا ، أن دَعَوْا للرحمن ولداً ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ، إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدّهم عدّا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ .

وقال تعالى عن المسيح الذى ادُّعِيَتْ فيه الألوهية والنبوة : ﴿ إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ﴾ ، ولهذا قال ﷺ فى الحديث الصحيح لا تُطْرونى كما أُطْرَتْ النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله .

وقد نعته الله بالعبودية فى أكمل أحواله ، فقال فى سورة الإسراء : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ﴾ ، وقال تعالى فى الإيحاء : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ ، وقال فى الدعوة : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ ، وقال فى التحدى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ . فالدين كله داخل فى العبادة .

وقد ثبت فى الصحيح أن جبرائيل ، لما جاء إلى النبى ﷺ فى صورة أعرابى وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال فما الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره

وشره ، قال فما الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، ثم قال فى آخر الحديث هذا جبرائيل جاءكم يعلمكم دينكم ، فجعل هذا كله من الدين ، والدين يتضمن معنى الخضوع والذل ، يقال دِنْته فدان أى ذَلَّلْتُه فذل ، ويقال ندين الله وندين لله أى نعبد الله ونطيعه ونخضع له ، فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له ، والعبادة أصل معناها الذل أيضاً ، يقال طريق معبد إذا كان مذللاً ، قد وطأته الأقدام ، لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهى تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبّة له ، فإن آخر مراتب الحب هو التَّتيُّم ، وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب ، ثم العشق وآخره التتيم ، يقال تَيْم الله أى عبد الله ، فالمتيم المعبد لمحبوبه ومن خضع لإنسان مع بغضه له ، لا يكون عابداً ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له ، كما قد يحب ولده وصديقه ، وهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شئ ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شئ ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله ، وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة ، وما عظّم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً .

وقال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ . فحبس المحبة يكون لله ورسوله ولا رضا لله ورسوله ، والله ورسوله أحق أن يرضوه ، والإيتاء ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ﴾ ، وأما العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ونحو ذلك فلا يكون إلا لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة

سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ ، فالإيتاء لله ورسوله ، لقوله : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ، وأما الحسب وهو الكافى فهو الله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس ، إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ ، أى حسبك وحسب من اتبعك الله ، ومن ظن أن المعنى حسبك الله والمؤمنون معه فقد غلط غلطاً فاحشاً كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع ، وقال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ .

وتحرير ذلك أن العبد ، يراد به العبد الذى عبّده الله فذلّله ودبّره وصرفه ، وبهذا الاعتبار لجميع المخلوقين ، عباد الله من الأبرار والفجار والمؤمنين والكفّار ، وأهل النار ، إذ هو ربهم كلهم ، ومليكهم لا يخرجون عن مشيئته وقدره ، وكلماته التامات التى لا يجاوزها بَرٌّ ولا فاجر :

فما شاء كان وإن لم يشاؤوا وما شاؤوا إذ لم يشأ لم يكن

كما قال تعالى : ﴿ أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ ، فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم ، ومقلب قلوبهم ، ومصرف أمورهم لا رب لهم غيره ، ولا مالك لهم سواه ، ولا خالق إلا هو ، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروا ، وسواء علموا ذلك أو جهلوا ، لكن أهل الإيمان منهم علموا ذلك واعترفوا به ، بخلاف من كان جاهلاً بذلك أو جاحداً له مستكبراً على ربه ، لا يقر ولا يخضع له مع علمه بأن الله ربه وخالقه .

فالمعرفة بالحق إذا كان ذلك مع الاستكبار عن قبوله والجحد له كان عذاباً على صاحبه ، كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

فإذا عَرَف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه ومحتاج إليه عرف عبوديته المتعلقة بربوبية الله ، وهذا العبد يسأل ربه ويتضرع له ويتوكل عليه ، لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه وقد يعبده مع ذلك ، وقد يعبد الشيطان والأصنام ، ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار ، ولا يصير بها الرجل مؤمناً ، كما قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم وهم يعبدون غيره ، قال الله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تَذَكَّرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يُجِير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فأنى تُسْحَرون ﴾ .

وكثير ممن يتكلم فى الحقيقة ويشهدها يشهد هذه الحقيقة ، وهى الحقيقة الكونية التى يشترك فيها وفى شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر وإبليس معترف بهذه الحقيقة وأهل النار ، قال إبليس : ﴿ رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون ﴾ ، وقال : ﴿ رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾ ، وقال : ﴿ فبعزتك لأغرينهم أجمعين ﴾ ،

وقال : ﴿ أرأيتك هذا الذى كَرَّمْتَ علىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ ﴾ الآية . وأمثال هذا من الخطاب الذى يُقِر فيه بأن الله ربه وخالقه وخالق غيره ، وكذلك أهل النار ، ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وُقِفُوا على ربهم قال أليس هذا بالحق ، قالوا بلى وربنا ﴾ ، فمن وقف عند هذه الحقيقة الدينية التى هى عبادته المتعلقة بالإلهيّة ، وطاعة أمره وأمر رسوله كان من جنس إبليس وأهل النار ، وإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله تعالى وأهل المعرفة والتحقيق الذين سقط عنهم الأمر والنهى الشرعيّان ، كان من أشرّ أهل الكفر والإلحاد ، ومن ظن أن الخضر أو غيره سقط عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة ونحو ذلك كان قوله هذا من أشرّ أقوال الكافرين بالله ورسوله ، حتى يدخل فى النوع الثانى من معنى العبد ، وهو العبد بمعنى العابد فيكون عابداً لله لا يعبد إلا إياه ، فيطيع أمر الله وامر رسوله ، ويوالى أولياءه المؤمنين المتقين ، ويعادى أعداءه ، وهذه العبادة متعلقة بالإلهية لله تعالى ، ولهذا كان عنوان التوحيد لا إله إلا الله ، بخلاف من يقر بعبوديته ولا يعبده أو يعبد معه إلهاً آخر ، فالإله الذى يأله إليه القلب ، بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك ، وهذه العبادة هى التى يحبّها الله ويرضاها ، وبها وصف المصطفين من عباده ، وبها بعث رسله .

وأما العبد بمعنى المعبد سواء أقر بذلك أو أنكر فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر ، وبالفرق بين هذين النوعين ، يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة فى عبادة الله ودينه وأمره الشرعى التى يحبها ويرضاها ويوالى أهلها ويكرمهم بجبه ، وبين الحقائق الكونية التى يشترك فيها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، التى من اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية ، كان من أتباع ابليس اللعين الكافر برب العالمين .

ومن اكتفى بها فى بعض الأمور دون بعض ، أو فى مقام ، أو حال نقص من إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية .

وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون ، وكثر فيه الاشتباه على السالكين ، حتى زلق فيه من أكابر الشيوخ المنتسبين إلى التحقيق والتوحيد والعرفان ، ما لا يحصيهم إلا الله الذى يعلم السر والإعلان .

وإلى هذا أشار الشيخ عبد القادر رحمه الله فيما ذُكر عنه ، بأن كثيراً من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا ، إلا أَنَا فإنى انفتحت لى فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والرجل من يكون منازعاً للقدر لا من يكون موافقاً للقدر ، والذى ذكره الشيخ رحمه الله هو الذى أمر الله به ورسوله ، لكن كثيراً من الرجال غلطوا فإنهم قد يشهدون ما يقدر على أحدهم من المعاصى والذنوب ، أو ما يقدر على الناس من ذلك بل من الكفر ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره داخل فى حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته فيظن أن الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ونحو ذلك ديناً وطريقاً وعبادة ، فيضاهئون المشركين الذين قالوا : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمْنا من دونه من شئ ﴾ ، وقالوا : ﴿ أَنُطعِم من لو يشاءُ الله أطعمه ﴾ ، وقالوا : ﴿ لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ ، ولو هُدُوا لعلموا أن القدر أمرنا أن نرضى به ونصبر على موجبه فى المصائب التى تصيبنا ، كالفقر والمرض والخوف .

قال الله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ .

قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، وقال تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى

أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : احتج آدم وموسى ، فقال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شئ ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ، فقال له آدم ، أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، فهل وجدتَ ذلك مكتوباً علىَّ قبل أن أُخْلَق ، قال نعم ، فحج آدم موسى ، وآدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظناً أن المذنب يحتجُّ بالقدر ، فإن هذا لا يقوله مسلم ، ولا عاقل ، ولو كان هذا عذر لكان عذراً لإبليس ، وقوم نوح ، وقوم عاد ، وكل كافر ، ولا موسى أيضاً لام آدم عليه السلام لأجل الذنب ، فإن آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهداه ، ولكن لامه لأجل المصيبة التى لحقتهم بالخطيئة ، ولهذا قال له ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ، فأجابه آدم ، بأن هذا كان مكتوباً قبل أن أخلق فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدراً ، وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له فإنه من تمام الرضا بالله رباً .

وأما الذنوب فليس للعبد أن يُذْنب وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب من صنوف المعائب ، ويصبر على المصائب . وقال تعالى : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ ، وقال يوسف عليه السلام : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهى

عن المنكر بحسب قدرته ، ويجاهد فى سبيل الله الكفّار والمنافقين ، ويوالى أولياء الله ويعادى أعداء الله ويحب فى الله ويبغض فى الله ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تُلْقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يُخْرجون الرسول ﴾ ، إلى قوله : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً ، رجلاً فيه شركاء متشاكسون ، ورجلاً سَلَماً لرجل ، هل يستويان مثلاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شئ ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهراً ، هل يستوون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ، وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كَلّ على مولاه أينما يوجَهه ، لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

ونظائر ذلك كثير ، مما يفرق الله فيه بين أهل الحق والباطل ، وأهل الطاعة والمعصية ، وأهل البر والفجور ، وأهل الهدى والضلال ، وأهل الغى والرشاد ، وأهل الصدق والكذب ، فمن شهد الحقيقة الكونية دون الدينية سوّى بين هذه الأصناف المختلفة التى فرق الله بينها غاية التفريق ، حتى ينتهى به الأمر إلى أن سوىّ الله بالأصنام ، كما قال تعالى : ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ، بل قد آل الأمر بهؤلاء إلى أن سووا الله بكل موجود ، وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقاً لكل موجود ، إذ جعلوه هو وجود المخلوقات .

وهذا من أعظم الكفر والإلحاد والكفر برب العباد ، وهؤلاء يصل بهم الكفر إلى أنهم لا يشهدون أنهم عباد لا بمعنى أنهم معبودون ، ولا بمعنى أنهم عابدون ، إذ يشهدون أنفسهم هى الحق ، كما صرح بذلك طواغيتهم ، كابن عربى صاحب الفصوص وأمثاله من الملحدين المفترين ، كابن سبعين وأمثاله ، ويشهدون أنهم هم العابدون والمعبودون ، وهذا ليس بشهود الحقيقة لا كونية ولا دينية ، بل هو ضلال وعمى عن شهود الحقيقة الكونية ، حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق ، وجعلوا لكل وصف مذموم وممدوح نعتاً للخالق والمخلوق ، إذ وجود هذا ، هو وجود هذا عندهم .

وأما المؤمنون بالله ورسوله ، عوامهم وخواصهم الذين هم أهل الكتاب ، كما قال النبى ﷺ ، إن لله أهلين من الناس ، قيل من هم يا رسول الله ؟ قال أهل القرآن هم أهل الله وخاصته ، فهؤلاء يعلمون أن الله رب كل شئ ومليكه وخالقه ، وأن الخالق سبحانه مباين للمخلوقين ، ليس هو حالّاً فيه ولا متحداً به ولا وجوده ، والنصارى كفّرهم الله ، بأن

قالوا بالحلول والاتحاد بالمسيح خاصة ، فكيف بمن جعل ذلك عاماً فى كل مخلوق ، ويعلمون مع ذلك أن الله أمر بطاعته وطاعة رسوله ونهى عن معصيته ومعصية رسوله ، وإن الله لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وأن على الخلق أن يعبدوه ويطيعوا أمره ويستعينوا به على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، ومن عبادته وطاعته الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بحسب الإمكان والجهاد فى سبيله لأهل الكفر والنفاق ، فيجتهدون فى إقامة دينه مستعينين به دافعين ومزيلين بذلك ما قدر من السيئات ، كما يزيل الإنسان الجوع الحاضر بالأكل ، ويدفع به الجوع المستقبل ، وكذلك إذا أزال البرد أو دفعه باللباس ، وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه ، كما قيل للنبى ﷺ ، أرأيت أدوية نتداوى بها ، وَرُقَى نسترقى بها ، وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئاً ، فقال هى من قدر الله .

وفى الحديث : إن الدعاء والبلاءِ ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين الله ، وكل ذلك من العبادات .

وهؤلاء الذين يشهدون الحقيقة الكونية ، وهو ربوبيته تعالى لكل شئ ، ويجعلون ذلك مانعاً من اتباع أمره الدينى الشرعى على مراتب فى الضلال ، فغلاتهم يجعلون ذلك مطلقاً عاماً ، فيحتجون بالقدر فى كل ما يخالفون فيه الشريعة .

وقول هؤلاء شر من قول اليهود والنصارى ، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمنا من دونه من شئ ﴾ ، وقالوا : ﴿ لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ ، وهؤلاء

أعظم من أهل الأرض تناقضاً ، بل كل من احتج بالقدر فإنه متناقض ، لأنه لا يمكنه أن يقر كل آدمى على ما فعل ، بل لابد إذا ظلمه ظالم ، أو ظلم الناس ظالم ، وسعى فى الأرض بالفساد ، وأخذ يسفك دماء الناس ، ويستحل الفروج ، ويهلك الحرث والنسل ونحو ذلك من أنواع الضرر التى لا قوام للناس إلا بها ، أن يدفع هذا العدوان ويعاقب الظالم بما يكف عدوان أمثاله .

فيقال له ، إن كان القدر حجة ، فدع كل أحد يفعل ما شاء بك وبغيرك ، وإن لم يكن حجة بطل أصلُ قولك ، وأصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية لا يطردون هذا القول ولا يلتزمونه ، وإنما هم بحسب أهوائهم وآرائهم ، كما قال فيهم بعض العلماء ، أنت عند الطاعة قدرى ، وعند المعصية جبرى ، أى مذهب وافق هواك تمذهبت به .

ومنهم صنف يدعون التحقيق والمعرفة ويزعمون أن الأمر والنهى لازم لمن شهد لنفسه فعالاً ، وأثبت له صفات ، أما من شهد أن أفعاله مخلوقة وأنه مجبور على ذلك ، فإن الله هو المتصرف فيه ، كما يحرك سائر المتحركات ، فإنه يرتفع عنه الأمر والنهى والوعد والوعيد .

وقد يقولون من شهد الإرادة سقط عنه التكليف ، ويزعم أحدهم أن الخضر سقط عنه التكليف لشهوده الإرادة .

فهؤلاء يفرقون بين العامة والخاصة الذين شهدوا الحقيقة الكونية ، فشهدوا أن الله خالق أفعال العباد ، وأنه مريد لجميع الكائنات ، وقد يفرقون بين من يعلم ذلك علماً ، وبين من يراه شهوداً ، فلا يسقطون التكليف عمن يؤمن بذلك ويعلمه فقط ، ولكن عمن يشهده ، فلا يرى

لنفسه فعلاً أصلاً ، وهؤلاء يجعلون الجبر وإثبات القدر ، مانعاً من التكليف على هذا الوجه .

وقد وقع فى هذا طوائف من المنتسبين إلى التحقيق والمعرفة والتوحيد .

وسبب ذلك أنه ضاق نطاقهم عن كون العبد يؤمر بما يقدر عليه خالقه ، كما ضاق نطاق المعتزلة ونحوهم من القدرية عن ذلك .

ثم المعتزلة أثبتت الأمر والنهى الشرعيين وردت القضاء والقدر الذى هو إرادة الله العامة وخلقه لأفعال العباد ، وهؤلاء أثبتوا القضاء والقدر ، ونفوا الأمر والنهى فى حق من شهد القدر ، إذْ لم يمكنهم نفى ذلك مطلقاً .

وقول هؤلاء شر من قول المعتزلة ، ولهذا لم يكن فى السلف من هؤلاء أحد ، وهؤلاء يجعلون الأمر والنهى للمحجوبين الذين لم يشهدوا هذه الحقيقة الكونية ، ولهذا يجعلون من وصل إلى شهود هذه الحقيقة سقط عنه الأمر والنهى ، وصار من الخاصة وربما تأولوا على ذلك ، قوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ ، وجعلوا اليقين هو معرفة هذه الحقيقة ، وقول هؤلاء كفر صريح ، وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر ، فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام ، أن الأمر والنهى لازم لكل عبد ما دام عقله حاضراً إلى أن يموت لا يسقط عنه الأمر والنهى لا بشهود القدر ولا بغير ذلك ، فمن لم يعرف ذلك عرفه وبيّن له ، فإن أصر على اعتقاده سقوط الأمر والنهى فإنه يقتل .

وقد كثرت مثل هذه المقالات فى المتأخرين .

وأما المتقدمون من هذه الأمة فلم تكن هذه المقالات معروفة فيهم ،

قال تعالى : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ ، وهم فى ذلك تارة يكونون على بدعة يسمونها حقيقة يقدمونها على شريعة الله ، وتارة يحتجون بالقدر الكونى على شريعة الله ، كما أخبر به تعالى عن المشركين كما تقدم .

ومن هؤلاء طائفة أعلاهم قدراً ، وهم متمسكون بالدين فى أداء الفرائض المشهورة ، واجتناب المحرمات المشهورة ، لكن يغلطون فى ترك ما أُمِروا به من الأسباب التى هى عبادة ، ظانين أن العارف إذا شهد القدر أعرض عن ذلك مثل من يجعل التوكل منهم ، أو الدعاء ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة ، بناء على أن من شهد القدر علم أنما قدر سيكون ولا حاجة إلى ذلك .

وهذا غلط عظيم ، فإن الله قدر الأشياء بأسبابها ، كما قدر السعادة والشقاوة بأسبابها ، كما قال النبى ﷺ ، إن الله خلق للجنة أهلاً خلقها لهم ، وهم فى أصلاب آبائهم ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، وخلق للنار أهلاً خلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم ، وبعمل أهل النار يعملون . وكما قال النبى ﷺ ، لما أخبرهم بأن الله كتب المقادير ، فقالوا : يا رسول الله ، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ، فقال : لا ، اعملوا ، فكُلٌّ ميسّر لما خُلِق له ، أما من كان من أهل السعادة فسيُيسَّر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة ، فسيُيَسر لعمل أهل الشقاوة ، فما أمر الله به عباده من الأسباب هو عبادة ، والتوكل مقرون بالعبادة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ، وفى قوله تعالى : ﴿ قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ ، وقول شعيب : (عليه توكلت وإليه أنيب) ، ومنهم طائفة قد تترك المستحبات من الأعمال ، دون الواجبات ،

أحب إليه من سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار .

وقال ﷺ فى الحديث الصحيح ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً .

وأما أهل الكفر والبدع والشهوات فكل بحسبه ، قيل لسفيان ابن عيينة ، ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم ، فقال : أنسيت قوله تعالى : ﴿ وأُشْرِبُوا فى قلوبهم العجلَ بكفرهم ﴾ ، أو نحو هذا الكلام فعُبَّاد الأصنام يحبون آلهتهم ، كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ وقال تعالى : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ .

ولهذا يميل هؤلاء إلى سماع الشعر والأصوات التى تهيج المحبة المطلقة التى لا تختص بأهل الإيمان ، بل يشترك فيها محب الرحمن ومحب الأوثان ، ومحب الصلبان ومحب الأوطان ، ومحب الإخوان ومحب المردان ، ومحب النسوان ، وهؤلاء يتبعون أذواقهم ومواجيدهم من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنّة ، وما كان عليه سلف الأمة .

فالمخالف لما بعث الله به رسله من عبادته وطاعته ، وطاعة رسوله لا يكون متبعاً للدين الذى شرعه الله ، كما قال تعالى : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ﴾ ، بل يكون متبعاً لهواه بغير هدى من الله .

إنه لا يحب المسرفين ، قل من حَرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ﴾ ، إلى قوله : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغْى بغير الحق وأنْ تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ، وهؤلاء قد يسمون ما أحدثوه من البدع حقيقة كما يسمون ما يشهدون من القدر حقيقة ، وطريق الحقيقة عندهم ، هو السلوك الذى لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه ، ولكن ما يراه ويذوقه ويجده ونحو ذلك .

وهؤلاء لا يحتجون بالقدر مطلقاً ، بل عمدتهم اتِّباع آرائهم وأهوائهم وجعلهم لما يرونه ويهوونه حقيقة ، وأمرهم باتباعها دون أمر الله ورسوله ، ونظير بدع أهل الكلام مِن الجهمية وغيرهم الذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفة للكتاب والسنّة حقائق عقلية يجب اعتقادها دون ما دلت عليه السمعيات ، ثم الكتاب والسنّة ، إما أن يُحَرِّفوه عن مواضعه ، وإما أن يعرضوا عنه بالكلية ، ولا يتدبرونه ولا يعقلونه ، بل يقولون نفوض معناه إلى الله ، مع اعتقادهم لنقيض مدلوله ، وإذا حقق على هؤلاء ما يزعمونه من العقليات المخالفة للكتاب والسنة ، وجدت جهليات واعتقادات فاسدة ، وكذلك أولئك إذا حقق عليهم ما يزعمونه من حقائق أولياء الله المخالفة للكتاب والسنّة ، وجدت من الأهواء التى يتبعها أعداء الله لأولياء الله .

وأصل ضلال من ضل هو تقديم قياسه على النص المنزل من عند الله ، واختياره الهوى على اتباع أمر الله ، فإن الذوق والوجد ونحو ذلك ، هو بحسب ما يحبه العبد ، فكل محب له ذوق وَوَجْد بحسب محبته ، فأهل الإيمان ، لهم من الذوق والوجد مثل ما بينّه النبى ﷺ بقوله فى الحديث الصحيح ، ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله

وهذه المقالات ، هى محادة لله ورسوله ، ومعاداة له وصد عن سبيله ومشاقة له وتكذيب لرسله ، ومضادة له فى حكمه ، وإن كان من يقول هذه المقالات قد يجهل ذلك ويعتقد أن هذا الذى هو عليه هو طريق الرسول وطريق أولياء الله المحققين ، فهو فى ذلك بمنزلة من يعتقد أن الصلاة لا تجب عليه لاستغنائه عنها بما حصل له من الأحوال القلبية ، أو أن الخمر حلال له لكونه من الخواص الذى لا يضرهم شرب الخمر ، أو أن الفاحشة حلال له لأنه صار كالبحر لا تكدره الذنوب ونحو ذلك .

ولا ريب أن المشركين الذين كَذَّبوا الرسول ، يترددون بين البدعة المخالفة لشريعة الله ، وبين الاحتجاج بالقدر على مخالفة أمر الله ، فهذه الأصناف فيهم شبه المشركين ، إما أن يبتدعوا وإما أن يحتجوا بالقدر وإما أن يجمعوا بين الأمرين ، كما قال تعالى عن المشركين : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أَمَرَنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ ، وكما قال تعالى عنهم ، ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ، ولا حَرَّمنا من دونه من شئ ﴾ . وقد ذكر عن المشركين ما ابتدعوه من الدين الذى فيه تحليل الحرام ، والعبادة التى لم يشرعها الله ، بمثل قوله : ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حُرِّمت ظهورُها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه ﴾ إلى آخر السورة ، وكذلك فى سورة الأعراف فى قوله : ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أَمَرَنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ ، إلى قوله : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ،

فتنقص بقدر ذلك ، ومنهم طائفة يغترون بما يحصل لهم من خَرْقِ عادة ، مثل مكاشفة أو استجابة دعوة مخالفة للعادة العامة ، فيشتغل أحدهم عما أمر به من العبادة والشكر ونحو ذلك ، فهذه الأمور ونحوها كثيراً ما تعرض لأهل السلوك والتوجه ، وإنما ينجو العبد منه بملازمة أمر الله الذى بعث به رسوله فى كل وقت ، كما قال الزهرى ، كان من مضى من سلفنا يقولون الاعتصام بالسنّة نجاة ، وذلك أن السنّة كما قال مالك مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق .

والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد ولها أصلان ، أحدهما أن لا يعبد إلا الله ، الثانى أن يعبد بما أمر وشرع ، لا بغير ذلك من البدع ، كما قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملّة إبراهيم حنيفاً ، واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ .

فالعمل الصالح هو الإحسان ، وهو فعل الحسنات ، والحسنات هى ما أحبه الله ورسوله ، وهو ما أمر به من إيجاب واستحباب ، فما كان من البدع التى فى الدين ليست مشروعة ، فإن الله لا يحبها ولا رسوله ، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح ، كما أن ما يعلم أنه فجور كالفواحش والظلم ليس من الحسنات ولا من العمل الصالح ، وأما قوله : ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ، وقوله : ﴿ أسلم وجهه لله ﴾ ، فهو إخلاص الدين لله وحده ، وكان عمر بن الخطاب يقول : اللهم اجعل عملى كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وقال الفضيل بن عياض فى قوله : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ ، قال أخلصه وأصوبه ، قالوا يا أبا على ، ما أخلصه وأصوبه ، قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقْبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنّة .

فإن قيل ، فإذا كان جميع ما يحبه الله داخل فى اسم العبادة ، فلماذا عطف عليها غيرها ، كقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، وقوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ، وقول نوح : ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ ، وكذلك غيره من الرسل ، قيل هذا له نظائر ، كما فى قوله : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ ، وكذلك ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ ، وإيتاء ذى القربى هو من العدل والإحسان ، كما أن الفحشاء والبغى من المنكر ، وكذلك قوله : ﴿ والذين يُمَسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ﴾ ، وإقام الصلاة من أعظم التمسك بالكتاب ، وكذلك قوله : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ ، ودعاؤه رغباً ورهباً من الخيرات ، وأمثال ذلك كثير .

وهذا الباب ، يكون تارة مع كون أحدهما بعض الآخر فيعطف عليه ، مخصصاً له بالذكر لكونه مطلوباً بالمعنى العام والمعنى الخاص .

وتارة لكون دلالة الإسم تتنوع بحال الإفراد والإقتران ، فإذا أفرد عم ، وإذا اقترن بغيره خصَّ ، كاسم الفقير والمسكين ، لما أفرد أحدهما فى مثل قوله : ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله ﴾ ، وقوله : ﴿ أو إطعام عشرة مساكين ﴾ ، دخل فيه الآخر ، ولما قرن بينهما فى قوله :

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ ، صار نوعين . وقد قيل إن الخاص المعطوف على العام لا يدخل فى العام حال الاقتران ، بل يكون من هذا الباب ، والتحقيق أن هذا ليس بلازم . وقد قال تعالى : ﴿ قل من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ ، وذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة .

تارة لكونه له خاصيّة ليست لسائر أفراد العام ، كما فى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى .

وتارة لكون العام فيه إطلاق قد لا يفهم منه العموم ، كما فى قوله : ﴿ هدىً للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أُنْزِل إليك ، وما أُنْزِل من قبلك ﴾ ، فقوله يؤمنون بالغيب ، يتناول الغيب الذى يجب الإيمان به ، لكن فيه إجمال ، وليس فيه دلالة على أن من الغيب ما أُنزِل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وقد يكون المقصود أنهم يؤمنون بالمخبر به وهو الغيب ، وبالإخبار ، وهو ﴿ وما أُنزِل إليك وما أُنْزِل من قبلك ﴾ ، ومن هذا الباب ، قوله تعالى : ﴿ اتل ما أُوحِيَ إليك من الكتاب وأقم الصلاة ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ والذين يُمَسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ﴾ ، وتلاوة الكتاب هو اتباعه ، كما قال ابن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ ، قال يحللون حلاله ويحرمون حرامه ويؤمنون بمتشابهه ويعملون بمحكمه ، فاتباع الكتاب يتناول الصلاة وغيرها ، لكن خصها بالذكر لمزيتها .

وكذلك قوله لموسى : ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى ﴾ ، وإقامة الصلاة لذكره من أجل عبادته وكذلك قوله

تعالى : ﴿ اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ ، وقوله : ﴿ اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ ، وقوله : ﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ ، فإن هذه الأمور هى أيضاً من تمام تقوى الله ، فكذلك قوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ، فإن التوكل والاستعانة هى من عبادة الله ، لكن خصّت بالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصيتها ، فإنها هى العون على سائر أنواع العبادة إذ هو سبحانه لا يُعْبَد إلا بمعونته .

إذا تبيّن هذا فكمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ، ازداد كماله وعلت درجته ، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه ، أو أن الخروج عنها أكمل ، فهو من أجهل الخلق وأضلّهم ، قال الله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئاً إدّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا ، أن دَعَوْا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدّهم عدّا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ ، وقال تعالى فى المسيح : ﴿ إن هو إلا عَبْدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وله من فى السموات ومن فى الأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم

عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ، فإن استكبروا، فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ، إنّ الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ .

وهذا ونحوه مما فيه وصف أكابر المخلوقات بالعبادة ، وذمه من خرج عن ذلك متعددة فى القرآن . وقد أخبر الله أنه أرسل جميع الرسل بذلك ، فقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

وقال تعالى لبنى اسرائيل : ﴿ فإياى فاعبدون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فإياى فاتقون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قل إنى أمرت أن أعبدَ الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل إنى أخاف إن عصيت ربى ، عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصاً له دينى فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ .

وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلى عبادة الله ، كقول نوح ومن بعده : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

وفى المسند عن ابن عمر عن النبى ﷺ ، أنه قال : بُعثْتُ بالسيف بين يدى الساعة ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجُعِل رزقى تحت ظل رمحى ، وجُعِل الذلة والصَّغار على من خالف أمرى .

وقد بين أن عباده هم الذين ينجون من الشيطان ، قال الشيطان : ﴿ فبما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ، وقال تعالى فى حق يوسف : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ سبحان الله عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ .

وبها نعت الله تعالى كل من اصطفاه من خلقه ، كقوله : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ ، وقال عن سليمان : ﴿ نعم العبد إنه أوّاب ﴾ ، وقال عن أيوب : ﴿ نعم العبد ﴾ ، وقال : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربّه ﴾ ، وقال عن نوح عليه السلام : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا ﴾ ، وقال عن محمد ﷺ : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ، كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ﴾ ، ومثل هذا متعدد فى القرآن .

فصل : إذ تبيّن لك ذلك ، فمعلوم أن الناس فى هذا الباب يتفاضلون فيه تفاضلاً عظيماً ، وهو تفاضلهم فى حقيقة الإيمان ، وهم ينقسمون فيه إلى عام وخاص ، ولهذا كانت ربوبية الرب سبحانه ، لهم فيها عموم وخصوص وضروب ، ولهذا كان الشرك فى هذه الأمّة أخفى من دبيب النمل .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : تَعِس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أُعْطِى رضى وإن مُنِع سخط .

فسماه النبى ﷺ عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد القطيفة وعبد الخميصة ، وذُكِر فيه ما هو دعاء وخبر ، وهو قوله : تعس وانتكس وإذا أشيك فلا انتقش ، والنقش إخراج الشوكة من الرِجْل ، والمنقاش ما يخرج به الشوكة ، وهذا حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح ، لكونه تعس وانتكس ، فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه ، وهذه حال من عَبَد المال ، وقد وصف ذلك بأنه إذا أعطى رضى ، وإن منع سخط ، كما قال تعالى : ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أُعطُوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يسخطون ﴾ فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله .

وهكذا حال من كان متعلقاً برياسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه ، إن حصل له رضى وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك ، وهو رقيق له ، إذ الرق والعبودية فى الحقيقة هو رق القلب وعبوديته ، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده ، ولهذا يقال :

العبد حرّ ما قنع والحر عبد ما طمع

وقال القائل :

أَطَعْتُ مطامعى فاستعبدتنى ولو أنى قنعت لكنت حرا

ويقال الطمع غل فى العنق ، وقيد فى الرجل ، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل ، ويروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه قال : الطمع فقر واليأس غنى ، وإنّ أحدكم إذا يئس من شئ استغنى عنه ، وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه ، فإن الأمر الذى ييئس منه لا يطلبه ولا يطمع به ، فلا يبقى قلبه فقيراً إليه ولا إلى من يفعله .

وأما إذا طمع فى أمر من الأمور رجاه وتعلق قلبه به فصار فقيراً إلى حصوله ، وإلى من يظن أنه سبب فى حصوله ، وهذا فى المال والجاه والصور وغير ذلك .

قال الخليل عليه السلام : ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ﴾ ، فالعبد لا بد له من رزق ، وهو محتاج إلى ذلك ، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله فقيراً إليه ، وإذا طلبه من مخلوق ، صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه ، ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة فى الأصل ، وإنما أبيحت للضرورة ، وفى النهى عنها أحاديث كثيرة فى الصحاح والسنن والمسانيد ، كقوله ﷺ : لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتى يوم القيامة ليس فى وجهه مزعة لحم ، وقوله ﷺ : من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوحاً فى وجهه ، وقوله ﷺ : لا تحل المسألة إلا لذى غُرْم مُفْظِع ، أو دمٍ مُوجِع أو فقر مُدْقِع ، وهذا المعنى فى الصحيح ، وفيه أيضاً ، لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من أن يسأل الناس ، أَعطوه أو منعوه ، وقال ﷺ : ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف فَخُذْه ، وما لا فلا تتبعه نفسك فكره أخذه

مع سؤال الناس ، واستشراف القلب .

وقال فى الحديث الصحيح : من يستغن يغنه الله ، ومن يستعف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحداً عطاء خير أو أوسع من الصبر ، وقد أوصى خواص أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً أصلاً ، وفى المسند ، أن أبا بكر الصديق كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولنى إياه ، ويقول إن خليلى أمرنى أن لا أسأل الناس شيئاً ، وفى صحيح مسلم وغيره عن عوف بن مالك أن النبى ﷺ بايعه فى طائفة وأسرّ إليهم كلمة خفية ، أن لا يسألوا الناس شيئاً ، فكان بعض أولئك النفر يسقط السوط من يده ، فلا يقول لأحد ناولنى إياه .

وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق ، والنهى عن مسألة المخلوق فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ فإذا فرغتَ فانصب ، وإلى ربك فارغب ﴾ .

وقول النبى ﷺ لابن عباس ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، ومنه قول الخليل : (فابتغوا عند الله الرزق) ، ولم يقل فابتغوا الرزق عند الله ، وتقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر ، كأنه قال لا تبتغوا الرزق إلا من عند الله ، وقد قال تعالى : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ ، والإنسان لابد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه ، ومن دفع ما يضره ، وفى كلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله ، فمنه يسأل وإليه يشتكى ، كما قال يعقوب عليه السلام : ﴿ إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ﴾ ، والله تعالى ذكر فى القرآن ، الهجر الجميل والصفح الجميل والصبر الجميل . وقد قيل إن الهجر الجميل هو الهجر بلا أذى ،

والصفح الجميل صفح بلا معاتبة ، والصبر الجميل صبر بغير شكوى ، إلى المخلوق .

ولهذا قرئ على أحمد بن حنبل فى مرضه ، أن طاووساً كان يكره أنين المريض ، ويقول إنه شكوى ، فما أَنَّ أحمدُ حتى مات .

وأما الشكوى إلى الخالق فلا ينافى الصبر الجميل ، فإن يعقوب عليه السلام قال : (فصبر جميل) ، وقال : (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) ، وكان عمر بن الخطاب يقرأ فى الفجر بسورة يونس ويوسف والنحل ، فمر بهذه الآية فى قراءته فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف ، وفى دعاء موسى عليه السلام ، اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وبك المستغاث وأنت المستعان وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

وفى الدعاء الذى دعا به النبى ﷺ ، لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا ، اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدو ملّكته أمرى ، إن لم يكن بك علىَّ غضبٌ فلا أبالى غير أن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى سخطك ، أو يحل على غضبك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

وكلما قوى طمع العبد فى فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته ، قَوِيَتْ عبوديته له وحريته مما سواه ، فكما أن طمعه فى المخلوق يوجب عبوديته له ، فإن يأسه منه ، يوجب غنى قلبه كما قيل :

استغن عن من شئت تكن نظيره وتفضل على من شئت تكن أميره واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، وكذلك طمع العبد فى ربه ورجائه له ،

يوجب عبوديته له ، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية له ، لاسيما من كان يرجو المخلوق ، ولا يرجو الخالق ، بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه ، وإما على أهله وأصدقائه ، وإما على أمواله وذخائره ، وإما على ساداته وكبرائه ، كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت .

قال الله تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ ، وكل من علّق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه ، خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك ، وإن كان فى الظاهر أميراً لهم ، مدبراً لهم ، متصرفاً لهم .

فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر ، فالرجل الذى تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له ، يبقى قلبه أسيراً لها ، تحكم فيه وتتصرف بما تريد ، وهو فى الظاهر سيّدها ، لأنه زوجها ، وفى الحقيقة هو أسيرها ومملوكها ، لاسيما إذا دَرَتْ بفقره إليها ، وعشقه لها ، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها ، فإنها حينئذٍ تحكم فيه حكم السيّد القاهر الظالِم فى عبده المقهور له الذى لا يستطيع الخلاص منه بل أعظم فان أَسْر القلب من أَسْرِ البدن ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن ، فإن من استعبد بدنه واسترق وأسر لا يبالى ، إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بل يمكنه الاحتيال فى الخلاص .

وأما إذا كان القلب الذى هو الملك رقيقاً مستعبداً متيماً لغير الله ، فهذا هو الذل والأسر المحض ، والعبودية لما استعبد القلب ، وعبودية القلب وأسره هى التى يترتب عليها الثواب والعقاب ، فإن المسلم لو أسره كافر أو

استرقه فاجر بغير حق ، لم يضره ذلك إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات ، ومن استعبد بغير حق إذا أدّى حق الله وحق مواليه ، له أجران ، ولو أُكرِه على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك ، وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله ، فهو يضره ذلك ، ولو كان فى الظاهر مالك الناس ، والحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب كما أن الغنى غنى القلب قال النبى ﷺ ، ليس الغنى عن كثرة العَرَض ، وإنما الغنى غنى النفس .

وهذا لعمرى إذا كان قد استعبد قلبه بصورة مباحة ، فأما من استعبد قلبه بصورة محرمة امرأة أو صبى ، فهذا هو العذاب الذى لا ثواب فيه ، وهؤلاء من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً ، فإن العاشق لصورة إذا بقى قلبه متعلقاً بها متعبداً لها اجتمع له من أنواع الشر والفساد ، ما لا يحصيه إلّا رب العباد ، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى ، فدوام تعلق القلب بها ، بله فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ، ممن يفعل ذنباً ثم يتوب منه ، ويزول أثره من قلبه ، وهؤلاء يتشبهون بالسكارى والمجانين كما قيل :

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران

وقيل :

قالوا جُنِنْتَ بمن تَهْوَى فقلتُ لهم العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون فى حين

ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب عن الله تعالى ، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله ، والإخلاص له ، لم يكن عنده شئ أحلى من ذلك ولا ألذ ولا أطيب منه ، والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه ، أو خوفاً من مكروه بالحب الفاسد ، إنما ينصرف

بالقلب عنه بالحب الصالح ، أو بالخوف من الضرر .

قال الله تعالى فى حق يوسف : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ، فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها ، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله ، وهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله ، والإخلاص بغلبة النفس عن اتباع هواها ، فإذا ذاق طعم الإخلاص ، وقوِى فى قلبه انقهر له هواه بلا علاج .

قال تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ ، فإن فى الصلاة دفعاً للمكروه وهو الفحشاء والمنكر ، وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه فإن ذكر الله وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها ، وأما اندفاع الشر عنه فإنه مقصود لغيره على سبيل التبع ، والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه ، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك ، فإنه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دساها ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكّى ، وذكر اسم ربه فصلى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زَكَى منكم من أحدٍ أبداً ﴾ ، فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أزكى للنفس ، وبيّن أن ترك الفواحش من زكاة النفس ، وزكاة النفس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك .

طالب الرئاسة والعلو فى الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليهما ، ولو كان فى الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم ، فهو فى الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل

لهم الأموال والولايات ، ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه ، فهو فى الظاهر رئيس مطاع ، وفى الحقيقة عبد مطيع لهم .

والتحقيق أن كليهما فيه عبودية للآخر ، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله ، وإذا كان تعاونهما على العلو فى الأرض بغير الحق ، كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق ، وكل من الشخصين هواه الذى استعبده واسترقه للآخر .

وهكذا أيضاً طالب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه ، وهذه الأمور نوعان :

منها ما يحتاج العبد إليه كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك ، فهذا يطلب من الله ويرغب إليه فيه ، فيكون المال عنده يستعمله فى حاجاته بمنزلة حماره الذى يركبه وبساطه الذى يجلس عليه ، بل بمنزلة الكنيف الذى يقضى فيه حاجته ، من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً .

ومنها ما لا يحتاج إليه العبد ، فهذه لا ينبغى له أن يعلّق قلبه بها ، فإذا تعلّق قلبه بها ، صار مستعبداً لها ، وربما صار معتمداً على غير الله فيها ، فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ولا حقيقة التوكل عليه ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غير الله ، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة .

وهذا هو عبد هذه الأمور ، ولو طلبها من الله ، فإن الله إذا أعطاه إياها رَضِيَ ، وإذا منعه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ، ويسخطه ما يسخط الله ، ويحب ما يحب الله ورسوله ويبغض ما

يبغض الله ورسوله ، ويوالى أولياء الله ، ويعادى أعداء الله ، وهذا الذى استكمل الإيمان ، كما فى الحديث ، من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان .

وقال ﷺ ، أوثق عُرَى الإيمان ، الحب فى الله والبغض فى الله ، وفى الصحيح عنه ﷺ ، ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار ، فهذا وافق ربّه فيما يحبه وما يكرهه ، فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأحب المخلوق لله ، لا لغرض آخر ، وكان هذا من تمام حبه لله ، فإن محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب وإذا أحب أنبياء الله وأولياءه لأجل قيامهم بمحبوبات الحق ، لا لشئ آخر ، فقد أحبهم لله لا لغيره .

قال تعالى : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ ، فإن الرسول يأمر بما يحبه الله ، وينهى عن ما يبغضه الله ، ويفعل ما يحبه الله ، ويخبر بما يحبه الله والتصديق به فمن كان محباً لله لزمه أن يتبع الرسول ، فيصدقه فيما أخبر ، ويطيعه فيما أمر ، ويتأسى به فيما فعل ، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله ، فيحبه الله تعالى ، فجعل الله لأهل محبته علامتين ، اتباع الرسول والجهاد فى سبيله ، وذلك لأن الجهاد حقيقة الاجتهاد فى حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، وفى دفع ما يكرهه الله من الكفر والفسوق والعصيان .

وقد قال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها

أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ ، فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله بهذا الوعيد ، بل قد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين .

وفى الصحيح ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : يا رسول الله لأنت أحب إلىَّ من كل شئ إلا نفسى ، فقال : لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، قال : فوالله لأنت أحب إلىَّ من نفسى ، قال : الآن يا عمر ، وفى رواية (الآن يا عمر تَمَّ إيمانُك) ، فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب ، وهو موافقة فى حب ما يحب وبغض ما يبغض ، والله يحب الإيمان والتقوى ، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان .

ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب وكلما قويت المحبة فى القلب ، طلب القلب فعل المحبوبات ، فإذا كانت المحبة تامة ، استلزمت إرادة جازمة فى حصول المحبوبات ، فإذا كان العبد قادراً عليها حصلها ، وإذا كان عاجزاً عنها وفعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل ، كما قال ﷺ ، من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً ، وقال ﷺ : إن بالمدينة لرجالا ما سِرْتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، قالوا وهم بالمدينة ، قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر .

والجهاد هو بذل الوسع والقدرة فى حصول محبوب الحق ، ودفع ما يكرهه الحق ، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله فى قلبه ، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالباً إلا باحتمال

مكروهات ، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة ، فالمحبون للرئاسة والمال والصور لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم فى الدنيا مع ما يصيبهم من الضرر فى الدنيا والآخرة ، فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى ذوو الرأى من المحبين لغير الله فى حصول محبوبهم ، دل ذلك على ضعف محبتهم لله ، وإذا كان ما سلكه أولئك هو الطريق الذى يشير به العقل ، ومن المعلوم أن المؤمن أشد حباً لله . قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ ، نعم قد يسلك المحب لضعف عقله وفساد تصوره طريقاً لا يحصل بها المطلوب ، فمثل هذا الطريق لا يحمد إذا كانت المحبة صالحة محمودة ، فكيف إذا كانت المحبة فاسدة والطريق غير موصل ، كما يفعله المتهورون فى طلب الرئاسة والمال والصور ، فى حب أمور توجب لهم ضرراً ، ولا تحصّل لهم مطلوباً ، وإنما المقصود الطريقة التى يسلكها العقل لحصول مطلوبه .

وإذا تبيّن هذا ، فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية وحرية عما سواه ، وكلما ازداد عبودية ازداد له حباً وحرية عما سواه ، والقلب فقير بالذل إلى الله من جهتين ، من جهة العبادة وهى العلّة الغائبة ، ومن جهة الاستعانة والتوكل ، وهى العلّة الفاعلية ، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن ، إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتى إلى ربه ، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه ، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة ، وهذا لا يحصل له إلا بالإعانة من الله له ، لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله ، فهو دائماً مفتقراً إلى حقيقة ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، فإنه لو أُعِين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ، ولم يحصل له عبادة الله بحيث

يكون هو غاية مراده ، ونهاية مقصوده ، وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وما سواه فإنما يحبه لأجله ، لا يحب شيئاً لذاته إلا الله ، فمتى لم يحصل له هذا لم يكن قد تحقق حقيقة لا إله إلا الله ، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة ، وكان فيه من النقص والعيب بل ومن الألم والحسرة والعذاب ، بحسب ذلك .

ولو سعى فى هذا المطلوب ولم يكن مستعيناً بالله متوكلاً عليه ، مفتقراً إليه فى حصوله لم يحصل له فإنه ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود ومن حيث هو المسئول المستعان به المتوكل عليه فهو إلهه لا إله له غيره وهو ربه لا رب له سواه ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين .

فمتى كان محباً لغير الله لذاته ، أو ملتفتاً إلى غير الله أنه يعينه ، كان عبداً لما أحبه وعبداً لما رجاه ، بحسب حبه له ورجائه إياه ، وإذا لم يحب لذاته إلا الله ، وكل ما أحبه سواه فإنما أحبه له ولم يرج قط شيئاً إلا الله ، فإذا فعل ما فعل من الأسباب ، أو حصل ما حصل منها كان شاهداً أن الله هو الذى خلقها وقدرها ، وأن كل ما فى السموات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه ، وهو فقير إليه ، كان قد حصل له من تمام من عبودية الله بحسب ما يتم له من ذلك .

والناس فى هذا على درجات متفاوتة ، لا يحصى طريقها إلا الله ، فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم وأهداهم وأتمهم عبودية لله من هذا الوجه ، وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذى أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره ، فالمستسلم له ولغيره مشرك ، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ ، أن الجنة لا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، كما أن النار لا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فجعل الكبر مقابلاً للإيمان ، فان الكبر ينافى حقيقة العبودية ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ ، أنه قال : يقول الله ، العظمة إزارى والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عَذَّبْتُه ، والعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية ، والكبرياء أعلى من العظمة .

ولهذا جعلها بمنزلة الرداء ، كما جعل العظمة بمنزلة الإزار ، ولهذا كان شعار الصلوات والأذان والأعياد هو التكبير ، وكان مستحباً فى الأمكنة العالية كالصفا والمروة ، وإذا علا الإنسان شرفاً ، أو ركب دابة ونحو ذلك ، وبه يُطْفأ الحريق وإن عظم ، وعند الأذان يهرب الشيطان . قال تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ، وكل من استكبر عن عبادة الله فلابد أن يعبد غير الله ، فإن الإنسان حساس متحرك بالإرادة .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ ، أنه قال : أصدق الأسماء حارث وهمّام ، والحارث الكاسب الفاعل ، والهمَّام الفعال من الهم ، والهم أول الإرادة ، فالإنسان له إرادة دائماً ، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهى إليه ، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب ، هو منتهى حبه وإرادته ، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته ، بل استكبر عن ذلك فلابد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله ، فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب ، إما المال وإما الجاه وإما الصور ، وإما ما يتخذه إلهاً من الله ، كالشمس والقمر والكواكب والأوثان وقبور الأنبياء والصالحين ، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أرباباً أو غير ذلك ، مما عُبِد من دون الله ، وإذا كان عبداً لغير الله يكون مشركاً ، فكل مستكبر فهو مشرك .

ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله وكان مشركاً . قال الله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وهامان وقارون ، فقالوا ساحر كذاب ، فلما جاءهم بالحق من عندنا ، قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ، وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يُبَدّل دينكم أو أن يُظْهِرَ فى الأرض الفساد ، وقال موسى : إنى عذتُ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ ، إلى قوله : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيّنات ، فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك ، قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ ، إلى قوله : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبّار ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبيّنات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إنه كان من المفسدين ﴾ ، إلى قوله تعالى : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

ومثل هذا فى القرآن كثير ، وقد وصف فرعون بالشرك فى قوله : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ﴾ . بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله كان أعظم شركاً بالله ، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب ، الذى هو مقصود القلب بالقصد الأول ، فيكون مشركاً بما استعبده من ذلك ، ولو يستغنى القلب عن جميع المخلوقات ، إلا بأن يكون الله هو مولاه الذى لا يعبد إلا إياه ولا يستعين إلا به ولا يتوكل إلا عليه ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه ، ولا يكره إلا ما يبغضه

الرب ويكرهه ، ولا يوالى إلا من والاه الله ، ولا يعادى إلا من عاداه الله ، ولا يحب إلا لله ، ولا يبغض إلا لله ولا يعطى إلا لله ولا يمنع إلا لله ، فكلما قوى إخلاص دينه لله كملت عبوديته لله ، واستغناؤه عن المخلوقات ، فكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر ومن الشرك ، فالشرك غالب على النصارى ، والكبر غالب على اليهود .

قال الله تعالى فى النصارى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، وقال تعالى فى اليهود : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم ، وفريقاً تقتلون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ﴾ ، ولما كان مستلزماً للشرك والشرك ضد الإسلام ، وهو الذنب الذى لا يغفره الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشْرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ ، كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام فهو الدين الذى لا يقبل الله غيره من الأولين والآخرين ، قال نوح : ﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر ، إن أجرى إلا على الله ، وأمرتُ أن أكون من المسلمين ﴾ ، وقال فى حق إبراهيم : ﴿ ومن يرغبُ عن ملّة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين ، ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ، يا بنى ، إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ، وقال يوسف : ﴿ توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ ، وقال موسى : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكلوا إن كنتم

مسلمين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ ، وقالت بلقيس : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقْبل منه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ .

فذكر اسم إسلام الكائنات طوعاً وكرهاً ، لأن المخلوقات جميعها معبدة له التعبد العام ، سواء أقر بذلك أو أنكره ، وهم مدينون مدبرون فهم مسلمون له طوعاً وكرهاً ، وليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقَدَّره وقضَاه ، ولا حول ولا قوة إلا به ، وهو رب العالمين ومليكهم يصرفهم كيف شاء ، وهو خالقهم كلهم وباريهم ومصورهم ، وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع مفطور ، فقير محتاج معبد مقهور ، وهو الواحد القهار الخالق البارئ المصور ، وهو وإن كان قد خلق ما خلقه بأسباب ، فهو خالق السبب ، والمقدر له .

وهذا مفتقر إليه كافتقار هذا ، وليس فى المخلوقات سبب مستقل ولا يدفع ضرّاً ، بل كل ما هو سبب فهو محتاج إلى سبب آخر يعاونه ، وإلى ما يدفع عنه الضر الذى يفعل ويمانعه .

وهو سبحانه وحده هو الغنى عن كل ما سواه ، ليس له شريك يعاونه ولا ند يناوئه ويعارضه ، قال تعالى : ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من

دون الله إن أرادنى الله بضرٍ ، هل هن كاشفات ضره ، أو أرادنى برحمة هل ممسكات رحمته ، قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير ﴾ ، وقال تعالى عن الخليل : ﴿ يا قوم إنى برئ مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ، وحاجّه قومه ، قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شئ علماً أفلا تتذكرون ، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ، وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ .

وفى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود عن النبى ﷺ أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على الصحابة ، وقالوا يا رسول الله أيّنا لم يلبس إيمانه بظلم ، فقال : إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ، وإبراهيم الخليل إمام الحنفاء المخلصين حيث بعث وقد طبق الأرض دين المشركين ، قال تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتّمهن قال إنى جاعلك للناس إماماً ، قال ومِنْ ذريتى ، قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ .

فبيّن أن عهده بالإمامة لا يتناول الظالم فلم يأمر سبحانه أن يكون الظالم إماماً ، وأعظم الظلم الشرك ، قال تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ ، والأمة هو القدوة ، المعلم للخير الذى يؤتم به ، كما أن القدوة الذى يقتدى به ، والله تعالى جعل فى ذريته النبوة والكتاب ، وإنما بعث الأنبياء بعده بملّته ، قال تعالى : ﴿ ثم أوحينا إليك أن

اتبع ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم لَلَّذين اتبعوه ، وهذا النبى والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ، قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أن إبراهيم خير البرية ، فهو أفضل الأنبياء بعد محمد ﷺ ، وهو خليل الله وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ من غير وجه ، أنه قال : إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، وقال لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله يعنى نفسه ، وقال لا يبقى فى المسجد خوخة إلا سدت ، إلا خوخة أبى بكر .

وقال إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك ، وكل هذا فى الصحيح ، وفيه أنه قال قبل موته بأيام ، وذلك من تمام رسالته ، فإن فى ذلك تحقيق مخاللته لله التى أصلها محبة الله للعبد ومحبة العبد لله ، ومحبة العبد لله خلافاً للجهمية ، وفى ذلك تحقيق توحيد الله ، وأن لا يعبدوا إلا إياه ، رداً على أشباه المشركين ، وفيه رد على الرافضة الذين يبخسون الصديق حقه ، وهم أعظم المنتسبين إلى القيلة اشراكاً بالبشر .

والخلّة كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله ، ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه ، ولفظ العبودية يتضمن كمال الذين وكمال الحب ، فإنهم يقولون قلب متيم إذا كان معبداً للمحبوب ، والتتيم التعبد وتَيْمُ الله عبده ، وهذا أعلى الكمال حصل لإبراهيم ومحمد ﷺ .

ولهذا لم يكن له من أهل الأرض خليلاً ، إذ الخلّة لا تحتمل الشركة فإنه كما قيل :

قد تَخَلَّلْتَ مسلك الروح منى   وبذا سُمِى الخليلُ خليلاً

بخلاف أصل الحب ، فإنه ﷺ قد قال فى الحديث الصحيح فى الحسن وأسامة ، اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما ، وسأله عمرو ابن العاص أى النساء أحب إليك ، قال عائشة ، قال : فمن الرجال قال أبوها ، وقال لعلى رضى الله عنه لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله .

وأمثال ذلك كثير ، وقد أخبر أنه يحب المتقين ويحب المحسنين ويحب المقسطين ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

وقال : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ ، فقد أخبر بمحبته لعباده المؤمنين ، ومحبة المؤمنين له حتى قال : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ .

وأما الخلّة فخاصة ، وقول بعض الناس إن محمداً حبيب الله وإبراهيم خليل الله ، وظنه أن المحبة فوق الخلّة قول ضعيف ، فإن محمداً أيضاً خليل الله ، كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة المستفيضة ، وما يروى أن

العباس يحشر بين حبيب وخليل وأمثال ذلك ، فأحاديث موضوعة لا يصلح أن يعتمد عليها .

وقد قدمنا أن محبة الله تعالى محبة ما أحبه ، كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار .

أخبر ﷺ أن هذه الثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، لأن وجود الحلاوة بالشئ يتبع المحبة له ، فمن أحب شيئاً أو اشتهاه إذا حصل له مراده ، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك ، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذى هو المحبوب أو المشتهى ، ومن قال إن اللذة إدراك الملائم كما يقوله من يقوله من المتفلسفة والأطباء ، فقد غلط فى ذلك غلطاً بيّناً ، فإن الإدراك يتوسط بين المحبة واللذة ، فالإنسان مثلاً يشتهى الطعام ، فإذا أكله حصل له عقيب ذلك اللذة ، فاللذة ليست هى الأكل ، ولذلك يشتهى النظر إلى شئ ، فإذا نظر إليه التذّ ، فاللذة التى تتبع النظر ليست نفس النظر ، وليست هى رؤية الشئ بل تحصل عقيب رؤيته . قال تعالى : ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ ، وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات والآلام من فرح وحزن ، وأمثال ذلك يحصل بالشعور بالمحبوب أو الشعور بالمكروه ، وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن ، فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به والفرح ، ما يجده المؤمن الواحد بحلاوة الإيمان يتبع كمال محبة العبد لله ، وذلك بثلاثة أمور ، تكميل هذه المحبة وتعريفها ، ودفع ضدها ، فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، كما

تقدم ، وتعريفه أن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومنع ضده أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهة الإلقاء فى النار ، فإذا كان محبة الرسول والمؤمنين من محبة الله ، وكان رسول الله ﷺ يحب المؤمنين الذين يحبهم الله ، لأنه أكمل الناس محبة الله ، وأحقهم بأن يحب ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه الله ، والخلّة ليس لغير الله فيها نصيب ، بل قال : ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً ، لاتخذْت أبا بكر خليلاً ، علم مزيد الخلّة على مطلق المحبة .

والمقصود هنا أن الخُلّة والمحبة لله تحقيق عبوديته ، وإنما غلط من غلط فى هذه من حيث يتوهمون أن العبودية مجردّ ذل وخضوع فقط لا محبة معه ، وأن المحبة فيها انبساط فى الأهواء والإذلال لا تحتمله الربوبية .

ولهذا يذكر عن ذى النون ، أنهم تكلموا عنده فى مسألة المحبة ، فقال : امسكوا عن هذه المسألة ، لا تسمعها النفوس فتدَّعيها ، وكره من كرهه من أهل العلم بمجالسة أقوام يكثرون الكلام فى المحبة بلا خشية ، وقال من قال من السلف من عَبِد الله بالحب فهو زنديق ، ومن عبده بالرجاء فهو مُرجئ ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حَرورى ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء ، فهو مؤمن موحِّد .

ولهذا وجد فى المتأخرين من انبسط فى دعوى المحبة حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونية والدعوى التى تنافى العبودية ، وتدخل العبد نوع من الربوبية التى لا تصلح إلا لله ، ويدَّعى أحدهم دعاوَى يتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين ، أو يطلبون من الله ما لا يصلح بكل وجه إلا لله ، لا يصلح للأنبياء والمرسلين .

وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ ، وسببه ضعف تحقيق العبودية التى بينتها الرسل ، وجردها الأمر والنهى الذى جاءوا به ، بل ضعف العقل

الذى به يعرف العبد حقيقته ، وإذا ضعف العقل وقَلَّ العلم بالدين وفى النفس محبة ، انبسطت النفس بحمقها فى ذلك ، كما يبسط الإنسان فى محبة الإنسان مع حمقه وجهله ، ويقول أنا محب فلان ، أو آخذ بما أفعل من أنواع يكون فيها عدوان وجهل ، وهذا عين الضلال وهو شبيه بقول اليهود والنصارى : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ ، فإن تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضى أنهم غير محبوبين ، ولا منسوبين إليه نسبة البنوة ، بل يقتضى أنهم مربوبون مخلوقون فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه ، ومحبوبه لا يفعل ما يبغضه الحق ، ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان ، ومن فعل الكبائر وأصرّ عليها ولم يتب منها ، فإن الله يبغض ذلك منه ، كما يحب منْه ما يفعله من الخير ، إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه ، ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه ، مع إصراره عليها ، كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تداويه منه لصحة مزاجه .

ولو تدبر الأحمق ما قصه الله فى كتابه من قصص أنبيائه وما جرى لهم من التوبة والاستغفار وما أصيبوا به من أنواع البلاء الذى فيه تمحيص لهم ، وتطهير بحسب أحوالهم ، علم بعض ضرر الذنوب بأصحابها ولو كانوا أرفع الناس مقاماً ، فان المحب للمخلوق إذا لم يكن عارفاً بمصلحته ، ولا مريداً لها ، بل يعمل بمقتضى الحب ، وإن كان جهلاً أو ظلماً ، كان ذلك سبباً لبغض المحبوب له ونفوره عنه ، بل لعقوبته له ، وكثير من السالكين سلكوا فى دعوى حب الله أنواعاً ، إما من الجهل بالدين الذى يحبه الله ، وإما من تعدى حدود الله ، وإما من تضييع حقوق الله وإما من الدعاوى الباطلة التى

لا حقيقة لها كقول بعضهم قلت لمريدى أى مريد لى ترك فى النار أحداً فأنا منه برئ ، فقال الآخر أى مريد لى ترك أحد المؤمنين يدخل النار فأنا منه برئ ، فالأول جعل مريده يخرج كل من فى النار ، والثانى جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار ومثل قول بعضهم : إذا كان يوم القيامة نصب حمى لعله خيمتى على جهنم حتى لا يدخلها أحد وأمثال ذلك من الأقوال التى تروى عن بعض المشايخ المشهورين ، وهى إما كذب عليهم ، وإما غلط منهم ومثل هذا قد يصدر فى حال سكر وغلبة وفند ، لعله يسقط فيها تمييز الإنسان ، أو يضعف عنه حتى لا يدرى ما قال ، والسكر هو لذة مع عدم تمييز .

ولهذا كان من هؤلاء ، من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام ، والذين توسعوا من الشيوخ فى سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والغذل والغرام ، وكان هذا أصل مقصدهم ، فان هذا الجنس يحرك ما فى القلب من الحب كائناً من كان .

ولهذا أنزل الله محبته يمتحن بها المحب ، فقال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ ، فلا يكون محباً لله إلا من يتبع رسوله ، وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية ، وكثير ممن يدعى المحبة ويخرج عن شريعته وسنّته ، ويدعى من الخيالات مالا يسع هذا الموضع لذكره ، حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر ، وتحليل الحرام له أو غير ذلك ، مما فيه مخالفة الرسول وسنته وطاعته ، بل قد جعل من تمام محبة الله ومحبة رسوله الجهاد فى سبيله ، والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به ، وكمال بعض ما نهى الله عنه ، ولهذا قال فى صفة من يحبهم ويحبونه ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ﴾ ولهذا كانت محبة هذه الأمّة لله أكمل من

محبة من قبلها ، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم وأكمل هذه الأمّة في ذلك أصحاب محمد ﷺ ، ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل ، فأين هذا من قوم يدَّعون المحبة ،[1] وسمعوا كلام بعض الشيوخ ، المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب ، وأرادوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده ، فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شئ حتى الكفر والفسوق والعصيان ، ولا يمكن أحد أن يحب كل موجود ، بل يحب ما يلائمه وينفعه ، ويبغض ما ينافره ويضره ، ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع أهوائهم ، فهم يحبون ما يكرهونه ، كالصور والرئاسة وفضول المال والبدع المضلة ، زاعمين أن هذا من محبة الله ، ومن محبة الله بغض ما يبغضه الله ورسوله ، وجهاد أهله بالنفس والمال .

وأصل ضلالهم ، أن هذا القائل الذى قال إن المحبة تحرق ما سوى مراد القلب ، قصد مراد الله تعالى الإرادة الدينية الشرعية ، التى هى بمعنى محبته ورضاه ، فكأنه قال : تحرق من القلب ما سوى محبوب الله ، وهذا معنى صحيح ، فإن من تمام الحب أن لا يحب إلا ما يحب الله ، فإذا أحببت ما لا يحب الله كانت المحبة ناقصة .

وأما قضاء الله وقدره وهو يبغضه ويكرهه ويسخطه وينهى عنه فإن لم أوافقه فى بغضه وكراهيته وسخطه ، لم أكن محباً له ، بل محباً لما يبغضه . فاتباع الشريعة والقيام بالجهاد ، من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه ، وبين من يدّعى محبة الله ناظر إلى عموم ربوبيته ، أو

---

(١) لعله قد يسقط من هذا الموضع كلام عمر أو شيخ الإسلام به أن بعض أدعياء المحبة من المتصوفة ، يدعون أن محبة العبد لله تتضمن حب كل شئ في العالم ، حيث إنه مراد لله ويتأولون بهزر كلام بعض الشيوخ الخ . كتبه صاحب المنار .

متبعاً لبعض البدع المخالفة لشريعته ، فإن دعوى هذه المحبة لله من جنس دعوى اليهود والنصارى ، المحبة لله ، بل قد يكون دعوى هؤلاء شراً من دعوى اليهود والنصارى لما فيهم من النفاق ، الذين هم به فى الدرك الأسفل من النار ، كما قد يكون دعوى اليهود والنصارى شراً من دعواهم ، إذ لم يصلوا إلى مثل كفرهم .

وفى التوراة والإنجيل من ذكر محبة الله ما هم متفقون عليه ، حتى إن ذلك عندهم أعظم وصايا الناموس ، ففى الإنجيل أن المسيح قال : أعظم وصايا المسيح أن تحب الله بكل قلبك وعقلك ونفسك ، والنصارى يدَّعون قيامهم بهذه المحبة وأن ما هم فيه من الزهد والعبادة هو من ذلك وهم براء من محبة الله إذ لم يتبعوا ما أحبه ، بل اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ، والله يبغض الكافرين ويمقتهم ويلعنهم ، وهو سبحانه يحب من يحبه ، لا يمكن أن يكون العبد محباً لله ، والله تعالى غير محب له ، بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له ، وإن كان جزاء الله لعبده أعظم ، كما فى الحديث الصحيح الإلهى عن الله تعالى أنه قال : من تَقَرَّب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة .

وقد أخبر سبحانه أنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين ، ويحب التوابين ويحب المتطهرين، بل هو يحب من فعل ما أمر به من واجب ومستحب ، كما فى الحديث الصحيح ، لا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سئلنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وكثير من المخطئين الذين ابتدعوا أشياء فى الزهد

والعبادة وقعوا فى بعض ما وقع فيه النصارى ، من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته ، وترك المجاهدة فى سبيله ونحو ذلك ، ويتمسكون فى الدين الذى يتقربون به إلى الله بنحو مما تمسك به النصارى من الكلام المتشابه ، وحكايات لا يعرف صدق قائلها ، ولو صدق لم يكن قائلها معصوماً ، فيجعلون متبوعيهم شارعين لهم ديناً ، كما جعلت النصارى لقسيسهم ورهبانهم شارعين لهم ديناً .

ثم إنهم ينتقصون العبودية ويدَّعون أن الخاصة يتعدونها ، كما يدعى النصارى فى المسيح ، ويثبتون للخاصة من المشاركة لله من جنس ما تثبته النصارى للمسيح وأمه ، إلى أنواع أخرى ، يطول شرحها فى هذا الموضع ، وإنما الدين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة ، وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه ، وتكمل محبة الرب لعبده ، وبقدر نقص هذا ، يكون نقص هذا ، وكلما كان فى القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك ، وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك ، وكل محبة لا تكون لله فهى باطلة ، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل ، فالدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها إلا ما كان لله ، ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله ، وهو المشروع فكل عمل أريد به غير الله ، لم يكن لله ، وكل عمل لم يوافق شرع الله لم يكن لله ، بل لا يكون لله إلا ما جمع الوصفين أن يكون لله وأن يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله ، وهو الواجب والمستحب ، كما قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ، فلابد من العمل الصالح وهو الواجب أو المستحب ولابد أن يكون خالصاً لوجه الله ، قال تعالى : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، وقال النبى ﷺ : من عمل عملاً ليس

عليه أمرنا فهو ردّ ، وقال ﷺ إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

وهذا الأصل هو أصل الدين وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ، وإليه دعا الرسول ﷺ ، وعليه جاهد وبه أمر وفيه رغب ، وهو قطب الدين الذى يدور عليه رحاه ، والشرك غالب على النفوس ، وهو كما فى الحديث ، وهو فى هذه الأمّة أخفى من دبيب النمل ، وفى حديث آخر ، قال أبو بكر : يا رسول الله كيف ننجو منه وهو أخفى من دبيب النمل ؟ فقال : يا أبا بكر ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت مِنْ دِقِّه وجهله ، قل : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم .

وكان عمر يقول فى دعائه : (اللهم اجعل عملى كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً) ، وكثيراً ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها لله ، وإخلاص دينها له ، كما قال شداد بن أوس : يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية قيل لأبى داود السجستانى ، وما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرئاسة .

وعن كعب بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال : ما ذئبان جائعان أرسلا فى حضرة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه ، قال الترمذى حديث حسن صحيح .

فبيّن ﷺ ، أن الحرص على المال والشرف من فساد الدين ، لا ينقص عن فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم ، وذلك يبين أن الدين السليم

لا يكون فيه هذا الحرص ، وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبودية الله ومحبته له لم يكن شئ أحب إليه من ذلك ، حتى يقدمه عليه ، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء ، كما قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ، فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته ما يمنعه من عبوديته لغيره ومن حلاوة محبة الله ما يمنعه عن محبة غيره ، إذ ليس عند القلب لا أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسرّ ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ، ومحبته له وإخلاصه الدين له ، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله ، فيصير القلب منيباً إلى الله خائفاً منه راغباً راهباً ، كما قال تعالى : ﴿ من خَشِيَ الرحمنَ بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ ، إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه وحصول مرهوبه ، فلا يكون عبد الله ومحبّه إلا بين خوف ورجاء ، كما قال تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ .

وإذا كان العبد مخلصاً له اجتباه ربه فأحيا قلبه واجتذبه إليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء ، ويخاف من حصول ضدّ ذلك بخلاف القلب الذى لم يخلص لله ، فإن فيه طلباً وإرادة وحباً مطلقاً ، فيهوى ما سنح له ، ويتشبث بما يهواه ، كالغصن الرطيب أى نسيم مرّ به أماله ، فتارة تجذبه الصور المحرّمة ، وغير المحرّمة ، فيبقى أسيراً عبداً لمن لو اتخذه عبداً له لكان ذلك نقصاً وعيباً وذماً .

وتارة يجذبه الشوق والرئاسة ، فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ، ويستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل ، ويعادى من يذمّه ولو بالحق ، وتارة يستعبده الدرهم والدينار ، وأمثال ذلك من الأمور التى تستعبد القلوب والقلوب تهواها ، ويتخذ إله هواه بغير هدى من الله ، ومن لم يكن مخلصاً

لله عبداً له ، قد صار قلبه مستعبداً لربه وحده لا شريك له ، بحيث يكون هو أحب إليه من كل ما سواه ، ويكون ذلك ذليلاً له خاضعاً له ، وإلا استعبدته الكائنات واستولت على قلبه الشياطين ، وكان من الغاوين ، إخوان الشياطين ، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله ، وهذا أمر ضرورى لا حيلة فيه ، فالقلب فإن لم يكن حنيفاً مقبلاً على الله ، معرضاً عما سواه ، وإلا كان مشركاً ، كما قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، منيبين إليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيَعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، وقد جعل الله إبراهيم وآل إبراهيم أئمة لهؤلاء الحنفاء المخلصين ، أهل محبة الله وعبادته وإخلاص الدين له ، كما جعل فرعون وآل فرعون أئمة للمشركين المتبعين أهواءهم .

وقال تعالى فى إبراهيم : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكُلاً جعلنا صالحين ، وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ ، وقال تعالى فى فرعون وقومه : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ . ولهذا يصير أتباع فرعون أوْلى بأن لا يميزوا بين ما يحبه الله ويرضاه ، وبين ما قدره وقضاه ، بل ينظرون إلى المشيئة المطلقة الشاملة ، ثم فى آخر الأمر لا يميزون بين الخالق والمخلوق ، بل يجعلون وجود هذا ، وجود هذا ، ويقول محققوهم : الشريعة فيها طاعة ومعصية ، والحقيقة فيها معصية بلا طاعة ، والتحقيق ليس فيه طاعة ولا معصية . وهذا تحقيق مذهب فرعون وقومه

الذين أنكروا الخالق ، وأنكروا تكليمه لعبده موسى وما أرسله به من الأمر والنهى .

وأما إبراهيم وآل إبراهيم الحنفاء والأنبياء فهم يعلمون أنه لابد من الفرق بين الخالق والمخلوق ، ولابد من الفرق بين الطاعة والمعصية ، وأن العبد كلما ازداد تحقيقاً ازدادت محبته لله وعبوديته له وطاعته له وإعراضه عن عبادة غيره ومحبة غيره وطاعة غيره ، وهؤلاء المشركون الضالون يسوّون بين الله وبين خلقه .

والخليل يقول : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدوّ لى إلا رب العالمين ﴾ ، ويتمسكون بالمتشابه من كلام المشائخ كما فعلت النصارى ، مثال ذلك اسم الفناء ، فإن الفناء ثلاثة أنواع : نوع للكاملين من الأنبياء ، ونوع للقاصرين من الأولياء والصالحين ، ونوع للمنافقين الملحدين المشبهين ، فأما الأول فهو الفناء عن إرادة ما سوى الله ، بحيث لا يحب إلا الله ، ولا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يطلب غيره ، وهو المعنى الذى يجب أن يقصد بقول الشيخ ابن زيد حيث قال : أريد أن لا أريد إلا ما يريد ، أى إلا المراد المحبوب المرضى ، وهو المراد بالإرادة الدينية وكمال العبد أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه ، وهو ما أمر به أمر إيجاب واستحباب ، ولا يحب إلا ما يحبه الله ، كالملائكة والأنبياء والصالحين .

وهذا معنى قولهم فى قوله : ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ، قالوا هو السليم مما سوى الله ، ومما سوى عبادة الله ، أو مما سوى إرادة الله أو مما سوى محبة الله ، فالمعنى واحد ، وهذا المعنى إن سمى فناء أو لم يسم ، هو أول الإسلام وآخره وباطن الدين وظاهره ، وأما المعنى الثانى ، فهو الفناء

عن شهود السوى ، وهذا يحصل لكثير من السالكين فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته ، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد لا يخطر بقلوبهم غير الله ، بل ولا يشعرون به ، كما قيل فى قوله : ﴿ وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً ﴾ ، قالوا من كل شئ إلا ذكر موسى . وهذا كثير مما يعرض لمن يهمه أمر من الأمور ، إما حب وإما خوف وإما رجاء ، يبقى قلبه منصرفاً عن كل شئ إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه ، بحيث يكون عند استغراقه فى ذلك لا يشعر بغيره ، وإذا قوى على صاحب الفناء هذا فإنه يغيب بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته ، حتى يفنى من لم يكن ، وهى المخلوقات المعبَّدة لمن سواه ، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى . والمراد فناؤها فى شهود العبد ، وذكره وفناؤه عن أن يذكرها أو يشهدها ، وإذا قوى هذا أو ضعف المحب حتى اضطرب فى تمييزه ، فقد يظن أنه هو محبوبه ، كما يذكر أن رجلاً ألقى نفسه فى اليم ، فألقى محبة نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت فما أوقعك خلفى ، فقال : غبت بك عنى ، فظننت أنك أنى ، وهذا الموضع زلت فيه أقدام أقوام وظنوا أنه اتحاد وأن المحب يتحد بالمحبوب حتى لا يكون بينهما فرق فى نفس وجودهما ، وهذا غلط ، فإن الخالق لا يتحد به شئ أصلاً ، بل لا يتحد شئ بشئ إلا إذا استحالا ففسدا ، وحصل من اتحادهما أمر ثالث ، لا هو هذا ولا هذا ، كما إذا اتحد الماء واللبن والماء والخمر ونحو ذلك ، ولكن يتحد المراد والمحبوب والمكروه ويتفقان فى نوع الإرادة والكراهة ، فيحب هذا ما يحب هذا ، ويبغض ما يبغض ويرضى ما يرضى ويسخط ما يسخط ويكره ما يكره ويوالى من يوالى ويعادى من يعادى وهذا الفناء كلّه فيه نقص .

وأكابر الأولياء كأبى بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين

والأنصار ، لم يقعوا فى هذا الفناء فضلاً عمن هو فوقهم من الأنبياء ، وإنما وقع شئ من هذا بعد الصحابة ، وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل والتمييز لما يرد على القلب من أحوال الإيمان ، فإن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت فى الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم ، أو يحصل لهم غشى أو ضعف أو سكر أو فناء أو وَلَهٌ أو جنون ، وإنما كان مبادئ هذه الأمور فى التابعين من عُبَّاد البصرة ، فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن ، ومنهم من يموت كأبى جهين الضرير ، وزرارة بن أبى فى قاضى البصرة ، وكذلك صار فى شيوخ الصوفية من يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه ، حتى يقول فى تلك الحالة من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه ، كما يحكى نحو ذلك عن أبى يزيد ، وأبى الحسن النورى وأبى بكر الشبلى ، وأمثالهم بخلاف أبى سليمان الدارانى ومعروف الكرخى والفضيل بن عياض ، بل وبخلاف الجنيد وأمثاله ممن كانت عقولهم وتمييزهم تصحبهم فى أحوالهم ، فلا يقعون فى مثل هذا الفناء والسكر ونحوه ، بل الكمال لكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته ، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون به الأمور على ما هى عليه ، بل يشهدون أن المخلوقات قائمة بأمر الله ، مدبرة بمشيئته ، بل مسبحة له قائمة له فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيداً أو ممداً لما فى قلوبهم من إخلاص الدين وتجريد التوحيد له ، والعبادة له وحده لا شريك له ، وهذه الحقيقة التى دعا إليها القرآن ، وقام بها أهل التحقيق والإيمان ، والكمّل من أهل العرفان ونبيّنا ﷺ إمام هؤلاء وأكملهم .

ولهذا لما عُرج به إلى السموات ، وعاين ما هناك من الآيات ، وأوحى إليه ما أوحى من أنواع المناجاة أصبح فيهم ، وهو لم يتغير حاله ،

ولا ظهر عليه ذلك بخلاف ما كان يظهر على موسى عليه السلام من التغير والتغشى صلى الله عليهم أجمعين .

وأما النوع الثانى مما قد يسمى فناء ، فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله ، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق فلا فرق بين الرب والعبد ، فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد ، الواقعين فى حال الحلول والاتحاد ، والمشائخ المستقيمون إذا قال أحدهم ما أرى غير الله ، أو لا يرى غير الله أو لا ينظر غير الله أو نحو ذلك ، فمرادهم بذلك ما أرى رباً غيره ، ولا خالقاً غيره ولا مدبراً غيره ولا إلهاً غيره ، ولا أنظر إلى غيره محبة له أو خوفاً منه أو رجاء له ، فإن العين تنظر إلى ما يتعلق به القلب ، فمن أحب شيئاً أو خافه أو رجاه التفت إليه ، فإذا لم يكن فى قلبه محبة له ولا رجاء ولا خوف منه ، ولا بغض له ولا غير ذلك من تعلق القلب له ، لم يقصد القلب أن يلتفت إليه ولا أن ينظر إليه ولا أن يراه ، وإن رأه اتفاقاً رؤية مجردة ، كان كما لو رأى حائطاً ونحوه ، مما ليس فى قلبه تعلق به .

والمشائخ والصالحون رضى الله عنهم يذكرون شيئاً ، تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين كله بحيث لا يكون العبد ملتفتاً إلى غير الله ولا ناظراً إلى ما سواه ، لا حباً له ولا خوفاً منه ولا رجاء له ، بل يكون فارغاً من المخلوقات خالياً منها ، لا ينظر إليها إلا بنور الله ، فبالحق يسمع وبالحق يبصر وبالحق يبطش ، وبالحق يمشى ، فيحب منها ما يحبه الله ويبغض منها ما أبغضه الله ويوالى منها ما والاه الله ، ويعادى منها ما عاداه الله ، ويخاف الله فيها ولا يخافها فى الله ، ويرجو الله فيها ولا يرجوها فى الله فهذا هو القلب السليم الحنيف الموحد المسلم المؤمن العارف المحقق معرفة الأنبياء والمرسلين ، وتحقيقهم وتوحيدهم .

وأما النوع الثالث ، وهو الفناء فى الوجود فهو تحقيق آل فرعون ، ومعرفتهم وتوحيدهم ، كالقرامطة وأمثالهم ، وهذا الفناء الذى عليه أتباع الأنبياء وهو الفناء المحمود الذى يكون صاحبه ممن أثنى أمّة عليه من أوليائه المتقين ، وحزبه المفلحين ، وجنده الغالبين .

وليس مراد المشائخ الصالحين بهذا القول أن الذى أراه بعينى من المخلوقات هو رب الأرض والسموات ، فإن هذا لا يقوله إلا من هو فى غاية الضلال والفساد ، إما فساد العقل وإما فساد الاعتقاد فهو متردد بين الجنون والإلحاد ، وكل المشائخ الذين يقتدى بهم فى الدين متفقون على ما اتفق عليه سلف الأمّة ، وأئمتها من أن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات ، ليس فى مخلوقاته شئ من ذاته ، ولا فى ذاته شئ من مخلوقاته ، وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث ، وتمييز الخالق عن المخلوق ، وهذا فى كلامهم أكثر من أن يمكن تسطيره هنا ، وهم تكلموا على ما يعرض للقلوب من الأعراض والشبهات ، فإن بعض الناس قد يشهد وجود المخلوقات فيظنه خالق الأرض والسموات ، لعدم التمييز والفرقان فى قلبه بمنزلة من رأى شعاع الشمس فظن أن ذلك هو الشمس ، التى فى السماء ، وهم قد يتكلمون فى الفرق والجمع .

ويدخل فى ذلك من العبارات المتلفة نظير ما دخل فى الفناء ، فإن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة فى المخلوقات يبقى قلبه متفرقاً فيها متشتتاً ، نظراً إليها وتعلقاً بها ، إما محبة وإما خوفاً وإما رجاء ، وإذا انتقل إلى الجمع اجتمع قلبه على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، فالتفت قلبه إلى الله بعد التفاته إلى المخلوقين ، فصارت محبته لربه وخوفه من ربه ، ورجاؤه لربه واستعانته بربه .

وهو فى هذه الحال قد لا يتسع قلبه للنظر إلى المخلوق ، ليفرق بين الخالق والمخلوق ، وقد يكون مجمعاً على الحق معرضاً عن الخلق نظراً وقصداً ، وهذا نظير النوع الثانى من الفناء ، ولكن بعد ذلك الفرق الثانى ، وهو أن يشهد عن المخلوقات قائمة بالله مدبّرة بأمره ، ويشهد أن كثرتها معدومة بوحدانية الله تعالى ، وأنه سبحانه رب المصنوعات ، وإلهها وخالقها ومالكها فيكون مع اجتماع قلبه على الله إخلاصاً له ومحبة وخوفاً ورجاء واستعانةً وتوكلاً على الله ، وموالاة فيه ومعاداة ، وأمثال ذلك ناظراً إلى الفرق بين الخالق والمخلوق ، مميزاً بين هذا وهذا ، يشهد بفرق المخلوقات وكثرتها مع شهادته ، أن الله رب كل شئ ومليكه وخالقه ، وأنه هو الذى لا إله إلا هو .

وهذا هو الشهود الصحيح المستقيم ، وذلك واجب فى علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته ، وفى حال القلب وعبادته وقصده وإرادته ومحبته وموالاته وطاعته ، وذلك تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، فإنه يفنى عن قلبه إلهية ما سوى الحق ويثبت فى قلبه الإلهية الحق فيكون فناء إلهية كل شئ من المخلوقات مثبتاً لإلهية رب الأرض والسموات .

وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله ومفارقة ما سواه فيكون مفرقاً فى علمه وقصده وشهادته وإرادته فى معرفته ومحبته بين الخالق والمخلوق ، بحيث يكون عالماً بالله تعالى ، ذاكراً له عارفاً به ، وهو مع ذلك عالم بمباينته لخلقه وانفراده منهم وتوحده دونهم ، ويكون محباً لله معظماً له عابداً له راجياً له خائفاً منه محبّاً فيه موالياً فيه معادياً فيه مستعيناً به متوكلاً عليه ممتنعاً عن عبادة غيره ، والتوكل عليه والاستعانة به والخوف منه والرجاء له والموالاة فيه والمعاداة فيه والطاعة لأمره ، وامتثال ذلك مما هو من خصائص إلهية الله سبحانه وتعالى ، وإقراره بإلهية الله دون ما سواه متضمن لإفراده

بربوبيته وهو أنه رب كل شئ ومليكه وخالقه ومدبره ، فحينئذٍ يكون موحداً لله ، ويبين ذلك أن أفضل الذكر لا إله إلا الله .

كما روى الترمذى وابن أبى الدّنيا وغيرهما ، مرفوعاً إلى النبى ﷺ أنه قال : أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله ، وفى الموطأ وغيره عن طلحة بن عبد الله بن كثير أن النبى ﷺ ، قال : أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ، ومن زعم أن هذا ذكر العامة ، وأن ذكر الخاصة هو الإسمُ المفرد ، وذكر خاصة الخاصة هو الإسم المضمر فهم ضالون غالطون ، واحتجاج بعضهم على ذلك بقوله : ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم ﴾ ، من أبين غلط هؤلاء ، فان الإسم هو مدلول فى الأمر بجواب الاستفهام ، وهو قوله : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس ﴾ ، إلى قوله : ﴿ قل الله ﴾ أى الذى أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ، فالإسم مبتدأ وخبره قد دل عليه الاستفهام ، كما فى نظائر ذلك ، بقول من جاء فنقوله زيد .

وأما الإسم المفرد مظهراً أو مضمراً فليس بكلام تام ، ولا جملة مفيدة ولا يتعلق به إيمان ولا كفر ولا أمر ولا نهى ، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمّة ، وما شرعه الله تعالى ، ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ ولا يعطى القلب بنفسه معرفة مفيدة ، ولا حالاً نافعاً ، وإنما يعطيه تصوراً مطلقاً ، لا يحكم عليه بنفى ولا إثبات ، فإن لم يقرن به معرفة القلب وحاله أفاد ، وإلا لم يكن فيه فائدة ، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه ، لا ما يكون الفائدة حاصلة بغيره .

وقد وقع بعض من واظب على هذا الذكر ، فى فنون من الإلحاد ،

وأنواع من الاتحاد ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع ، وما يذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال : أخاف أن أموت بين النفى والإثبات ، حال لا يقتدى فيها بصاحبها ، فإن فى ذلك من الغلط الإخفاء ما فيه ، إذ لو مات العبد فى هذه الحال لم يمت إلا على ما قصده ونواه ، إذ الأعمال بالنيات . وقد ثبت أن النبى ﷺ أمر بتلقين الميت لا إله إلا الله ، وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، دخل الجنة ، فلو كان ما ذكره محذوراً لم يلقن الميت كلمة يخاف أن يحدث فى أثنائها موت غير محمود ، بل كان يلقن ما اختاره هكذا وجد فى الأصل من ذكر الإسم المفرد ، والذكر بالإسم المفرد المضمر أبعد عن السنّة ، وأدخل فى البدعة ، وأقرب إلى ضلال الشيطان ، فإن من قال : يا هو ياهو ، أو هو ونحو ذلك ، لم يكن الضمير عائداً إلا إلى ما تصوره قلبه ، والقلب قد يهتدى وقد يضل .

وقد صنف صاحب الفصوص كتاباً سماه (كتاب الهو) .

وزعم بعضهم أن قوله : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ ، معناه وما يعلم تأويل هذا الإسم الذى هو (الهو) ، وقيل هذا وإن كان مما اتفق المسلمون ، بل العقلاء على أنه من أبين الباطل ، وقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء حى .

قلت مرة لبعض من قال بشئ من ذلك ، لو كان هذا كما قلته لكتبت ، (وما يعلم تأويله إلا (هو) مفصلة ثم كثير ما يذكره بعض الشيوخ ، أنه يحتج على قول القائل ، (الله) ، بقوله سبحانه : ﴿ قل الله ثم ذرهم ﴾ ، ويظن بأن الله أمر نبيه بأن يقول الإسم المفرد ، وهذا غلط ، باتفاق أهل العلم ، فإن قوله : ﴿ قل الله ﴾ ، معناه الله الذى أنزل الكتاب الذى جاء به موسى .

وهذا جواب لقوله : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ، وعُلِّمْتُم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ﴾ ، أى الله الذى أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ، رد بذلك قول من قال : ما أنزل الله على بشر من شئ ، فقال : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ؟ ثم قال : قل الله أنزله ، ثم ذر هؤلاء المكذبين فى خوضهم يلعبون .

ومما يبين ما تقدم ما ذكره سيبويه وغيره من أئمة النحو ، أن العرب يحكون بالقول ما كان كلاماً ، لا يحكون به ما كان قولاً ، فالقول لا يحكى به إلا كلام تام أو جملة اسمية أو فعلية ، ولهذا يكسرون « إن » إذا جاءت بعد القول لا يحكى به اسم ، والله تعالى لم يأمر أحداً بذكر اسم مفرد ولا شرع للمسلمين اسماً مفرداً مجرداً ، والإسم المفرد المجرد لا يفيد الإيمان باتفاق أهل الإسلام ولا يأمر به فى شئ من العبارات ولا فى شئ من المخاطبات ونظير من اقتصر على الاسم المفرد ما يذكر أن بعض الأعراب مرّ بمؤذن يقول : أشهد أن محمداً رسولَ‌الله بالنصب فقال : ماذا يقول هذا ؟ هذا هو الاسم فأين الخبر عنه الذى به يتم الكلام ؟ وما فى القرآن من قوله : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾ ، وقوله : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، وقوله : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ ، وقوله : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، قال النبى ﷺ : « اجعلوها فى ركوعكم » ، ولما نزل قوله : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، قال : « اجعلوها فى سجودكم » فشرع لهم أن يقولوا فى الركوع سبحان ربى العظيم وفى السجود سبحان ربى الأعلى ، وفى الصحيح أنه كان يقول فى ركوعه سبحان ربى العظيم وفى سجوده سبحان ربى الأعلى ، وهذا معنى قوله اجعلوها فى ركوعكم وسجودكم باتفاق المسلمين ، فسبح اسم ربه

الأعلى ذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد كما فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع ، وهى من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ، وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » ، وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « من قال فى يومه مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير » ، كتب الله له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثل ما قال أو زاد عليه ، ومن قال فى يومه مائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر ، وفى الموطأ وغيره عنه ﷺ أنه قال : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير » ، وفى سنن ابن ماجه وغيره عنه ﷺ أنه قال : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » ، ومثل هذه الأحاديث كثيرة فى أنواع ما يقال من الذكر والدعاء ، وكذلك فى القرآن كقوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ ، إنما هو قوله باسم الله ، وهذه جملة تامة ، إما اسمية على أظهر قول النحاة أو فعلية ، والتقدير ذَبْحى باسم الله أو أذبح باسم الله ، وكذلك قول القارئ : بسم الله الرحمن الرحيم ، فتقديره قراءتى باسم الله أو أقرأ باسم الله ، ومن الناس من يضمر فى مثل هذا ابتدائى باسم الله أو ابتدأت باسم الله ، والأول أحسن لأن الفعل كله مفعول باسم الله ليس مجرد ابتدائه كما أظهر المضمر فى قوله : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ ، وفى قوله ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾ ، وفى قول النبى ﷺ : « من كان

ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها أخرى ، ومن لم يكن ذبح فليذبح باسم الله » .

ومن هذا الباب قول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح لربيبه عمر بن سلمة « سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك » فالمراد أن يقول باسم الله ليس المراد ذكر الإسم مجرداً وكذلك قوله فى الحديث الصحيح لعدى بن حاتم : « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل » ، وكذلك قوله ﷺ : « إذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله وعند خروجه وعند طعامه ، قال الشيطان : « لا مبيت ولا عشاء » ، وأمثال هذا ، وكذلك ما شرع للمسلمين فى صلاتهم وأذانهم وحجهم وأعيادهم من ذكر الله تعالى إنما هو بالجملة التامة ، كقول المؤذن الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، وقول المصلى : الله أكبر سبحان ربى العظيم ، سبحان ربى الأعلى ، سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ، التحيات لله ، وقول الملبى : لبيك اللّهم لبيك ، وأمثال ذلك فجميع ما شرعه الله من الذكر ، إنما هو كلام تام ، لا اسم مفرد ولا مظهر ولا مضمر وهذا هو الذى يسمى فى اللغة (كلمة) كقوله : كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن إلى آخره .

وقوله أفضل كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

ألَا كلُّ شئٍ ما خلا الله باطل　　وكل نعيمٍ لا محالة زائل

ومنه قوله تعالى : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ ، وأمثال ذلك مما استعمل فيه لفظ الكلمة من الكتاب والسنّة ، بل ومن سائر كلام العرب ، فإنما يراد بالجملة التامة ، كما كانوا يستعملون الحرف فى الإسم، فيقولون هذا حرف

غريب ، أى لفظ الاسم غريب ، وقسّم سيبويه الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس بإسم وفعل ، وكل من هذه الأقسام يسمى حرفاً لكن خاصة الثالث أنه حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل وسمى حرف الهجاء باسم الحرف ، وهى أسماء ولفظ الحرف يتناول هذه الأسماء وغيرها ، كما قال النبى ﷺ : « من قرأ القرآن فأعربه فله فى كل حرف عشر حسنات ، أما أنى لا أقول (الم) حرف ولكن الف حرف ولام حرف وميم حرف » ، وقد سئل الخليل أصحابه عن النطق بحرف الزاء من زيد ، فقالوا زاء ، فقال : جئتم بالإسم ، وإنما الحرف (ز) ثم النحاة اصطلحوا على أن هذا المسمى فى اللغة بالحرف يسمى كلمة ، وأن لفظ الحرف يخص لما جاء لمعنى ليس بإسم ولا فعل ، لحروف الجر ونحوها .

وأما ألفاظ حروف الهجاء فيعبر تارة بالحرف عن نفس الحرف من اللفظ ، وتارة باسم ذلك الحرف ، ولما غلب هذا الاصطلاح ، صار يتوهم من اعتاده أنه هكذا فى لغة العرب ، منهم من يجعل لفظ الكلمة فى اللغة لفظاً مشتركاً بين الإسم مثلاً وبين الجملة ، ولا يعرف فى صريح اللغة من لفظ الكلمة إلا الجملة التامة .

والمقصود هنا أن المشروع فى ذكر الله ، هو ذكره بجملة تامة وهو المسمى بالكلام ، والواحد منه بالكلمة ، وهو الذى ينفع القلوب ، ويحصل به الثواب والأجر والقرب إلى الله ومعرفته ومحبته وخشيته وغير ذلك من المطالب العالية ، والمقاصد السامية ، وأما الاقتصار على الإسم المفرد مظهراً أو مضمراً فلا أصل له ، فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين ، بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات ، وذريعة إلى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد والاتحاد كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع .

وجماعة الدين أصلان ، أن لا يعبد إلا الله وأن لا يعبد إلا بما شرع لا يعبد بالبدع ، كما قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ، وذلك تحقيق الشهادتين ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمداً رسول الله ، ففى الأول أن لا نعبد إلا إياه وفى الثانية أن محمداً هو رسوله المبلغ عنه فعلينا أن نصدّق خبره ونطيع أمره ، وقد بين لنا ما نعبد الله به ونهانا عن محدثات الأمور وأخبر أنها ضلالة ، قال الله تعالى : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عنده ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، كما أنا مأمورون أن لا نخاف إلا الله ولا نتوكل إلا عليه ولا نرغب إلا فى الله ولا نستعين إلا بالله ولا تكون عبادتنا إلا لله فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ونطيعه ونتأسى به ، فالحلال ما حلله الله ، والحرام ما حرمه الله ، والدين ما شرعه الله ، قال الله تعالى : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ ، فجعل الإيتاء لله والرسول كما قال الله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ، وجعل التوكل على الله وحده بقوله : ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ ، ولم يقل ورسوله كما قال : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ، ومثله قوله : ﴿ يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ ، أى حسبك وحسب المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ، ثم قال : ﴿ وقالوا سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ ، فجعل الإيتاء لله والرسول وقدم ذكر الفضل لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وله الفضل على رسوله والمؤمنين ، وقال : ﴿ إنا إلى الله راغبون ﴾ ، فجعل الرغبة إلى الله وحده ، كما فى قوله : ﴿ فإذا فرغت

فانصب ، وإلى ربك فارغب ﴾ ، وقال النبى ﷺ لابن عباس : إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، والقرآن يدل على مثل هذا وقد ذكر فى غير هذا الموضع ، فجعل العبادة والخشية والتقوى لله ، وجعل الطاعة والمحبة لله ورسوله كما قال نوح : ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ .

وأمثال ذلك فالرسل أمروا بعبادته وحده والرغبة إليه والتوكل عليه والطاعة له ، فأضل الشيطانُ النصارى وأشباههم فأشركوا بالله وعصوا الرسول ، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، فجعلوا يرغبون إليهم ويتوكلون عليهم ويسألونهم عن معصيتهم لأمرهم ومخالفتهم لسنتهم وهدى الله المؤمنين المخلصين لله أهل الصراط المستقيم الذين عرفوا الحق واتبعوه فلم يكونوا من المغضوب عليهم ولا من الضالين فأخلصوا دينهم لله وأسلموا وجوههم لله وأنابوا إلى ربهم وأحبوه ورجوه وخافوه وسألوه ورغبوا إليه وفوضوا أمرهم إليه وتوكلوا عليه وأطاعوا رسله وعزروهم ووقروهم وأحبوهم ووالوهم واتبعوهم واقتفوا آثارهم واهتدوا بمنارهم وذلك هو دين الإسلام الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل وهو الدين الذى لا يقبل الله من أحد ديناً إلا إياه وهو حقيقة العبادة لرب العالمين .

فنسأل الله العظيم أن يثبتنا عليه ويكمله لنا ويميتنا عليه وسائر إخواننا المسلمين ، والحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله وصحبه وسلم .

تمت الرسالة العبودية لشيخ الإسلام
ويليها الفرقان بين أولياء الرحمن
وأولياء الشيطان
لشيخ الإسلام
رحمه الله

الفرقـــان

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

تأليف الشيخ الإمام شيخ مشايخ الإسلام
أحمد بن عبد الحكيم بن عبد السلام
بن تيمية الحراني الحنبلي
تغمده الله برحمته وأسكنه
فسيح جنته آمين

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

الحمد لله الحق حق ، والصلاة والسلام على من لا نبى من بعده .

أما بعد :

فيقول الله تعالى فى نشأة آدم أبى البشر : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم ، وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ، قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ، قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط علىَّ مستقيم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ .

عداء قديم بين الإنسان والشيطان بدأ من اللحظة التى وجد فيها آدم عليه السلام ، فدب الحقد والحسد فى نفس إبليس وعصى الله حين أمره بالسجود له تكريماً لآدم واحتفاء بنشأته ، وقال أنا خير منه خلقتنى من نار

وخلقته من طين . جَرَّتْه كبرياؤه إلى سلسلة من الذنوب ، فأشعلت فيه نار الحسد ، وأوقعته فى معصية الله ، ودفعته إلى مجادلة ربه فى قحة لا يشارك فيها . فاستحق أن يغضب الله عليه ، ويطرده من رحمته ، ويكتب عليه الصَّغار والضعة ، على ما بدر منه وصنعه .

ورفض إبليس أن يسدل الستار عقب هذا الفصل فاستمر فى عناده ومكابرته وعز عليه أن تنتهى الرواية بخذلانه ، وينعم آدم بكرم الله ورضوانه ، فأعلن عداءه له ولذريته وقال : ﴿ رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ، ورد عليه المولى سبحانه ﴿ اذهب فمن تَبِعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾ .

أقسم إبليس بعزة الله ألا يدخر وسعاً فى إغواء بنى آدم وأن يزين لهم المعاصى حتى يقبلوا عليها راغبين ، ولم يَحُل الله بينه وبينهم ، امتحاناً لعباده وابتلاء لهم فمن أطاع الرحمن وعصى الشيطان فأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ، ومن خدعهم الشيطان فأطاعوه ، وأعرضوا عن الله وخالفوه ، فأولئك يمتعهم الله قليلاً ثم يضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير .

وما فتئ إبليس منذ ذلك الحين يزين المخالفات ، ويخرجها فى صورة مغرية تخدع الأبصار وتستهوى الأفئدة – وتحمل كثيراً من الناس – إلا من عصمهم الله – على الاغترار بها والتردى فيها . ولإبليس لعنة الله حيل لا تنتهى يدخل بها على الناس على اختلاف ميولهم وأمزجتهم ومداركهم

وطبائعهم وقربهم من الله أو بعدهم عنه فهو لا يعرف اليأس ولا تعجزه الحيلة ولا يدركه الملل غَرَّر من قبل بآدم ، وقد قال الله له ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ، ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ .

بدأت المحنة منذ ذلك التاريخ ، ونجح إبليس فى مهمته ، وتجرأ على آدم وذريته ، وأنزل الله ، من أجل ذلك - الكتب ، وأرسل الرسل وتعهد عباده بالوصايا ﴿يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم ، وريشاً ولباس التقوى ، ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يتذكرون ، يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ ، وقال تعالى : ﴿يا بنى آدم ، إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ . وبالرغم من نصائح الله المتكررة ووصاياه البليغة وتحذيره الرهيب ، فقد انقسم الناس إلى فريقين ، كما يقول الله سبحانه :

﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ ، ذلك لأن الشيطان كان لهم بالمرصاد فأحاط بهم من كل جانب ، وأتاهم من كل باب ، وَبَرَّ فى قسمه حين قال : ﴿ لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أَيْمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ وسوس لهم حتى ضلوا فى العقيدة فأنكرت طائفة منهم مبدع الكون وقالت : ﴿ ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ ، وطائفة قالت : ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ ، وطائفة وصفت الله بما لا يتصف به وَحَرَمَتْه من الأوصاف التى أضفاها على نفسه ، وأخرى أشركت الخلائق فى خصائص الإله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وأولئك الذين أشع فى قلوبهم قَبَس من نور الإيمان لم يعجز إبليس عن أن يلبس عليهم دينهم ، فيحبب إليهم التغالى فى الدين ، فيشددوا على أنفسهم ويحملوها على ما لا قبل لها به ، وأحياناً يملأ قلوبهم بالأمانى الكاذبة فيحملهم على التفريط ويذكر لهم ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ ، ورحمته وسعت كل شىء، وهو سبحانه عند ظن عبده به، وفى ظلال هذه الأمانى التى يوحى بها يعيش كثير من الناس يستحلون الحرمات ، ويستبيحون المحرمات ويضيعون الواجبات ، ناسين أو متناسين ما جاء فى بقية الآيات ، ﴿ نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ ، متناسين كذلك أن الله أعلن أنه لا يتساوى بار وفاجر ومحسن ومسئ ، فقال سبحانه : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾ ، وقال : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ ، وقال : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم

ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ غرر الشيطان بهم فارتضوا صحبته ، وآثروا ولايته ، فهلكوا نتيجة الإفراط أو التفريط ، والتغالى والتحلل ، ﴿ أولئك الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ ، ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

وهكذا انقسم الناس إلى فريقين ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير فالذين لهم الجنة هم أولياء الرحمن ، ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ ، والذين لهم عذاب جهنم هم أولياء الشيطان ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ .

وفى هذا الكتاب الذى نقدمه الآن بحوث ممتعة حول هذا الموضوع وحسب القارئ أن يعلم أنها لشيخ الإسلام الإمام أبى العباس أحمد ابن تيمية وهو :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل ... بملتقطات لا ترى دونها فصلا
كفى وشفى ما فى النفوس فلم تجد ... لذى إربة فى القول جداً ولا هزلا

عـرض خاطـف لكتـاب الفرقـان

افتتح الإمام ابن تيمية كتابه بأن لله أولياء من الناس ، وللشياطين أولياء منهم وساق الآيات التى تشهد بذلك ، ثم تلا هذا بالتفرقة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، كما قال تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ . وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون وأفضل المرسلين أولو العزم ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ ، وكذلك ﴿ الذين يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ ، وهم أولياء الشياطين ﴿ يصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

بعد ذلك ذكر ابن تيمية أن الرجل قد يكون فيه إيمان وفيه شعبة من النفاق ، واستدل على ذلك ببعض الأحاديث ثم قال : وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى كان أكمل ولاية لله ، فالناس متفاضلون فى ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم فى الإيمان والتقوى ، وكذلك يتفاضلون فى عداوة الله بحسب تفاضلهم فى الكفر والنفاق عقب ذلك يقسم الإمام ابن تيمية أولياء الله إلى طبقتين سابقون مقربون ، وأصحاب يمين مقتصدون ، فالسابقون المقربون هم الذين تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ففعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات ، والمقتصدون هم المتقربون إليه بالفرائض يفعلون ما أوجب الله

عليهم ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ولا الكف عن فضول المباحات ، وفى هذا المبحث يقول ابن تيمية : ومن تاب من ذنبه أى ذنب كان توبة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين والمقتصدين ، ويستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ﴾ الآية .

ويستنبط ابن تيمية من آية فاطر ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ تلك الآية التى جاءت وراء قوله : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ .

يستنبط من هذه الآية دليلاً لأهل السنّة على أنه لا يخلد فى النار أحد من أهل التوحيد .

ويتطرق عقب ذلك إلى بيان أصل الإيمان والتقوى فيقول : إنه الإيمان برسل الله ، كما أن أصل الكفر والنفاق هو الكفر بالرسل وبما جاءوا به ، ويرى أن الإيمان نوعان ، مجمل ومفصل ، وكلا صاحبيه ولى لله ، والأخير أكمل ولايته لله من الأول ، ويقرر ابن تيمية أنه مادام الإيمان والتقوى داخلين فى معنى الولاية فلا يمكن أن يعد واحد من الكفّار والمنافقين ولياً لله لانعدام الإيمان والتقوى ، وكذلك من لا يصح إيمانه وعبادته كالمجنون ، لا يعد ولياً لله وينتهى من هذا البحث إلى أن من يظهر الولاية ولا يؤدى الفرائض ولا يجتنب المحارم لا يجوز لأحد أن يقول هذا ولى الله مهما ظهر على يديه من الخوارق فإن الشيطان يعينه على ذلك . وإذا اعتقد مثل هذا أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ، فهو كافر إلا أن يكون مجنوناً قد رفع عنه القلم وسقط عنه التكليف .

وينتقل ابن تيمية إلى بيان أن الأولياء لا يتميزون بلباس ولا يقتصرون على طائفة بل يوجدون فى جميع أصناف الأمّة إذا لم يكونوا من أهل البدع

والفجور فيوجدون فى أهل القرآن وأهل العلم ويوجدون فى أهل الجهاد والسيف ويوجدون فى التجار والصناع والزراع .

وهنا يتكلم عن الصوفية وأصلها ويتعرض للخلاف بين العلماء فى هذه المسألة أيهما أفضل ، الغنى الشاكر أم الفقير الصابر ، ويتحدث بعد ذلك عن الجهاد وفضله وينكر على الذين يلوذون بالصمت الدائم ويمتنعون عن أكل اللحوم ويسوق لهم من الأحاديث ما فيه مزدجر ، ويبين فى هذا الكتاب أنه ليس من شرط الولى أن يكون معصوماً ، بل يجوز أن يخطئ ويشتبه عليه بعض أمور الدين ، ولهذا لا تجب طاعته فى كل ما يأمر به بل يعرض أمره على الكتاب والسنّة ، فما وافقهما قُبِل وإلا كان مردوداً عليه ولا يجوز للولى أن يعمل بما يلقى فى قلبه إلا بعد عرضه على هذين المصدرين ، وهذا من أهم الفروق بين الأنبياء وغيرهم .

بعد ذلك ينتقل إلى بيان معنى الحقيقة والشريعة فيقرر هنا أن الحقيقة هى دين الله الذى ألزم به الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين ودين الله هو الإسلام ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ ، والشريعة ما شرعه الله من الأحكام التى تتلاءم مع ظروف من شرعت له ومن ثَمَّ فدين الأنبياء واحد وشرائعهم مختلفة .

وفى الفصل الثانى يقول ابن تيمية : إن الاتفاق انعقد على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء ، وأمّة محمد أفضل الأمم ، والقرن الأول خير القرون ، والسابقون أفضل الصحابة ، ونبينا أفضل الأنبياء وأتباعه ليسوا محتاجين إلى غيره من النبوات المتقدمة ولا إلى محدثين كما احتاج غيرهم من بقية الأمم ، ولهذا فمن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد فهو كافر ملحد ومثل

هذا من يزعم أنه محتاج إليه فى علم الظاهر دون علم الباطن أو يدعى أن الولاية أفضل من النبوة .

وهنا يناقش ابن تيمية ما ادعاه الفلاسفة من أن النبى من توفرت عنده قوة علمية وقوة تخيلية وقوة فعالة ويرد هذا بأسلوب علمى دقيق ، ويبطل فكرة العقول الفشرة ويبين أنها لا تمت بصلة إلى الإسلام ويكشف زيف استدلالهم بما يروونه (أول ما خلق الله العقل) ويرد على فكرة وحدة الوجود وعلى القائلين بالاتحاد والحلول وينتقل إلى بيان أن كشف الأنبياء أعظم من كشف غيرهم ويدحض قول من يقول إن النبوة لم تنقطع وأن المراتب ثلاث ، بناء على أن العبد يشهد أولاً : طاعة ومعصية ، ثم طاعة بلا معصية ، ثم لا طاعة ولا معصية ، ويقرر ابن تيمية ، أن المعصية هى مخالفة الأمر لا مخالفة الإرادة كما يزعم الجاحدون . وفى نهاية هذا الفصل يتحدث عن معنى معية الله فى القرآن ، فيبين أنها إن وردت عامة مثل : ﴿ ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ﴾ ، فهى معية علم وإن وردت خاصة نحو ﴿ إن الله مع الذين اتقوا ﴾ ، فهى معية نصر وتأييد ، وهنا يجمل عقيدة السلف فيقول : أجمع سلف الأمّة وأئمتها على أن الرب تعالى باين من مخلوقاته يوصف بما يوصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ويعلم أنه ليس كمثله شئ وهذا المذهب هو أسلم وأعلم وأحكم ، بل السلامة كلها والعالم كله فى اعتناق هذه العقيدة ، فأبلغ العلم أن يعرف الإنسان قدره ، ولا يتجاوز حده .

ويفرق ابن تيمية بعد ذلك بين الحقائق الأمرية الدينية الإيمانية والحقائق الخلقية القدرية الكونية فيقرر أن كل ما فى الوجود بقضاء الله وقدره وإرادته وقدرته ، وأن الله أمر بطاعته وطاعة رسله ونهى عن معصيته

ومعصية رسله ، ثم يسوق بعد ذلك بعض الأوامر الدينية . ويوفق بين حديث « لن يدخل الجنة أحد بعمله » .

وقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ ، فيقول : إن الرسول نفى باء المقابلة والمعادلة ، والقرآن أثبت باء السبب ، وهذا ولا شك توفيق حكيم بعد ذلك ينتقل إلى الرد على من زعم أن القدر حجة لأهل الذنوب مستنداً إلى احتجاج آدم مع موسى ، وهنا يميط اللثام عن وجه هذا الحديث ويكشف النقاب عن معناه ، ويتعرض أخيراً إلى بيان معنى الشرع فيفيد أنه قد يراد به ما نزل من عند الله وهو الكتاب والسنّة وهذا لا يباح لأحد الخروج عنه بحال من الأحوال فلا يجوز له أن ينخدع بوجده وذوقه أو يغتر بوحى الشياطين أو يستند إلى قصة موسى مع الخضر فقد علم الخضر من الأسباب ما لم يعلمه موسى ، ولو علم ما علمه لفعل ما فعله على أن موسى لم يبعث إليه بخلاف نبينا عليه الصلاة والسلام ، فرسالته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس ، وقد يراد بالشرع حكم الحاكم وقضاء القاضى ، وهنا يمكن أن يخطئ الحاكم ويصيب ، فإن كان الباطن بخلاف الظاهر ى الأملاك المطلقة ، لم يجز للمقضى له أن يأخذ ما قضى له به ، لأنه قطعة من النار وإن كان فى العقود والنسوخ ، فكذلك على رأى أكثر العلماء .

وقد يراد بالشرع قول أئمة الفقه كالأئمة الأربعة والأوزاعى والليث وداود وغيرهم وهؤلاء يحتج أقوالهم بالكتاب والسنّة ، وإذا قلد المكلف غيره حيث يجوز ذلك كان جائزاً فليس اتباع أحدهم واجباً على جميع الأمّة كاتباع الرسول ، ولا يحرم تقليد أحدهم كما يحرم اتباع من يتكلم بغير علم .

ويختم ابن تيمية هذا الفصل فيقول : إن من الناس من يضيف إلى

الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة أو تأويلات شاذة على خلاف مراد الله . وهذا من نوع التبديل فيجب الفرق بين الشرع المنزل والشرع المؤول والشرع المبدل .

وفى الفصل الذى يليه يذكر الفرق بين الكونى والدينى من الإرادة والأمر والقضاء والإذن والتحريم والبعث والإرسال والكلام والجعل ويستشهد لها من الكتاب والسنّة مبيناً ورودها فيهما بهذين الإطلاقين أعنى الكونى والدينى .

وبيّن فى هذا الفصل أن أولياء الله المتقين هم المطيعون لكلماته الدينية وجعله الدينى وأذنه الدينى وإرادته الدينية – وهؤلاء قد تقع لهم كرامات وكراماتهم لحاجة فى الدين أو لحاجة بالمسلمين ، ولا تحصل إلا باتباع الرسول ﷺ ، فهى فى الحقيقة داخلة فى معجزات الرسول ﷺ ، ويستطرد ابن تيمية فيذكر لنا طرفاً من معجزات المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وطرفاً آخر من كرامات أصحابه وتابعيه ، ولا يفوته فى هذا المقام أن يبيّن كيف تلبس الشياطين على أعوانهم فيأتون من الغرائب ما قد يوحى إلى الناس أنهم من أولياء الله وما كانوا أولياءه ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

وقد توسع ابن تيمية فى هذا الباب وساق خوارق كثيرة بعضها اعتبره كرامة والبعض اعتبره استدراجاً ، وأعظم الظن أنه رضى الله عنه كان يصدق لسلامة نيته كل ما يروى من هذا القبيل ، فلا يبحث فيه ولا يتحرى عنه ، وهذا لا يعنى أننا ننكر الكرامات ، ولكن يعنى أننا نشك فى صدق رواتها ، فكم لبس علينا الدجالون ، وأوقعنا فى حبائلهم المحتالون .

وفى الفصل الختامى يتحدث عن رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى الجن مشيراً إلى ما نزل فى القرآن بشأنهم ، ولا يفوته أن يتعرض لبيان أحوالهم وأحكامهم - وهو فى هذا الفصل أيضاً يتوسع ولا يجد بأساً فى أن يحكى لنا كل ما بلغه وسمع به من أخبار الجن وشئونهم رحمه الله رحمة واسعة وغفر له وأجزل ثوابه .

النسخة التى اعتمدنا عليها فى الطبع

وقعت فى أيدينا من هذا الكتاب نسخ ثلاث مطبوعة طبعت الأولى سنة ١٣١٠ بمطبعة محمد مصطفى والثانية طبعت سنة ١٣٢٥ بمطبعة التقدم العلمية إدارة عبد الواحد الطوبى والثالثة طبعت سنة ١٣٦٦ بمطبعة الإمام بالدمالشة ، كتب على غلافها ، أنها محققة ومن يتصفحها يعز عليه أن يعثر على شاهد يقوم على دعوى التحقيق ، ذلك لأن النسخ الثلاث تلتقى جميعاً فى الصواب والخطأ ، ونضرب لذلك بعض الأمثلة .

١ - فى ص ٤٣ من النسخة الأولى ، ٤٢ من النسخة الثانية ، ٦٧ من النسخة الثالثة توجد هذه العبارة ننقلها بنصها (وأن هذا الذى جعلوه من الخصائص التى تحصل ما هو أعظم منه لآحاد العامة) ، وصوابها كما فى مخطوطتى الأزهر ودار الكتب المصرية (وإن هذا الذى جعلوه من خصائص النبى يحصل ما هو أعظم منه لآحاد العامة) .

٢ - فى ص ٥٣ أولى ، ٥١ ثانية ، ٨٤ ثالثة .

وما زلت إياها وإياى لم تزل ولا فرق بين ذاتى لذات صلت

والصواب كما فى المخطوطتين (ولا فرق بل ذاتى لذاتى ...) .

٣ - فى ص ٦١ ثانية ، ١٠٠ ثالثة (وبين الدينى الذى أمر به وشرعه وأثاب عليه وأكرمهم) ، والصواب (وأثاب فاعليه وأكرمهم) وهذا موجود فى المخطوطتين وفى النسخة الأولى ص ٦٢ .

٤ – فى ص ٧٤ أولى ، ٧٢ ثانية ، ١١٩ ثالثة (بل يقف بعرفة بثيابه ثم يرجع من ليلته وهذا ليس بحج ، فقال ألا تكتبونى ، فقالوا ألست من الحجاج ، يعنى حجاً شرعياً) ، والكلام هنا منقطع كما يدركه القارئ لأول وهلة وقد تأكد لى هذا بمراجعة المخطوطتين وصوابه (بل يقف بعرفة بثيابه ثم يرجع من ليلته وهذا ليس بحج مشروع باتفاق المسلمين بل هو كمن يأتى الجمعة ويصلى بغير وضوء وإلى غير القِبلة ومن هؤلاء المحمولين من حمل مرة إلى عرفات ورجع فرأى فى النوم ملائكة يكتبون الحجاج فقال ألا تكتبونى ، فقالوا لستَ من الحجاج يعنى لم تحج حجاً شرعياً) .

حملنى هذا الذى لمسته فى النسخ المطبوعة على التنقيب عن نسخ مخطوطة فوجدت والحمد لله نسختين كما أشرت إلى ذلك آنفاً ، الأولى بالمكتبة الخاصة بالمرحوم الشيخ بخيت المطيعى وهى ملحقة بالمكتبة الأزهرية ورقمها الخصوصى ٣٩٨٩ والعمومى ٤٤٨٢٦ وقد كتبت سنة ٩٠٩ فى ٤٩ ورقة مسطرتها مختلفة ٢٢ سم بقلم أحمد بن عبد الله بن محمد بن الخطاب وفيها تحريف كثير وتختلف عن نسختنا زيادة ونقصاً كما سننبه على المهم منه فى نسختنا التى سنقوم بطبعها .

والثانية بدار الكتب المصرية مكتبة (قولة) ، وتوجد فى علم الكلام تحت رقم ١٢٢ ق وهى مكتوبة بخط جميل كتبها مصطفى بن على فى دار السلطنة القسطنطينية فى مدرسة زكريا أفندى ، وانتهى منها فى أوائل جمادى الأولى سنة ١٠٦٦ فى ٧٦ ورقة مسطرتها ١٧ سطراً فى حجم الثمن وهذه النسخة لا تخلو أيضاً من زيادة ونقص وتحريف يسير ، وسنشير إلى المهم فى موطنه هنا .

وبعد ، فقد بذلت ما فى وسعى فى تحقيق هذا الكتاب ومراجعة

أصوله وعدت إلى المخطوط والمطبوع ، ووجهت عنايتى إلى تخريج الأحاديث التى فات المؤلف أن يخرجها – وإنى أرجو أن أكون قد وفقت فى هذا العمل وبلغت الغاية التى أملتها – والله المسئول أن يرزقنا الإخلاص والقبول .

من هو ابن تيمية ؟

هو شيخ الإسلام الإمام المجتهد تقى الدين أبو العباس أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحرانى الحنبلى ، ولد بحران يوم الإثنين عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة ، وقدم به والده عند استيلاء التتار على البلاد إلى دمشق سنة سبع وستين فتلقى على مشايخها واعتنى بالحديث ، فسمع المسند مرات والكتب الستة ومعجم الطبرانى الكبير وما لا يحصى من الكتب والأجزاء ، وأقبل على العلوم فى صغره ، فأخذ الأصول والفقه عن والده وبرع فى ذلك ، وناظر ونبغ فى العربية وبرز فى تفسير القرآن والعلوم الدينية والنظرية وتأهل للفتوى والتدريس وهو دون العشرين سنة ، وأمده الله بكثرة الكتب وسرعة الحفظ وقوة الإدراك والفهم وبطء النسيان وتوفى والده وعمره إحدى وعشرون سنة ، فقام بوظائفه على وجه أعجب كبار الشيوخ وحملهم على أن يشهدوا له ويبالغوا فى تكريمه وتقديره .

وكان يمتاز رحمه الله بشجاعة وجلد فى النصح للأمّة والدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن البدع والمنكرات ، وقد أعانه على الاضطلاع بهذا العبء ما اشتهر به من عقلية جبارة وذاكرة قوية ، وحافظة لا يند عنها شئ ، ودراية تامة بأطراف العلوم العقلية والنظرية ودقائقهما إلى جانب ما عرف به من الحكمة وسعة الأفق وقوة الحجة وشدة التحمل وجميل الصبر .

قال فيه الحافظ ابن سيد الناس ألفيتُه ممن أدرك من العلوم حظاً ، وكان يستوعب السنن والآثار حفظاً ، إن تكلم فى التفسير فهو حامل رايته ، وإن أفتى فى الفقه فهو مدرك غايته أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، أو حاضر بالنحل والملل لم ير أوسع من نحلته ولا أرفع من درايته برز فى كل فن على أبناء جنسه ، ولم تر عين من رآه مثله ولا رأت عينه مثل نفسه .

ابتلى رحمه الله فى آخر عهده فاعتقل فى قلعة دمشق من شعبان سنة ست وعشرين إلى ذي القعدة سنة ثمان وعشرين ثم مرض بضعة وعشرين يوماً ولم يعلم أكثر الناس بمرضه ولم يفجأهم إلا موته وكانت وفاته فى سحر ليلة الإثنين عشرين من ذى القعدة سنة ٧٢٨ (اقتبسنا هذه الترجمة من الجزء السادس من شذرات الذهب) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نستعينه (ونستهديه[1]) ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، أرسله بين يدى الساعة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فهدى به من الضلالة وبصّر به من العمى ، وأرشد به من الغى ، وفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وفرّق به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغى ، والمؤمنين والكفّار ، والسعداء أهل الجنة ، والأشقياء أهل النار ، وبين أولياء الله وأعداء الله ، فمن شهد له محمد ﷺ بأنه من أولياء الله فهو من أولياء الرحمن ، ومن شهد له بأنه من أعداء الله فهو من (أعداء الله[2]) وأولياء الشيطان .

وقد بين سبحانه وتعالى فى كتابه وسنّة رسوله ﷺ أن لله أولياء من الناس وللشيطان أولياء ، ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، فقال تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا

---

(١) لا توجد في المخطوطتين .

(٢) هذه الزيادة في المخطوطتين .

وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جَهْد أيْمانهم إنهم لمعكم ؟ حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتوَلَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ .

وذكر أولياء الشيطان فقال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ؟

بئس للظالمين بدلا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ﴾ ، إلى قوله : ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ ، وقال الخليل عليه السلام : ﴿ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ الآيات[2] ، إلى قوله : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

---

(١) في نسخة قولة زيادة هذه الآية ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ .

(٢) الآيات ، ذكرت كاملة فى نسخة قوله وهى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ، لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعلمون بصير ، قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

فصـــل

وإذا عُرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء كما فرق الله ورسوله بينهما ، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يقول الله : من عادى لى ولياً فقد بارزنى[1] بالمحاربة – أو فقد آذنته بالحرب – وما تقرب إلىّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » .

وفى رواية [2] فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولابد له

---

(١) لفظ (المبارزة) لم يرد فى صحيح البخارى ، والحديث فيه مروى فى باب التواضع ولفظه « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب » وليس فيه «فبى يسمع وبى يبصر وبى يمشى » ، بل هذه رواية أخرى .

(٢) هذه الزيادة مأخوذة من نسخة قولة ، وهى تتمشى مع ما قدمناه .

منه ، وهذا أصح حديث يروى فى الأولياء فبين النبى ﷺ أنه من عادى ولياً لله فقد بارز الله بالمحاربة .

وفى حديث آخر وإنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب ، أى آخذ ثأرهم ممن عاداهم كما يأخذ الليث الحرب ثأره ، وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه ، فأحبوا ما يحب وأبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضى ، وسخطوا بما يسخط ، وأمروا بما يأمر ونهوا عما نهى ، وأعطوا لمن يحب أن يعطى ، ومنعوا من يحب أن يمنع كما فى الترمذى وغيره عن النبى ﷺ أنه قال : « أوثق العرى فى الإيمان : الحب فى الله والبغض فى الله » وفى حديث آخر رواه أبو داود قال : « ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » .

والولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل العداوة البغض والبعد . وقد قيل : إن الولى سمى ولياً من موالاته للطاعات أى معابعته لها . والأول أصح . والولى القريب ، فيقال : هذا يلى هذا أى يقرب منه . ومنه قوله ﷺ(١) : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأَولى رجل ذكر » أى لأقرب رجل إلى الميت . ووكده بلفظ الذكر ليبين أنه حكم يختص بالذكور ، ولا يشترك فيه الذكور والإناث كما قال فى الزكاة(٢) : « فابن لبون ذكر » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس .

(٢) هذا اللفظ جاء فى رواية أبى داود عن أبى بكر ونصه (فيما دون خمس وعشرين من الإبل الغنم ، فى كل خمس ذود شاة فإذا بلغت خمساً وعشرين ففيها بنت مخاض إلى أن تبلغ خمساً وثلاثين فإن لم يكن فيها بنت مخاض فابن لبون ذكر) .

فإذا كان ولى الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه كان المعادى لوليه معادياً له كما قال تعالى : ﴿ لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ فمن عادى أولياء الله فقد عاداه ، ومن عاداه فقد حاربه ، فلهذا قال : « ومن عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة » .

وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين أولو العزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وعليهم وسلم . قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً ﴾ .

وأفضل أولى العزم محمد ﷺ خاتم[1] النبيين وإمام المتقين ، وسيد

---

(١) قال تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ وقال : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ وقال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

وقال ﷺ : « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا لواء الحمد يومئذ بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر » أخرجه الترمذى عن أنس وأخرج عن أبى بن كعب « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر » وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال : قال عليه الصلاة والسلام « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع » وأخرج الخمسة عدا البخارى عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىَّ فإنه من صلى علىَّ صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا ينبغى أن تكون إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة »

ولد آدم ، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون وصاحب لواء الحمد ، وصاحب الحوض المورود ، وشفيع الخلائق يوم القيامة ، وصاحب الوسيلة والفضيلة ، الذى بعثه بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم ، وهم آخر الأمم خلقاً ، وأول الأمم بعثاً كما قال ﷺ فى الحديث الصحيح[1] : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه – يعنى يوم الجمعة – فهدانا الله له : الناس لنا تبع فيه ، غداً لليهود وبعد غد للنصارى » .

وقال ﷺ[2] : « أنا أول من تنشق عنه الأرض » وقال ﷺ[3] : « آتى باب الجنة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول أنا محمد . فيقول بك أُمِرْت أن لا أفتح لأحد قبلك » .

وفضائله ﷺ وفضائل أمته كثيرة ، ومن حين بعثه الله جعله الله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه ، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاء به ، واتبعه باطناً وظاهراً ، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان . قال

وروى البخارى عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : « حوضى مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منها فلا يظمأ أبداً » .

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

(٢) من حديث رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه عن أبى سعيد الخدرى .

(٣) رواه مسلم عن أنس .

تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ ، قال الحسن البصرى رحمه الله : ادَّعى قوم أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم . وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فإن الله يحبه ، ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول ﷺ فليس من أولياء الله وإن كان كثير من الناس يظنون فى أنفسهم أو فى غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله ، فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله ﴿ وأنه لا يدخل الجنة إلا من كان منهم بل يدعون أنهم أبناؤه ﴾ [1] ، وأحباؤه . قال تعالى : ﴿ قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيهم ﴾ ، إلى قوله : ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ .

وكان مشركوا العرب يدَّعون أنهم أهل الله لسكناهم مكة ، ومجاورتهم البيت ، وكانوا يستكبرون به على غيرهم كما قال تعالى : ﴿ قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون . مستكبرين به سامراً تهجرون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ ، فبين سبحانه أن المشركين ليسوا أولياءه ولا أولياء بيته[1] إنما أولياؤه المتقون .

---

(١) ما بين ( ) نقلناه من النسخة المخطوطة بمكتبة قولة وهو زائد عن النسخ المطبوعة والآيتان بعد ذلك ذكرتا كاملتين ونصهما ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ ٥ : ١٨ ﴿ تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ٢ : ١١١ ، ١١٢ .

(٢) فى الأزهرية (ولا أولياء نبيه) .

وثبت فى الصحيحين عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول جهاراً من غير سر(٢) « إن آل فلان ليسوا لى بأولياء - يعنى طائفة من أقاربه - إنما ولى الله وصالح المؤمنين » وهذا موافق لقوله تعالى ﴿ فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ﴾ الآية . وصالح المؤمنين هو من كان صالحاً من المؤمنين . وهم المؤمنون المتقون أولياء الله . ودخل فى ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وسائر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة ، وكانوا ألفاً وأربعمائة وكلهم فى الجنة ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال(١) « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » ومثل هذا الحديث الآخر إن أوليائى المتقون أياً كانوا وحيث كانوا .

كما أن من الكفار من يدعى أنه ولى الله وليس ولياً لله بل عدو له ، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يقرون فى الظاهر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنه مرسل إلى جميع الإنس بل إلى الثقلين الإنس والجن ، ويعتقدون فى الباطن ما يناقض ذلك ، مثل أن لا يقروا فى الباطن بأنه رسول الله ، وإنما كان ملكاً مطاعاً ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك ، أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين دون أهل الكتاب كما يقوله كثير من اليهود والنصارى ، أو أنه مرسل إلى عامة الخلق وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ولا يحتاجون إليه ، بل لهم طريق إلى الله من غير

---

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب يبل الرحم ببلالها وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم عن عمرو بن العاص .

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى عن جابر وحديث « إن أوليائى المتقون الخ » لم أعثر عليه ولكن معناه صحيح .

جهته ، كما كان الخضر مع موسى ، أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها . وأما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها أو لم يكن يعرفها ، أو هم أعرف بها منه ، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته .

وقد يقول بعض هؤلاء : إن أهل الصُّفَّة كانوا مستغنين عنه ، ولم يرسل إليهم ، ومنهم من يقول : إن الله أوحى إلى أهل الصفة فى الباطن ما أوحى إليه ليلة المعراج ، فصار أهل الصفة بمنزلته ، وهؤلاء من فرط جهلهم لا يعلمون أن الإسراء كان بمكة ، كما قال تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ﴾ وإن الصُّفَّة لم تكن إلا بالمدينة وكانت صفة فى شمالى مسجده ﷺ ينزل بها الغرباء الذين ليس لهم أهل وأصحاب ينزلون عندهم ، فإن المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبى ﷺ إلى المدينة ، فمن أمكنه أن ينزل فى مكان نزل به ، ومن تعذر ذلك عليه نزل فى المسجد إلى أن يتيسر له مكان ينتقل إليه .

ولم يكن أهل الصفة ناساً بأعيانهم يلازمون الصفة ، بل كانوا يقلون تارة ويكثرون أخرى ، ويقيم الرجل بها زماناً ثم ينتقل منها ، والذين ينزلون بها من جنس سائر المسلمين ، ليس لهم مزية فى علم ولا دين ، بل فيهم من ارتد عن الإسلام وقتله النبى ﷺ كالعرنيين الذين اجتووا المدينة أى استوخموها فأمر لهم النبى ﷺ بلقاح أى إبل لها لبن وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها ، فلما صحوا قتلوا الراعى ، واستاقوا الذود ، فأرسل النبى ﷺ فى طلبهم ، فأتى بهم ، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم وتركهم فى الحرة يستسقون فلا يسقون ، وحديثهم[1] فى الصحيحين

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الحدود باب لم يسق المرتدون المحاربون حتى ماتوا ونصه

من حديث أنس ، وفيه أنهم نزلوا الصفة ، فكان ينزلها مثل هؤلاء ، ونزلها من خيار المسلمين سعد بن أبى وقاص ، وهو أفضل من نزل بالصفة ، ثم انتقل عنها ، ونزلها أبو هريرة وغيره .

وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمى تاريخ من نزل الصفة .

وأما الأنصار فلم يكونوا من أهل الصفة ، وكذلك أكابر المهاجرين كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبى عبيدة بن الجراح وغيرهم لم يكونوا من أهل الصفة .

وقد روى أنه كان بها غلام للمغيرة بن شعبة وأن النبى ﷺ قال : « هذا واحد من السبعة » وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم وإن كان قد رواه أبو نعيم فى الحلية ، وكل كل حديث يروى عن النبى ﷺ فى عدة الأولياء والأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد والأقطاب ، مثل أربعة أو سبعة أو اثنى عشر أو أربعين أو سبعين أو ثلاثمائة وثلاثة عشر ، أو القطب الواحد ، فليس فى ذلك شئ صحيح عن النبى ﷺ ، ولم ينطق السلف بشئ من هذه الألفاظ إلا بلفظ الأبدال .

(قدم رهط من عكل على النبى ﷺ كانوا فى الصفة فاجتووا المدينة فقالوا يا رسول الله أبغنا رسلا فقال ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بإبل رسول الله ﷺ فأتوها فشربوا من ألبانها وأبوالها حتى صحوا وسمنوا وقتلوا الراعى واستاقوا الذود فأتى النبى ﷺ الصريخ فبعث الطلب فى آثارهم فما ترجل النهار حتى أتى بهم فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم ثم ألقوا فى الحرة يستسقون فما سقوا حتى ماتوا) اجتووا : استوخموا . أبغنا رسلا بكسر الراء وسكون السين أى أطلب لنا لبنا . الذود بفتح الذال وسكون الواو ما بين الثلاثة إلى العشرة من الإبل . الصريخ : المستغيث . ترجل النهار : ارتفع ما حسمهم : ما كوى مواضع القطع . الحرة : أرض ذات حجارة سود .

وروى فيهم حديث أنهم أربعون رجلاً وأنهم بالشام وهو فى المسند[١] من حديث على كرم الله وجهه ، وهو حديث منقطع ليس بثابت ، ومعلوم أن علياً ومن معه من الصحابة كانوا أفضل من معاوية ومن معه بالشام فلا يكون أفضل الناس فى عسكر معاوية دون عسكر على .

(وقد أخرجا فى الصحيحين عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال : « تمرق مارقة من الدين على حين فُرقة من المسلمين يقتلهم أولى الطائفتين بالحق » وهؤلاء المارقون هم الخوارج الحرورية الذين مرقوا لما حصلت الفرقة بين المسلمين فى خلافة على ، فقتلهم على بن أبى طالب وأصحابه ، فدل هذا الحديث الصحيح على أن على بن أبى طالب أولى بالحق من معاوية وأصحابه . وكيف يكون الأبدال فى أدنى العسكرين دون أعلاهما؟ »[٢] .

وكذلك ما يرويه بعضهم عن النبى ﷺ أنه أنشد منشد :

قد لسعت حية الهوى كبدى فلا طبيب لها ولا راق
إلا الحبيبُ الذى شغفت به فعنده رقيتى وترياق

وأن النبى ﷺ تواجد حتى سقطت البردة عن منكبه ، فإنه كذب

---

(١) يوجد فى ص ١٧١ ج ٢ حديث رقم ٨٩٦ ونصه (حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنى شريح يعنى ابن عبيد قال : ذكر أهل الشام عند على بن أبى طالب وهو بالعراق فقالوا ألعنهم يا أمير المؤمنين قال : لا إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلا كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب) ، قال فضيلة الشيخ أحمد شاكر فى شرحه إسناده ضعيف لانقطاعه ، شريح بن عبيد الحضرمى الحمصى لم يدرك عليا بل لم يدرك إلا بعض متأخرى الوفاة من الصحابة .

(٢) ما بين ( ) زائد عن النسخة الأزهرية فلا يوجد فيها .

باتفاق أهل العلم بالحديث ، وأكذب منه ما يرويه بعضهم أنه مزق ثوبه وأن جبريل أخذ قطعة منه فعلقها على العرش ، فهذا وأمثاله مما يعرف أهل العلم والمعرفة برسول الله ﷺ أنه من أظهر الأحاديث كذباً عليه ﷺ .

وكذلك ما يروونه عن عمر رضى الله عنه أنه قال : كان النبى ﷺ وأبو بكر يتحدثان وكنت بينهما كالزنجى ، وهو كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث[1] .

والمقصود هنا أن فيمن يقر برسالته العامة فى الظاهر من يعتقد فى الباطن ما يناقض ذلك فيكون منافقاً وهو يدعى فى نفسه وأمثاله أنهم أولياء الله مع كفرهم فى الباطن بما جاء به الرسول ﷺ إما عناداً وإما جهلاً . كما أن كثيراً من النصارى واليهود يعتقدون أنهم أولياء الله . وأن محمداً رسول الله ، لكن يقولون إنما أرسل إلى غير أهل الكتاب ، وأنه لا يجب علينا اتباعه ، لأنه أرسل إلينا رسلاً قبله ، فهؤلاء كلهم كفار مع أنهم يعتقدون[2] فى طائفتهم أنهم أولياء الله ، وإنما أولياء الله الذين وصفهم الله تعالى بولايته بقوله : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

ولابد فى الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويؤمن بكل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله ، كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا

---

(١) ما بين ( ) زائد عن النسخة الأزهرية فلا يوجد فيها .
(٢) فى الأزهرية (مع أنهم يعتقدون لجهلهم وقلة عقلهم أنهم أولياء الله) .

نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ، فسيكفيكم الله وهو السميع العليم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ إلى آخر السورة[٢] . وقال فى أول السورة ﴿ الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أُنْزِل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون ﴾ . فلا بد فى الإيمان من أن تؤمن أن محمداً ﷺ خاتم النبيين ، لا نبى بعده ، وأن الله أرسله إلى جميع الثقلين الجن والإنس ، فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن ، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين ، ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ليس بمؤمن ، كما قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ ومن الإيمان به الإيمان بأنه هو[١] الواسطة بين الله وبين خلقه فى

---

(٢) ذكرت كاملة فى الأزهرية ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تُحَمِّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ٢ : ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(١) هذه الزيادة من النسخة الأزهرية .

تبليغ أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وحلاله وحرامه ، فالحلال ما أحله الله[1] ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله ﷺ ، فمن اعتقد أنَّ لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ فهو كافر من أولياء الشيطان .

وأما خلق الله تعالى للخلق ، ورزقه إياهم ، وإجابته لدعائهم وهدايته لقلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضار . فهذا لله[2] وحده يفعله بما يشاء من الأسباب لا يدخل فى مثل هذا وساطة الرسل .

ثم لو بلغ الرجل فى الزهد والعبادة والعلم ما بلغ ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ فليس بمؤمن ، ولا ولى لله تعالى كالأحبار والرهبان من

---

(١) أخرج الترمذى عن المقدام بن معد يكرب قال : « قال رسول الله ﷺ ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عنى وهو متكئ على أريكته ، فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » ، وقد أخرجه أبو داود بزيادة فى أوله « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه » وليس فى آخره وإن ما حرم رسول الله الخ .

(٢) قال تعالى : ٦٧ : ٢١ ﴿ أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور ﴾ .

وقال تعالى : ٣٥ : ٣ ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ ، وقال ٢٧ : ٦٢ ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون ﴾ ، وقال ٢ : ٢٧٢ ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ ، وقال ٣ : ١٦٠ ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ ، وقال ٧٢ : ٢١ ﴿ قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ﴾ ، وقال ٧ : ١٨٨ ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضر إلا ما شاء الله ﴾ .

علماء اليهود والنصارى وعبادهم ، وكذلك المنتسبين إلى العلم والعبادة من المشركين مشركى العرب والترك والهند وغيرهم ممن كان من حكماء الهند والترك وله علم أو زهد وعبادة فى دينه وليس مؤمناً بجميع ما جاء به محمد[1] فهو كافر عدو لله ، وإن ظن طائفة أنه ولى لله ، كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً وكذلك حكماء اليونان مثل أرسطو وأمثاله كانوا مشركين يعبدون الأصنام والكواكب[2] . وكان أرسطو قبل المسيح عليه السلام بثلاثمائة سنة ، وكان وزيراً للاسكندر بن فيلبس المقدونى[3] وهو الذى يؤرخ له تواريخ الروم واليونان وتؤرخ به اليهود والنصارى ، وليس هذا هو ذو القرنين الذى ذكره الله فى كتابه كما يظن بعض الناس أن أرسطو كان وزيراً لذى القرنين لما رأوا أن ذاك اسمه الاسكندر ، وهذا قد يسمى بالاسكندر ظنوا أن هذا ذاك كما يظنه ابن سينا وطائفة معه ، وليس الأمر كذلك بل هذا الاسكندر المشرك الذى قد كان أرسطو وزيره متأخراً عن ذاك ، ولم يبن هذا السور[4] ولا وصل إلى بلاد يأجوج ومأجوج وهذا الاسكندر الذى كان أرسطو من وزرائه يؤرخ له تاريخ الروم المعروف .

وفى أصناف المشركين من مشركى العرب ومشركى الهند والترك واليونان وغيرهم من له اجتهاد فى العلم والزهد والعبادة ، ولكن ليس بمتبع للرسل ولا مؤمن بما جاءوا به ولا يصدقهم فيما أخبروا به ولا يطيعهم فيما أمروا ، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ولا أولياء الله ، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم فيكاشفون الناس ببعض الأمور ولهم تصرفات خارقة من جنس

---

(١) ما بين ( ) مأخوذ من الأزهرية .
(٢) ، (٣) لا يوجد فى الأزهرية .
(٤) فى الأزهرية السد .

السحر ، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين ، قال تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ .

وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسل فلابد أن يكذبوا وتكذبهم شياطينهم ، ولابد أن يكون فى أعمالهم ما هو إثم وفجور مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع أو العبادة(١) .

ولهذا تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن . قال الله تعالى : ﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ وذكر الرحمن هو الذكر الذى بعث به رسوله ﷺ مثل القرآن فمن لم يؤمن بالقرآن ويصدق خبره ويعتقد وجوب أمره فقد أعرض عنه فيقيض له الشيطان فيقترن به(٢) .

قال تعالى : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تُنسى ﴾ فدل ذلك على أن ذكره هو آياته التى أنزلها ، ولهذا لو ذكر الرجل الله سبحانه وتعالى دائماً ليلاً ونهاراً مع غاية الزهد ، وعبده مجتهداً فى عبادته ، ولم يكن متبعاً لذكره الذى أنزله – وهو القرآن – كان من أولياء الشيطان ولو طار فى الهواء أو مشى على الماء فإن الشيطان يحمله فى الهواء . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

---

(١) لا يوجد فى المخطوطتين .

(٢) يوجد فى قولة فقط .

فصـــــل

ومن الناس من يكون فيه إيمان ، وفيه شعبة من نفاق ، كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر » .

وفى الصحيحين أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان » فبين النبى ﷺ أن من كان فيه خصلة من هذه الخصال ففيه خصلة من النفاق حتى يدعها .

وقد ثبت فى الصحيحين أنه قال لأبى ذر وهو من خيار المؤمنين « إنك امرؤ فيك جاهلية » فقال يا رسول الله أعلى كبر سنى ؟ قال نعم : وثبت فى الصحيح عنه أنه قال[١] « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية : الفخر فى الأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والنياحة على الميت ، والاستسقاء بالنجوم » .

---

(١) أخرجه مسلم .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » وفى صحيح مسلم « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » وذكر البخارى عن ابن أبى مليكة قال : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه . وقد قال الله تعالى : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ فقد جعل هؤلاء إلى الكفر أقرب منهم للإيمان ، فعلم أنهم مخلطون وكفرهم أقوى ، وغيرهم يكون مخلطاً وإيمانه أقوى .

وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون المتقون فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية لله ، فالناس متفاضلون فى ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم فى الإيمان والتقوى وكذلك يتفاضلون فى عداوة الله بحسب تفاضلهم فى الكفر والنفاق ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنما النسئ زيادة فى الكفر ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ ، وقال تعالى فى المنافقين ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾ ، فبين سبحانه وتعالى أن الشخص الواحد قد يكون فيه قسط من ولاية الله بحسب إيمانه ، وقد يكون فيه قسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه . وقال تعالى : ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ .

فصـــل

وأولياء الله على طبقتين : سابقون مقربون ، وأصحاب يمين مقتصدون . ذكرهم الله فى عدة مواضع من كتابه العزيز فى أول سورة الواقعة وآخرها وفى سورة الإنسان ، والمطففين وفى سورة فاطر ، فإنه سبحانه وتعالى ذكر فى الواقعة القيامة الكبرى فى أولها ، وذكر القيامة الصغرى فى آخرها ، فقال فى أولها : ﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة ، إذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثا ، وكنتم أزواجاً ثلاثة : فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون أولئك المقربون ، فى جنات النعيم . ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ ، فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التى يجمع الله فيها الأولين والآخرين كما وصف الله سبحانه ذلك فى كتابه فى غير موضع ، ثم قال تعالى فى آخر السورة (فلولا) أى فهلا ﴿ إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ، ولكن لا تبصرون ، فلولا إن كنتم غير مدينين ، ترجعونها إن كنتم صادقين ، فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين ، فنُزُلٌ من حميم ، وتصلية جحيم إن هذا لهو حق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، وقال تعالى فى سورة الإنسان ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ، إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً ، إن الأبرار يشربون من كأس كان

مزاجها كافورا ، عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ، يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾ الآيات . وكذلك ذكر فى سورة المطففين فقال : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ﴾ إلى أن[1] قال : ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين ، وما أدراك ما عليون ، كتاب مرقوم يشهده المقربون ، إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، ومزاجه من تسنيم ، عيناً يشرب بها المقربون ﴾ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من السلف قالوا يمزج لأصحاب اليمين مزجاً ، ويشرب بها المقربون صرفاً ، وهو كما قالوا ، فإنه تعالى قال ﴿ يشرب بها ﴾ ولم يقل يشرب منها لأنه[2] ضمن قوله يشرب معنى يروى فإن الشارب قد يشرب ولا يروى ، فإذا قيل يشربون منها لم يدل على الرى ، فإذا قيل يشربون بها كان المعنى يروون بها ، فالمقربون

---

(١) الآيات ﴿ وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا ، قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالو الجحيم ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين ﴾ ٨٣ : ٧ – ٢٨ .

(٢) كانت فى النسخ المطبوعة (لأنه ضمن ذلك قوله يشرب يعنى يروى بها) والأصوب ما ذكرناه كما فى المخطوطتين .

يروون بها فلا يحتاجون معها إلى ما دونها ، فلهذا يشربون منها صرفاً ، بخلاف أصحاب اليمين فإنها مزجت لهم مزجاً ، وهو كما قال تعالى فى سورة الإنسان ﴿ كان مزاجها كافوراً . عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴾ .

فعباد الله هم المقربون المذكورون فى تلك السورة ، وهذا لأن الجزاء من جنس العمل فى الخير والشر كما قال النبى ﷺ « من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة . وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » رواه مسلم فى صحيحه . وقال ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » ، قال الترمذى : حديث صحيح .

وفى الحديث الآخر الصحيح الذى فى السنن « يقول الله تعالى :(١) أنا الرحمن خلقت الرحم ، وشققت لها اسماً من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته » ، وقال : « (٢) ومن وصل صفاً وصله الله ، ومن قطع صفاً قطعه الله » ومثل هذا كثير .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى عن عبد الرحمن بن عوف وقال حسن صحيح . قال الحافظ عبد العظيم وفى تصحيح الترمذى له نظر فإن أبا سلمة بن عبد الرحمن لم يسمع من أبيه شيئاً .

(٢) أخرجه النسائى وابن خزيمة والحاكم وصححه وأحمد وأبو داود فى آخر حديث . هذا .

وأولياء الله تعالى على نوعين : مقربون وأصحاب يمين كما تقدم وقد ذكر النبى ﷺ عمل القسمين فى حديث الأولياء فقال : (يقول الله تعالى : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها) .

فالأبرار أصحاب اليمين المتقربون إليه بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ، ولا الكف عن فضول المباحات .

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، ففعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات ، والمكروهات ، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباته[1] أحبهم الرب حباً تاماً كما قال تعالى : (ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه) يعنى الحب المطلق كقوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ أى أنعم عليهم الإنعام المطلق التام المذكور فى قوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ فهؤلاء المقربون صارت المباحات فى حقهم طاعات ، يتقربون بها إلى الله عز وجل فكانت أعمالهم كلها عبادات لله فشربوا صرفاً كما عملوا له صرفاً ،

وقد كانت النسخ المطبوعة (ومن وصلها وصله الله ومن قطعها الخ) فصححنا هذه النسخة من الأزهرية وقولة .

(٢) فى النسخ المطبوعة سابقاً (من محبوباتهم) فصححناها من الأزهرية وقولة .

والمقتصدون كان فى أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم فلا يعاقبون عليه ولا يثابون عليه فلم يشربوا صرفاً بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه فى الدنيا .

ونظير هذا انقسام الأنبياء عليهم السلام إلى عبد رسول ونبى ملك وقد خير الله[1] سبحانه محمداً ﷺ بين أن يكون عبداً رسولاً وبين أن يكون نبياً ملكاً ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً ، فالنبى الملك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهما الصلاة والسلام ، قال الله تعالى فى قصة سليمان الذى قال : ﴿ رب اغفر لى وَهَبْ لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب ، فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد ، هذا عطاؤنا فامنُنْ أو أمسك بغير حساب ﴾ أى أعط من شئت وأحرم من شئت لا حساب عليك ، فالنبى الملك يفعل ما فرض الله عليه ويترك ما حرم الله عليه ويتصرف فى الولاية والمال بما يحبه ويختار من غير إثم عليه .

وأما العبد الرسول فلا يعطى أحداً إلا بأمر ربه ولا يعطى من يشاء ويحرم من يشاء بل يعطى من أمره ربه بإعطائه ويولى من أمره ربه بتوليته ، فأعماله كلها عبادات لله تعالى كما فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « إنى والله لا أعطى أحداً ولا أمنع أحداً ، إنما أنا قاسم أصنع حيث أمرت ، ولهذا يضيف الله الأموال الشرعية إلى الله

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده الحديث ٧١٦٠ ونصه (جلس جبريل إلى النبى ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة فلما نزل قال يا محمد أرسلنى إليك ربك قال أفملكا نبياً يجعلك أو عبداً رسولاً قال جبريل : تواضع لربك يا محمد قال : بل عبداً رسولا) وعزاه الخفاجى فى شرح الشفا إلى البيهقى عن ابن عباس .

والرسول كقوله تعالى : ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه وللرسول ﴾ .

ولهذا كان أظهر أقوال العلماء أن هذه الأموال تصرف فيما يحبه الله ورسوله بحسب اجتهاد ولى الأمر كما هو مذهب مالك وغيره من السلف . ويذكر هذا رواية عن أحمد ، وقد قيل فى الخمس أنه يقسم على خمسة كقول الشافعى وأحمد فى المعروف عنه وقيل على ثلاثة كقول أبى حنيفة رحمه الله .

والمقصود هنا أن العبد الرسول هو أفضل من النبى الملك كما أن إبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام أفضل من يوسف وداود وسليمان عليهم السلام كما أن المقربين السابقين أفضل من الأبرار أصحاب اليمين الذين ليسوا مقربين سابقين ، فمن أدى ما أوجب الله عليه وفعل من المباحات ما يحبه فهو من هؤلاء ومن كان إنما يفعل ما يحبه الله ويرضاه ويقصد أن يستعين بما أبيح له على ما أمره الله فهو من أولئك .

فصـــل

وقد ذكر الله تعالى أولياءه المقتصدين والسابقين فى سورة فاطر فى قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ، جنات عدن يدخلونها ، يُحَلَّون فيها من أساورَ من ذهب ولؤلؤاً ، ولباسهم فيها حرير ، وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحَزَن ، إن ربنا لغفور شكور ، الذى أحلّنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ ، لكن هذه الأصناف الثلاثة فى هذه الآية هم أمّة محمد ﷺ خاصة كما قال تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير ﴾ .

وأمّة محمد ﷺ هم الذين أُورِثوا الكتاب بعد الأمم المتقدمة ، وليس ذلك مختصاً بحفاظ القرآن ، بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاء وقَسَّمهم إلى ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق ، بخلاف الآيات التى[1] فى الواقعة والمطففين والانفطار ، فإنه دخل فيها جميع الأمم المتقدمة للمحارم ،

---

(١) الآيات فى سورة الواقعة ﴿ وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون ﴾ والآيات فى سورة الانفطار ﴿ إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم ﴾ وفى سورة المطففين ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين ﴾ .

والسابق للخيرات هو المؤدى للفرائض والنوافل كما فى تلك الآيات ، ومن تاب من ذنبه أى ذنب كان توبَة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين والمقتصدين كما فى قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾(١) .

وقوله ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ ، مما يستدل به أهل السنّة على أنه لا يخلد فى النار أحد من أهل التوحيد .

وأما دخول كثير من أهل الكبائر النار فهذا مما تواترت به السنن عن النبى ﷺ كما تواترت بخروجهم من النار وشفاعة نبينا محمد ﷺ فى أهل(٢) الكبائر وإخراج من يخرج من النار بشفاعة نبينا ﷺ وشفاعة غيره ، فمن قال إن أهل الكبائر مخلدون فى النار وتأول الآية على أن السابقين هم الذين يدخلونها وأن المقتصد أو الظالم لنفسه لا يدخلها كما تأوله من تأوله(٣) من المعتزلة فهو مقابل بتأويل المرجئة الذين لا يقطعون بدخول أحد من أهل

(١) اعتمدنا على النسخ المخطوطة فى تحرير هذه الصحيفة ، أما النسخ المطبوعة ففيها تكرار لبعض هذه الجمل .

(٢) ورد حديث « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » رواه الترمذى والبيهقى عن أنس مرفوعاً ، وأخرجه أحمد وأبو داود وابن خزيمة .

(٣) الزيادة من قولة .

الكبائر النار ، ويزعمون أن أهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة من غير عذاب وكلاهما مخالف للسنّة المتواترة عن النبي ﷺ ولإجماع سلف الأمّة وأئمتها .

وقد دل على فساد قول الطائفتين قول الله تعالى فى آيتين من كتابه وهو قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ، فأخبر تعالى أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه لمن يشاء ، ولا يجوز أن يراد بذلك التائب كما يقوله من يقوله من المعتزلة لأن الشرك يغفره الله لمن تاب وما دون الشرك يغفره الله أيضاً للتائب فلا يعلق[1] بالمشيئة ، ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ فهنا عَمَّ المغفرة وأطلقها فإن الله يغفر للعبد أى ذنب تاب منه فمن تاب من الشرك غفر الله له ، ومن تاب من الكبائر غفر الله له ، وأى ذنب تاب العبد منه غفر الله له . ففى آية[2] التوبة عَمَّ وأطلق وفى تلك الآية خصص وعلق فخص الشرك بأنه لا يغفره وعلق ما سواه على المشيئة . ومن الشرك التعطيل للخالق[3] وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب ، ونبه بالشرك على ما هو أعظم منه كتعطيل الخالق[4] ، أو يجوز أن لا يعذب بذنب ، فإنه لو كان كذلك لما ذكر أنه يغفر البعض دون

---

(١) فى النسخ المطبوعة فلا تعلق بالتاء وقد صححنا نسختنا من المخطوطتين .

(٢) المراد آية التوبة الواردة فى سورة الزمر ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا الخ ﴾ . وقوله (فى تلك الآية) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به الخ ﴾ .

(٣) ، (٤) لا يوجد فى قوله .

البعض ، ولو كان كل ظالم لنفسه مغفوراً له بلا توبة ولا حسنات ماحية لم يعلق ذلك بالمشيئة .

وقوله تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ دليل على أنه يغفر للبعض دون البعض ، فبطل النفى والعفو العام .

فصـــــل

وإذا كان أولياء الله عز وجل هم المؤمنون المتقون ، والناس يتفاضلون فى الإيمان والتقوى ، فهم متفاضلون فى ولاية الله بحسب ذلك ، كما أنهم لما كانوا متفاضلين فى الكفر والنفاق كانوا متفاضلين فى عداوة الله بحسب ذلك .

وأصل الإيمان والتقوى : الإيمان برسل الله ، وجماع ذلك : الإيمان بخاتم الرسل محمد ﷺ ، فالإيمان به يتضمن الإيمان بجميع كتب الله ورسله . وأصل الكفر والنفاق هو الكفر بالرسل ، وبما جاءوا به ، فإن هذا هو الكفر الذى يستحق صاحبه العذاب فى الآخرة . فإن الله تعالى أخبر فى كتابه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد بلوغ الرسالة . قال الله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبِ والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً ، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ كلما أُلْقِى فيها فوجٌ سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى ، قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ ، فأخبر أنه كلما أُلقىَ فى النار فوجٌ أقروا بأنهم جاءهم النذير فكذبوه ، فدل ذلك على أنه لا يلقى فيها فوج إلا

من كذب النذير . وقال تعالى فى خطابه لإبليس ﴿ لأملأنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ فأخبر أنه يملؤها بإبليس ومن اتبعه ، فإذا ملئت بهم لم يدخلها غيرهم . فعلم أنه لا يدخل النار إلا من تبع الشيطان ،.وهذا يدل على أنه لا يدخلها من لا ذنب له فإنه ممن لم يتبع الشيطان ولم يكن مذنباً ، وما تقدم يدل على أنه لا يدخلها إلا من قامت عليه الحجة بالرسل .

فصـــل

ومن الناس من يؤمن بالرسل إيماناً عاماً[1] مجملاً ، وأما الإيمان المفصل فيكون قد بلغه كثير مما جاءت به الرسل ولم يبلغه بعض ذلك ، فيؤمن بما بلغه عن الرسل ، وما لم يبلغه لم يعرفه ولو بلغه لآمن به ، ولكن آمن بما جاءت به الرسل إيماناً مجملاً ، فهذا إذا عمل بما علم أن الله أمره به مع إيمانه وتقواه فهو من أولياء الله تعالى ، له من ولاية الله بحسب إيمانه وتقواه ، وما لم تقم عليه الحجة فإن الله تعالى لم يكلفه معرفته والإيمان المفصل به ، فلا يعذبه على تركه ، لكن يفوته من كمال ولاية الله بحسب ما فاته من ذلك ، فمن علم بما جاء به الرسل وآمن به إيماناً مفصلاً وعمل به فهو أكمل إيماناً وولاية لله ممن لم يعلم ذلك مفصلا ولم يعمل به ، وكلاهما ولى لله تعالى ، والجنة درجات متفاضلة تفاضلاً عظيماً ، وأولياء الله المؤمنون المتقون فى تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيه ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كُلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

---

(١) الزيادة فى المخطوطتين .

فبين الله سبحانه وتعالى أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه وأن عطاءه ما كان محظوراً من بر ولا فاجر ثم قال تعالى : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس فى الدنيا وأن درجاتها أكبر من درجات الدنيا وقد بين تفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين فقال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كَلَّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا ﴾ .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قُل قَدَّر الله وما شاء فعل فإن لَوْ تفتح عمل الشيطان » .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة وعمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » . وقد قال الله تعالى : ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً . درجات منه ومغفرة ورحمة وكان

الله غفوراً رحيماً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين ، الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير ﴾ .

فصـــل

وإذا كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقياً لقوله تعالى ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ ، وفى صحيح البخارى الحديث المشهور وقد تقدم يقول الله تبارك وتعالى فيه : « ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه » ولا يكون مؤمناً تقياً حتى يتقرب إلى الله بالفرائض فيكون من الأبرار أهل اليمين ثم بعد ذلك لا يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين فمعلوم أن أحداً من الكفّار والمنافقين لا يكون ولياً لله ، وكذلك من لا يصح إيمانه وعبادته وإن قدر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفّار ، ومن لم تبلغه الدعوة وإن قيل إنهم لا يعذبون حتى يرسل إليهم رسول فلا يكونون من أولياء الله إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين ، فمن لم[1] يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات لم يكن من أولياء الله ، وكذلك المجانين والأطفال فإن النبى ﷺ قال : « يرفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ » ، وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث على وعائشة رضى الله عنهما ، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول ، لكن الصبى المميز تصح عباداته ويثاب عليها عند جمهور العلماء ، وأما المجنون الذى رفع عنه القلم فلا تصح شئ من عباداته باتفاق

---

(١) لا توجد (لم) فى النسخ المطبوعة ، وهى فى المخطوطتين وبها يظهر المعنى .

العلماء ، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات ، بل لا يصلح هو عند عامة العقلاء لأمور الدنيا كالتجارة والصناعة ، فلا يصلح أن يكون بزازاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ، ولا تصح عقوده باتفاق العلماء ، فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته ، ولا غير ذلك من أقواله ، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعى ، ولا ثواب ولا عقاب ، بخلاف الصبى المميز فإن له أقوالاً معتبرة فى مواضع بالنص والإجماع وفى مواضع فيها نزاع .

وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل ، وامتنع أن يكون ولياً لله فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولى لله لاسيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه أو نوع من تصرف مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع فإنه قد علم أن الكفّار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية كالكهان والسحرة وعباد المشركين وأهل الكتاب ، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً لله وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله ، مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبى ﷺ باطناً وظاهراً ، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة أو يعتقد أن لأولياء الله طريقاً إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم السلام ، أو يقول أن الأنبياء ضيقوا الطريق أو هم على قدوة العامة دون الخاصة ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعى الولاية فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان فضلاً عن ولاية الله عز وجل ، فمن احتج بما يصور عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم كان أضل من اليهود والنصارى .

وكذلك المجنون فإن كونه مجنوناً يناقض أن يصح منه الإيمان

والعبادات التى هى شرط فى ولاية الله ، ومن كان يُجَنُّ أحياناً ويفيق أحياناً إذا كان فى حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله ويؤدى الفرائض ويجتنب المحارم فهذا إذا جُنَّ لم يكن جنونه مانعاً من أن يثيبه الله على إيمانه وتقواه الذى أتى به فى حال إفاقته ، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك ، وكذلك من طرأ عليه الجنون بعد إيمانه وتقواه ، فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه ، ولا يحبطه بالجنون الذى ابتلى به من غير ذنب فعله ، والقلم مرفوع عنه فى حال جنونه .

(فعلى هذا فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدى الفرائض ولا يجتنب المحارم بل قد يأتى بما يناقض ذلك ، لم يكن لأحد أن يقول هذا ولى لله ، فإن هذا إن لم يكن مجنوناً بل كان متولهاً من جنون أو كان يغيب عقله بالجنون تارة ويفيق أخرى وهو لا يقوم بالفرائض ، بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ فهو كافر ، وإن كان مجنوناً باطناً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم ، فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة الكافرين فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل ، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولى لله ، ولكن إن كان له حالة فى إفاقته كان فيها مؤمناً بالله متقياً كان له من ولاية الله بحسب ذلك وإن كان له فى حال إفاقته فيه كفر أو نفاق أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون ، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق[1]) .

---

(١) هذا المقدار كله لا يوجد فى النسخة الأزهرية وهو زائد عنها .

فصـــل

وليس لأولياء الله شئ يتميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور والمباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحاً ، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحاً كما قيل : كم من صديق فى قباء وكم من زنديق فى عباء ، بل يوجدون فى جميع أصناف أمّة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور ، فيوجدون فى أهل القرآن وأهل العلم ويوجدون فى أهل الجهاد والسيف ويوجدون فى التجار والصناع والزراع .

وقد ذكر الله أصناف أمّة محمد ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدّر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرؤا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقرؤا ما تيسر منه ﴾ ، وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم (القراء) فيدخل فيهم العلماء والنساك ، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء ، واسم الصوفية هو نسبة إلى لباس الصوف ، هذا هو الصحيح وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء ، وقيل إلى صوفة (بن مر[1]) بن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك ، وقيل إلى أهل الصفة ، وقيل إلى (أهل[2])

---

(١) ، (٢) مزيد من نسخة قولة .

الصفاء ، وقيل إلى الصفوة وقيل إلى الصف المقدم بين يدى الله تعالى ، وهذه أقوال ضعيفة ، فإنه لو كان كذلك لقيل[1] صفى أو صفائى أو صفوى أو صفى ، ولم يقل صوفى ، وصار أيضاً اسم الفقراء يعنى به أهل السلوك ، وهذا عرف حادث ، وقد تنازع الناس : أيما أفضل مسمى الصوفى أو مسمى الفقير ويتنازعون أيضاً أيما أفضل الغنى الشاكر أو الفقير الصابر .

وهذه المسألة فيها نزاع قديم بين الجنيد وبين أبى العباس بن عطاء . وقد روى عن أحمد بن حنبل فيها روايتان ، والصواب فى هذا كله ما قاله الله تبارك وتعالى حيث قال : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه سئل : أى الناس أفضل ؟ قال أتقاهم : قيل له ليس عن هذا نسألك ، فقال : يوسف نبى الله بن يعقوب نبى الله بن اسحق نبى الله بن إبراهيم خليل الله . فقيل له ليس عن هذا نسألك . فقال عن معادن العرب تسألونى ؟ الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا .

فدل الكتاب والسنّة أن أكرم الناس عند الله أتقاهم .

وفى السنن عن النبى ﷺ أنه قال : « لا فضل لعربى على عجمى ولا

---

(١) صفى بضم الصاد وتشديد الفاء نسبة إلى أهل الصفة وصفائى نسبة لأهل الصفاء وصفوى بفتح الصاد وسكون الفاء نسبة إلى صفوة وصفى بفتح الصاد وتشديد الفاء نسبة إلى الصف المقدم .

لعجمى على عربى ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب » .

وعنه أيضاً ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى أذهب عنكم عيبة(١) الجاهلية وفخرها بالآباء ، الناس رجلان : مؤمن تقى وفاجر شقى » .

فمن كان من هذه الأصناف أتقى لله فهو أكرم عند الله وإذا استويا فى التقوى استويا فى الدرجة .

ولفظ الفقر فى الشرع يراد به الفقر من المال ويراد به فقر المخلوق إلى خالقه كما قال تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ . وقد مدح الله تعالى فى القرآن صنفين من الفقراء : أهل الصدقات وأهل الفئ . فقال فى الصنف الأول : ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس لحافاً ﴾ ، وقال فى الصنف الثانى وهم أفضل الصنفين : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون ﴾ .

وهذه صفة المهاجرين الذين هجروا السيئات وجاهدوا أعداء الله باطناً وظاهراً قال النبى ﷺ « (٢) المؤمن من أَمِنَه الناس على دمائهم

---

(١) فى النهاية : أى الكبر والحديث أخرجه أبو داود والترمذى .

(٢) الذى أطلعت عليه فى هذا عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن من أمنه الناس والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر السوء والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة عبد لا يأمن جاره بوائقه » ، رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وفى البخارى وأبى داود والنسائى ، « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

وأموالهم ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله » .

وأما الحديث الذى يرويه بعضهم أنه قال فى غزوة تبوك رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر فلا أصل له ولم يروه أحد(١) من أهل المعرفة بأقوال النبى ﷺ وأفعاله ، وجهاد الكفّار من أعظم الأعمال ، بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان ، قال الله تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكُلاًّ وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله ، لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ، وجنّات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبداً ، إن الله عنده أجر عظيم ﴾ .

وثبت فى صحيح مسلم وغيره عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : كنت عند النبى ﷺ ، فقال رجل ما أبالى ألَّا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ، وقال آخر ما أبالى أن أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ، وقال على بن أبى طالب الجهاد فى سبيل الله

---

(١) قال الحافظ العراق رواه البيهقى بسند ضعيف عن جابر وقال ابن حجر هو من كلام إبراهيم بن عيلة .

أفضل مما ذكرتما ، فقال عمر : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ، ولكن إذا قضيت الصلاة سألته ، فسأله فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله أى الأعمال أفضل عند الله عز وجل ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت ثم أى ؟ قال بر الوالدين ، قلت ثم أى ؟ قال الجهاد فى سبيل الله ، قال : حدثنى بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادنى . وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه سئل أى الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله وجهاد فى سبيله ، قيل ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور » .

وفى الصحيحين أن رجلاً قال له ﷺ يا رسول الله أخبرنى بعمل يعدل الجهاد فى سبيل الله قال : « لا تستطيعه أو لا تطيقه » ، قال فأخبرنى به ، قال : هل تستطيع إذا خرجت مجاهداً أن تصوم ولا تفطر وتقوم ولا تفتر ؟

وفى السنن عن معاذ رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه وصاه لما بعثه إلى اليمن فقال : يا معاذ اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن . وقال يا معاذ إنى لأحبك فلا تدع أن تقول فى دبر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، وقال له وهو رديفه يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على عباده ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم ، قال : حقهم عليه ألا يعذبهم .

وقال أيضاً لمعاذ : رأس[1] الأمر الإسلام . وعموده الصلاة . وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله ، وقال يا معاذ ألا أخبرك بأبواب البر ؟ الصوم جُنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وقيام الرجل فى جوف الليل ، ثم قرأ ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ، ثم قال يا معاذ ألا أخبرك بما هو أملك لك من ذلك ، فقال : امسك عليك لسانك هذا فأخذ بلسانه ، قال يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثَكِلَتْك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم .

وتفسير هذا ما ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » ، فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه والصمت عن الشر خير من التكلم به ، فأما الصمت الدائم فبدعة منهى عنها ، وكذلك الامتناع عن أكل الخبز واللحم وشرب الماء فذلك من البدع المذمومة أيضاً كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ رأى رجلاً قائماً فى الشمس ، فقال ما هذا ؟ فقالوا : أبو اسرائيل نذر أن يقوم فى الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبى ﷺ مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه .

وثبت فى الصحيحين عن أنس أن رجالاً سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ ، فكأنهم تقالّوها فقالوا : وأينا مثل رسول الله ﷺ ؟ ثم قال أحدهم أما أنا فأصوم ولا أفطر ، وقال الآخر أما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال الآخر ،

---

(١) أخرجه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه .

أما أنا فلا أكل اللحم ، وقال الآخر ، أما أنا فلا أتزوج النساء ، فقال رسول الله ﷺ : « ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا ، ولكنى أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » أى سلك غيرها ظاناً أن غيرها خير منها ، فمن كان كذلك فهو برئ من الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفِه نفسه﴾ ، بل يجب على كل مسلم أن يعتقد أن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ كما ثبت عنه فى الصحيح أنه كان يخطب بذلك كل يوم جمعة .

فصــــل

وليس من شرط ولى الله أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه ويجوز أن يظن فى بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى ، وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته ، ولا يعرف أنها من الشيطان وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى ، فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، فقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

وقد ثبت فى الصحيح أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء وقال : (قد فعلت) ، ففى صحيح مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شئ قدير ﴾ ، قال : دخل قلوبهم منها شئ لم يدخلها قبل ذلك شئ أشد منه ، فقال النبى ﷺ (قولوا سمعنا وأطعنا وسلّمنا) ، قال : فألقى الله الإيمان فى قلوبهم ، فأنزل الله تعالى :

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ، إلى قوله : ﴿ أو أخطأنا ﴾ ، قال الله قد فعلت ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصْراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ ، قال قد فعلت ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ، قال قد فعلت . وقد قال تعالى : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾ .

وثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ من حديث أبى هريرة وعمرو ابن العاص رضى الله عنهما مرفوعاً أنه قال : (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر) ، فلم يؤثم المجتهد المخطئ بل جعل له أجراً على اجتهاده وجعل خطأه مغفوراً له ، ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه ، ولهذا لما كان ولى الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولى لله إلا أن يكون نبياً ، بل ولا يجوز لولى الله أن يعتمد على ما يلقى إليه فى قلبه إلا أن يكون موافقاً وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق ، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ ، فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله ، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه .

والناس فى هذا الباب ثلاثة أصناف طرفان ووسط ، فمنهم من إذا اعتقد فى شخص أنه ولى الله وافقه فى كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه ، وسلم إليه جميع ما يفعله ، ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهداً مخطئاً ، اختار من الأمور أوسطها وهو أن لا يجعل معصوماً ولا مأثوماً إذا كان مجتهداً مخطئاً فلا يتبع فى كل ما يقوله ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده .

والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله ، وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ويقول هذا خالف الشرع .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتّى أحد فعمر منهم » ، وروى الترمذى وغيره عن النبى ﷺ أنه قال : « (١) لو لم أبعث فيكم لبُعِثَ فيكم عمر » ، وفى حديث آخر إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه (وفيه) لو كان نبى بعدى لكان عمر ، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر . ثبت هذا عنه من رواية الشعبى . وقال ابن عمر ما كان عمر يقول فى شئ : إنى لأراه كذا ، إلا كان كما يقول . وعن قيس بن طارق قال : كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسانه ملك . وكان عمر يقول اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة .

وهذه الأمور الصادقة التى أخبر بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنها تتجلى للمطيعين هى الأمور التى يكشفها الله عز وجل لهم . فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات ، وأفضل هؤلاء فى هذه الأمّة بعد

---

(١) أخطأ ابن تيمية فى عزوه هذا الحديث إلى الترمذى إذ لا وجود له فيه ، وإنما أخرجه ابن عدى وأبو العباس الزوزنى ، وقد أورده ابن الجوزى فى الموضوعات ، وتعقبه السيوطى فى اللآلئ .

نعم أخرج الترمذى الحديث الآتى : « لو كان بعدى نبى لكان عمر ابن الخطاب » ، وقد أخرجه أيضاً الإمام أحمد فى مسنده .

أما حديث « إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه » ، فقد أخرجه أبو داود والترمذى وأحمد بلفظ (جعل الحق) ، وأخرجه ابن ماجه بلفظ (وضع الحق) .

أبى بكر[1] عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، فإن خير هذه الأمّة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر .

وقد ثبت فى الصحيح تعيين عمر بأنه محدث فى هذه الأمّة فأى محدث ومخاطب فرض فى أمّة محمد ﷺ فعمر أفضل منه ، ومع هذا فكان عمر رضى الله عنه يفعل ما هو الواجب عليه فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول ﷺ فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر كما نزل القرآن بموافقته غير مرة ، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى محاربة المشركين ، والحديث معروف فى البخارى[2] وغيره فإن النبى ﷺ قد اعتمر سنة ست من الهجرة ومعه المسلمون نحو ألف وأربعمائة وهم الذين بايعوه تحت الشجرة وكان قد صالح المشركين بعد مراجعة جرت بينه وبينهم على أن يرجع فى ذلك العام ويعتمر من العام القابل ، وشرط لهم شروطاً فيها نوع غضاضة على المسلمين فى الظاهر ، فشق ذلك على كثير من المسلمين وكان الله ورسوله أعلم وأحكم بما فى ذلك من المصلحة ، وكان عمر فيمن كره ذلك حتى قال للنبى ﷺ يا رسول الله ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال بلى ، قال : أفليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال بلى . قال فعلام نعطى الدنية فى

---

(١) أخرج البخارى عن ابن عمر قال : كنا نخير الناس فى زمنى النبى ﷺ ، فنخير أبا بكر ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان رضى الله عنه : يا أبت أى الناس خير بعد رسول الله ﷺ ؟ قال : أبو بكر ، ثم من ؟ قال : عمر ، وخشيت أن أقول ثم من ، فيقول عثمان ، فقلت ثم أنت ، قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين .

(٢) رواه البخارى بطوله فى كتاب الشروط ، باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحروب .

دينا ؟ فقال له النبى ﷺ : (إنى رسول الله وهو ناصرى ولست أعصيه) ، ثم قال : أفلم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت ونطوف به ؟ قال بلى ، قال : (أقلت لك إنك تأتيه العام ؟ قال لا ، قال : إنك آتيه ومطوف به) ، فذهب عمر إلى أبى بكر رضى الله عنهما ، فقال له مثل ما قال للنبى ﷺ ورد عليه أبو بكر مثل جواب النبى ﷺ ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبى ﷺ ، فكان أبو بكر رضى الله عنه ، أكمل موافقة لله وللنبى ﷺ من عمر ، وعمر رضى الله عنه رجع عن ذلك ، وقال : فعملت لذلك أعمالا .

وكذلك(١) لما مات النبى ﷺ أنكر عمر موته أولاً ، فلما قال أبو بكر أنه مات رجع عمر عن ذلك .

وكذلك فى قتال مانعى الزكاة ، قال عمر لأبى بكر كيف : نقاتل الناس وقد قال(٢) رسول الله ﷺ : (أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا

---

(١) روى البخارى عن عائشة زوج النبى ﷺ ، أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح ، قال إسماعيل : (هو شيخ البخارى) ، يعنى بالعاليه فقام عمر يقول : والله ما مات رسول الله ﷺ ، قالت وقال عمر : والله ما كان يقع فى نفسى إلا ذاك ، وليبعثنه الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم ، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فَقَبَّله ، فقال بأبى وأمى طبت حياً وميتاً ، والذى نفسى بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً ، ثم خرج ، فقال : أيها الحالف على رسلك ، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر ، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال : ألا من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً ﷺ قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، وقال : إنك ميت وإنهم ميتون ، وقال : وما محمد إلا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ، أخرجه البخارى عقب باب قول النبى ، لو كنتُ متخذاً خليلاً فى المناقب .

(٢) أخرجه الستة عن أبى هريرة .

أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها) ، فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ألم يقل (إلا بحقها) فإن الزكاة من حقها ، والله لو منعونى عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها . قال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال ، فعلمت أنه الحق .

ولهذا نظائر تبين تَقَدُّم أبى بكر على عمر ، مع أن عمر رضى الله عنه محدث ، فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحدث لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله ، والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء ، وقلبه ليس بمعصوم فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبى المعصوم ﷺ ، ولهذا كان عمر رضى الله عنه يشاور الصحابة رضى الله عنهم ويناظرهم ويرجع إليهم فى بعض الأمور وينازعونه فى أشياء فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنّة ويقررهم على منازعته ، ولا يقول لهم أنا محدث ملهم مخاطب فينبغى لكم أن تقبلوا منى ولا تعارضونى ، فأى أحد ادَّعى أو ادَّعى له أصحابه أنه ولى لله ، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ، ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنّة ، فهو وهم مخطئون ، ومثل هذا من أضل الناس ، فعمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، أفضل منه وهو أمير المؤمنين ، وكان المسلمون ينازعونه فيما يقوله ، وهو وَهُمْ على الكتاب والسنّة ، وقد اتفق سلف الأمّة وأئمتها على أن كل أحد يُؤْخذ من قوله ويُتْرك إلا رسول الله ﷺ .

وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم ، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل ، وتجب طاعتهم فيما يأمرون به بخلاف الأولياء ، فإنهم لا تجب طاعتهم فى كل ما

يأمرون به ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به ، بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنّة ، فما وافق الكتاب والسنّة وجب قبوله ، وما خالف الكتاب والسنّة كان مردوداً ، وإن كان صاحبه من أولياء الله ، وكان مجتهداً معذوراً فيما قاله ، له أجر على اجتهاده ، ولكنه إذا خالف الكتاب والسنّة كان مخطئاً ، وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ ، وهذا تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ ، قال ابن مسعود وغيره : حق تقاته أن يطاع فلا يُعْصَى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، أى بحسب استطاعتكم فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، كما قال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الإيمان بما جاءت به الأنبياء فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أُنْزِل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين

وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

وهذا الذى ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع فى قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنّة وهو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل ، من خالف فى هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم بل إما أن يكون كافراً وإما أن يكون مفرطاً فى الجهل .

وهذا كثير فى كلام المشايخ كقول الشيخ[1] أبى سليمان الدارانى : إنه ليقع فى قلبى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين : الكتاب والسنّة .

وقال أبو القاسم الجنيد[2] رحمة الله عليه : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنّة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم فى علمنا أو قال لا يقتدى به .

وقال أبو عثمان النيسابورى من أمّر السنّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لأن الله تعالى يقول فى كلامه القديم : ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ .

---

(١) هو عبد الرحمن بن عطية الدارانى نسبة إلى دارى قرية من دمشق ، توفى سنة ٢١٥ .

(٢) هو الجنيد بن محمد البغدادى ، أصله من نهوند ومولده بالعراق ، تفقه على مذهب أبى ثور ، توفى سنة ٢٩٧ .

وقال أبو عمر بن نجيد : كل وَجْد لا يشهد له الكتاب والسنّة فهو باطل .

وكثير من الناس يغلط فى هذا الموضع فيظن فى شخص أنه ولى لله ، ويظن أن ولى الله يقبل منه كل ما يقوله ، ويسلم إليه كل ما يقوله ، ويسلم إليه كل ما يفعله ، وإن خالف الكتاب والسنّة فيوافق ذلك الشخص له ، ويخالف ما بعث الله به رسوله الذى فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه ، وبين أهل الجنة وأهل النار ، وبين السعداء والأشقياء ، فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين وجنده المفلحين وعباده الصالحين ، ومن لم يتبعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين ، فتجُرَّه مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولاً إلى البدعة والضلال ، وآخر إلى الكفر والنفاق ، ويكون له نصيب من قوله تعالى : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه . يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ يوم تُقَلَّب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتَّبعوا ، لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ .

وهؤلاء مشابهون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أُمِروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ .

وفى المسند وصححه الترمذى عن عدى بن حاتم فى تفسيره هذه الآية لما سأل النبى ﷺ عنها فقال : ما عبدوهم ، فقال النبى ﷺ : (أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم وكانت هذه عبادتهم إياهم) ، ولهذا قيل فى مثل هؤلاء إنما حُرِمُوا الوصول بتضييع الأصول . فان أصل الأصول تحقيق الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ ، فلابد من الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به الرسول ﷺ ، فلابد من الإيمان بأن محمداً رسول الله ﷺ إلى جميع الخلق ، إنسهم وجنهم ، عربهم وعجمهم ، علمائهم وعُبَّادهم ، ملوكهم وسُوقَتهم ، وأنه لا طريق إلى الله عز وجل لأحد من الخلق إلا بمتابعته باطناً وظاهراً حتى لو أدركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ، لوجب عليهم اتباعه كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أأقررتم وأخذتم على ذلك إصرى ، قالوا أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما بعث[1] الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعثَ محمدٌ وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على أمتّه الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه ، وقد قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أُمِرُوا أن يكفروا به ،

(١) أخرجه ابن جرير عن على .

ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله ، وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ .

وكل من خالف شيئاً مما جاء به الرسول مقلداً فى ذلك لمن يظن أنه ولى لله ، فانه بَنَى أمره على أنه ولى لله ، وأن ولى الله لا يخالف فى شئ ، ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله ، كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنّة ، فكيف إذا لم يكن كذلك ، وتجد كثيراً من هؤلاء عمدتهم فى اعتقاد كونه ولياً لله ، أنه قد صدر عنه مكاشفة فى بعض الأمور أو بعض التصرفات الخارقة للعادة ، مثل أن يشير إلى شخص فيموت ، أو يطير فى الهواء إلى مكة أو غيرها ، أو يمشى على الماء أحياناً ، أو يملأ أبريقاً من الهواء ، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب ، أو يختفى أحياناً عن أعين الناس ، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته ، أو يخبر الناس بما سُرق لهم ، أو بحال غائب لهم ، أو مريض ، أو نحو ذلك من الأمور ، وليس فى شئ من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولى لله ، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار فى الهواء أو مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه .

وكرامة أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور ، وهذه الأمور الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها ولياً لله، فقد يكون عدواً لله، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفّار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وتكون لأهل البدع ، وتكون من الشياطين ، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولى لله ، بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التى دل عليها الكتاب والسنّة ويعرفون بنور الإيمان والقرآن وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة .

مثال ذلك أن هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد فى أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلى الصلوات المكتوبة ، بل يكون ملابساً للنجاسات معاشراً للكلاب ، يأوى إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل ، رائحته خبيثة ، لا يتطهر الطهارة الشرعية ولا يتنظف ، وقد قال النبى ﷺ : (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جنب ولا كلب[1]) ، وقال عن هذه الأخلية : ([2] ان هذه الحشوش محتضرة) أى يحضرها الشيطان وقال : ([3] من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم) .

وقال : ([4] ان الله طيب لا يقبل إلا طيباً) ، وقال :([5] إن الله

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائى عن على .

(٢) أخرجه أبو داود عن زيد بن أرقم .

(٣) أخرج البخارى ومسلم عن جابر حديث « من أكل الثوم والبصل والكراث فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » .

(١) رواه مسلم .

(٢) « ان الله تعالى طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة » ، الترمذى عن سعد بن أبى وقاص .

نظيف يحب النظافة) ، وقال : ([1] خمس من الفواسق يقتلن فى الحل والحرم : الحية والفأرة والغراب والحدأة والكلب العقور) ، وفى رواية (الحية والعقرب) ، وأمر صلوات الله وسلامه عليه بقتل الكلاب وقال : ([2] من اقتنى كلباً لا يغنى عنه زرعاً ولا ضرعاً نقص من عمله كل يوم قيراط) ، وقال : ([3] لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب) ، وقال : إذا ولغ الكلب[4] فى إناء أحدكم فليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب ، وقال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ .

فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التى يحبها الشيطان أو يأوى إلى الحمامات والحشوش التى تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير ، وآذان الكلاب التى هى خبائث وفواسق أو يشرب

---

(١) أخرج الستة عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ ، خمس من الدواب كلهن فاسق يقتلن فى الحرام الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور ، وفى رواية لأبى داود مكان الغراب الحية ، وروى بمثل لفظ الكتاب فى مسلم .

(٢) متفق عليه عن سفيان بن أبى زهير .

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذى وأحمد عن أبى هريرة .

(٤) أخرجه البخارى ، عدا قوله إحداهن ، وأخرجه البزار وفيه (أحسبه ، قال إحداهن بالتراب) .

البول ونحوه من النجاسات التى يحبها الشيطان ، أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها ويسجد إلى ناحية شيخه ، ولا يخلص الدين لرب العالمين ، أو يلابس الكلاب أو النيران ، أو يأوى إلى المزابل والمواضع النجسة ، أو يأوى إلى المقابر ولاسيما مقابر الكفّار من اليهود والنصارى أو المشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ، ويقدم عليه سماع الأغانى والأشعار ، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن ، فهذه علامات أولياء الشيطان لا علامات أولياء الرحمن .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ، فهو يحب الله ، وإن كان يبغض القرآن ، فهو يبغض الله ورسوله .

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل .

وقال ابن مسعود ، الذكر ينبت الإيمان فى القلب كما ينبت الماء البقل والغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل .

وإن كان الرجل خبيراً بحقائق الإيمان الباطنة ، فارقاً بين الأحوال الرحمانية والأحوال الشيطانية . فيكون قد قذف الله فى قلبه من نوره ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ ، فهذا من المؤمنين الذين جاء فيهم الحديث الذى رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ، قال الترمذى حديث

حسن . وقد تقدم الحديث الصحيح الذى فى البخارى وغيره قال فيه : لا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببتُه كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يُبْصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت فى شئ أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه .

فإذا كان العبد من هؤلاء ، فرق بين حال أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، كما يفرق الصيرفى بين الدرهم الجيد والدرهم المزيف ، وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الردئ ، وكما يفرق من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان ، وكما أنه يجب الفرق بين النبى الصادق وبين المتنبئ الكذاب ، فيفرق بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين وموسى والمسيح وغيرهم ، وبين مسيلمة الكذاب والأسود العنسى وطليحة الأسدى والحرث الدمشقى ، وباباه الرومى ، وغيرهم من الكذابين ، وكذلك يفرق بين أولياء الله المتقين وأولياء الشيطان الضالين .

فصـــل

والحقيقة حقيقة الدين دين رب العالمين هى ما أتفق عليها الأنبياء والمرسلون ، وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج ، فالشرعة هى الشريعة ، قال الله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ﴾ ، والمنهاج هو الطريق ، قال تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه ، ومن يعرضْ عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً ﴾ .

فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر ، والمنهاج هو الطريق الذى سلك فيه ، والغاية المقصودة هى حقيقة الدين ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وهى حقيقة دين الإسلام ، وهى أن يستسلم العبد لله رب العالمين لا يستسلم لغيره ، فمن استسلم لغيره كان مشركاً ، والله ﴿ لا يغفر أن يشرك به ﴾ ، ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ .

ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين وقوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ ، عام فى كل زمان ومكان .

فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الإسلام الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له ، قال الله تعالى عن نوح : ﴿ يا قوم إن كان كَبُر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وأمرتُ أن أكون من المسلمين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن يرغبُ عن ملْة إبراهيم إلا من سَفِه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بَنِىَّ إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وقال موسى لقومه يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ ، وقال السحرة : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ ، وقال يوسف عليه السلام : ﴿ توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ ، وقالت بلقيس ﴿ أسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ﴾ ، وقال الحواريون : ﴿ آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ .

فدين الأنبياء واحد وإن تنوعت شرائعهم ، كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ قال : (إنا معشر الأنبياء ديننا واحد) ، قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وَصَّى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ، إنى بما تعملون عليم ، وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ، فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ .

فصـــل

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء ، وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب ، فقال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وَحَسُن أولئك رفيقاً ﴾ .

وفى الحديث[1] « ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبى بكر » وأفضل الأمم أمة محمد ﷺ قال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ ، وقال النبى ﷺ فى الحديث الذى فى المسند[2] : « أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله » ، وأفضل أمة محمد ﷺ القرن الأول .

وقد ثبت عن النبى ﷺ من غير وجه أنه قال : « خير القرون القرن الذى بُعِثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وهذا ثابت فى الصحيحين من غير وجه .

---

(١) روى الطبرانى فى الأوسط عن جابر ، رأى رسول الله ﷺ أبا الدرداء يمشى بين يدى أبى بكر ، فقال يا أبا الدرداء تمشى قدام رجل لم تطلع الشمس بعد النبيين على رجل أفضل منه .. وفيه إسماعيل بن يحيى التيمى وهو كذاب . وروى الطبرانى عن أبى الدرداء (أن أبابكر خير ممن طلعت عليه الشمس أو غربت) وفيه بقية وهو مدلس وبقية رجاله وثقوا .

(٢) رواه ابن ماجه والحاكم ، وحسنه الترمذى عن معاوية بن حميدة .

وفى الصحيحين أيضاً عنه ﷺ أنه قال : « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه » .

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، أفضل من سائر الصحابة ، قال تعالى : ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح ، وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد ، وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ ، والسابقون الأولون الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، والمراد بالفتح صلح الحديبية ، فإنه كان أول فتح مكة ، وفيه أنزل الله تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ ، فقالوا يا رسول الله أو فتح هو[1] ؟ قال نعم .

وأفضل السابقين الأولين الخلفاء الأربعة ، وأفضلهم أبوبكر ثم عمر ، وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة الأمة وجماهيرها ، وقد دلت على ذلك دلائل بسطناها فى منهاج أهل السنّة النبوية فى نقض كلام أهل الشيعة والقدرية .

وبالجملة اتفقت طوائف السنّة والشيعة ، على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ، واحد من الخلفاء ، ولا يكون من بعد الصحابة أفضل من

---

(١) رواه أبو داود وأحمد والحاكم عن مجمع بن جارية ولفظه فى أبى داود من كتاب الجهاد ، باب من أسهم له سهماً ، (فلما اجتمع الناس قرأ عليهم ، ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ ، فقال رجل ، يا رسول الله أفتح هو ؟ قال نعم والذى نفس محمد بيده إنه لفتح) .

الصحابة ، وأفضل أولياء الله تعالى ، أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول واتباعاً له كالصحابة الذين هم أكمل الأمة فى معرفة دينه واتباعه ، وأبو بكر الصديق أكمل معرفة بما جاء به وعملاً به ، فهو أفضل أولياء الله إذ كانت أمة محمد ﷺ ، أفضل الأمم ، وأفضلها أصحاب محمد ﷺ ، وأفضلهم أبو بكر رضى الله عنه .

وقد ظن طائفة غالطة أن خاتم الأولياء أفضل الأولياء قياساً على خاتم الأنبياء ، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن على الحكيم الترمذى ، فإنه صنف مصنفاً غلط فيه فى مواضع ، ثم صار طائفة من المتأخرين ، يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء ، ومنهم من يدعى أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله ، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته ، كما يزعم ذلك ابن عربى صاحب كتاب الفتوحات المكية وكتاب الفصوص ، فخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله تعالى وأوليائه ، كما يقال لمن قال : (فخر عليهم السقف من فوقهم) ، لا عقل ولا قرآن .

وذلك أن الأنبياء أفضل فى الزمان من أولياء هذه الأمة ، والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام أفضل من الأولياء فكيف الأنبياء كلهم ؟ والأولياء إنما يستفيدون معرفة الله ممن يأتى بعدهم ويدعى أنه خاتم الأولياء ، وليس آخر الأولياء أفضلهم ، كما أن آخر الأنبياء أفضلهم ، فإن فضل محمد ﷺ ثبت بالنصوص الدالة على ذلك كقوله ﷺ أنا[1] سيد ولد آدم ولا فخر . وقوله : آتى باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد ، فيقول بك أُمِرْتُ أن لا أفتح لأحد قبلك .

---

(١) هذان الحديثان سبق تخريجهما .

وليلة المعراج رفع الله درجته فوق الأنبياء كلهم ، فكان أحقهم بقوله تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كَلَّم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ ، إلى غير ذلك من الدلائل ، كل منهم يأتيه الوحى من الله ، لاسيما محمد ﷺ لم يكن فى نبوته محتاجاً إلى غيره فلم تحتج شريعته إلى سابق ولا إلى لاحق ، بخلاف المسيح أحالهم فى أكثر الشريعة على التوراة ، وجاء المسيح فكملها ، ولهذا كان النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح ، كالتوراة والزبور وتمام الأربع وعشرين نبوة وكان الأمم قبلنا محتاجين إلى محدثين بخلاف أمة محمد ﷺ ، فإن الله أغناهم به ، فلم يحتاجوا معه إلى نبى ولا إلى محدث ، بل جمع له من الفضائل والمعارف والأعمال الصالحة ما فرّقه فى غيره من الأنبياء ، فكان ما فضله الله به من الله بما أنزله إليه وأرسله إليه لا بتوسط بشر .

وهذا بخلاف الأولياء ، فإن كان من بلغه رسالة محمد ﷺ ، لا يكون ولياً لله إلا باتباع محمد ﷺ ، وكل ما حصل له من الهدى ودين الحق هو بتوسط محمد ﷺ ، وكذلك من بلغه رسالة رسول إليه لا يكون ولياً لله إلا إذا اتبع ذلك الرسول الذى أرسل إليه .

ومن ادَّعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ ، من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد ، فهذا كافر ملحد ، وإذا قال أنا محتاج إلى محمد فى علم الظاهر دون علم الباطن ، أو فى علم الشريعة دون علم الحقيقة ، فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا : إن محمداً رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب ، فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، فكانوا كفاراً بذلك ، وكذلك هذا الذى يقول إن محمداً بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن ، آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ، وهو أكفر من

أولئك ، لأن علم الباطن الذى هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها ، هو علم بحقائق الإيمان الباطنة ، وهذا أشرف من العلم ، بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة .

فإذا ادعى المدعى أن محمداً ﷺ ، إنما علم هذه الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان ، وأنه لا يأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنّة ، فقد ادعى أن بعض الذى آمن به مما جاء به الرسول دون البعض الآخر ، وهذا شر ممن يقول أُومِنُ ببعض ، وأكْفر ببعض ، ولا يدعى أن هذا البعض الذى آمن به أدنى القسمين .

وهؤلاء الملاحدة يدعون أن الولاية أفضل من النبوة ، ويلبسون على الناس ، فيقولون ولايته أفضل من نبوته وينشدون :

مقام النبوة فى برزخ فُوَيْقَ الرسول [1] ودون الولى

ويقولون نحن شاركناه فى ولايته التى هى أعظم من رسالته ، وهذا من أعظم ضلالهم ، فإن ولاية محمد لم يماثله فيها أحد لا إبراهيم ولا موسى ، فضلاً عن أن يماثله فيها هؤلاء الملحدون .

وكل رسول نبى ولى ، فالرسول نبى ولى ، ورسالته متضمنة لنبوته ، ونبوته متضمنة لولايته ، وإذا قدروا مجرد إنباء الله إياه بدون ولايته لله ، فهذا تقدير ممتنع ، فإنه حال إنبائه إياه ممتنع أن يكون إلا ولياً لله ولا تكون مجردة عن ولايته ، ولو قدرت مجردة لم يكن أحد مماثلاً للرسول فى ولايته .

وهؤلاء قد يقولون كما يقول صاحب الفصوص ابن عربى : إنهم

---

(١) فى النسخ المطبوعة (الرسل) وصححت من المخطوطتين ، وبذا يسلم البيت من الكسر .

يأخذون من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول ، وذلك أنهم اعتقدوا عقيدة المتفلسفة ثم أخرجوها فى قالب المكاشفة ، وذلك أن المتفلسفة الذين قالوا إن الأفلاك قديمة أزلية لها علة تتشبه بها كما يقوله أرسطو وأتباعه ، أو لها موجب بذاته ، كما يقوله متأخروهم كابن سينا وأمثاله ، ولا يقولون إنها لرب خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ولا خلق الأشياء بمشيئته وقدرته ولا يعلم الجزئيات ، بل إمّا أن ينكروا علمه مطلقاً ، كقول أرسطو ، أو يقولوا إنما يعلم فى الأمور المتغيرة كلياتها كما يقوله ابن سينا ، وحقيقة هذا القول إنكار علمه بها ، فإن كل موجود فى الخارج ، فهو معين جزئى الأفلاك ، كل معين منها جزئى ، وكذلك جميع الأعيان وصفاتها وأفعالها ، فمن لم يعلم إلا الكليات ، لم يعلم شيئاً من الموجودات ، والكليات إنما توجد كليات فى الأذهان لا فى الأعيان .

والكلام على هؤلاء مبسوط فى موضع آخر فى رد تعارض العقل والنقل وغيره ، فإنَّ كُفْر هؤلاء أعظم من كفر اليهود والنصارى ، بل ومشركى العرب ، فإن جميع هؤلاء يقولون إن الله خلق السموات والأرض ، وأنه خلق المخلوقات بمشيئته وقدرته . وأرسطو ونحوه من المتفلسفة واليونان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام ، وهم يعرفون الملائكة والأنبياء ، وليس فى كتب أرسطو ذكر شئ من ذلك ، وإنما غالب علوم القوم الأمور الطبيعية ، وأما الأمور الإلهية فكل منهم فيها قليل الصواب ، كثير الخطأ ، واليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم بالهيئات منهم بكثير ، ولكن متأخريهم كابن سينا أرادوا أن يلفقوا بين كلام أولئك وبين ما جاءت به الرسل فأخذوا أشياء من أصول الجهمية والمعتزلة ، وركبوا مذهباً

قد يعتزى إليه متفلسفة أهل الملل ، وفيه من الفساد والتناقض ما قد نبهنا على بعضه فى غير هذا الموضع .

وهؤلاء لما رأوا أمر الرسل كموسى وعيسى ومحمد ﷺ قد بهر العالم ، واعترفوا بالناموس الذى بعث به محمد ﷺ أعظم ناموس طوف العالم ، ووجدوا الأنبياء قد ذكروا الملائكة والجن ، أرادوا أن يجمعوا بين ذلك وبين أقوال سلفهم اليونان الذين هم أبعد الخلق عن معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأولئك قد أثبتوا عقولاً عشرة يسمونها المجردات والمفارقات . وأصل ذلك مأخوذ من مفارقة النفس للبدن ، وسموا تلك المفارقات لمفارقتها المادة وتجردها عنها ، وأثبتوا الأفلاك لكل فلك نفساً ، وأكثرهم جعلوها أعراضاً ، وبعضهم جعلها جواهر .

وهذه المجردات التى أثبتوها ترجع عند التحقيق إلى أمور موجودة فى الأذهان لا فى الأعيان (كما أثبت أصحاب فيثاغورث أعداداً مجردة[1]) ، كما أثبت أصحاب أفلاطون الأمثال الأفلاطونية المجردة ، أثبتوا هيُولَى مجردة عن الصورة ومدة وخلا مجردين ، وقد اعترف حُذَّاقهم بأن ذلك إنما يتحقق فى الأذهان لا فى الأعيان ، فلما أراد هؤلاء المتأخرون منهم كابن سينا أن يثبت أمر النبوات على أصولهم الفاسدة ، زعموا أن النبوة لها خصائص ثلاث ، من اتصف بها فهو نبى :

١ - أن تكون له قوة علمية يسمونها القوة القدسية ينال بها العلم بلا تعلم .

---

(١) الزيادة من المخطوطتين .

٢ - وأن يكون له قوة تخيلية تخيل له ما يعقل فى نفسه بحيث يرى فى نفسه صوراً ، أو يسمع فى نفسه أصواتاً ، كما يراه النائم ويسمعه ، ولا يكون لها وجود فى الخارج ، وزعموا أن تلك الصور هى ملائكة الله ، وتلك الأصوات هى كلام الله تعالى .

٣ - وأن يكون له قوة فعالة يؤثر بها فى هُيولَى العالم ، وجعلوا معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وخوارق السحرة ، هى من قوى الأنفس ، فأقروا من ذلك بما يوافق أصولهم من قلب العصا حية دون انشقاق القمر ونحو ذلك ، فإنهم ينكرون وجود هذا .

وقد بسطنا الكلام على هؤلاء فى مواضع ، وبينا أن كلامهم هذا أفسد الكلام ، وأن هذا الذى جعلوه من خصائص[1] النبى تحصل ما هو أعظم منه لآحاد العامة ولأتباع الأنبياء ، وأن الملائكة التى أخبرت بها الرسل أحياء ناطقون ، أعظم مخلوقات الله وهم كثيرون ، كما قال تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ ، وليسوا عشرة ، وليسوا أعراضاً ، لاسيما وهؤلاء يزعمون أن الصادر الأول هو العقل الأول ، وعنه صدر كل ما دونه ، والعقل الفعال العاشر رب كل ما تحت فلك القمر .

وهذا كله يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل ، فليس أحد من الملائكة مبدع لكل ما سوى الله . وهؤلاء يزعمون أن العقل المذكور فى حديث يروى (أن أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل ، فأقبل ، فقال له : أدبر ، فأدبر ، فقال وعزتى ما خلقت خلقاً أكرم علىّ منك ، فبك آخذ وبك أعطى ، ولك الثواب وعليك العقاب) ، ويسمونه أيضاً القلم لما

---

(١) كانت فى النسخ المطبوعة (من الخصائص التى) ، فصححناها من المخطوطتين .

روى (أن أول ما خلق الله القلم) ، الحديث رواه الترمذى .

والحديث الذى ذكروه فى العقل كذب موضوع عند أهل المعرفة بالحديث ، كما ذكر ذلك أبو حاتم البستى والدارقطنى وابن الجوزى وغيرهم ، وليس فى شئ من دواوين الحديث التى يعتمد عليها ، ومع هذا فلفظه لو كان ثابتاً حجة عليهم ، فإن لفظة (أول ما خلق الله تعالى العقل ، قال له - ويروى - لما خلق الله العقل قال له[1]) ، فمعنى الحديث أنه خاطبه فى أول أوقات خلقه ، ليس معناه أنه أول المخلوقات (وأول) منصوب على الظرف ، كما فى اللفظ الآخر (لما) وتمام الحديث « ما خلقت خلقاً أكرم علىَّ منك » ، فهذا يقتضى أنه خلق قبله غيره ، ثم قال : « فبك آخذ وبك أعطى ولك الثواب ، وعليك العقاب » فذكر أربعة أنواع من الأعراض ، وعندهم أن جميع جواهر العالم العلوى والسفلى صدر عن ذلك العقل . فأين هذا من هذا ؟

وسبب غلطهم أن لفظ العقل فى لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل فى لغة هؤلاء اليونان ، فإن العقل فى لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلاً ، كما فى القرآن ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ،

---

(١) نعم هذا هو لفظه ، قال الحافظ السيوطى فى الدرر : (لما خلق الله العقل ، قال أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال : ما خلقت خلقاً أشرف منك فيك آخذ وبك أعطى) ، كذب موضوع بالاتفاق ، قلت تابع الزركشى فى ذلك ابن تيمية ، وقد وجدت له أصلا صالحاً ما أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد الزهد ، قال : حدثنا على بن مسلم ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر ، حدثنا مالك بن دينار عن الحسن برفعه لما خلق الله العقل ، قال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، قال ما خلقت خلقاً أحب إلىّ منك ، بك آخذ وبك أعطى ، وهذا مرسل جيد الإسناد ، وهو معجم الطبرانى الأوسط موصول من حديث أبى أمامة ومن حديث أبى هريرة بإسنادين ضعيفين انتهى . فلفظه الوارد ما ذكره ابن تيمية على ضعفه كما رأيت .

﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ ، ﴿ أوَ لَم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ﴾ ، ويراد بالعقل الغريزة التى جعلها الله تعالى فى الإنسان يعقل بها .

وأما أولئك فالعاقل عندهم جوهر قائم بنفسه كالعاقل ، وليس هذا مطابقاً للغة الرسل والقرآن ، وعالم الخلق عندهم كما يذكره أبو حامد عالم الأجسام العقل والنفوس فيسميها عالم الأمر ، وقد يسمى (العقل) عالم الجبروت ، (والنفوس) عالم الملكوت ، (والأجسام) عالم الملك ، ويظن من لم يعرف لغة الرسل ولم يعرف معنى الكتاب والسنّة ، أن ما فى الكتاب والسنّة من ذكر الملك والملكوت والجبروت موافق لهذا وليس الأمر كذلك .

وهؤلاء يلبسون على المسلمين تلبيساً كثيراً ، كإطلاقهم أن الفلك محدث أى معلول ، مع أنه قديم عندهم ، والمحدث لا يكون إلا مسبوقاً بالعدم ، ليس فى لغة العرب ولا فى لغة أحد أنه يسمى القديم الأزلى محدثاً ، والله قد أخبر أنه خالق كل شئ . وكل مخلوق فهو محدث ، وكل محدث كائن بعد أن لم يكن ، لكن ناظرهم أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة مناظرة قاصرة لم يعرفوا بها ما أخبر به الرسول ، ولا أحكموا فيها قضايا العقول ، فلا للإسلام نصروا ، ولا للأعداء كسروا ، وشاركوا أولئك فى بعض قضاياهم الفاسدة . ونازعوهم فى بعض المعقولات الصحيحة ، فصار قصور هؤلاء فى العلوم السمعية والعقلية من أسباب قوة ضلال أولئك ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون جبرائيل هو الخيال الذى يتشكل فى نفس النبى ﷺ ، والخيال تابع للعقل فجاء الملاحدة الذين شاركوا هؤلاء

الملاحدة المتفلسفة وزعموا أنهم أولياء الله ، وأن أولياء الله أفضل من أنبياء الله ، وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة ، كابن عربى صاحب الفتوحات والفصوص ، فقال إنه يأخذ من المعدن الذى أخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول ، والمعدن عنده هو العقل ، والملك هو الخيال ، والخيال تابع للعقل ، وهو بزعمه يأخذ عن الذى هو أصل الخيال ، والرسول يأخذ عن الخيال ، فلهذا صار عند نفسه فوق النبى ، ولو كان خاصة النبى ما ذكروه ولم يكن هو من جنسه فضلاً عن أن يكون فوقه فكيف وما ذكروه يحصل لآحاد المؤمنين ، والنبوة أمر وراء ذلك فإن ابن عربى وأمثاله وإن ادعوا أنهم من الصوفية ، فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل العلم ، فضلاً عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنّة ، كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبى سليمان الدارانى ومعروف الكرخى والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التسترى وأمثالهم ، رضوان الله عليهم أجمعين(١) ، والله سبحانه وتعالى ، قد وصف الملائكة فى كتابه بصفات تباين قول هؤلاء ، كقوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وكم من مَلَكٍ فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن

---

(١) فى نسخة قولة زيادة هنا نثبت نصها (فإن هؤلاء وأمثالهم من صالحى المؤمنين بريئون من أقول هؤلاء الملاحدة ، ولهذا كان ابن عربى فى كتاب تجلياته الذى تجلى له فيه الشيطان (فى الأصل تجلل له الشيطان) ، ينتقص بهؤلاء ويذمهم وينكر على الجنيد سيد الطائفة وأمثاله التوحيد الذى اتفق عليه المسلمون واليهود والنصارى وغيرهم من تمييز الرب عن العبد وتمييز الخالق عن المخلوق) .

يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ .

وقد أخبر أن الملائكة(١) جاءت لإبراهيم عليه السلام فى صورة البشر ، وأن الملك تمثل لمريم بشراً سوياً ، وكان جبرائيل عليه السلام يأتى النبى ﷺ فى صورة دحية الكلبى وفى صورة أعرابى ، ويراهم الناس كذلك .

وقد وصف الله تعالى جبرائيل عليه السلام بأنه ذو قوة عند العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وأن محمداً ﷺ رآه بالأفق المبين ، ووصفه بأنه شديد القوى ، ﴿ ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ١١ : ٦٩ ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ الآيات ، وإلى قوله تعالى : ١٩ : ١٧ ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ . وروى النسائى بإسناد صحيح عن يحيى بن معمر عن ابن عمر رضى الله عنهما ، كان جبرائيل يأتى النبى ﷺ فى صورة دحية الكلبى ، وروى الطبرانى من حديث عفير بن معدان عن قتادة عن أنس أن النبى ﷺ قال : كان جبرائيل يأتينى على صورة دحية الكلبى ، أما تمثل جبرائيل فى صورة أعرابى ، فيفهم مما رواه البخارى ومسلم فى حديث الإيمان والإسلام والإحسان .

وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ أنه لم ير جبرائيل فى صورته التى خلق عليها غير مرتين ، يعنى المرة الأولى بالأفق الأعلى ، والمرة الأخرى عند سدرة المنتهى . ووصف جبرائيل عليه السلام فى موضع آخر بأنه الروح الأمين ، وأنه روح القدس ، إلى غير ذلك من الصفات التى تبين أنه من أعظم مخلوقات الله تعالى الأحياء العقلاء ، وأنه جوهر قائم بنفسه ، ليس خيالاً فى نفس النبى كما زعم هؤلاء الملاحدة المتفلسفة ، والمدعون ولاية الله وأنهم أعلم من الأنبياء .

وغاية حقيقة هؤلاء إنكار أصول الإيمان بأن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وحقيقة أمرهم جحد الخالق ، فإنهم جعلوا وجود المخلوق هو وجود الخالق ، وقالوا : الوجود واحد ، ولم يميزوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع ، فإن الموجودات تشترك فى مسمى الوجود ، كما تشترك الأناسى فى مسمى الإنسان ، والحيوانات فى مسمى الحيوان . ولكن هذا المشترك الكلى لا يكون مشتركاً كلياً إلا فى الذهن ، وإلا فالحيوانية القائمة بهذا الإنسان ليست هى الحيوانية القائمة بالفرس ، ووجود السموات ليس هو بعينه وجود الإنسان ، فوجود الخالق جل جلاله ليس هو كوجود مخلوقاته .

وحقيقة قولهم قول فرعون الذى عَطَّل الصانع ، فإنه لم يكن منكراً هذا الموجود والمشهود ، لكن زعم أنه موجود بنفسه ، لا صانع له ، وهؤلاء وافقوه فى ذلك ، لكن زعموا بأنه هو الله ، فكانوا أضل منه وإن كان قوله هذا هو أظهر فساداً منهم ، ولهذا جعلوا عُبَّاد الأصنام ما عبدوا إلا الله ، وقالوا : لما كان فرعون فى منصب التحكم(١) صاحب السيف والحكم

(١) لعل المراد لما كان فرعون فى منصب التحكم ، وكان صاحب السيف والحكم قال لذلك أنا ربكم الأعلى .

وإن جار فى العرف الناموسى ، لذلك قال أنا ربكم الأعلى – أى وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما ، فأنا الأعلى منكم بما أعطيته فى الظاهر من الحكم فيكم .

قالوا : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله ، أقروا له بذلك وقالو (اقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة) ، قالوا : فصح قول فرعون (أنا ربكم الأعلى) ، وكان فرعون عين الحق ، ثم أنكروا حقيقة اليوم الآخر ، فجعلوا أهل النار يتنعمون كما يتنعم أهل الجنة ، فصاروا كافرين بالله واليوم الآخر وبملائكته وكتبه ورسله مع دعواهم أنهم خلاصة خاصة الخاصة من أهل ولاية الله ، وأنهم أفضل من الأنبياء وأن الأنبياء إنما يعرفون الله من مشكاتهم .

وليس هذا موضع بسط إلحاد هؤلاء ، ولكن لما كان الكلام فى أولياء الله ، والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وكان هؤلاء من أعظم الناس ادعاء لولاية الله وهم من أعظم الناس ولاية للشيطان ، نبهنا على ذلك ، ولهذا عامة كلامهم إنما هو فى الحالات الشيطانية ، ويقولون ما قاله صاحب الفتوحات (باب أرض الحقيقة) ، ويقولون هى أرض الخيال . فتعرف بأن الحقيقة التى يتكلم فيها هى خيال ، ومحل تصرف الشيطان ، فإن الشيطان يخيل للإنسان الأمور بخلاف ما هى . قال تعالى : ﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بُعْد المشرقين فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشْرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ ، إلى قوله :

﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قُضِىَ الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ، إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال : إنى برئ منكم ، إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ .

وقد روى عن النبى ﷺ فى الحديث الصحيح أنه رأى جبرائيل(١) يزع الملائكة ، والشياطين إذا رأت ملائكة الله التى يؤيد بها عباده هربت منهم ، والله يؤيد عباده المؤمنين بملائكته ، قال تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيَّده بجنود لم تروها ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ .

---

(١) فى موطأ مالك باب جامع الحج عن طلحة بن عبيد الله بن كريز ، أن رسول الله ﷺ قال : ما رؤى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر . قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله ؟ قال : أما أنه رأى جبرائيل يزع الملائكة ، أى يصفهم للقتال .

وهؤلاء يأتيهم أرواح تخاطبهم وتتمثل لهم ، وهى جن وشياطين فيظنونها ملائكة ، كالأرواح التى تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام ، وكان من أول ما ظهر من هؤلاء فى الإسلام : المختار بن أبى عبيد الذى أخبر به النبى ﷺ فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم فى صحيحه عن النبى ﷺ ، أنه قال : « سيكون فى ثقيف كذاب ومبير » ، وكان الكذاب : المختار بن أبى عبيد ، والمبير : الحجاج بن يوسف ، فقيل لابن عمر وابن عباس إن المختار يزعم أنه ينزل إليه ، فقال : صدق ، قال الله تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ ، وقال الآخر : وقيل له إن المختار يزعم أنه يوحى إليه ، فقال : صدق قال الله تعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ .

وهذه الأرواح الشيطانية هى الروح الذى يزعم صاحب الفتوحات أنه ألقى إليه ذلك الكتاب ، ولهذا يذكر أنواعاً من الخلوات بطعام معين وشئ معين ، وهذه مما تفتح لصاحبها اتصالاً بالجن والشياطين ، فيظنون ذلك من كرامات الأولياء ، وإنما هو من الأحوال الشيطانية ، وأعرف من هؤلاء عدداً ، ومنهم من كان يحمل فى الهواء إلى مكان بعيد ويعود ، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به ، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس أو بعطاء يعطونه ، إذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك .

ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ، كما يوجد فى كلام صاحب الفتوحات المكية والفصوص ، وأشباه ذلك ، يمدح الكفّار مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم ، وينتقص الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وهارون ، ويذم شيوخ

المسلمين المحمودين عند المسلمين كالجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التسترى (وأمثالهما) ، ويمدح المذمومين عند المسلمين كالحلاج ونحوه ، كما ذكره فى تجلياته الخيالية الشيطانية ، فإن الجنيد قدس الله روحه كان من أئمة الهدى ، فسُئِل عن التوحيد فقال : التوحيد إفراد الحدوث عن القدم ، فبين أن التوحيد ، أن تميز بين القديم والمحدث ، وبين الخالق والمخلوق . وصاحب الفصوص أنكر هذا ، وقال فى مخاطبته الخيالية الشيطانية له : يا جنيد هل يميز بين المحدث والقديم إلا من يكون غيرهما ؟ فخطّأ الجنيد فى قوله (إفراد الحدوث عن القدم) ، لأن قوله هو (إن وجود المحدث هو عين وجود القديم) ، كما قاله فى فصوصه : ومن أسمائه الحسنى (العلى) على من ؟ وما ثم إلا هو ، وعن ماذا ؟ وما هو إلا هو ، فعلوّه لنفسه وهو عين الموجودات ، فالمسمى محدثات هى العلية لذاتها وليست إلا هو — إلى أن قال :

هو عين ما بطن ، وهو عين ما ظهر ، وما ثم من يراه غيره ، وما ثم من يبطن[1] عنه سواه ، وهو المسمى أبو سعيد الخراز ، وغير ذلك من الأسماء المحدثات .

فيقال لهذا الملحد : ليس من شرط المميز بين الشيئين بالعلم والقول أن يكون ثالثاً غيرهما ، فإن كل واحد من الناس يميز بين نفسه وغيره ، وليس هو ثالث ، فالعبد يعرف أنه عبد ويميز بين نفسه وبين خالقه ، والخالق جل جلاله ، يميز بين نفسه وبين مخلوقاته ، ويعلم أنه ربهم ، وأنهم عباده ، كما نطق بذلك القرآن فى غير موضع ، والاستشهاد بالقرآن عند المؤمنين الذين يقرون به باطناً وظاهراً . وأما هؤلاء الملاحدة فيزعمون ما

---

(١) فى النسخ المطبوعة ينطق عنه .

كان يزعمه التلمسانى منهم وهو أحذقهم فى اتحادهم – لما قرئ عليه الفصوص ، فقيل له : القرآن يخالف فصوصكم ، فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد من كلامنا ، فقيل له : فإذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالاً والأخت حراماً ؟ فقال : الكل عندنا حلال ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام ، فقلنا حرام عليكم .

وهذا مع كفره العظيم متناقض ظاهر ، فإن الوجود إذا كان واحداً فمن المحجوب ومن الحاجب ؟ ولهذا قال بعض شيوخهم لمريده : من قال لك إن فى الكون الله فقد كذب ، فقال له مريده فمن هو الذى يكذب ؟ وقالوالآخر: هذه مظاهر ، فقال لهم : المظاهر غير المظاهر أم هى ؟ فإن كانت غيرها ، فقد قلتم بالنسبة ، وإن كانت إياها فلا فرق .

وقد بسطنا الكلام على كشف أسرار هؤلاء فى موضع آخر ، وبينَّا حقيقة قول كل واحد منهم ، وأن صاحب الفصوص يقول المعدوم شئ ، ووجود الحق فاض عليها[1] ، فيفرق بين الوجود والثبوت . والمعتزلة الذين قالوا : المعدوم شئ ثابت فى الخارج مع ضلالهم خير منه ، فإن أولئك ، قالوا : إن الرب خلق لهذه الأشياء الثابتة فى العدم ، وجوداً ليس هو وجود الرب . وهذا زعم أن عين وجود الرب فاض عليهما ، فليس عنده وجود مخلوق مباين لوجود الخالق ، وصاحبه الصدر القونوى يفرق بين المطلق والمعين ، لأنه كان أقرب إلى الفلسفة ، فلم يقر بأن المعدوم شئ ، لكن جعل الحق هو الوجود المطلق ، وصنف مفتاح غيب الجمع والوجود .

وهذا القول أدخل فى تعطيل الخالق وعدمه ، فإن المطلق بشرط

---

(١) أى على الأشياء المعدومة . والتصحيح من قولة .

الإطلاق ، وهو الكلى العقلى ، لا يكون إلا فى الأذهان لا فى الأعيان ، والمطلق لا بشرط ، وهو الكلى الطبيعى ، وإن قيل إنه موجود فى الخارج ، فلا يوجد فى الخارج إلا معيناً ، وهو جزء من المعين عند من يقول بثبوته فى الخارج ، فيلزم أن يكون وجود الرب إما منتفياً فى الخارج ، وإما أن يكون جزءاً من وجود المخلوقات ، وإما أن يكون عين وجود المخلوقات ، وهل يخلق الجزء الكل أم يخلق الشئ نفسه ، أم العدم يخلق الوجود ، أو يكون بعض الشئ خالقاً لجميعه ؟

وهؤلاء يفرون من لفظ الحلول لأنه يقتضى حالاً ومحلاً ، ومن لفظ الاتحاد لأنه يقتضى شيئين ، اتحد أحدهما بالآخر ، وعندهم الوجود واحد . ويقولون : النصارى إنما كفروا لما خصصوا المسيح بأنه هو الله ، ولو عمموا لما كفروا .

وكذلك يقولون فى عباد الأصنام : إنما أخطأوا لما عبدوا بعض المظاهر دون بعض ، فلو عبدوا الجميع لما أخطأوا عندهم . والعارف المحقق عندهم لا يضره عبادة الأصنام .

وهذا مع ما فيه من الكفر العظيم ، ففيه ما يلزمهم دائماً من التناقض ، لأنه يقال لهم : فمَن المخطئ ؟ لكنهم يقولون : إن الرب هو الموصوف بجميع النقائص التى يوصف بها المخلوق . ويقولون إن المخلوقات توصف بجميع الكمالات التى يوصف بها الخالق . ويقولون ما قاله صاحب الفصوص ، فالعلى لنفسه هو الذى يكون له الكمال الذى يستوعب به جميع النعوت الوجودية والنسب العدمية سواء كانت محمودة عرفاً أو عقلاً أو شرعاً ، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً ، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة .

وهم مع كفرهم هذا لا يندفع عنهم التناقض ، فإنه معلوم بالحس والعقل أن هذا ليس هو ذاك ، وهؤلاء يقولون ما كان يقوله التلمسانى : إنه ثبت عندنا فى الكشف ما يناقض صريح العقل . ويقولون : من أراد التحقيق (يعنى تحقيقهم) فليترك العقل والشرع .

وقد قلت لمن خاطبته منهم : ومعلوم أن كشف الأنبياء أعظم وأتم من كشف غيرهم ، وخبرهم أصدق من خبر غيرهم ، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يخبرون بما تعجز عقول الناس عن معرفته لا بما يعرف الناس بعقولهم أنه ممتع ، فيخرون بمجازات العقول لا بمحالات العقول ، ويمتنع أن يكون فى أخبار الرسول ما يناقض صريح العقول ، ويمتنع أن يتعارض دليلان قطعيان سواء كانا عقليين أو سمعيين ، أو كان أحدهما عقلياً والآخر سمعياً ، فكيف بمن ادَّعى كشفاً يناقض صريح الشرع والعقل ؟

وهؤلاء قد لا يتعمدون الكذب ، لكن يخيل لهم أشياء تكون فى نفوسهم ويظنونها فى الخارج ، وأشياء يرونها تكون موجودة فى الخارج لكن يظنونها من كرامات الصالحين ، وتكون من تلبيسات الشياطين .

وهؤلاء الذين يقولون بالوحدة ، قد يقدمون الأولياء على الأنبياء ، ويذكرون أن النبوة لم تنقطع كما يذكر عن ابن سبعين وغيره ، ويجعلون المراتب ثلاثة ، يقولون العبد يشهد أولاً طاعة ومعصية ، ثم طاعة بلا معصية ، ثم لا طاعة ولا معصية ، والشهود الأول ، هو الشهود الصحيح ، وهو الفرق بين الطاعات والمعاصى ، وأما الشهود الثانى ، فيريدون به شهود القدر ، كما أن بعض هؤلاء يقول : أنا كافر برب يعصى ، وهذا يزعم أن المعصية مخالفة الإرادة التى هى المشيئة ، والخلق كلهم داخلون تحت حكم المشيئة ، ويقول شاعرهم :

أصبحت منفعلاً لما تختاره منى ففعلى كله طاعات

ومعلوم أن هذا خلاف ما أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، فإن المعصية التى يستحق صاحبها الذم والعقاب مخالفة أمر الله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿ تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ ، وسنذكر الفرق بين الإرادة الكونية والدينية والأمر الكونى والدينى .

وكانت هذه المسألة قد اشتبهت على طائفة من الصوفية فبينَها الجنيد رحمه الله لهم ، من اتبع الجنيد فيها كان على السداد ، ومن خالفه ضل ، لأنهم تكلفوا بأن الأمور كلها بمشيئة الله وقدرته ، وفى شهود هذا التوحيد ، وهذا يسمونه الجمع الأول ، فبين لهم الجنيد أنه لا بد من شهود الفرق الثانى ، وهو أنه مع شهود كون الأشياء كلها مشتركة فى مشيئة الله وقدرته وخلقه ، يجب الفرق بين ما يأمر به ويحبه ويرضاه ، وبين ما ينهى عنه ويكرهه ويسخطه ، ويفرق بين أوليائه وأعدائه ، كما قال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسئ قليلاً ما تذكرون ﴾ .

ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الله خالق كل شئ وربه ومليكه ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا رب غيره ، وهو مع ذلك

أمر بالطاعة ، ونهى عن المعصية ، وهو لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يأمر بالفحشاء ، وإن كانت واقعة بمشيئته فهو لا يحبها ولا يرضاها ، بل يبغضها ويذم أهلها ويعاقبهم .

وأما المرتبة الثالثة ، أن لا يشهد طاعة ولا معصية – فإنه يرى أن الوجود واحد ، وعندهم أن هذا غاية التحقيق والولاية لله ، وهو فى الحقيقة غاية الإلحاد فى أسماء الله وآياته ، وغاية العداوة لله ، فإن صاحب هذا المشهد يتخذ اليهود والنصارى وسائر الكفّار أولياء ، وقد قال تعالى : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ ، ولا يتبرأ من الشرك والأوثان ، فيخرج عن ملة إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ، قال الله تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ ، وقال الخليل عليه السلام لقومه المشركين : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، وهؤلاء قد صنف بعضهم كتباً وقصائد على مذهبه ، مثل قصيدة ابن الفارض المسماة بنظم السلوك يقول فيها :

لها صلواتى بالمقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لى صلت
كلانا مصل واحد ساجد إلى ... حقيقته بالجمع فى كل سجدة
وما كان لى صلى سواى ولم تكن ... صلاتى لغيرى فى أداكلّ ركعة

إلى أن قال :

وما زلت إياها وإياى لم تزل — ولا فرق بل[1] ذاتى لذاتى صلت
إلىَّ رسولا كنت منى مرسلا — وذاتى بآياتى علىّ استدلت
فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن — منادى أجابت من دعانى ولبت

إلى أمثال هذا الكلام ، ولهذا كان هذا القائل عند الموت ينشد ويقول :

إن كان منزلتى فى الحب عندكم — ما قد لقيت فقد ضيعت أيامى
أمنية ظفرت نفسى بها زمنا — واليوم أحسبها أضغاث أحلام

فإنه كان يظن أنه هو الله ، فلما حضرت ملائكة الله لقبض روحه تبين له بطلان ما كان يظنه ، قال الله تعالى : ﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ ، فجميع ما فى السموات والأرض يسبح لله ، ليس هو الله ، ثم قال تعالى : ﴿ له ملك السموات والأرض ، يحيى ويميت ، وهو على كل شئ قدير ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم ﴾ .

وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ ، أنه كان يقول فى دعائه : (اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شئ فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شئ ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ ، وأنت الظاهر فليس فوقك شئ ، وأنت الباطن فليس دونك شئ ، اقض عنى الدين واغننى من الفقر ، ثم قال : ﴿ هو الذى خلق

---

(١) فى النسخ المطبوعة (ولا فرق بين ذاتى لذات) .

السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ ، فذكر أن السموات والأرض ، وفى موضع آخر (وما بينهما) مخلوق مسبح له ، وأخبر سبحانه أنه يعلم كل شئ .

وأما قوله : ﴿ وهو معكم ﴾ ، فلفظ (مع) لا تقتضى فى لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطاً بالآخر ، كقوله تعالى : ﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفّار ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾ ، ولفظ (مع) جاءت فى القرآن عامة وخاصة ، فالعامة فى هذه الآية وفى آية المجادلة ، ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شئ عليم ﴾ ، فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم ، ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان الثورى وأحمد بن حنبل هو معهم بعلمه .

وأما المعية الخاصة ففى قوله تعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ ، وقوله تعالى لموسى : ﴿ إننى معكما أسمع وأرى ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ ، يعنى النبى ﷺ وأبا بكر رضى الله عنه ، فهو مع موسى وهارون دون فرعون ، ومع محمد وصاحبه دون أبى جهل وغيره من أعدائه ، ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين .

فلو كان معنى المعية أنه بذاته فى كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام ، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك ، وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ﴾ أى هو إله من فى السموات وإله من فى الأرض ، كما قال الله تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض ﴾ ، كما فسره أئمة العلم كالإمام أحمد وغيره أنه المعبود فى السموات والأرض .

وأجمع سلف الأمة وأئمتها على أن الرب تعالى باين من مخلوقاته ، يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ، ويعلم أنه ليس كمثله شئ ، ولا كفوله فى شئ من صفات الكمال ، كما قال الله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ، قال ابن عباس : الصمد العليم الذى كمل فى عمله ، العظيم الذى كمل فى عظمته ، القدير الكامل فى قدرته ، الحكيم الكامل فى حكمته ، السيد الكامل فى سؤدده .

وقال ابن مسعود وغيره : هو الذى لا جوف له ، والأحد الذى لا نظير له ، فاسمه (الصمد) يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفى النقائص عنه ، واسمه (الأحد) يتضمن اتصافه أنه لا مثل له . وقد بسطنا الكلام على ذلك فى تفسير هذه السورة وفى كونها تعدل ثلث القرآن .

فصـــل

وكثير من الناس تشتبه عليهم الحقائق الأمرية الدينية الإيمانية بالحقائق الخلقية القدرية الكونية ، فإن الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر كما قال تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ﴾ فهو سبحانه خالق كل شئ وربه ومليكه ، لا خالق غيره ، ولا رب سواه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فكل ما فى الوجود من حركة وسكون فبقضائه وقدره ومشيئته وقدرته وخلقه ، وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسله ، ونهى عن معصيته ومعصية رسله ، أمر بالتوحيد والإخلاص ، ونهى عن الإشراك بالله ، فأعظم الحسنات التوحيد ، وأعظم السيئات الشرك ، قال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تقتل ولدك مخافة أن يُطعم معك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تزنى بحليلة جارك . فأنزل الله تصديق ذلك ﴿ والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن

وعمل عملاً صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

وأمر سبحانه بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وأخبر أنه يحب المتقين ، ويحب المحسنين ، ويحب المقسطين ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، وهو يكره ما نهى عنه ، كما قال فى سورة الإسراء : ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾ ، وقد نهى عن الشرك وعقوق الوالدين ، وأمر بإيتاء ذى القربى الحقوق ، ونهى عن التبذير ، وعن التقتير ، وأن يجعل يده مغلولة إلى عنقه ، وأن يبسطها كل البسط ، ونهى عن قتل النفس بغير الحق ، وعن الزنا وعن قربان مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، إلى أن قال : ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾ وهو سبحانه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ، والعبد مأمور أن يتوب إلى الله تعالى دائماً ، قال الله تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ .

وفى صحيح البخارى عن النبى ﷺ أنه قال : « أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فوالذى نفسى بيده إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » ، وفى صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال : « إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » ، وفى السنن عن ابن عمر قال : كنا نعد لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد يقول : « رب اغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة » ، أو قال : (أكثر من مائة مرة) .

وقد أمر الله سبحانه أن يختموا الأعمال الصالحات بالاستغفار فكان

النبى ﷺ[1] إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثاً ويقول : (اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام) ، كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح عنه ، وقد قال تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ ، فأمرهم أن يقوموا بالليل ويستغفروا بالأسحار ، وكذلك ختم سورة المزمل وهى سورة قيام الليل ، بقوله تعالى : ﴿ واستغفروا الله ان الله غفور رحيم ﴾ ، وكذلك قال فى الحج : ﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم ﴾ ، بل أنزل سبحانه وتعالى فى آخر الأمر لما غزا النبى ﷺ غزوة تبوك وهى آخر غزواته ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ ، وهى من آخر ما نزل من القرآن ، وقد قيل : إن آخر سورة نزلت قوله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً . فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان تواباً ﴾ ، فأمره الله تعالى أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار .

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ كان يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى - يتأول القرآن) .

---

(١) أخرجه مسلم عن ثوبان .

وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه كان يقول : (اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى هزلى وجدى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت لا إله إلا أنت) ، وفى الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ، قال : قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم .

وفى السنن عن أبى بكر رضى الله عنه قال : يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به إذا أصبحت وإذا أمسيت ، فقال : قل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، رب كل شئ ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجرّه إلى مسلم) قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك .

فليس لأحد أن يظن استغناءه عن التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب ، بل كل أحد محتاج إلى ذلك دائماً ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ، ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ ، فالإنسان ظالم جاهل وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة ، وقد أخبر الله تعالى فى كتابه بتوبة عباده الصالحين ومغفرته لهم .

وثبت فى الصحيح[1] عن النبى ﷺ أنه قال : لن يدخل الجنة أحد

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل ، وهذا لا ينافى قوله ﴿ كلوا وأشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ فإن الرسول نفى باء المقابلة والمعادلة ، والقرآن أثبت باء السبب .

وقول من قال : إذا أحب الله عبداً لم تضره الذنوب ، معناه أنه إذا أحب عبداً ألهمه التوبة والاستغفار فلم يصر على الذنوب ، ومن ظن أن الذنوب لا تضر من أصر عليها فهو ضال مخالف للكتاب والسنّة ، وإجماع السلف والأئمة ، بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

وإنما عباده الممدوحون المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أُعِدَّتْ للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ .

ومن ظن أن القدر حجة لأهل الذنوب فهو من جنس المشركين الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمنا من دونِه من شئ ﴾ ، قال الله تعالى رداً عليهم : ﴿ كذلك كَذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ، قل فلّله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

ولو كان القدر حجة لأحد لم يعذب الله المكذبين للرسل كقوم نوح

وعاد وثمود والمؤتفكات ، وقوم فرعون ، ولم يأمر بإقامة الحدود على المعتدين ، ولا يحتج أحد بالقدر إلا إذا كان متبعاً لهواه بغير هدى من الله ، ومن رأى القدر حجة لأهل الذنوب يرفع عنهم الذم والعقاب فعليه أن لا يذم أحداً ولا يعاقبه إذا اعتدى عليه ، بل يستوى عنده ما يوجب اللذة وما يوجب الألم ، فلا يفرق بين من يفعل معه خيراً وبين من يفعل شراً ، وهذا ممتنع طبعاً وعقلاً وشرعاً ، وقد قال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ وقال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ﴾ أى مهملاً لا يؤمر ولا ينهى .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « احتج آدم وموسى ، قال موسى يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته ، أخرجتنا ونفسك من الجنة ، فقال له آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه ، وكتب له التوراة بيده ، فبكم وجدت مكتوباً علىَّ قبل أن أخلق (وعصى آدم ربه فغوى) ؟ قال بأربعين سنة ، قال فلم تلومنى على أمر قدره الله علىَّ قبل أن أخلق بأربعين سنة ؟ قال : فحج آدم موسى » أى غلبه بالحجة .

وهذا الحديث ضلت فيه طائفتان : طائفة كَذَّبت به لما ظنوا أنه يقتضى رفع الذم والعقاب عمن عصى الله لأجل القدر ، وطائفة شر من هؤلاء جعلوه حجة ، وقد يقولون القدر حجة لأهل الحقيقة الذين شهدوه

أو الذين لا يرون أن لهم فعلا ، ومن الناس من قال إنما حج آدم موسى لأنه أبوه ، أو لأنه كان قد تاب ، أو لأن الذنب كان فى شريعة واللوم فى أخرى ، أو لأن هذا يكون فى الدنيا دون الأخرى ، وكل هذا باطل .

ولكن وجه الحديث أن موسى عليه السلام لم يلم أباه إلا لأجل المصيبة التى لحقتهم من أجل أكله من الشجرة ، فقال له : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ لم يلمه لمجرد كونه أذنب ذنباً وتاب منه ، فإن موسى يعلم أن التائب من الذنب لا يلام وهو قد تاب منه أيضاً ، لو كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ، والمؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلم ، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب ، قال الله تعالى : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك ﴾ ، فأمره بالصبر على المصائب ، والاستغفار من المعائب .

وقال تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ ، قال ابن مسعود : هو الرجل تصيبه المصيبة يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، فالمؤمنون إذا أصابتهم مصيبة مثل المرض والفقر والذل ، صبروا لحكم الله ، وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم ، كمن أنفق أبوه ماله فى المعاصى فافتقر أولاده لذلك فعليهم أن يصبروا لما أصابهم ، وإذا لاموا الأب لحظوظهم ذكر لهم القدر .

والصبر واجب باتفاق العلماء ، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله ، والرضا قد قيل انه واجب ، وقيل هو مستحب ، وهو الصحيح ، وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها ، حيث جعلها سبباً لتكفير خطاياه ، ورفع درجاته وإنابته إلى الله وتضرعه إليه ، وإخلاصه

له فى التوكل عليه ، ورجائه دون المخلوقين ، وأما أهل البغى والضلال فتجدهم يحتجون بالقدر إذا أذنبوا واتبعوا أهواءهم ، ويضيفون الحسنات إلى أنفسهم إذا أنعم عليهم بها ، كما قال بعض العلماء أنت عند الطاعة قدرى ، وعند المعصية جبرى ، أى مذهب وافق هواك تمذهبت به .

وأهل الهدى والرشاد إذا فعلوا حسنة شهدوا إنعام الله عليهم بها ، وأنه هو الذى أنعم عليهم وجعلهم مسلمين ، وجعلهم يقيمون الصلاة وألهمهم التقوى ، وأنه لا حول ولا قوة إلا به ، فزال عنهم بشهود القدر العجب والمن والأذى ، وإذا فعلوا سيئة استغفروا الله وتابوا إليه منها ففى صحيح البخارى عن شداد بن أوس ، قال : قال رسول الله ﷺ ، « سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ، من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات ، من ليلته دخل الجنة .

وفى الحديث الصحيح(1) عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى ، أنه قال : يا عبادى إنى حرمتُ الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أبالى ، فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى كلكم ضال

---

(1) المراد صحيح مسلم ، وقد رواه أيضاً أبو عوانة وابن حبان والحاكم .

إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط غمسة واحدة ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه .

فأمر سبحانه بحمد الله على ما يجده العبد من خير ، وأنه إذا وجد شراً فلا يلومن إلا نفسه .

وكثير من الناس يتكلم بلسان الحقيقة ، ولا يفرق بين الحقيقة الكونية القدرية المتعلقة بخلقه ومشيئته ، وبين الحقيقة الدينية الأمرية المتعلقة برضاه ومحبته ، ولا يفرق بين من يقوم بالحقيقة الدينية موافقاً لما أمر الله به على ألسن رسله ، وبين من يقوم بوجده وذوقه غير معتبر ذلك بالكتاب والسنّة ، كما أن لفظ الشريعة يتكلم به كثير من الناس ، ولا يفرق بين الشرع المنزل من عند الله تعالى ، وهو الكتاب والسنّة الذى بعث الله به رسوله ، فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق الخروج عنه ، ولا يخرج عنه إلا كافر ، وبين الشرع الذى هو حكم الحاكم ، فالحاكم تارة يصيب وتارة يخطئ ، هذا إذا كان عالماً عادلاً ، وإلا ففى السنن عن النبى ﷺ ، أنه قال : « القضاة ثلاثة ، قاضيان فى النار وقاض فى الجنة : رجل علم الحق

وقضى به ، فهو فى الجنة ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار ، ورجل علم الحق فقضى بغيره فهو فى النار » .

وأفضل القضاة العالمين العادلين سيد ولد آدم محمد ﷺ ، فقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : إنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار ، فقد أخبر سيد الخلق أنه إذا قضى بشئ مما سمعه ، وكان فى الباطن بخلاف ذلك لم يجز للمقضى له أن يأخذ ما قضى به له ، وأنه إنما يقطع له به قطعة من النار .

وهذا متفق عليه بين العلماء فى الأملاك المطلقة إذا حكم الحاكم بما ظنه حجة شرعية ، كالبينة والإقرار ، وكان الباطن بخلاف الظاهر لم يجز للمقضى له أن يأخذ ما قضى به له بالاتفاق ، وإن حكم فى العقود والفسوخ بمثل ذلك فأكثر العلماء يقول إن الأمر كذلك وهو مذهب مالك والشافعى وأحمد بن حنبل ، وفرق أبو حنيفة رضى الله عنه بين النوعين .

فلفظ الشرع والشريعة إذا أريد به الكتاب والسنّة لم يكن لأحد من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه ، ومن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقاً إلى الله غير متابعة محمد ﷺ باطناً وظاهراً فمن لم يتابعه باطناً وظاهراً فهو كافر ، ومن احتج فى ذلك بقصة موسى مع الخضر كان غالطاً من وجهين (احدهما) أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ، ولا كان على الخضر اتباعه ، فإن موسى كان مبعوثاً إلى بنى إسرائيل ، وأما محمد ﷺ فرسالته عامة لجميع الثقلين ، الجن والإنس ، ولو أدركه من هو أفضل من الخضر كإبراهيم وموسى وعيسى ، وجب عليهم اتباعه ، فكيف بالخضر سواء كان

نبياً أو ولياً ولهذا قال الخضر لموسى[1] (أنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه) ، وليس لأحد من الثقلين الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ أن يقول مثل هذا (الثانى) ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشريعة موسى عليه السلام ، وموسى لم يكن علم الأسباب التى تبيح ذلك ، فلما بيّنها له وافقه على ذلك ، فإنّ خَرْقَ السفينة ثم ترقيعها لمصلحة أهلها خوفاً من الظالم أن يأخذها إحسان إليهم وذلك جائز ، وقتل الصائل جائز وان كان صغيراً ، ومن كان تكفيره لأبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتله .

قال ابن عباس رضى الله عنهما لنجدة الحرورى لما سأله عن قتل الغلمان قال له : إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا تقتلهم ، رواه البخارى . وأما الإحسان إلى اليتيم بلا عوض والصبر على الجوع ، فهذا من صالح الأعمال ، فلم يكن فى ذلك شئ مخالفاً شرع الله .

وأما إذا أريد بالشرع حكم الحاكم ، فقد يكون ظالماً وقد يكون عادلاً وقد يكون صواباً وقد يكون خطأ ، وقد يراد بالشرع قول أئمة الفقه كأبى حنيفة والثورى ومالك بن أنس والأوزاعى والليث بن سعد والشافعى وأحمد وإسحق وداود وغيرهم ، فهؤلاء أقوالهم يحتج لها بالكتاب والسنة ، وإذا قلد غيره حيث يجوز ذلك كان جائزاً أى ليس اتباع أحدهم واجباً على جميع الأمة كاتباع الرسول ﷺ ، ولا يحرم تقليد أحدهم ، كما يحرم اتباع من يتكلم بغير علم .

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذى .

وأما إن أضاف أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة أو تأول النصوص بخلاف مراد الله ونحو ذلك فهذا من نوع التبديل فيجب الفرق بين الشرع المنزل ، والشرع المؤول ، والشرع المبدل ، كما يفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية الأمرية ، وبين ما يستدل عليها بالكتاب والسنة وبين ما يكتفى فيها بذوق صاحبها ووجده .

فصـــل

وقد ذكر الله فى كتابه الفرق بين الإرادة والأمر والقضاء والإذن والتحريم والبعث والإرسال والكلام والجعل ، بين الكونى الذى خلقه وقدره وقضاه ، وإن كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثيب أصحابه ، ولا يجعلهم من أوليائه المتقين ، وبين الدينى الذى أمر به وشرعه وأثاب فاعليه وأكرمهم ، وجعلهم من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين ، وهذا من أعظم الفروق التى يفرق بها بين أولياء الله وأعدائه ، فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من أوليائه ، ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من أعدائه .

فالإرادة الكونية هى مشيئته لما خلقه ، وجميع المخلوقات داخلة فى مشيئته وإرادته الكونية ، والإرادة الدينية هى المتضمنة لمحبته ورضاه ، المتناولة لما أمر به وجعله شرعاً وديناً . وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح ، قال الله تعالى (فى الأولى) :[1] ﴿ فمن يُرِد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يَصَّعَد فى السماء ﴾ ، وقال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ ، وقال تعالى فى الثانية : ﴿ ومن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر ، يريد الله

(١) من نسخة قولة .

بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ، وقال فى آية الطهارة : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نِعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ ، ولما ذكر ما أحله وما حرمه من النكاح ، قال : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سُنَنَ الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ ، وقال لما ذكر ما أمر به أزواج النبى ﷺ وما نهاهن عنه : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ ، والمعنى أنه أمركم بما يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، فمن أطاع أمره كان مطهراً قد أذهب عنه الرجس بخلاف من عصاه .

وأما الأمر ، فقال فى الأمر الكونى : ﴿ إنما أمرنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ وقال تعالى : ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴾ . وأما الأمر الدينى ، فقال تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمَّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ .

وأما الإذن فقال فى الكونى لما ذكر السحر : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ أى بمشيئته وقدرته وإلا فالسحر لم يبحه الله عز وجل ، وقال فى الإذن الدينى : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً

إلى الله بإذنه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ .

وأما القضاء فقال فى الكونى : ﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ، وقال فى الدينى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ أى أمر ، وليس المراد به قدر ذلك ، فإنه قد عبد غيره ، كما أخبر فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ ، وقول الخليل عليه السلام لقومه : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلّا رب العالمين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين ﴾ ، وهذه كلمة تقتضى براءته من دينهم ولا تقتضى رضاه بذلك ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ فإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون ﴾ .

ومن ظن من الملاحدة أن هذا رضا منه بدين الكفار فهو من أكذب الناس أوكفرهم ، كمن ظن أن قوله ﴿ وقضى ربك ﴾ بمعنى قدر وأن الله سبحانه ما قضى بشئ إلا وقع ، وجعل عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله ، فإن هذا من أعظم الناس كفراً بالكتب .

وأما لفظ البعث ، فقال تعالى فى البعث الكونى : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ﴾ ، وقال فى البعث الدينى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

وأما لفظ الإرسال ، فقال فى الإرسال الكونى : ﴿ ألم تر أنَّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ﴾ ، وقال فى الدينى : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم ، كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ ، وأما لفظ الجعل ، فقال فى الكونى : ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ ، وقال فى الدينى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾

وأما لفظ التحريم ، فقال فى الكونى : ﴿ وَحَرَّمَنا عليه المراضع من قبل ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ﴾ ، وقال فى الدينى : ﴿ حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾ الآية . وأما لفظ الكلمات ، فقال فى الكلمات الكونية : ﴿ وَصَدَّقَتْ بكلمات ربها وكتبه ﴾ .

وثبت فى الصحيح[1] عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « أعوذ بكلمات الله التامة كلها من شر ما خلق ، ومن غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » ، وقال ﷺ : « من نزل منزلاً ، فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شئ حتى يرتحل من منزله ذلك » ، وكان يقول : « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ومن شر ما ذرأ فى الأرض ومن شر ما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن » .

وكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر هى التى كوّن بها الكائنات ، فلا يخرج بر ولا فاجر عن تكوينه ومشيئته وقدرته . وأما كلماته الدينية ، وهى كتبه المنزلة وما فيه من أمره ونهيه ، فأطاعها الأبرار وعصاها الفجار .

وأولياء الله المتقون هم المطيعون لكلماته الدينية وجعله الدينى وإذنه الدينى وإرادته الدينية .

---

(١) أخرج الموطأ عن يحيى بن سعيد قال : بلغنى أن خالد بن الوليد قال لرسول الله ﷺ أنى أروع فى منامى ، فقال له رسول الله ﷺ قل أعوذ بكلمات الله التامة ، من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون . وأخرج مسلم عن خولة بنت حكيم قالت : قال رسول الله ﷺ : « من نزل منزلا » الحديث ، وروى الطبرانى عن خالد بن الوليد أنه شكا إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إنى أجد فزعاً فى الليل فقال : ألا أعلمك كلمات علمنيهن جبرائيل عليه السلام ، وزعم أن عفريتاً من الليل يكيدنى فقال : أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ فى الأرض وما يخرج منها ومن شر فتن الليل وفتن النهار ومن شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن .

وأما كلماته الكونية التى لا يجاوزها بر ولا فاجر ، فإنه يدخل تحتها جميع الخلق ، حتى إبليس وجنوده وجميع الكفار وسائر من يدخل النار ، فالخلق وإن اجتمعوا فى شمول الخلق والمشيئة والقدرة والقدر لهم ، فقد افترقوا فَى الأمر والنهى والمحبة والرضا والغضب .

وأولياء الله المتقون هم الذين فعلوا المأمور ، وتركوا المحظور وصبروا على المقدور ، فأحبهم وأحبوه ، ورضى عنهم ورضوا عنه . وأعداؤه أولياء الشياطين وإن كانوا تحت قدرته فهو يبغضهم ، ويغضب عليهم ويلعنهم ويعاديهم .

وبسط هذه الجمل له موضع آخر ، وإنما كتبت هنا تنبيهاً على مجامع الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وجمع الفرق بينهما باعتبارهم أولياءه السعداء ، وأعداءه الأشقياء ، وبين أوليائه أهل الجنة ، وأعدائه أهل النار ، وبين أوليائه أهل الهدى والرشاد ، وبين أعدائه أهل الغى والضلال والفساد ، وأعدائه حزب الشيطان ، وأوليائه الذين كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، قال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان ﴾ ، وقال فى أعدائه : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ ، وقال : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ ، وقال : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما

لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين . ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين . وإنه لتذكرة للمتقين ، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ ، إلى قوله : ﴿ إن كانوا صادقين ﴾ .

فنزه سبحانه وتعالى نبينا محمداً ﷺ عمن تقترن به الشياطين من الكهان والشعراء والمجانين ، وبيّن أن الذى جاءه بالقرآن ملك كريم اصطفاه ، قال الله تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وبشرى للمسلمين ﴾ ، فسماه الروح الأمين ، وسماه روح القدس ، وقال تعالى :﴿ فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ﴾ ، يعنى الكواكب التى تكون فى السماء خانسة أى مختفية قبل طلوعها ، فإذا ظهرت رآها الناس جارية فى السماء ، فإذا غربت ذهبت إلى كناسها الذى يحجبها ، ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ أى إذا أدبر ، وأقبل الصبح ، ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ أى أقبل ، ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ وهو جبريل عليه السلام ، ﴿ ذى قوة

عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾ أى مطاع فى السماء أمين ، ثم قال : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ أى صاحبكم الذى منّ الله عليكم به إذ بعثه إليكم رسولاً من جنسكم يصحبكم إذ كنتم لا تطيقون أن تروا الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ، ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ أى رأى جبريل عليه السلام ، ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ أى بمتهم ، وفى القراءة الأخرى (بضنين) أى ببخيل يكتم العلم ولا يبذله إلا بجعل ، كما يفعل من يكتم العلم إلا بالعوض ، ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ ، فنزه جبرائيل عليه السلام عن أن يكون شيطاناً ، كما نزه محمداً ﷺ عن أن يكون شاعراً أو كاهناً .

فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ فيفعلون ما أمر به وينتهون عما عنه زجر ، ويقتدون به فيما بيّن لهم أن يتبعوه فيه فيؤيدهم بملائكته وروح منه ، ويقذف الله فى قلوبهم من أنواره ، ولهم الكرامات التى يكرم الله بها أولياءه المتقين وخيار أولياء الله كراماتهم لحجة[1] فى الدين أو لحاجة بالمسلمين ، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك .

وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله ﷺ فهى فى الحقيقة تدخل فى معجزات الرسول ﷺ مثل انشقاق[2] القمر وتسبيح[3]

---

(١) فى النسخ المطبوعة (كراماتهم الحجة فى الدين أو الحاجة بالمسلمين) ، وقد صححناها من المخطوطتين .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس بن مالك .

(٣) رواه البزار عن أبى ذر .

الحصا فى كفه، وإتيان الشجر[1] إليه، وحنين[2] الجذع إليه، وإخباره ليلة[3] المعراج بصفة بيت المقدس وإخباره بما كان[4] وما يكون، وإتيانه بالكتاب العزيز ، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة ، كما أشبع فى الخندق[5] العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص ، فى حديث أم سلمة المشهور وروى العسكر فى غزوة[6] خيبر من مزادة ماء ولم تنقص ، وملأ أوعية العسكر عام[7] تبوك من طعام قليل ولم ينقص ، وهم ثلاثون ألفاً ، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه ، كما كانوا فى[8] غزوة الحديبية ، نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة وردِّه لعين قتادة[9] حين سالت على خده فرجعت أحسن عينيه ، ولما أرسل محمد بن مسلمة[10] لقتل كعب ابن الأشرف فوقع وانكسرت رجله فمسحها فبرئت ، وأطعم[11] من

---

(١) رواه مسلم عن جابر .

(٢) فى الصحيحين عن جابر .

(٣) فى الصحيحين والترمذى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر ، فجلى الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » .

(١) أخرج مسلم من حديث له عن عمر بن الخطاب « فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة فأعلمنا أحفظنا » ، ويشبهه فى المعنى ما رواه الشيخان وأبو داود عن حذيفة .

(٢) فى الصحيحين عن جابر .

(٣) فى الصحيحين عن جابر .

(٤) فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أو عن أبى سعيد شك الأعمش .

(٥) البخارى عن جابر .

قتادة وحديثه رواه الطبرانى وأبو يعلى عن قتادة بن النعمان .

(٦) فى النسخة المطبوعة بمطبعة الإمام بالدمالشة (أبى قتادة) والصواب بل الذى أصيب الحارث بن أوس بن معاذ جرح فى رجله أو فى رأسه حتى نزف الدم ، فتفل ﷺ على جرحه فلم يؤذه بعد . كما فى مغازى الواقدى ، وعيون الأثر عن ابن إسحق .

(١٠) لم أجد أحداً صرح بأن محمد بن مسلمة أصيب ليلة قتل كعب بن الأشرف .

(١١) فى الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق .

شواء مائة وثلاثين رجلاً كلا منهم حز له قطعة وجعل منها قطعتين فأكلوا منها جميعهم ثم فضل فضلة ، ودين[1] عبد الله أبى جابر لليهود وهو ثلاثون وسقا . قال جابر : فأمر صاحب الدين أن يأخذ التمر جميعه بالذى كان له فلم يقبل ، فمشى فيها رسول الله ﷺ ، ثم قال لجابر : جد له ، فوفاه الثلاثين وسقا وفضل سبعة عشر وسقا ، ومثل هذا كثير قد جمعت نحو ألف معجزة .

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً مثل ما كان أسيد بن حضير يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة[2] فيها أمثال السرج ، وهى الملائكة نزلت لقراءته ، وكانت الملائكة[3] تسلم على عمر بن حصين ، وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان فى صحفة فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها . وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط ، فلما افترقا افترق الضوء معهما . رواه البخارى وغيره .

وقصة الصديق فى الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا ربى من أسفلها أكثر منها فشبعوا وصارت أكثر مما هى قبل ذلك ، فنظر إليها أبو بكر وامرأته ، فإذا هى أكثر مما كانت فرفعها إلى رسول الله ﷺ ، وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا .

---

(١) أخرجه البخارى فى باب إذا قضى دون حقه أو حلله .

(٢) نزول الظلة والسرج ، كان عند قراءته سورة البقرة ، كما أخرجه البخارى عن أسيد . أما ما حدث له عند قراءة الكهف ، فقد ورد بلفظ (تغشته سحابة) .

(٣) فى الاستيعاب والإصابة عن أهل البصرة ...

وخبيب[١] بن عدى كان أسيراً عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة .

وعامر[٢] بن فهيرة قتل شهيداً فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه ، وكان لما قتل رفع فرآه ابن الطفيل وقد رفع ، وقال عروة : فيرون أن الملائكة رفعته .

وخرجت أم أيمن[٣] مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء ، فكادت تموت من العطش ، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حساً على رأسها فرفعته فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها .

وسفينة مولى[٤] رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رسول رسول الله ﷺ ، فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده .

والبراء[٥] بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه ، وكان الحرب إذا اشتد على المسلمين فى الجهاد يقولون يا براء اقسم على ربك ، فيقول : يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم ، فيهزم العدو فلما كان يوم القادسية ، قال : أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم ، وجعلتنى أول شهيد ، فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيداً .

وخالد بن الوليد حاصر حصناً منيعاً ، فقالوا . لا نسلم حتى تشرب السم ، فشربه فلم يضره .

---

(١) رواه البخارى فى المغازى .
(٢) أخرجه ابن اسحق فى مغازيه وهو فى عيون الأثر ، ومغازى الواقدى .
(٣) أخرجه ابن سعد وابن السكن .
(٤) أخرجه البزار والطبرانى .
(٥) روى الترمذى أنه ممن لو أقسم على الله لأبره .

وسعد بن أبى وقاص[1] كان مستجاب الدعوة ، ما دعا قط إلا استجيب له وهو الذى هزم جنود كسرى وفتح العراق .

وعمر بن الخطاب[2] لما أرسل جيشاً أمّر عليهم رجلاً يسمى سارية فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر ، يا سارية الجبل يا سارية الجبل فقدم رسول الجيش ، فسأله فقال : يا أمير المؤمنين لقينا عدواً فهزمونا ، فإذا بصائح : يا سارية الجبل يا سارية الجبل فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله .

ولما عذبت[3] الزنيرة على الإسلام فى الله ، فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها ، قال المشركون : أصاب بصرها اللات والعزى ، قالت : كلا والله فرد الله عليها بصرها .

ودعا سعيد بن زيد على أروى (بنت الحكم فأعمى بصرها[4]) ، لما كذبت عليه ، فقال : اللهم إن كانت كاذبة فاعم بصرها واقتلها فى أرضها ، فعميت ووقعت فى حفرة من أرضها فماتت .

والعلاء بن الحضرمى كان عامل رسول الله ﷺ على البحرين .

---

(١) روى الترمذى أن النبى ﷺ قال : « اللهم استجب لسعد إذا دعاك » .

(٢) أخرجه الواقدى والبيهقى فى الدلائل ، وابن الأعرابى فى كرامات الأولياء ، قال ابن حجر فى الإصابة إسناده حسن .

(٣) فى النسخ المطبوعة الزبيرة بالباء ، وصوابها زنيره بكسر الزاى وتشديد النون المكسورة ، وقصتها أخرجها ابن مندة وابن أبى شيبة .

(٤) لا يوجد ما بين ( ) فى نسخة قولة ، وهو أوفق لأن أروى بنت أويس لا بنت الحكم ، فلابد من أن يكون هنا سقط والتقدير ، ودعا سعيد بن زيد على أروى بنت (أويس لما خاصمته عند مروان بن) الحكم فأعمى بصرها الخ . والقصة أخرجها مسلم .

وكان يقول فى دعائه : يا عليم يا حليم يا على يا عظيم ، فيستجاب له ، ودعا الله بأن يسقوا ويتوضأوا لما عدموا الماء والإسقاء لما بعدهم فأجيب ، ودعا الله لما[1] اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم ، فمروا كلهم على الماء وما ابتلت سروج خيولهم ، ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات ، فلم يجدوه فى اللحد ، وجرى مثل ذلك لأبى مسلم الخولانى الذى ألقى فى النار ، فإنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهى ترمى بالخشب من مدها[2] ثم التفت إلى أصحابه فقال : تفقدون من متاعكم شيئاً حتى أدعو الله عز وجل فيه ؟ فقال بعضهم : فقدت مخلاة ، فقال اتبعنى : فتبعه ، فوجدها قد تعلقت بشئ فأخذها ، وطلبه الأسود[3] العنسى لما ادعى النبوة فقال له : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال ما أسمع ، قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال نعم ، فأمر بنار فألقى فيها ، فوجدوه قائماً يصلى فيها ، وقد صارت عليه برداً وسلاماً . وقدم المدينة بعد موت النبى ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله . ووضعت له جاريته السم فى طعامه فلم يضره . وخببت امرأة عليه زوجته فدعا عليها فعميت ، وجاءت وتابت فدعا لها فرد الله عليها بصرها .

وكان عامر بن عبد قيس يأخذ عطاءه ألفى درهم فى كمه وما يلقاه سائل فى طريقه إلا أعطاه بغير عدد ، ثم يجئ إلى بيته فلا يتغير عددها ولا وزنها . ومر بقافلة قد حبسهم الأسد فجاء حتى مس بثيابه الأسد ، ثم

---

(١) رواه الطبرانى فى الثلاثة .

(٢) لعلها (من مدنها) .

(٣) أخرجه بسنده ابن عبد البر فى الاستيعاب .

وضع رجله على عنقه وقال : إنما أنت كلب من كلاب الرحمن ، وإنى أستحى من الله أن أخاف شيئاً غيره ، ومرت القافلة ، ودعا الله تعالى أن يهون عليه الظهور فى الشتاء ، فكان يؤتى بالماء له بخار ، ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو فى الصلاة فلم يقدر عليه .

وتغيب الحسن[1] البصرى عن الحجاج ، فدخلوا عليه ست مرات ، فدعا الله عز وجل فلم يروه ، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيهم فخر ميتاً .

وصلة[2] بن أشيم مات فرسه وهو فى الغزو ، فقال : اللهم لا تجعل لمخلوق علىّ منة ، ودعا الله عز وجل فأحيا له فرسه ، فلما وصل إلى بيته ، قال يا بنى خذ سرج الفرس فإنه عارية ، فأخذ سرجه فمات الفرس . وجاع مرة بالأهواز ، فدعا الله عز وجل واستطعمه ، فوقعت خلفه دوخلة رطب فى ثوب حرير فأكل التمر وبقى الثوب عند زوجته زمانا . وجاءه الأسد وهو يصلى فى غيضة بالليل ، فلما سلم ، قال له : اطلب الرزق من غير هذا الموضع ، فولى الأسد وله زئير .

وكان سعيد[3] بن المسيب فى أيام الحرة يسمع[4] الأذان من قبر رسول الله ﷺ أوقات الصلوات ، وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيره .

ورجل من النجع كان له حمار فمات فى الطريق ، فقال له أصحابه :

---

(١) تابعى جليل ، توفى سنة ١١٠ ، أما الحجاج فوفاته سنة ٩٥ .
(٢) أشيم بوزن أحمد تابعى ، وقيل صحابى قتل فى العراق أول ولاية الحجاج سنة ٧٥ .
(٣) من خيار التابعين ، توفى سنة ٩٤ .
(٤) أخرجه الزبير بن بكار ، وفى مسند الدارمى ما يشبهه .

هلم نتوزع متاعك على رحالنا ، فقال لهم : أمهلونى هنيهة ، ثم توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ودعا الله تعالى فأحيا له حماره فحمل عليه متاعه .

ولما مات أويس[1] القرنى وجدوا فى ثيابه أكفاناً لم تكن معه قبل ، ووجدوا له قبراً محفوراً فيه لحد فى صخرة ، فدفنوه فيه وكفنوه فى تلك الأثواب .

وكان عمرو بن عقبة بن فرقد يصلى يوماً فى شدة الحر ، فأظلته غمامة وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه ، لأنه كان يشترط على أصحابه فى الغزو أنه يخدمهم .

وكان مطرف[2] بن عبد الله بن الشخير إذا دخل بيته سبحت معه آنيته ، وكان هو وصاحب له يسيران فى ظلمة ، فأضاء لهما طرف السَّوْط .

ولما مات الأحنف[3] بن قيس وقعت قلنسوة رجل فى قبره فأهوى ليأخذها ، فوجد القبر قد فسح فيه مد البصر .

وكان إبراهيم[4] التيمى يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئاً ، وخرج يمتار لأهله طعاماً فلم يقدر عليه ، فمر بسهلة حمراء فأخذ منها ثم رجع إلى أهله ففتحها فإذا هى حنطة حمراء ، فكان إذا زرع منها تخرج السنبلة من أصلها إلى فرعها حباً متراكباً .

---

(١) تابعى بشر الرسول به ، كما فى صحيح مسلم لقى ربه سنة ٣٧ .

(٢) فقيه عابد مات سنة ٩٥ .

(٣) تابعى اشتهر بالحلم ، مات سنة ٧٢ .

(٤) عابد مشهور قتله الحجاج سنة ٩٢ .

وكان عتبة الغلام سأل ربه ثلاث خصال صوتاً حسناً ، ودمعاً غزيراً وطعاماً من غير تكلف ، فكان إذا قرأ بكى وأبكى ، ودموعه جارية دهره وكان يأوى إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدرى من أين يأتيه .

وكان عبد الواحد[1] بن زيد أصابه الفالج ، فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الضوء ، فكان وقت الضوء تطلقه له أعضاؤه ثم تعود بعده .

وهذا باب واسع وقد بسط الكلام على كرامات الأولياء فى غير هذا الموضع .

وأما ما نعرفه نحن عياناً ونعرفه فى هذا الزمان فكثير ، ومما ينبغى أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوى إيمانه ويسد حاجته ، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك ، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته ، ولهذا كانت هذه الأمور فى التابعين أكثر منها فى الصحابة بخلاف من يجرى على يديه الخوارق ، لهدى الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة .

وهذا بخلاف الأحوال الشيطانية مثل حال[2] عبد الله بن صياد الذى ظهر فى زمن النبى ﷺ ، وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال ، وتوقف النبى ﷺ فى أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال ، لكنه كان من جنس الكهان ، قال له النبى ﷺ قد خبأت لك خبأ ، قال : الدخ الدخ . وقد كان خبأ له سورة الدخان ، فقال له النبى ﷺ :

---

(١) من الزاهدين توفى سنة ١٧٧ .

(٢) أخرج حديثه الخمسة إلا النسائى .

« اخْسَأ فلن تعدو قدرك » ، يعنى إنما أنت من إخوان الكهان ، والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع ، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب ، كما فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره أن النبى ﷺ قال : « إن الملائكة تنزل فى العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قُضِىَ فى السماء ، فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم » .

وفى الحديث الذى رواه مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : بينما النبى ﷺ فى نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال النبى ﷺ : « ما كنتم تقولون لمثل هذا فى الجاهلية إذا رأيتموه ؟ قالوا كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم ، قال رسول الله ﷺ ، فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء ، ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش ماذا قال ربنا ؟ فيخبرونهم ، ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا ، وتخطف الشياطين السمع فيرمون ، فيقذفونه إلى أوليائهم ، فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون .

وفى رواية ، قال معمر ، قلت للزهرى : أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال نعم ، ولكنها غلظت حين بعث النبى ﷺ .

والأسود العنسى الذى ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة ، فلما قاتله المسلمون ، كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره فقتلوه .

وكذلك مسيلمة الكذاب ، كان معه من الشياطين من يخبره

بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور ، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل الحراث الدمشقى الذى خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة ، وكانت الشياطين يخرجون رجليه من القيد ، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه ، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده ، وكان يرى الناس (بجبل قاسون[1]) رجالاً وركباناً على خيل فى الهواء ويقول : هى الملائكة ، وإنما كانوا جناً ، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه ، فقال له عبد الملك إنك لم تسمّ الله ، فسمى الله فطعنه فقتله .

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسى ، فإنه قد ثبت فى الصحيح[2] عن النبى ﷺ فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه لما وكله النبى ﷺ بحفظ زكاة الفطر فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة وهو يمسكه فيتوب فيطلقه ، فيقول له النبى ﷺ : « ما فعل أسيرك البارحة » ؟ فيقول : زعم أنه لا يعود ، فيقول : (كذبك وإنه سيعود) ، فلما كان فى المرة الثالثة ، قال : دعنى حتى أعلمك ما ينفعك : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ إلى آخرها ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فلما أخبر النبى ﷺ قال : (صدقك وهو كذوب) وأخبره أنه الشيطان .

ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها مثل من يدخل النار بحال شيطانى أو يحضر سماع المكاء والتصدية ، فتتنزل عليه

---

(١) الزيادة من نسخة قولة .

(٢) رواه البخارى وابن خزيمة .

الشياطين وتتكلم على لسانه كلاماً لا يعلم وربما لا يفقه ، وربما كشف بعض الحاضرين بما فى قلبه ، وربما تكلم بألسنة مختلفة ، كما يتكلم الجنى على لسان المصروع ، والإنسان الذى حصل له الحال لا يدرى بذلك بمنزلة المصروع الذى يتخبطه الشيطان من المس ولبسه وتكلم على لسانه ، فإذا أفاق لم يشعر بشئ مما قال . ولهذا قد يضرب المصروع (ضرباً كثيرا حتى قد يقتل مثله الأنسى أو يمرضه لو كان هو المضروب[1] ، وذلك الضرب لا يؤثر فى الإنسى ويخبر إذا أفاق أنه لم يشعر بشئ لأن الضرب كان على الجنى الذى لبسه .

ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون فى ذلك الموضع ، ومنهم من يطير بهم الجنى إلى مكة ، أو بيت المقدس أو غيرهما ، ومنهم من يحمله عشية عرفة ثم يعيده من ليلته فلا يحج حجاً شرعياً ، بل يذهب بثيابه ، ولا يحرم إذا حاذى الميقات ، ولا يلبى ، ولا يقف بمزدلفة ولا يطوف بالبيت ، ولا يسعى بين الصفا والمروة ، ولا يرمى الجمار ، بل يقف بعرفة بثيابه ثم يرجع من ليلته ، وهذا ليس بحج (مشروع باتفاق المسلمين ، بل يأتى الجمعة ويصلى بغير وضوء ، وإلى غير القبلة ، ومن هؤلاء المحمولين من حمل مرة إلى عرفات ورجع ، فرأى فى النوم ملائكة يكتبون الحجاج[2] ، فقال : ألا تكتبونى ؟ فقالوا : لست من الحجاج ، يعنى لم تحج حجاً شرعياً .

وبين كرامات الأولياء وما يشابهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة ، منها أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى ، والأحوال

---

(١) ما بين ( ) مزيد من الأزهرية .

(١) ما بين ( ) كان ساقطاً من النسخ المطبوعة ويوجد فى المخطوطتين .

الشيطانية سببها ما نهى الله عنه ورسوله . وقد قال تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ، فالقول على الله بغير علم ، والشرك والظلم والفواحش قد حرمها الله تعالى ورسوله ، فلا تكون سبباً لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها ، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ، بل تحصل بما يحبه الشيطان ، وبالأمور التى فيها شرك ، كالاستغاثة بالمخلوقات ، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش ، فهى من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية .

ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المكاء والتصدية يتنزل عليه شيطانه حتى يحمله فى الهواء[1] ويخرجه من تلك الدار ، فإذا حضر رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط ، كما جرى هذا لغير واحد .

ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حى أو ميت سواء كان ذلك المخلوق مسلماً أو نصرانياً أو مشركاً ، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به[2] ويقضى بعض حاجة ذلك المستغيث فيظن أنه ذلك الشخص أو هو ملك تصور على صورته وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله كما كانت الشياطين تدخل فى الأصنام وتكلم المشركين ، ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ويقول له أنا الخضر وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب ، يموت لهم الميت فيأتى الشيطان بعد

---

(١) لا يطير الجن بأحد .

(٢) وهذا لم يحدث أيضاً ، ويظهر أن الشيخ مع فرط ذكائه كان طيب القلب جداً حتى جازت عليه هذه الحيل .

موته على صورته ، وهم يعتقدون أنه ذلك الميت ، ويقضى الديون ، ويرد الودائع ، ويفعل أشياء تتعلق بالميت ، ويدخل على زوجته ، ويذهب ، وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار ، كما تصنع كفار الهند ، فيظنون أنه عاش بعد موته ، (ومن هؤلاء[٣] شيخ كان بمصر أوصى خادمه ، فقال : إذا أنا مت فلا تدع أحداً يغسلني ، فأنا أجئ وأغسل نفسى ، فلما مات ، رأى خادمه شخصاً فى صورته ، فاعتقد أنه هو دخل وغسل نفسه ، فلما قضى ذلك الداخل غسله أى غسل الميت ، غاب ، وكان ذلك شيطاناً ، وكان قد أضل الميت ، وقال : إنك بعد الموت تجئ فتغسل نفسك ، فلما مات ، جاء أيضاً فى صورته ليغوى الأحياء كما أغوى الميت قبل ذلك) ، ومنهم من يرى عرشاً فى الهواء وفوقه نور ، ويسمع من يخاطبه ، ويقول : أنا ربك فإن كان من أهل المعرفة ، علم أنه شيطان فزجره ، واستعاذ بالله منه فيزول ، ومنهم من يرى أشخاصاً فى اليقظة يدعى أحدهم أنه نبى أو صدِّيق أو شيخ من الصالحين ، وقد جرى هذا لغير واحد (وهؤلاء منهم من يرى ذلك عند قبر الذى يزوره ، فيرى القبر قد انشق وخرج إليه صورة فيعتقدها الميت وإنما هو جنى تصور بتلك الصورة ، ومنهم من يرى فارساً قد خرج من عند قبره أو دخل فى قبره ويكون ذلك شيطاناً ، وكل من قال أنه رأى نبياً بعين رأسه فما رأى إلا خيالاً[٢]) ، ومنهم من يرى فى منامه أن بعض الأكابر إما الصِّدِّيق رضى الله عنه أو غيره قد قص شعره أو حلقه أو ألبسه طاقيته أو ثوبه فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره محلوق أو مقصر ، وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصروه ، وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن

---

(١) لا يوجد ما بين العلامتين فى قولة .

(٢) مأخوذ من نسخة قولة .

الكتاب والسنة وهم درجات ، والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم وهم على مذهبهم ، والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ ، فإن كان الإنسى كافراً أو فاسقاً أو جاهلاً دخلوا معه فى الكفر والفسوق والضلال ، وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن وغيرهم، ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة، أو يقلب فاتحة الكتاب أو سورة الإخلاص أو آية الكرسى أو غيرهن ويكتبهن بنجاسة فيغورون له الماء ، وينقلونه بسبب ما يرضيهم به من الكفر ، وقد يأتونه بمن يهواه من امرأة أو صبى إما فى الهواء وإما مدفوعاً ملجأ إليه .

إلى أمثال هذه الأمور التى يطول وصفها ، والإيمان بها إيمان بالجبت والطاغوت ، والجبت السحر ، والطاغوت الشياطين والأصنام ، وإن كان الرجل مطيعاً لله ورسوله باطناً وظاهراً ، لم يمكنهم الدخول معه فى ذلك أو مسالمته .

ولهذا لما كانت عبادة المسلمين المشروعة فى المساجد التى هى بيوت الله ، كان عمار المساجد أبعد عن الأحوال الشيطانية ، وكان أهل الشرك والبدع يعظمون القبور ومشاهد الموتى فيدعون الميت أو يدعون به أو يعتقدون أن الدعاء عنده مستجاب أقرب إلى الأحوال الشيطانية ، فإنه ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وثبت فى صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس ليال إن منْ أمنّ الناس علىّ فى صحبته وذات يده أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله . لا يبقين فى المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبى بكر ، إن من كان قبلكم يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك .

وفى الصحيحين عنه أنه ذكر له فى مرضه كنيسة بأرض الحبشة ، وذكروا من حُسْنها وتصاوير فيها فقال : « إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيها تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

وفى المسند وصحيح أبى حاتم عنه ﷺ قال : « إن من شرار الخلق من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين اتخذوا القبور مساجد » .

وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » ، وفى الموطأ عنه أنه قال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وفى السنن عنه أنه قال : « لا تتخذوا قبرى عيداً وصلوا علىّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى » .

وقال ﷺ : « ما من رجل يسلم علىّ إلا رَدَّ الله علىّ روحي حتى أرد عليه السلام[1] » ، وقال ﷺ : « إن الله وكل[2] بقبرى ملائكة يبلغونني عن أمتى السلام » ، وقال ﷺ[3] : « أكثروا علىّ فى الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة فإن صلاتكم معروضة علىّ ، قالوا يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت أى يقولون بليت ؟ فقال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء » .

---

(١) أخرجه أبو داود وأحمد والبيهقى عن أبى هريرة .

(٢) توكيل ملك بالقبر رواه البزار والطبرانى فى الكبير وقد أخرجه النسائى وابن حبان بلفظ (ان لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغوننى عن أمتى السلام) .

(٣) أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجة .

وقد قال الله تعالى فى كتابه عن المشركين من قوم نوح عليه السلام : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سُوَاعًا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ ، قال ابن عباس وغيره من السلف :[1] هؤلاء قوم كانوا صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ، فكان هذا مبدأ عبادة الأوثان . فنهى النبى ﷺ عن[2] اتخاذ القبور مساجد ليسد باب الشرك ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ ، والشيطان[3] يقارنها وقت الطلوع ووقت الغروب ، فتكون فى الصلاة حينئذ مشابهة لصلاة المشركين ، فسدّ هذا الباب ، والشيطان يضل بنى آدم بحسب قدرته فمن عَبَد الشمس والقمر والكواكب ودعاها كما يفعل أهل دعوة الكواكب فإنه ينزل عليه شيطان يخاطبه ويحدثه ببعض الأمور ويسمون ذلك روحانية الكواكب ، وهو شيطان والشيطان وإن أعان الإنسان على بعض مقاصده فإنه يضره أضعاف ما ينفعه وعاقبة من أطاعه إلى شر إلا أن يتوب الله عليه وكذلك عباد الأصنام قد تخاطبهم الشياطين وكذلك من استغاث بميت أو غائب وكذلك من دعا الميت أو دعا به أو ظن أن الدعاء عند قبره أفضل منه فى البيوت والمساجد ، ويروون حديثاً هو كَذِب باتفاق أهل المعرفة وهو (إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور) وإنما هذا وضع من فتح باب الشرك .

---

(١) فى البخارى بمعناه .

(٢) أخرج أصحاب السنن ، لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد .

(٣) قال ﷺ : « لا تتحروا بصلواتكم طلوع الشمس ولا غروبها ، فإنها تطلع بين قرنى الشيطان » ، أخرجه مسلم والنسائى .

ويوجد لأهل البدع وأهل الشرك المتشبهين بهم من عباد الأصنام والنصارى والضلال من المسلمين أحوال عند المشاهد يظنونها كرامات وهى من الشياطين مثل أن يضعوا سراويل عند القبر فيجدونه قد انعقد ، أو يوضع عنده مصروع فيرون أن شيطانه قد فارقه . يفعل الشيطان هذا ليضلّهم ، وإذا قرأت آية الكرسى هناك بصدق بطل هذا ، فإن التوحيد يطرد الشيطان ، ولهذا حُمل بعضهم فى الهواء فقال : لا إله إلا الله فسقط ومثل أن يرى أحدهم أن القبر قد انشق وخرج منه إنسان فيظن أنه الميت وهو شيطان .

وهذا باب واسع لا يتسع له هذا الموضع .

ولما كان الانقطاع إلى المغارات والبوادى من البدع التى لم يشرعها الله ولا رسوله صارت الشياطين كثيراً ما تأوى المغارات والجبال مثل مغارة الدم التى بجبل قاسيون ، وجبل لبنان الذى بساحل الشام ، وجبل الفتح بأسوان بمصر ، وجبال بالروم وخراسان وجبال بالجزيرة ، وغير ذلك ، وجبل اللكام ، وجبل الأحيش ، وجبل سولان قرب أردبيل ، وجبل شهنك عند تبريز ، وجبل ماشكوا عند اقشوان ، وجبل نهاوند ، وغير ذلك من الجبال التى يظن بعض الناس أن بها رجالاً من الصالحين من الإنس ويسمونهم رجال الغيب ، وإنما هناك رجال من الجن ، فالجن رجال كما أن الإنس رجال ، قال تعالى : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ .

ومن هؤلاء من يظهر بصورة رجل شعرانى جلده يشبه جلد الماعز فيظن من لا يعرفه أنه إنسى وإنما هو جنى ، ويقال بكل جبل من هذه الجبال

الأربعون الأبدال ، وهؤلاء الذين يظن أنهم الأبدال هم جن بهذه الجبال كما يعرف ذلك بطرق متعددة .

وهذا باب لا يتسع هذا الموضع لبسطه وذكر ما نعرفه من ذلك فإنا قد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه فى هذا المختصر الذى كتب لمن سأل أن نذكر له من الكلام على أولياء الله تعالى ما يعرف به جمل ذلك .

والناس فى خوارق العادات على ثلاثة أقسام : قسم يكذب بوجود ذلك لغير الأنبياء وربما صدق به مجملاً وكذب ما يذكر له عن كثير من الناس لكونه عنده ليس من الأولياء ، ومنهم من يظن كل من كان له نوع من خرق العادة كان ولياً لله ، وكلا الأمرين خطأ . ولهذا تجد أن هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نصراء يعينونهم على قتال المسلمين وأنهم من أولياء الله . وأولئك يكذبون أن يكون معهم من له خرق عادة ، والصواب القول الثالث ، وهو أن معهم من ينصرهم من جنسهم لا من أولياء الله عز وجل ، كما قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ ، وهؤلاء العباد والزهاد الذين ليسوا من أولياء الله المتقين المتبعين للكتاب والسنّة ، تقترن بهم الشياطين ، فيكون لأحدهم من الخوارق ما يناسب حاله ، لكن خوارق هؤلاء يعارض بعضها بعضاً ، وإذا حصل من له تمكن من أولياء الله تعالى أبطلها عليهم ، ولا بد أن يكون فى أحدهم من الكذب جهلاً أو عمداً ، ومن الإثم ما يناسب حال الشياطين المقترنة بهم ليفرق الله بذلك بين أوليائه المتقين وبين المتشبهين بهم من أولياء الشياطين . قال الله تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ والأفاك الكذاب ، والأثيم الفاجر .

ومن أعظم ما يقوى الأحوال الشيطانية سماع الغناء والملاهى ، وهو سماع لعله صلاة المشركين ، قال الله تعالى : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكَاء وتصدية ﴾ ، قال ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم وغيرهما من السلف : التصدية التصفيق باليد ، والمكاء مثل الصفير . فكان المشركون يتخذون هذا عبادة ، وأما النبى ﷺ وأصحابه ، فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك ، والاجتماعات الشرعية ، ولم يجتمع النبى ﷺ وأصحابه على استماع غناء قط ، لا بكف ولا بدف ولا تواجد ولا سقطت بردته ، بل كل ذلك كذب باتفاق أهل العلم بحديثه

وكان أصحاب النبى ﷺ إذا اجتمعوا أَمَروا واحداً منهم أن يقرأ ، والباقون يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لأبى موسى الأشعرى : ذَكِّرْنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون ، وَمَرَّ النبى ﷺ(١) بأبى موسى الأشعرى وهو يقرأ ، فقال له : مررت بك البارحة وأنت تقرأ ، فجعلت أستمع لقراءتك فقال : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً أى لحسنته لك تحسيناً ، كما قال النبى ﷺ : « زينوا(٢) القرآن بأصواتكم » ، وقال ﷺ : « لله أشد أذناً أى استماعاً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته »(٣) . وقال ﷺ لابن مسعود : « اقرأ علىّ القرآن(٤) ، فقال : أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: إنى أحب أن أسمعه من غيرى فقرأت عليه سورة النساء ، حتى انتهيت إلى هذه الآية ﴿ فكيف إذا

---

(١) متفق عليها من حديث أنس .

(٢) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه .

(٣) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم فى المستدرك .

(٤) متفق عليه من حديث ابن مسعود .

جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ ، قال حسبك ، فإذا عيناه تذرفان من البكاء » .

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم كما ذكر الله فى القرآن فقال : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ ، وقال فى أهل المعرفة : ﴿ وإذا سمعوا ما أُنْزِلَ إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ ، ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان واقشعرار الجلد ودمع العين ، فقال تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ .

وأما السماع المحدث ، سماع الكف والدف والقصب فلم تكن الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأكابر من أئمة الدين يجعلون هذا طريقاً إلى الله تبارك وتعالى ، ولا يعدونه من القرب والطاعات ، بل يعدونه من البدع المذمومة ، حتى قال الشافعى ، خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن ، وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك ، ويعلمون أن للشيطان فيه نصيباً وافراً ، ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم .

ومن كان أبعد عن [illegible] عن كمال ولاية الله ، كان نصيب

الشيطان ، فيه أكثر وهو بمنزلة الخمر ، يؤثر فى النفوس أعظم من تأثير الخمر ، ولهذا إذا قويت سكرة أهله نزلت عليهم الشياطين وتكلمت على ألسنة بعضهم وحملت بعضهم فى الهواء ، وقد تحصل عداوة بينهم كما تحصل بين شُرَّاب الخمر فتكون شياطين أحدهم أقوى من شياطين الآخر فيقتلونه ، ويظن الجهال أن هذا من كرامات أولياء الله المتقين ، وإنما هذا مبعد لصاحبه عن الله ، وهو من أحوال الشياطين ، فإن قتل المسلم لا يحل إلا بما أحله فكيف يكون قتل المعصوم مما يكرم الله به أولياءه ، وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة ، فلم يكرم الله عبداً بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه ، ويزيده مما يقربه إليه ، ويرفع به درجته .

وذلك أن الخوارق منها ما هو من جنس العلم كالمكاشفات ، ومنها ما هو من جنس القدرة والملك كالتصرفات الخارقة للعادات ، ومنها ما هو من جنس الغنى من جنس ما يعطاه الناس فى الظاهر من العلم والسلطة والمال والغنى .

وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور إن استعاد به على ما يحبه الله ويرضاه ويقربه إليه ويرفع درجته ويأمره الله به ورسوله ، ازداد بذلك رفعة وقرباً إلى الله ورسوله ، وعلت درجته وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله كالشرك والظلم والفواحش ، استحق بذلك الذم والعقاب ، فإن لم يتداركه الله تعالى بتوبة أو حسنات ماحية وإلا كان كأمثاله من المذنبين ، ولهذا كثيراً ما يعاقب أصحاب الخوارق تارة بسلبها كما يعزل الملك عن ملكه ويسلب العالم علمه ، وتارة بسلب التطوعات فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة ، وتارة ينزل إلى درجة الفساق ، وتارة يرتد عن الإسلام ، وهذا يكون فيمن له خوارق شيطانية ، فإن كثيراً من هؤلاء يرتد عن الإسلام ، وكثيراً منهم لا يعرف أن هذه أحوال شيطانية بل يظنها من كرامات أولياء

الله ، ويظن من يظن منهم أن الله عز وجل إذا أعطى عبداً خرق عادة لم يحاسبه على ذلك ، كمن يظن أن الله إذا أعطى عبداً ملكاً ومالاً وتصرفاً لم يحاسبه عليه ، ومنهم من يستعين بالخوارق على أمور مباحة لا مأموراً بها ولا منهياً عنها ، فهذا يكون من عموم الأولياء ، وهم الأبرار المقتصدون ، وأما السابقون المقربون فأعلى من هؤلاء كما أن العبد الرسول أعلى من النبى الملك .

ولما كانت الخوارق كثيراً ما ينقص بها درجة الرجل ، كان كثير من الصالحين يتوب من مثل ذلك ويستغفر الله تعالى ، كما يتوب من الذنوب كالزنا والسرقة ، وتعرض على بعضهم فيسأل الله زوالها ، وكلهم يأمر المريد السالك أن لا يقف عندها ولا يجعلها همته ولا يتبجح بها ، مع ظنهم أنها كرامات ، فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها ، فإنى أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع ، وإنما يخاطبه الشيطان الذى دخل فيها ، وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر ، وتقول هنيئاً لك يا ولى الله فيقرأ آية الكرسى فيذهب ذلك (وأعرف[1]) من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول : خذنى حتى يأكلنى الفقراء ، ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل فى الإنس ويخاطبه بذلك ، ومنهم من يكون فى البيت وهو مغلق ، فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس ، وكذلك فى أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تريه أنواراً وتحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه ، فإذا قرأ آية الكرسى مرة بعد مرة ذهب ذلك كله .

وأعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له أنا من أمر الله ويعده بأنه

---

(١) فى نسخة قولة (ومنهم من يقصد) بدل وأعرف .

المهدى الذى بشر به النبى ﷺ ويظهر له الخوارق ، مثل أن يخطر بقلبه ، تصرف فى الطير والجراد فى الهواء ، فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً وشمالاً ذهب حيث أراد ، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشى أو دومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه فى الظاهر وتحمله إلى مكة وتأتى به ، وتأتيه بأشخاص فى صورة جميلة وتقول له هذه الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك ، فيقول فى نفسه كيف تصوروا بصورة المردان ، فيرفع رأسه فيجدهم بلحىً ، ويقول له علامة أنك أنت المهدى ، أنك تنبت فى جسدك شامة فتنبت ويراها وغير ذلك وكله من مكر الشيطان .

وهذا باب واسع ، لو ذكرت ما أعرفه منه ، لاحتاج إلى مجلد كبير ، وقد قال تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه وَنَعَّمه ، فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فَقَدَر عليه رزقه ، فيقول ربى أهانن ﴾ ، قال الله تبارك وتعالى : (كلا) ، ولفظ (كلا) فيها زجر وتنبيه ، زجر عن مثل هذا القول ، وتنبيه على ما يخبر به ويؤمر به بعده ، وذلك أنه ليس كل من حصل له نعم دنيوية تعد كرامة يكون الله عز وجل مُكْرِماً له بها ، ولا كل من قدر عليه ذلك يكون مهيناً له بذلك ، بل هو سبحانه يبتلى عبده بالسراء والضراء ، فقد يعطى النعم الدنيوية لمن لا يحبه . ولا هو كريم عنده ليستدرجه بذلك ، وقد يحمى منها من يحبه ويواليه لئلا ينقص بذلك مرتبته عنده أو يقع بسببها فيما يكرهه منه .

وأيضاً كرامات الأولياء لابد أن يكون سببها الإيمان والتقوى ، فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان ، فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر وقيام الليل والدعاء ، وإنما تحصل عند الشرك ، مثل دعاء الميت والغائب ،

أو بالفسق والعصيان وأكل المحرمات والزنابير والخنافس والدم وغيره من النجاسات ، ومثل الغناء والرقص لا سيما مع النسوة الأجانب والمردان ، وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن ، وتقوى عند سماع مزامير الشيطان فيرقص ليلاً طويلاً ، فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً ، أو ينقر الصلاة نقر الديك ، وهو يبغض سماع القرآن وينفر عنه ويتكلفه ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده ، ويحب سماع المكاء والتصدية ، ويجد عنده مواجيد ، فهذه أحوال شيطانية ، وهو ممن يتناوله قوله تعالى : ﴿ ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ .

فالقرآن هو ذكر الرحمن ، قال الله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رب لم حشرتنى أعمى ، وقد كنتُ بصيراً ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تُنْسى ﴾ ، يعنى تركت العمل بها ، قال ابن عباس رضى الله عنهما تكفل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ، ولا يشقى فى الآخرة ، ثم قرأ هذه الآية .

فصـــــل

ومما يجب أن يعلم أن الله بعث محمداً ﷺ إلى جميع الإنس والجن ، فلم يبق إنسى ولا جنى إلا وجب عليه الإيمان بمحمد ﷺ واتباعه ، فعليه أن يصدقه فيما أخبر ، ويطيعه فيما أمر ، ومن قامت عليه الحجة برسالته فلم يؤمن به فهو كافر ، سواء كان إنسياً أو جنياً .

ومحمد ﷺ ، مبعوث إلى الثقلين باتفاق المسلمين ، وقد استمعت الجن القرآن وولوا إلى قومهم منذرين ، لما كان النبى ﷺ يصلى بأصحابه ببطن نخلة ، لما رجع من الطائف ، وأخبره الله بذلك فى القرآن بقوله : ﴿ وإذْ صرفنا إليكَ نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قُضِيَ وَلَّوْا إلى قومهم منذرين ، قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين ﴾ .

وأنزل الله تعالى بعد ذلك ﴿ قل أُوحِيَ إليَّ أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً . وأنه تعالى جَدُّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا . وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ، وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ ، أى السفيه منا فى أظهر قول العلماء .

وقال غير واحد من السلف : كان الرجل من الإنس إذا نزل بالوادى قال : أعوذ بعظيم هذا الوادى من شر سفهاء قومه ، فلما استغاثت الإنس بالجن ازدادت الجن طغياناً وكفراً ، كما قال تعالى : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً ، وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشُهُبا ﴾ .

وكانت الشياطين ترمى بالشهب قبل أن ينزل القرآن لكن كانوا أحياناً يسترقون السمع قبل أن يصل الشهاب إلى أحدهم ، فلما بعث محمد ﷺ ، ملئت السماء حرساً شديداً وشهباً ، وصارت الشهب مرصدة لهم قبل أن يسمعوا ، كما قالوا : ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ ، وقال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون ، إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ ، قالوا : ﴿ وأنا لا ندرى أشَرٌّ أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً . وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك . كنا طرائق قددا ﴾ أى على مذاهب شتى ، كما قال العلماء : منهم المسلم والمشرك واليهودى والنصرانى والسنى والبدعى ، ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هرباً ﴾ ، أخبروا أنهم لا يعجزونه : لا إن أقاموا فى الأرض ولا إن هربوا منه ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ﴾ أى الظالمون ، يقال أقسط إذا عدل ، وقسط إذا جار وظلم ﴿ فمن أسلم فأولئك تَحَرَّوْا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ، وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيه ومن يعرضْ عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً ، وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ، قل

إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً ، قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد . ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ أى ملجأ ومعاذا ، ﴿ إلا بلاغاً من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ، حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴾ .

ثم لما سمعت الجن القرآن أتوا إلى النبى ﷺ وآمنوا به وهم جن نصيبين ، كما ثبت ذلك فى الصحيح من حديث ابن مسعود وروى أنه قرأ عليهم سورة الرحمن(١) ، وكان إذا قال ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ ، قالوا : ولا بشئ من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

ولما اجتمعوا بالنبى ﷺ ، سألوه الزاد لهم ولدوابهم ، فقال : « لكم كل عظم ذُكِر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً وكل بَعْرةٍ علف لدوابكم » ، فقال النبى ﷺ : « فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم من الجن(٢) » ، وهذا النهى ثابت عنه من وجوه متعددة ، وبذلك احتج العلماء على النهى عن الاستنجاء بذلك ، وقالوا فإذا منع من الاستنجاء بما للجن ولدوابهم ، فما أعد للإنس ولدوابهم من الطعام والعلف أولى وأَحْرى .

ومحمد ﷺ أُرْسِل إلى جميع الإنس والجن ، وهذا أعظم قدراً عند الله تعالى من كون الجن سخروا لسليمان عليه السلام ، فإنهم سخروا له يتصرف فيهم بحكم الملك ، ومحمد ﷺ أرسل إليهم بأمرهم بما أمر الله به

---

(١) أخرجه الترمذى عن جابر .

(٢) الحديث بأكمله أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى عن ابن مسعود .

ورسوله ، لأنه عبد الله ورسوله ، ومنزلة العبد الرسول ، فوق منزلة النبى الملك .

وكفار الجن يدخلون النار بالنص والإجماع ، وأما مؤمنوهم فجمهور العلماء على أنهم يدخلون الجنة ، وجمهور العلماء على أن الرسل من الإنس ولم يبعث من الجن رسول ، لكن منهم النذر ، وهذه المسائل لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن الجن مع الإنس على أحوال : فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه ، ويأمر الإنس بذلك ، فهذا من أفضل أولياء الله تعالى ، وهو فى ذلك من خلفاء الرسول ونوابه ومن كان يستعمل الجن فى أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس فى أمور مباحة له ، وهذا كأن يأمرهم بما يجب عليهم وينهاهم عما حرم عليهم ويستعملهم فى مباحات له ، فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك ، وهذا إذا قدر أنه من أولياء الله تعالى ، فغايته أن يكون فى عموم أولياء الله مثل النبى الملك مع العبد الرسول ، كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله ، إما فى الشرك وإما فى قتل معصوم الدم ، أو فى العدوان عليهم بغير القتل كتمريضه وإنسائه العلم وغير ذلك من الظلم ، وإما فى فاحشة ، كجلب من يطلب فيه الفاحشة ، فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان ، ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر ، وإن استعان بهم على المعاصى فهو عاص ، إما فاسق وإما مذنب غير فاسق ، وإن لم يكن تام العلم بالشريعة ، فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات مثل أن يستعين بهم على الحج أو أن يطيروا به عند السماع البدعى ، أو أن

يحملوه إلى عرفات ولا يحج الحج الشرعى الذى أمر الله به ورسوله وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة ، ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به ، وكثير من هؤلاء قد لا يعرف أن ذلك من الجن ، بل قد سمع أن أولياء الله لهم كرامات خوارق للعادات ، وليس عندهم من حقائق الإيمان ومعرفة القرآن ما يفرق به بين الكرامات الرحمانية ، وبين التلبيسات الشيطانية فيمكرون به بحسب اعتقاده ، فإن كان مشركاً يعبد الكواكب والأوثان ، أوهموه أنه ينتفع بتلك العبادة ، ويكون قصده الاستشفاع والتوسل ممن صور ذلك الصنم على صورة من ملك أو نبى أو شيخ صالح ، فيظن أنه (يعبد ذلك النبى أو[1]) الصالح ، وتكون عبادته فى الحقيقة للشيطان ، قال الله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ .

ولهذا كان الذين يسجدون للشمس والقمر والكواكب يقصدون السجود لها فيقارنها الشيطان عند سجودهم ليكون سجودهم له ، ولهذا يتمثل الشيطان بصورة من يستغيث به المشركون ، فإن كان نصرانياً واستغاث بجرجس أو غيره ، جاء الشيطان فى صورة جرجس أو من يستغيث به ، وإن كان منتسباً إلى الإسلام واستغاث بشيخ يحسن الظن به من شيوخ المسلمين جاء فى صورة ذلك الشيخ ، وإن كان من مشركى الهند ، جاء فى صورة من يعظمه ذلك المشرك .

ثم إن الشيخ المستغاث به إن كان ممن له خبرة بالشريعة لم يعرفه الشيطان ، أنه تمثل لأصحابه المستعينين به ، وإن كان الشيخ ممن لا خبرة له

---

(١) الزيادة من المخطوطتين .

أخبره بأقوالهم ، نقل أقوالهم له فيظن أولئك أن الشيخ سمع أصواتهم من البعد وأجابهم ، وإنما هو بتوسط الشيطان .

ولقد أخبر بعض الشيوخ الذين كان جرى لهم مثل هذا ، بصورة مكاشفة ومخاطبة ، فقال : يريني الجن شيئاً براقاً مثل الماء والزجاج ، ويمثلون له فيه ما يطلب منه الإخبار به ، قال : فأخبر الناس به ويوصلون إلى كلام من استغاث بى من أصحابى فأجيبه فيوصلون جوابى إليه .

وكان كثير من الشيوخ الذين حصل لهم كثير من هذه الخوارق إذا كذب بها من لم يعرفها ، وقال : إنكم تفعلون هذا بطريق الحيلة ، كما يدخل النار بحجر الطلق وقشور النارنج ، ودهن الضفادع ، وغير ذلك من الحيل الطبيعية ، يتعجب هؤلاء المشايخ ويقولون : نحن والله لا نعرف شيئاً من هذه الحيل ، فلما ذكر لهم الخبير إنكم لصادقون فى ذلك ، ولكن هذه الأحوال شيطانية ، أقرّوا بذلك وتاب منهم من تاب الله عليه لما تبين لهم الحق ، وتبين لهم من وجوه أنها من الشيطان ، ورأوا أنها من الشياطين لما رأوا أنها تحصل بمثل البدع المذمومة فى الشرع ، وعند المعاصى لله فلا تحصل عندما يحبه الله ورسوله من العبادات الشرعية ، فعلموا أنها حينئذ من مخارق الشيطان لأوليائه لا من كرامات الرحمن لأوليائه .

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله وسلم على محمد سيد رسله وأنبيائه وعلى آله وصحبه وأنصاره وأشياعه وخلفائه صلاة وسلاماً نستوجب بهما شفاعته (آمين) .

تم والحمد لله

الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

ويليه الحزب المقبول من أحاديث الرسول

تأليف الفاضـل الأجـلّ

أبى سعيد محمد بن الفيض الأنصارى

الحزب المقبول
من أحاديث الرسول

تأليف الفاضل الأجلِّ

أبى سعيد محمد بن الفيض الأنصارى

المقدمة وفيها ثلاثة فصول

الفصل الأول
في فضل الدعاء

بسم الله الرحمن الرحيم

١ – الدعاء مخ العبادة ، ثم قرأ : وقال ربكم ادعونى استجب لكم .

٢ – الدعاء هو العبادة .

٣ – ليس شئ أكرم على الله من الدعاء .

٤ – لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر .

٥ – إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء .

٦ – ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل أو كف عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم .

٧ – من لم يسأل الله يغضب عليه .

٨ – من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة ، وما سئل الله شيئاً يعنى أحب إليه من أن يُسْأل العافية .

٩ – إن ربكم حيى كريم يستحيى من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً .

١٠ – ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يجعل دعوته وإما أن يدخرها له فى الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها ، قالوا : إذاً نكثر ، قال الله أكثر .

الفصـــل الثـــانى
فـــى آداب الدعـــــاء

١ – إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ، ولا تسألوه بظهرها .

٢ كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه فى الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه ، يرفع يديه فى الدعاء حتى يرى بياض إبطيه .

٣ قال كان يجعل إصبعيه حذاء منكبيه ويدعو ، قال : إنَّ رفعكم أيديكم بدعة ، ما زاد رسول الله ﷺ على هذا ، يعنى إلى الصدر .

٤ دخل رجل فصلى ، فقال : اللهم اغفر لى وارحمنى ، فقال رسول الله ﷺ : عجلت أيها المصلى ، إذا صليت فقعدت ، فاحمد الله بما هو أهله وصل علىّ ، ثم ادعه ، قال : ثم صلى رجل آخر بعد ذلك ، فحمد الله وصلى على النبى ﷺ ، فقال له النبى ﷺ : أيها المصلى ، ادع تجب ، فلما جلست بدأت بالثناء على الله تعالى ثم الصلاة على النبى ﷺ ، ثم دعوت لنفسى ، فقال النبى ﷺ : سل تعطه سل تعطه ، إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد منه شئ حتى تصلى على نبيك .

٥ كان يستحب الجوامع من الدعاء ويدَعَ ما سوى ذلك . –

٦ لا تَدْعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم .

٧ إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لى إن شئت وارحمنى إن شئت وارزقنى إن شئت وليعزم مسألته إنه يفعل ما يشاء ، لا مكره له .

٨ يستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل ، قيل يا رسول الله ما الاستعجال ؟ قال : يقول قد دعوت فلم أر يستجاب لى فيستحسر عند ذلك ويدَع الدعاء .

٩ دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير ، قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل .

١٠ – إن أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لغائب .

١١ – أشركنا يا أخى فى دعائك ولا تنسنا ، فقال كلمة ما يسرنى أن لى بها الدنيا .

١٢ – ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع. وفى رواية عن ثابت البنانى مرسلاً: حتى يسأله الملح وحتى يسأله شسعه إذا انقطع .

١٣ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه .

١٤ من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر الدعاء فى الرخاء.

١٥ ادعوا الله وأنتم موقنون فى الإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ .

١٦ يا غلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ ، لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف .

١٧ إذا قال العبد يا رب يا رب ، قال الله لبيك عبدى سل تعط .

١٨ قال النبى ﷺ ، أوجب إن ختم ، فقال رجل من القوم بأى شئ يختم قال بآمين .

الفصل الثالث
في أوقات قبول الدعاء

١ – أى الدعاء أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات .

٢ – لا يُرَدُّ الدعاء بين الأذان والإقامة . –

٣ – إن فى يوم الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه ، هى ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة .

٤ – التمسوا الساعة التى ترجى فى يوم الجمعة بعد العصر إلى غيبوبة الشمس .

٥ – أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء .

٦ – وفى رواية عن ابن عباس ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء ، فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم .

٧ – إذا دخلت على مريض فمره يدعو لك ، فإن دعاءه كدعاء الملائكة .

٨ – ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حين يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام . ويفتح لها أبواب السماء . ويقول الرب وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين .

٩ – ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة الوالد ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم .

١٠ – إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم ، يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه ، وذلك كل ليلة .

١١ – اثنتان لا تردان : الدعاء عند النداء ، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً .

١٢ – وفى رواية وتحت المطر .

١٣ – كنا نُؤْمَر بالدعاء عند أذان المغرب .

باب الدعاء عند القيام من النوم

★ « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

★ « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شئ قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، رب اغفر لى » .

★ « لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك . اللهم زدنى علماً ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب » .

★ « اللهم إنى أسألك خيراً » .

★ « الله أكبر « عشراً » الحمد لله « عشراً » سبحان الله وبحمده « عشراً » ، سبحان الملك القدوس « عشراً » ، أستغفر الله « عشراً » ، لا إله إلا الله « عشراً » ، اللهم إنى أعوذ بك من ضيق الدنيا ، وضيق يوم القيامة « عشراً .

★ « سبحان رب العالمين » .

★ « سبحان الله وبحمده » .

★ « اللهم لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت، وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدِّم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ولا إله غيرك » .

★ « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب .. إلى ختم السورة » .

باب الدعاء عند افتتاح صلاة الليل

★ « اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » .

★ « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك وتعالى جدك ، ولا إله غيرك » .

★ « الله أكبر كبيراً » .

★ « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » .

★ « الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » .

باب القنوت فى الوتر

★ « اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يُقْضى عليك ، إنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت » .

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

★ « اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونستهديك ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك » .

★ « اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق » .

★ « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

★ « سبحان الملك القدوس » ثلاثاً[1] .

باب إجابة المؤذن والدعاء بعد الأذان

★ « إذا قال المؤذن : الله أكبر الله أكبر ، فقال أحدكم : الله أكبر الله أكبر ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله . قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم قال : أشهد أن محمداً رسول الله ، قال أشهد أن محمداً رسول الله . ثم قال : حيَّ على الصلاة ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : حيَّ على الفلاح ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : الله أكبر الله أكبر ، قال : الله أكبر الله أكبر . ثم قال : لا إله إلا الله ، قال لا إله إلا الله » .

★ « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً ، وبالإسلام ديناً » .

★ « اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته » .

★ « اللهم هذا إقبال ليلك ، وإدبار نهارك ، وأصوات دعاتك فأغفر لى » .

★ « أقامها الله وأدامها »[2] .

---

(١) كان ﷺ يقوله بعد أن يسلم من صلاة الوتر .

(٢) كان ﷺ يقولها عند القيام إلى الصلاة المفروضة بعد قول المقيم (قد قامت الصلاة) .

باب الدعاء بعد ركعتى الفجر

اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوقى نوراً ، وتحتى نوراً وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، واجعل لى نوراً ، وفى لسانى نوراً ، وعصبى نوراً ، ولحمى نوراً ، ودمى نوراً ، وشعرى نوراً ، وبَشَرى نوراً ، واجعل فى نفسى نوراً ، واعظم لى نوراً ، اللهم اجعلنى نوراً » .

باب الدعاء عند الخروج من البيت

★ « بسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إنا نعوذ بك من أن نذل أو نضل أو نظلم أو نجهل أو يجهل علينا » .

★ « بسم الله ، وتوكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

★ « اللهم إنى أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضَل ، أو أَظْلِم أو أُظْلم ، أو أَجْهَل أو يُجْهل علىَّ » .

باب الدعاء عند دخول المسجد

★ « أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم » .

★ « بسم الله ، والصلاة والسلام على رسول الله » .

★ « رب اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك » .

باب الدعاء والذكر بعد صلاة الصبح والمغرب

★ « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، بيده الخير وهو على كل شئ قدير » .

★ « اللهم أجرنى من النار (سبع مرات) » .

★ « اللهم إنى أسألك علماً نافعاً ، وعملاً متقبَّلاً ، ورزقاً طيباً » .

باب الدعاء والذكر عند الصبح والمساء

★ « بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم « ثلاث مرات » .

★ « اللهم عافنى فى بدنى ، اللهم عافنى فى سمعى ، اللهم عافنى فى بصرى لا إله إلا أنت » .

★ « رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً (ثلاث مرات) » .

★ « أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد ﷺ ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

★ « أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله ، والكبرياء والعظمة لله ،

والخلق والأمر ، والليل والنهار ، وما سكن فيهما لله » .

« اللهم اجعل أول هذا النهار صلاحاً ، وأوسطه نجاحاً ، وآخره فلاحاً يا أرحم الراحمين ، أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين » .

★ اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه ، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده (فى الصباح) أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين .

(وفى المساء) أمسينا وأمسى الملك لله رب العالمين .

★ اللهم إنى أسألك خير هذه الليلة ، فتحها ونصرها ونورها وبركتها وهداها ، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعدها (فى المساء) .

★ اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر (فى الصباح) .

★ اللهم ما أمسى بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر (فى المساء) .

★ اللهم إنى أصبحت أُشْهِدك وأُشْهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك (فى الصباح) .

★ اللهم إنى أمسيت أُشْهِدُك وأُشْهِد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك (فى المساء) .

★ أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، حسبى الله لا إله إلا

هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم (سبع مرات) .

★ اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

★ اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة .

★ اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى .

★ اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى .

★ اللهم احفظنى من بين يديَّ ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى .

★ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير .

(فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيًّا وحين تظهرون . يُخْرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحيّ ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) .

★ اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ، رب كل شئ ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى ومن شر الشيطان وشركه .

★ اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا ، وبك نموت ، وإليك المصير (فى الصباح) .

★ اللهم بك أمسينا ، وبك أصبحنا ، وبك نحيا ، وبك نموت ، وإليك النشور (فى المساء) .

★ أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شئ قدير ، رب أسألك خير ما فى هذه الليلة . وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة وشر ما بعدها ، رب أعوذ بك من الكسل ، ومن سوء الكبر والكفر ، رب أعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر (فى المساء) .

★ أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شئ قدير ، رب أسألك خير ما فى هذا اليوم وخير ما بعده ، وأعوذ بك من شر ما فى هذا اليوم وشر ما بعده ، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر والكفر ، رب أعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر (فى الصباح) .

﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ .

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلىّ العظيم ﴾ .

★ أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم (ثلاث مرات) ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصوُر له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ « ثلاث مرات » .

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

﴿ قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى العقد . ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ « ثلاث مرات » .

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

﴿ قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخنَّاس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجِنَّة والناس ﴾ « ثلاث مرات » .

اللهم بك أحاول ، وبك أصاول ، وبك أقاتل ﴿ يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين ﴾ إلى آخر السورة .

باب الدعاء عند الخروج من المسجد

اللهم إنى أسألك من فضلك « بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله » ، « رب اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب فضلك » .

باب الدعاء عند دخول البيت

– اللهم إنى أسألك خير المولج وخير المخرج ، بسم الله ولجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا .

باب الدعاء عند الأكل والشرب

– بسم الله ، وعلى بركة الله .
– الحمد لله الذى أشبعنا وأروانا وأنعم علينا وأفضل .
– بسم الله أوله وآخره .
– الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، غير مكفيٍّ ولا مودَّع ولا مستغنى عنه ، ربنا .
– الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين .
– الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوَّغه ، وجعل له مخرجاً .
– اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه .
– اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم .

باب الدعاء عند دخول الخلاء والخروج منه

– اللهم إنى أعوذ بك من الخُبْث والخبائث .
– أعوذ بالله من الخبث والخبائث . بسم الله (عند الدخول) .
– غفرانك ، الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى (بعد الخروج) .

باب الدعاء قبل الوضوء وبعـده

بسم الله الرحمن الرحيم . أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم اجعلنى من التوّابين واجعلنى من المتطهرين (بعد الوضوء) .

باب الدعاء بعد التكبيرة الأولى

اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من الخطايا كما يُنَقَّى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد .

وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين .

اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً (ثلاثاً) .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه .

باب الدعاء فى الركوع وبعده
وفى السجود وبين السجدتين

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى .

سبوح قدوس رب الملائكة والروح .

سمع الله لمن حمده .

اللهم ربنا لك الحمد ، ملئ السموات وملئ الأرض وملئ ما شئت من شئ بعد .

اللهم ربنا لكَ الحمد ملئ السموات وملئ الأرض وملئ ما شئت من شئ بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد .

اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجد ، ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه .

سبحان ربى العظيم « ثلاثاً » (فى الركوع) سبحان ربى الأعلى « ثلاثاً » (فى السجود) سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة .

اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى (فى الركوع) بعد التسبيح .

اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه ، وصوَّره ، وشقّ سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين (فى السجود) بعد التسبيح .

اللهم اغفر لى ذنبى كله ، دِقَّه ، وجِلَّه ، وأوله ، وآخره ، وعلانيته ، وسره .

اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

اللهم اغفر لى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى ، رب اغفر لى .

باب التشهد والصلاة على النبى ﷺ والدعاء

التحيات لله ، والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

اللهم صلِّ على محمد وآل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات .

اللهم إنى أعوذ بك من المأثم والمغرم .

اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرةً من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم .

اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ،

وخطايانا ، أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك ، وشفاء من شفائك على هذا الوجع .

اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدواً أو يمشي لك إلى جنازة .

اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفّنى إذا كانت الوفاة خيراً لى .

باب الدعاء والذكر عند من حضره الموت

لا إله إلا الله وإنا لله وإنا إليه راجعون .

اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها .

اللهم اغفر لأبى سلمة ، وارفع درجته فى المهديين ، واخلفه فى عقبه فى الغابرين ، واغفر لنا وله يا رب العالمين ، وافسح له فى قبره ، ونور له فيه .

لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين . يس والقرآن الحكيم (السورة) .

باب الدعاء فى صلاة الجنازة ودفنها

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

الحمد لله رب العالمين ... (السورة)

اللهم اغفر له وارحمه ، وعافه واعف عنه ، وأكرم نزله ، ووسع مدخله ، واغسله بالماء والثلج والبرَد ، ونقّه من الخطايا كما نقيت الثوب

الأبيض من الدنس ، وأبدله داراً خيراً من داره ، وأهلاً خيراً من أهله ، وزوجاً خيراً من زوجه ، وأدخله الجنة ، وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار .

اللهم اغفر لحيِّنا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا ، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان ، اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتِنَّا بعده .

اللهم إن فلان بن فلان فى ذمتك ، وحل جوارك ، فقِه من فتنة القبر وعذاب النار ، وأنت أهل الوفاء والحق .

اللهم اغفر له وارحمه إنك أنت الغفور الرحيم .

اللهم أنت ربها ، وأنت خلقتها ، وأنت هديتها إلى الإسلام ، وأنت قبضت روحها ، وأنت أعلم بسرها وعلانيتها ، جئنا شفعاء فاغفر لها .

اللهم اجعله لنا سلفاً وفرطاً وذخراً وأجراً .

اللهم إنه عبدك وابن عبدك كان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدك ورسولك ، وأنت أعلم به منى ، إن كان محسناً فزد فى إحسانه ، وإن كان مسيئاً فاغفر له ، ولا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده .

بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله(١) ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم آلم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ . إلى قوله : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ عند رأسه(٢) ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ﴾ .. إلى آخر السورة عند رجليه .

---

(١) يقال عند وضع الميت فى قبره . (٢) لم نقف على تخصيص الرأس والرجل بكل آية .

باب الدعاء عند زيارة القبور

السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون . نسأل الله لنا ولكم العافية .

السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم ، أنتم سلفنا ونحن بالأثر .

اللهم اغفر لأهل بقيع الفرقد ، السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون .

باب دعاء الاستخـــارة

اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى – أو قال : فى عاجل أمرى وآجله – فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى – أو قال : فى عاجل أمرى وآجله – فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم أرضنى به .

باب دعاء الحاجة

لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين .

أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل برٍّ ، والسلامة من كل إثمٍ ، لا تَدَعْ لى ذنباً إلا غفرته ، ولا همّاً إلا فرجته ، ولا حاجة هى لك رضىً إلا قضيتها يا أرحم الراحمين .

باب خطبة الحاجة كالنكاح وغيره وما يتعلق به

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة .. ﴾ إلى قوله : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ . [1]بارك الله لك ، وبارك عليكما ، وجمع بينكما فى خير .

---

(١) يقال للزوج بعد العقد أو بعد الدخول .

اللهم إنى أسألك من خيرها وخير ما جَبَلتَها عليه ، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه[1] .

بسم الله جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا[2] .

باب الدعاء عند دخول السوق

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو حى لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شئ قدير . بسم الله ، اللهم إنى أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها .

اللهم إنى أعوذ بك أن أُصيب فيها صفقة خاسرة .

باب الدعاء عند الكرب والغضب

اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا .

اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت .

اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك وفى قبضتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فىَّ حكمك ، عدل فىَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، وأنزلته فى كتابك ، أو علَّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى مكنون الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، وجلاء

---

(1) يقوله الزوج بعد الدخول عليها .

(2) يقال عند إرادة الجماع .

همى وغمى . يا حى يا قيوم ، برحمتك أستغيث . لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ، رب العرش الكريم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

باب الدعاء عند صياح الديك ونهيق الحمار

اللهم إنى أسألك من فضلك(١) .
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم(٢) .

باب الدعاء فى السفر ومشايعة المسافر

الله أكبر (ثلاثاً) .
(سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون) .

اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هوِّن علينا سفرنا واطوِ لنا بُعْده ، اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل . اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب فى المال والأهل ، آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون .

اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، والحور بعد الكور، ودعوة المظلوم ، وسوء المنظر فى الأهل والمال .

---

(١) يقال عند صياح الديك .
(٢) يقال عند نهيق الحمار .

أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، سمع سامع بحمد الله ونعمته ، وحسن بلائه علينا ، ربنا صاحبنا حافظنا وأفضل علينا عائذاً بالله من النار ، الله أكبر (ثلاثاً) لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ، آيبون تائبون ، ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب اللهم هازم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم .

اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم .

اللهم أنت عضدى ونصيرى ، بك أحول وبك أصول وبك أقاتل .

بسم الله ، الحمد لله ﴿ سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ ، الحمد لله (ثلاثاً) والله أكبر (ثلاثاً) ، سبحانك إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، يا أرض ، ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرِّكِ وشر ما فيكِ ، وشر ما خلق فيكِ ، وشر ما يدب عليكِ ، وأعوذ بالله من أسد وأَسْوَد ، ومن الحية والعقرب ، ومن شر ساكن البلد ومن والد وما ولد .

استودع الله دينك وأمانتك وآخر عملك . استودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم . زودك الله التقوى ، وغفر ذنبك ، ويسر لك الخير حيثما كنت(١) .

اللهم اطو له البعد ، وهوّن عليه السفر .

---

(١) يقال للمسافر الذى يودع .

بسم الله الرحمن الرحيم

قل يا أيها الكافرون .. إلى آخر السورة .

إذا جاء نصر الله والفتح .. السورة .

قل هو الله أحد .. السورة .

قل أعوذ برب الفلق .. السورة .

قل أعوذ برب الناس .. السورة .

بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذَرَين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها .

اللهم بارك لنا فيها (ثلاثاً) .

اللهم ارزقنا جناها وحببنا إلى أهلها وحبب صالحى أهلها إلينا .

باب دعاء الإِحْرَام والتلبية

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

لبيك اللهم لبيك وسعديك ، والخير فى يديك لبيك والرغباء إليك والعمل .

اللهم إنى أسألك رضاك والجنة ، وأسألك العفو برحمتك والنجاة من النار .

باب دعاء الطواف والمقام والصفا والمروة

سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا وفى الآخرة . ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

اللهم قنعنى بما رزقتنى ، وبارك لى فيه ، واخلف على كل غائبة لى بخير ، ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ .

اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى ، فاقبل معذرتى ، وتعلم حاجتى ، فأعطنى سؤلى ، وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى .

اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى ، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لا يصيبنى إلا ما كتبتَ لى ، ورضِّنى بما قسمت لى يا أرحم الراحمين .

(إن الصفا والمروة من شعائر الله) ، أبدأ بما بدأ الله به : لا إله إلا الله وحده ، الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

اللهم إنك قلت : ادعونى أستجب لكم ، وإنك لا تخلف الميعاد ، وإنى أسألك كما هديتنى للإسلام أن لا تنزعه منى حتى توفانى وأنا مسلم ، رب اغفر وارحم أنت الأعز الأكرم .

باب دعاء عرفة بعرفة

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير .

اللهم لك الحمد كالذى نقول وخيراً مما نقول .

اللهم لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ، وإليك مآبى ، ولك ربى تراثى .

اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، ووساوس الصدر ، وشتات الأمر .

اللهم إنى أسألك من خير ما تجئ به الريح ، وأعوذ بك من شر ما تجئ به الريح ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير .

اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، اللهم اشرح لى صدرى ، ويسر لى امرى ، وأعوذ بك من وساوس الصدر ، وشتات الأمر ، وفتنة القبر .

اللهم إنى أعوذ بك من شر ما يلج فى الليل ، وشر ما يلج فى النهار ، وشر ما تهب به الريح ، وشر بوائق الدهر .

لبيك اللهم لبيك ، إنما الخير خير الآخرة ، الله أكبر ، ولله الحمد ، الله أكبر ولله الحمد ، الله أكبر ولله الحمد . لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد .

اللهم اجعله حجاً مبروراً ، وذنباً مغفوراً .

اللهم اهدنا بالهدى ، وزيّنّا بالتقوى ، واغفر لنا فى الآخرة والأولى .

اللهم إنى أسألك رزقاً حلالاً طيباً مباركاً .

اللهم إنك أمرتنى بالدعاء ولك الإجابةوإنك لا تخلف الميعاد ، ولا تنكث عهدك .

اللهم ما أحببت من خير فحببه إلينا ويسره لنا ، وما كرهت من شر فكرِّهه إلينا وجنبناه ، ولا تنزع منا الإسلام بعد إذ هديتنا ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ .

اللهم إنى أسألك من خير ما سألك منه نبيك ﷺ ، وأعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك ﷺ . ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين ﴾ . ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبَّل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ . ﴿ رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً ﴾ . ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ . ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ . ﴿ وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، ولا يخفى عليك شئ من أمرى ، وأنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المقر المعترف بذنبى ، أسألك مسألة المساكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، ونحل لك جسده ، ورغم لك أنفه .

اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيّاً ، كن لى رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين يا خير المعطين ، يا أرحم الراحمين ، والحمد لله رب العالمين ، آمين .

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل

شئ قدير (مائة مرة) قل هو الله أحد .. السورة (مائة مرة) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وعلينا معهم (مائة مرة) .

بكتابك بصرى ، وأن تشرح لى صدرى ، وأن تطلق به لسانى ، وأن تفرج به عن قلبى ، وأن تغسل به بدنى ، فإنه لا يعيننى على الحق غيرك ، ولا يؤتينيه إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى العظيم .

باب الدعاء إذا رأى مُبْتَلَى

الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به ، وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلاً . يستحب الإسرار بهذا الدعاء بحيث لا يسمعه المبتلَى .

باب دعاء قضاء الدَّيْن

اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال .

اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك واغننى بفضلك عمن سواك .

باب دعاء الاستسقاء

اللهم اسق عبادك وبهيمتك ، وانشر رحمتك ، وأحى بلدك الميت .

اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً نافعاً غير ضار ، عاجلاً غير آجل

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . لا إله إلا الله يفعل ما يريد .

اللهم أنت الله ، لا إله إلا أنت ، أنت الغنى ونحن الفقراء ، أنزل علينا الغيث ، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين .

باب دعاء الرياح والرعد والمطر

اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به .

اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به .

اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً ، اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً .

اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك .

سبحان الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته .

اللهم إنى أعوذ بك من شر ما فيه .

اللهم سقياً نافعاً . اللهم صيباً نافعاً .

باب دعاء التوبة

اللهم إنى أتوب إليك منها لا أرجع إليها أبداً .

اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبى ، ورحمتك أرجى عندى من عملى .

باب صلاة التسبيح

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر[1] .

باب الدعاء عند رُؤية الثمار الجديدة

اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا وبارك لنا فى مدِّنا .

اللهم كما أريتنا أوله فأرنا آخره .

باب الدعاء عند رؤية المرآة

اللهم أنت حَسَّنْتَ خَلْقى فحسن خُلُقى .

اللهم كما حسنت خَلْقى فأَحْسِن خُلقى ، وحرم وجهى على النار .

---

(١) الوارد ان هذا التسبيح يكون فى الركوع والسجود والاعتدال والجلوس بين السجدتين وبعد قراءة السورة والتشهد .

أما الدعاء المأثور فهو : اللهم إنى أسألك توفيق أهل الهدى وأعمال أهل اليقين ومناصحة أهل التوبة وعزم أهل الصبر وجد أهل الخشية وطلب أهل الرغبة وتعبد أهل الورع وعرفان أهل العلم حتى أخافك ، اللهم إنى أسألك مخافة تحجزنى عن معاصيك حتى أعمل بطاعتك عملا أستحق به رضاك وحتى أناصحك بالتوبة خوفاً منك ، وحتى أخلص لك النصيحة حياء منك ، وحتى أتوكل عليك فى الأمور كلها ، وأحسن ظنى بك ، سبحانك خالق النار ، سبحانك خالق النور .

الحمد لله الذى سوَّى خلقى وأحسن صورتى ، وزان منى ما شان من غيرى . الحمد لله الذى سوى خلقى فعدَّله ، وصور صورة وجهى فأحسنها وجعلنى من المسلمين .

باب اسم الله الأعظم

اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

اللهم إنى أسألك بأنَّ لك الحمد ، لا إله إلا أنت الحنَّان المنَّان بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والاكرام ، يا حى يا قيوم أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل برّ وأسألك الفوز بالجنة والنجاة من النار ، وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . آلم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم . لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .

باب أسماء الله تعالى

هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعزّ ، المذل ، السميع ، البصير ، الحَكَم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ،

الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البَر ، التوَّاب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور .

باب الاستعـاذة

اللهم إنى أعوذ بك من جَهْد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء .

اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وضلع الدين ، وغلبة الرجال .

اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل ، والهرم ، وعذاب القبر .

اللهم آت نفسى تقواها ، وزكّها أنت خير من زكَّاها ، أنت وليها ومولاها .

اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها .

اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجاءة نقمتك ، وجميع سخطك .

اللهم إنى أعوذ بك من شر ما عملت ، ومن شر ما لم أعمل .

اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت .

اللهم إنى أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت ، أن تضلنى أنت الحى الذى لا تموت ، والجن والإنس يموتون .

اللهم إنى أعوذ بك من الفقر والقلَّة والذلّة ، وأعوذ بك من أن أَظْلم أو أُظلم .

اللهم إنى أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق .

اللهم إنى أعوذ بك من الجوع ، فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة .

اللهم إنى أعوذ بك من البرص ، والجذام ، والجنون ، ومن سئ الأسقام .

اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء .

اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى وبصرى ، وشر لسانى وشر قلبى وشر مَنِيِّى .

اللهم إنى أعوذ بك من الهدم ، وأعوذ بك من التردى ، ومن الغرق والحرق والهرم ، وأعوذ بك من أن يتخبَّطنى الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك من أن أموت فى سبيلك مُدْبِراً ، وأعوذ بك من أن أموت لديغاً .

اللهم إنى أعوذ بك من طمع يهدى إلى طبع .

اللهم ألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى .

اللهم إنى أسألك الجنة (ثلاث مرات) .

اللهم إنى أستجيرك من النار (ثلاث مرات) أعوذ بوجه الله العظيم الذى ليس شئ أعظم منه ، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بَرّ ولا فاجر ، بأسماء الله الحسنى ، ما علمت منها ، وما لم أعلم من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، أعوذ بالله من الكفر والدَّيْن .

باب جامع الدعاء

اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى .

اللهم اغفر لى جدِّى وهزلى وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى .

اللهم اغفر لى ما قدَّمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدّم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شئ قدير .

اللهم اصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحةً لى من كل شر .

اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى . اللهم اهدنى وسدّدنى .

اللهم اغفر لى وارحمنى ، واهدنى وعافنى وارزقنى .

اللهم آتنا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار . ربِّ أعنى ولا تعنْ عَلَىَّ ، وانصرنى ولا تنصر علىَّ ، وامكر لى ولا تمكر على ، واهدنى ويسر الهدى لى ، وانصرنى على من بغى علىَّ . رب اجعلنى لك

شاكراً ، لك ذاكراً ، لك راهباً ، لك مطواعاً ، لك مخبتاً ، إليك أوَّاهاً منيباً ، رب تقبَّل توبتى ، واغسل حوبتى ، وأجب دعوتى ، وثَبت حجتى ، وسدِّد لسانى ، واهد قلبى ، واسلل سخيمة صدرى .

اللهم إنى أسألك العفو والعافية . رب إنى أسألك العافية والمعافاة فى الدنيا والآخرة .

اللهم ارزقنى حبك وحب من ينفعنى حبه عندك .

اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوةً لى فيما تحب .
اللهم ما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغاً لى فيما تحب .

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنـا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا .

اللهم انفعنى ما علَّمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وزدنى علماً ، الحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار .

اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنَّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وأرض عنا .

اللهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك ، والعمل الذى يبلّغنى حبك .

اللهم اجعل حبك أحبَّ إلى من نفسى ومالى وأهلى ، ومن الماء البارد .

اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ما علمت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا علمت الوفاة خيراً لى .

اللهم أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الرضا والغضب ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك فى غير ضرَّاء مضرَّة ، ولا فتنة مضلَّة .

اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهديين .

اللهم اجعلنى أُعظِّم شكرك ، وأُكْثِر ذكرك واتبع نصيحتك ، واحفظ وصيتك .

اللهم إنى أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخلق ، والرضى بالقدر .

اللهم طهر قلبى من النفاق ، وعملى من الرياء ، ولسانى من الكذب ، وعينى من الخيانة ، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

اللهم اجعل سريرتى خيراً من علانيتى ، واجعل علانيتى صالحة .

اللهم إنى أسألك من صالح ما تؤتى الناس من الأهل والمال والولد وغير الضالّ ولا المضلّ .

باب الدعاء عند المنام

اللهم باسمك أموت وأحيا ، باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين .

الهم أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت .

الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا ، فكم منا لا كافى له ولا مؤوى .

سبحان الله (ثلاثاً وثلاثين) .
الحمد لله (ثلاثاً وثلاثين) .
الله أكبر (أربعاً وثلاثين) .

اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شئ ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته . أنت الأول فليس قبلك شئ ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ ، وأنت الظاهر فليس فوقك شئ ، وأنت الباطن فليس دونك شئ ، اقض عنى الدَّين ، واغننى من الفقر . بسم الله وضعت جنبى لله .

اللهم اغفر لى ذنبى ، وأخسئ شيطانى ، وفك رهانى ، واجعلنى فى الندىِّ الأعلى .

الحمد لله الذى كفانى وآوانى وأطعمنى وسقانى ، والذى منّ على فأفضل ، والذى أعطانى فأجزل ، الحمد لله على كل حال .

اللهم رب كل شئ ومليكه ، وإله كل شئ ، أعوذ بك من النار .

اللهم رب السموات السبع وما أظلّت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلّت ، كن لى جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً أن يفرط علىَّ أحد منهم ، وأن يطغى ، عزَّ جارك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، لا إله إلا أنت .

اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك (ثلاث مرات) .

اللهم إنى أعوذ بوجهك الكريم ، وكلماتك التَّامَّات ، من شر ما أنت آخذ بناصيته .

اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم .

اللهم لا يهزم جندك ، ولا يخلف وعدك ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدِّ ، سبحانك وبحمدك ، أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه (ثلاث مرات) (الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم) .

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل

علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنـا على القوم الكافرين ﴾ .

قل هو الله أحد ... السورة .

قل أعوذ برب الفلق ... السورة .

قل أعوذ برب الناس ... السورة .

﴿ حم . والكتاب المبين إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ... ﴾ السورة .

﴿ آلم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ... ﴾ السورة .

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير ... ﴾ السورة .

﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

﴿ قل ياأيهاالكافرون، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين ﴾ .

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ إلى آخر السورة .

الخاتمة وفيها خمسة فصول

الفصل الأول

فى ذكر الله عز وجل

١ – لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده .

٢ – مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه ، مثل الحى والميت .

٣ – إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم . قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا .. الحديث .

٤ – ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ، قالوا : بلى قال : ذكر الله .

٥ – طوبى لمن طال عمره ، وحسن عمله .

٦ – قال يا رسول الله ! أى الأعمال أفضل ؟ قال : أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله .

٧ – من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة ، ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة .

٨ – ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار ، وكان عليهم حسرة .

٩ – كل كلام ابن آدم عليه لا له ، إلا أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، أو ذكر الله .

١٠ – لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى .

١١ – أى المال تتخذ ؟ قال : لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه .

١٢ – لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله .

١٣ – أىّ العباد أفضل وأرفع درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات .. الحديث .

١٤ – الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا غفل وسوس .

١٥ – ذاكر الله فى الغافلين كالمقاتل خلف الفارين . الحديث .

١٦ – ما عمل العبد عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله .

١٧ – ان الله تعالى يقول : أنا مع عبدى إذا ذكرنى وتحركت بى شفتاه .

١٨ – لكل شئ صقالة ، وصقالة القلوب ذكر الله .. الحديث .

الفصـــل الثـانى
فى فضل تلاوة القرآن وفضائل سوره

١ - خيركم من تعلم القرآن وعلمه .

٢ - الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران .

٣ - لا حسد إلا فى اثنين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار . ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار .

٤ - المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجَّة ، والمؤمن الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة .

٥ - إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين .

٦ - لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذى يقرأ فيه سورة البقرة .

٧ - اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه .

٨ - اقرأوا الزهراوين : البقرة ، وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان ، أو فِرقان من طير صواف تحاجَّان عن أصحابهما .

٩ – اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة .

١٠ – يا أبا المنذر : أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ قال : فضرب صدرى وقال : ليهنك العلم يا أبا المنذر .

١١ – أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته .

١٢ – من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من الدجال .

١٣ – إنى أحب هذه السورة : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، قال : « ان حبك إياها أدخلك الجنة » .

١٤ – ألم ترَ آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ .

١٥ – يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ورتِّل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها .

١٦ – إن الذى ليس فى جوفه شئ من القرآن كالبيت الخرِب .

١٧ – يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله القرآن عن ذكرى ومسألتى ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله على خلقه .

١٨ – من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقولَ : آلم حرف : ولكن ألف حرف ، ولام حرف وميم حرف .

١٩ – من قرأ القرآن وعمل بما فيه ، ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا لو كانت فيكم ، فما ظنكم بالذى عمل بهذا ؟

٢٠ – من قرأ القرآن فاستظهره ، فأحل حلاله ، وحرَّم حرامه ، أدخله الله الجنة ، وشفَّعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت له النار .

٢١ – إن لكل شئ قلباً ، وقلب القرآن (يس) ، من قرأ (يس) : كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات .

٢٢ – إن سورةً فى القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهى : ﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾ .

٢٣ – ﴿ إذا زلزلت ﴾ تعدل نصف القرآن ، و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن ، و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ تعدل ربع القرآن .

٢٤ – من قرأ كل يوم مائتى مرة : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مُحى عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دَيْن .

٢٥ – (كان) يتعوذ رسول الله ﷺ بـ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ وبـ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ، ويقول : يا عقبة ! تعوَّذ بهما ، فما تعوَّذ متعوِّذ بمثلهما .

٢٦ – قراءة القرآن فى الصلاة أفضل من قراءة القرآن فى غير الصلاة ، وقراء القرآن فى غير الصلاة أفضل من التسبيح والتكبير .

٢٧ – قراءة الرجل القرآن فى غير المصحف ألف درجة ، وقراءته فى المصحف تضعَّف على ذلك إلى ألفى درجة .

٢٨ – إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء . قيل : يا رسول الله ! وما جلاؤها ؟ قال : « كثرة ذكر الموت ، وتلاوة القرآن » .

٢٩ – فى فاتحة الكتاب شفاء من كل داء .

٣٠ – من قرأ سورة (آل عمران) يوم الجمعة صلت عليه الملائكة إلى الليل .

٣١ – اقرأوا سورة (هود) يوم الجمعة .

٣٢ – من قرأ سورة (الكهف) فى يوم الجمعة ، أضاء له النور ما بين الجمعتين .

٣٣ – من قرأ (يس) ابتغاء وجه الله تعالى غُفر له ما تقدم من ذنبه ، فاقرأوها عند موتاكم .

٣٤ – إن لكل شئ سناماً ، وإن سنام القرآن سورة (البقرة) . وإن لكل شئ لباباً ، وإن لباب القرآن المفصل .

٣٥ – لكل شئ عروس ، وعروس القرآن (الرحمن) .

٣٦ – (كان) يحب هذه السورة : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ .

٣٧ – « ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية فى كل يوم ؟ » قالوا : ومن يستطع أن يقرأ ألف آية فى كل يوم؟! قال : « أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ ؟

٣٨ – من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عشر مرات ، بُنى له قصر فى الجنة ، ومن قرأها عشرين مرة بُنى له بها قصران فى الجنة ، ومن قرأها

ثلاثين مرة بُنى له بها ثلاثة قصور فى الجنة . فقال عمر بن الخطاب : والله يا رسول الله ! إذاً لنكثرنَّ قصورنا . فقال رسول الله ﷺ : « الله أوسع من ذلك » .

٣٩ - إذا أحب أحدكم أن يحادث ربَّه فليقرأ القرآن .

الفصـــل الثــالث
فى فضل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير

١ - أفضل الكلام أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر .

٢ - سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب (إلىَّ) مما طلعت عليه الشمس .

٣ - من قال : « سبحان الله وبحمده » فى كل يوم مائة مرة حُطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر .

٤ - كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

٥ - أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ، فسأله سائل من جلسائه : كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : « يسبح مائة تسبيحة ، فيكتب له ألف حسنة ، أو يحطَّ عنه ألف خطيئة » .

٦ - سئل رسول الله ﷺ : أى الكلام أفضل ؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته : سبحان الله وبحمده » .

٧ - لقد قلت بعدك أربع كلمات (ثلاث مرات) لو وُزنت بما

قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضى نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته .

٨ – من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير فى يومه مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه .

٩ – من قال سبحان الله العظيم وبحمده ، غرست له نخلة فى الجنة .

١٠ – أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله .

١١ – أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الحامدون ، الذين يحمدون الله فى السرَّاء والضرَّاء .

١٢ – قال موسى : يا رب ! عَلِّمنى شيئاً أذكرك به أو أدعوك به فقال : يا موسى ! قل : لا إله إلا الله . فقال : يا رب ! كل عبادك يقولون هذا ، إنما أريد شيئاً تخصنى به ، قال : يا موسى ! لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى ، والأرضين السبع وضعن فى كفة ، ولا إله إلا الله فى كفة ، لمالت بهن لا إله إلا الله .

١٣ – التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملأه ، ولا إله إلا الله ليس لها حجاب دون الله تخلص إليه .

١٤ – ما قال عبد لا إله إلا الله مخلصاً قط إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش ما اجتنب الكبائر .

١٥ – إن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وإنها قيعان وإن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

١٦ – عليكم بالتسبيح والتهليل والتقديس ، واعقدن بالأنامل ، فإنهن مسؤولات مستنطَقَات ، ولا تغفلن فتنسين الرحمة .

١٧ – قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان رب العالمين ، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم ، قال : فهؤلاء لربى ، فمالى ؟ فقال : قل : اللهم اغفر لى وارحمنى واهدنى وارزقنى وعافنى .

١٨ – إن ، الحمد لله ، وسبحان الله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، تساقط ذنوب العبد كما يتساقط ورق هذه الشجرة .

١٩ – أكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها من كنز الجنة .

٢٠ – قال مكحول : فمن قال لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا منجى من الله إلا إليه ، كشف الله عنه سبعين باباً من الضر أدناها الفقر .

٢١ – لا حول ولا قوة إلا بالله دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم .

٢٢ – سبحان الله هى صلاة الخلائق ، والحمد لله كلمة الشكر ، ولا إله إلا الله كلمة الإخلاص ، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض ، وإذا قال العبد : لا حول ولا قوة إلا بالله ، قال الله تعالى : أسلم واستسلم .

الفصـــل الرابـع
فى فضل الاستغفار والتوبة

١ – والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة .

٢ – يا أيها الناس توبوا إلى الله ، فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة

٣ – إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها .

٤ – إن العبد إذا اعترف ، ثم تاب ، تاب الله عليه .

٥ – من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه .

٦ – لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك ، إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح .

٧ – إن عبداً أذنب ذنباً فقال : رب ! أذنبت ذنباً فاغفره . فقال ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى .. الحديث .

٨ – قال الله تعالى : يا ابن آدم ! إنك (إن) دعوتنى ورجوتنى ، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم ! إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً ، لأتيتك بقرابها مغفرة .

٩ – قال الله تعالى : من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالى ، ما لم يشرك بى شيئاً .

١٠ – من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ، ومن كل هم فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب .

١١ – ما أصر من استغفر ، وإن عاد فى اليوم سبعين مرة .

١٢ – كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون .

١٣ – إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب واستغفر ، صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلكم الران الذى ذكر الله تعالى . ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

١٤ – إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر .

١٥ – إن الشيطان قال : وعزتك يا رب لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الرب عز وجل : وعزتى وجلالى وارتفاعى (فى) مكانى ، لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى ﴿ يا عبادى الذين أسرفوا عَلَى أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ .

١٦ – يقول : رب اغفر لى ، وتُب علىَّ ، إنك أنت التواب الغفور « مائة مرة » .

١٧ - من قال : أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ، غُفر له وإن كان قد فرَّ من الزحف .

١٨ - إن الله عز وجل ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة ، فيقول : يا رب ! أنَّى لى هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك .

١٩ - ما الميت فى القبر إلا كالغريق المتغوِّث ، ينتظر دعوة تلحقه من أب أو أم أو أخ أو صديق ، فإذ لحقته كان أحبَّ إليه من الدنيا وما فيها ، وإن الله تعالى ليُدخل على أهل القبور من دعاء أهل الأرض أمثال الجبال ، وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم .

٢٠ - طوبى لمن وجد فى صحيفته استغفاراً كثيراً .

٢١ - اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أساءوا استغفروا .

٢٢ - التائب من الذنب كمن لا ذنب له .

الفصـــل الخامــس
فى فضل الصلاة والسلام على النبى ﷺ

١ – من صلىَّ علىَّ صلاة واحدةً صلى الله عليه عشراً .

٢ – من صلَّى علىَّ صلاةً واحدة ، صلى الله عليه عشر صلوات ، وحطت عنه عشر خطيئات ، ورفعت له عشر درجات .

٣ – أوْلى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىَّ صلاة .

٤ – إن لله ملائكة سيَّاحين فى الأرض يبلغونى من أمتى السلام .

٥ – ما من أحد سلم علىَّ إلا رد الله علىَّ روحى حتى أرد عليه السلام .

٦ – إنى أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتى ؟ فقال : « ما شئت » قلت : الربع ؟ قال : « ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك » . قلت : النصف ؟ قال : « ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك . قلت : فالثلثين ؟ قال : « ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك » . قلت : أجعل لك صلاتى كلها ؟ قال : « إذاً تُكفى همك ، ويُكفَّر لك ذنبك » .

٧ – البخيل الذى ذكرت عنده فلم يصل علىَّ .

٨ – من صلَّى عليَّ عند قبري سمعته ، ومن صلى علي غائباً أبلغته .

٩ – من صلى على النبي ﷺ واحدةً صلَّى الله عليه وملائكته سبعين مرة .

١٠ – ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلُّوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة ، فإن شاء عذَّبهم ، وإن شاء غفر لهم .

١١ – أكثروا الصلاة عليَّ يوم الجمعة ، فإنه مشهود تشهده الملائكة ، وإن أحداً لم يصل عليّ إلا عُرِضَتْ عليَّ صلاته حتى يفرغ منها .

١٢ – من صلَّى على محمد ﷺ وقال : اللهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي .

سبحان ربك رب العزَّة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

الفهـــــــرس

فهـرس مجمـوعة التوحيـد

فهرس مجموعة التوحيد

فهـرس مجمـوعة التوحيـد

فهـرس مجمـوعة التوحيـد

فهرس مجموعة التوحيد

فهرس مجموعة التوحيد

فهـرس مجمـوعة التوحيـد

رقم الإيداع ٧٢٨٦ / ٩٢

I.S.B.N 977 - 5268 - 07 - 9